سِلْسِلَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ لِلأُسْتَاذ الدكتور عَدْنَان زَرْزُور
المجلد الثاني

قَلَائِدُ العُقْيَان
فِي
عُلُومِ القُرْآن
تَارِيخُ القُرْآنِ وَعُلُومُهُ

(١)

مدخل وتاريخ

للأستاذ الدكتور
عَدْنَان زَرْزُور

دَارُ المَقَاصِد

الطبعة الأولى
1439 هـ - 2018 م

رادمك - ISPN
978-977-6505-50-6

دار الروضة -وكيل التوزيع الأوروبي
دار الكلمة -وكيل التوزيع بالشرق الأوسط
مكتبة عقول -وكيل التوزيع بالمغرب العربي

E : darelmaqased@gmail.com
Facebook : @DAR.ALMAQASED
T : +201006746388 – +905530045295
Address : Sanayi cad. Bilge sok. No.2 ,
Yenibosna 34196 Istanbul -Turkey

للطباعة والنشر والتوزيع

كل الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي الدار

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة وغير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء هذا الكتاب أو خزنه في أي نظام لخزن المعلومات واسترجلعها أو نقله على أية هيئة وبأية وسيلة سواء كانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية أو استنساخا أو غيرها إلا بإذن كتابي من الناشر

All rights reserved No part of this book may by reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة والأخيرة

- ١ -

الحمد لله تعالى منزل الكتاب، ومجري السّحاب، وهازم الأحزاب.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وصاحب الشفاعة يوم الدين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فلم يكن في ظني أن أقوم بأي إضافة أو تعديل في هذه الطبعة، بعد الزيادات على الطبعة السابقة، ولكن التدقيق في الكتاب بعين الناقد، من جهة، بالإضافة إلى النقص الذي يلحق على الدوام بأعمال البشر، من جهة أخرى، كانا السبب في بعض الإضافات والتعديلات التي أشير إلى أهمها فيما يلي:

- أضفت بعض الشروح- والتدقيقات- في شروط قبول القراءات القرآنية، وفي هذا الفصل المهم بوجه عام.
- وأضفت بعض النقاط – أو الأفكار- في موضوع المتشابه.
- كما أضفت نقطة مهمة حول موقف الجاحظ من قضية (الصرفة) في موضوع إعجاز القرآن.
- أما الإضافة المطولة، والتي انطوت على تعديل، ورجوع عن فكرة سابقة، فقد كانت في نظرية (النظم) بين القاضي عبد الجبار

والإمام عبد القاهر؛ وكنت قد أشرت في الطبعتين السابقتين إلى (الحدّة) في رد عبد القاهر على سلفه عبد الجبار في (نظم الألفاظ) الذي لهج به القاضي، في مقابل (نظم المعاني) الذي لهج به عبد القاهر، وعزوت ذلك إلى الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في صفة (الكلام)- من صفات الباري سبحانه وتعالى- والتفريق الذي ذهب إليه الأشاعرة بين الكلام النفسي، أو المعاني النفسية القائمة بالذات، والحروف والأصوات (أو الألفاظ).

ثم انفسحت أمامي مقارنة واسعة بين نظريتي النظم هاتين، وأنا أطالع كتاب (دلائل الإعجاز) للإمام عبد القاهر، مرة أخرى.. فقد وجدتني علّقت على هامش الكتاب في صفحات كثيرة أن المناقشة – هنا- والرد على المعتزلة، وأن عبد القاهر ما يزال يتابع رده على القاضي.. هذا فوق تعليقات الأستاذ محمود شاكر المثبتة على هوامش كثير من الفقرات.. ولم يعد عندي شك في أن الكتاب بجملته (تأصيلٌ) واضح لنظرية الأشاعرة في إعجاز القرآن، من جهة، ورد دائب ودائم على كتاب القاضي عبد الجبار، وإن شئت قلت: على نظرية المعتزلة في الإعجاز، من جهة أخرى. وغَنيٌ عن البيان أن مسألة (اللفظ) كان قد بدأها الجاحظ قبل القاضي بزمن طويل، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في الطبعات السابقة للكتاب. بل يمكن القول: إن آراء القاضي- وسائر المعتزلة من نحاة ولغويين- تكاد تكون حاضرة في جميع صفحات كتاب عبد القاهر، أو في معظم هذه الصفحات. وقد انبنى على هذه القراءة أو الرؤية- التي لم تكن على هذا النحو من الشمول- شيء من الإضافة، وآخر من التعديل وإعادة الصياغة، كما أشرت قبل قليل.

- ٢ -

وقد لحظ الأستاذ محمود شاكر في مقدمته لكتاب الدلائل أن عمل عبد القاهر فيه كان «مشوباً بحميّة جارفة لا تعرف الأناة في التبويب والتقسيم والتصنيف» قال: «وكأنّه كان في عجلة من أمره، وكأنّ مُنازعًا ينازِعه عند كل فكرة يريد أن يجلّيها ببراعته وذكائه وسُرعة لمحه، وبقوة حجته ومضاء رأيه» ولم يفت الأستاذ الكبير بالطبع ردود عبد القاهر على القاضي، وأنه هو المقصود- دون أدنى ريب- في بعض إشاراته أو أقواله أو مقاطع كلامه. كما رجح أن يكون السرّ فيما أشار إليه من «العجلة التي صرفته عن التبويب والتقسيم والتصنيف... أن طائفة من المعتزلة، من أهل العلم، في بلدته جُرجان وفي زمانه، كان لهم شَغفٌ ولَجاجة وشغب وجدال ومناظرة في مسألة «إعجاز القرآن» واتكأوا في جدالهم على أقوال القاضي عبد الجبار التي جاءت في كتابه «المغني» والتي ذكرتُ مواضعها آنفًا، وشققوا الكلام فيها...».

قلت: وهذا الذي قاله الأستاذ شاكر نيّر ودقيق، ويدل على مدى بصره- رحمه الله- بالأساليب ووقوفه على نوازع الكتّاب والمؤلّفين، وما يعتمل في نفوسهم وعقولهم من دوافع وأسباب. وإن كان الجدل والمناظرة ونحوها في مسألة (إعجاز القرآن) أعم من أن يكون من معتزلة جرجان أو سواها، بل هو في المعتزلة بوجه عام، كما أن تشقيق الكلام في مسألة «اللفظ» أو في «نظم الألفاظ» تكفل به القاضي نفسه على نحو واسع، بل على أوسع نطاق! ويبدو أن حديث الأستاذ شاكر خاص بمن أخذ بهذا التشقيق ونافح عنه ممن أشار إليهم عبد القاهر، أو نقدهم نقداً شديداً، كما يتضح من نقوله وشواهده رحمه الله تعالى. أما قوله في «الصَّرفة» إنها أشهر أقوال المعتزلة في الإعجاز فبعيد، وهو مما يصعب التسليم به، أو

الذهاب إليه!.. وذلك في ضوء كلٍ من كتاب القاضي وكتاب عبد القاهر! بل في ضوء قول شيخنا أبي فهر «إن القاضي عبد الجبار نفسه، وهو إمام المعتزلة في زمانه، ردّ مقالة «الصَّرفة» ونقضها في كتابه» ويبدو أنه رحمه الله لا يرى تعارضًا بين هذين القولين أو الموقفين!

- ٣ -

أما الأمر الذي نودّ إضافته في حديثنا عن كتاب «دلائل الإعجاز»، فهو أن أسلوب عبد القاهر في هذا الكتاب، و«بيانه» الأخاذ، يحمل- فوق ما أشار إليه الأستاذ محمود شاكر- طابع الحماسة الشديدة التي يمكن تفسيرها كذلك برغبته في التعفية على نظرية القاضي والمعتزلة بعد زوال سلطانهم الذي كانوا يتمتعون به في ظل دولة بني بويه، التي تسنّم القاضي عبد الجبار نفسه، في بعض نواحيها، منصب قاضي القضاة.

وذلك في مقابل سلطان الأشاعرة الذي بدأ بالتمكين له الوزير العظيم (نظام الملك) بعد سقوط بني بويه عام ٤٤٧هـ على يد السلاجقة الذين وَزَر لهم نظام الملك مدة تسع وعشرين عاماً، انتصر خلالها للمذهب الأشعري وعمل على التمكين له، علاجًا للحالة الثقافية والفكرية التي كان يعيشها العالم الإسلامي، والتي انتشرت فيها مذاهب الباطنية والتشيع والرفض! ومعلوم أن بني بويه منذ تأسيس (إمارتهم) في فارس وخوزستان في أواخر القرن الثالث، وحتى تمكنهم من حكم بغداد عام ٣٣٤ كانوا يذهبون مذهب الشيعة الزيدية بوجه عام، وذلك قبل تحولهم إلى التشيع الإمامي الرافضي في أواسط القرن (عامي ٣٥١ و٣٥٢هـ) كما أوضحنا ذلك بالتفصيل في بعض كتبنا الأخرى. لقد كان عبد القاهر حين كتب كتابه الدلائل- في أواخر حياته، كما رجح الأستاذ محمود شاكر بحق- في أوج

عطائه، وكان كذلك في قمة حماسته بعد التمكن الذي أصابه مذهب الأشاعرة، وقد مرّ الآن على تدريسه وإشاعته لدى العامّة والخاصة، نحو من ربع قرن، ومعلوم أن قضية «إعجاز القرآن» مسألة (عقائدية) في المقام الأول، أي قبل أن تكون مسألة بلاغية أو فنيّة، وقد تثير هذه القضية العقائدية- بوجه خاص- من الحماسة والرد، أو ردود الأفعال (العادلة أو السوّية بالطبع) ما لا تثيره بعض المسائل الأخرى من مسائل الاعتقاد، أو غيرها من المسائل بوجه عام. إلى جانب كونها في هذه المرحلة التاريخية من مراحل الفكر والاعتقاد- كما أشرنا- أضحت مسألة سياسية اجتماعية كذلك.

وهكذا كان الإمام عبد القاهر- كما وصفه الأستاذ محمود شاكر- «في عجلة من أمره، وكأن منازعاً ينازعه عند كل فكرة يريد أن يجلّيها ببراعته وذكائه...» الخ ما نقلناه عنه قبل قليل.

وربما أمكننا القول- تعقيبًا-: إن عبد القاهر كان هو الذي ينازع سلفه القاضي عبد الجبار، ويرد عليه وينقض مقالته.. بأسلوب لا يعرف اللين أو الهوادة أو الأناة! والله تعالى أعلم.

- ٤ -

وأخيراً، فإن ما انتهينا إليه في مسألة (المواضعة) والنظم، وفي سائر ما جرى عليه إضافة أو إضاءة أو تعديل في موضوعات الكتاب (في هذه الطبعة وفي الطبعات السابقة كذلك) ربما لم نبلغ فيها ما قاله شيخ البلاغيين الأستاذ الجليل الدكتور محمد محمد أبو موسى؛ قال حفظه الله تعالى: «ونعلم أننا قد نجد فيما كتبه العالم رأياً له يضرب رأياً آخر، وخاصة إذا طالت ممارسته للاستخراج والتأليف، وتراخت الأيام بين أوائل آرائه وأواخرها».

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

عدنان بن محمد زرزور

البحرين: ١١ رجب الفرد ١٤٣٨هـ

٨ نيسان «أبريل» ٢٠١٧م

❁❁❁

مقدمة الطبعة العاشرة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١] «اللَّهم يسِّر لنا العمل بما علَّمتنا، وأوزعنا شكر ما آتيتنا، وانهج لنا سبيلاً تهدي إليك، وافتح بيننا وبينك بابًا نَفِدُ منه عليك، فلك مقاليد السموات والأرض، وأنت على كل شيء قدير». اللَّهم لك الحمد، يا حيّ يا قيّوم، حفظتَ هذا الكتاب الكريم وصُنته ـ مدى الدهر ـ عن «الزيادة والنقيصة» وسائر ضروب التحريف والتبديل، رغم مزاعم الضالّين المكذّبين، والمخادعين المخدوعين، فقلت في وصف هذا التنزيل العزيز ـ وقولك الحق ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ولك الحمد، يا بديع السماوات والأرض، جعلت هذا الكتاب الكريم حُجَّتك على خلقك إلى يوم الدين[(١)]. ونصلّي ونسلّم على سيّد ولد آدم محمد بن عبد الله خاتم المرسلين، وإمام المتقين، وأفصح الناطقين. وعلى آله الطيبين

(١) قال ابن عطية (٤٨١ ـ ٥٤١هـ) في تفسيره: «وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لِم صار الشِّعر والخطب يُملُّ ما أُعيد منها والقرآن لا يُملُّ؟ فقال: «لأن القرآن حجة على أهل الدهر الثاني، كما أنه حجة على أهل الدهر الأول، فكل طائفة تتلقاه غضًا جديدًا، ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكَّر فيه، تلقَّى منه في كل مرة علومًا غضّة، وليس هذا كله في الشعر والخطب». «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (١/ ١٥)، ط إدارة الشؤون الدينية بدولة قطر.

الطاهرين، وصحابته الغرّ الميامين. وعلى من اتبع سنّته وسنة خلفائه الراشدين المهديّين، واهتدى بضياء شمسه ونور أقمارهم إلى يوم الدين. ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

- ٢ -

وبعد، فهـذا كتاب جديد قديم، فقد سبق أن طُبع أكثر من مرة، وفي أكثر من جزء، وجرى عليه من التعديل ما تحدثت عنه في مقدمة الجزئين الأخيرين، وكان أولهما بعنوان (فصول في علوم القرآن) ـ ١٩٩٨م ـ والثاني بعنوان (مدخل إلى القرآن والحديث) ـ ١٩٩٩م ـ. وأعود اليوم لأضعه بين أيدي الدارسين والباحثين على هـذا النحو المجتمع مرة أخرى، بعد أن قمت بمراجعته وتعديله والإضافة عليه حتى غدا مؤلَّفًا أقرب إلى الجديد، آملاً أن يشكل رفدًا وإضاءةً في المحاور الثلاثة التي حملها عنوان الكتاب[1]، علمًا بأن العنوان الرئيس (علوم القرآن) يشمل علم الإعجاز، ولـكن جرى التركيز على هـذا العلم؛ نظرًا لأهميته البالغة من جهة، ولأن القول يتجدد فيه في كل عصر من العصور من جهة أخرى.

أما محـور (تـاريخ القـرآن) الـذي تناولنـاه بالبحـث، بوصـفه مـدخلاً مهمًـا وضروريًا إلى هـذه العلوم، فإننا ما زلنا نبحـث فيـه تحـت عنـوان (قطعيـة الـنص القرآني وتاريخ توثيقه) زيادة في الدقة والاحتراز أمام بعض الفهوم والتفسيرات، أو أمام الخلـط القبـيح بـين تـاريخ القـرآن، وتاريخيتـه! أو أمـام الحـديث الجاهـل

(١) كان عنوان الكتاب في هـذه الطبعة: علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، وطبع بدار الأعلام ـ عمّان.

(والمستعار) عن (تاريخية) القرآن! بمعنى (نزوله) ـ أو ظهوره ـ وفق ملابسات المكان (في مكة وجزيرة العرب) والزمان (القرن السابع الميلادي).

ـ ٣ ـ

أضفت إلى هذه الطبعة عدة فصول، والكثير من الفقرات.. وجميعها ـ فيما أحسب ـ لا تخلو من الجديد ـ الصائب إن شاء الله تعالى ـ في علوم القرآن وميدان الدراسات القرآنية، وقد تربو صفحات هذه الإضافات على مائتي صفحة. كما قمت بتعديل معظم الفصول القديمة، وأجريت عليها بعض التصويبات، ورجعت فيها ـ كذلك ـ عن بعض الآراء.. وبخاصة في موضوعي: (أسباب النزول) و(الناسخ والمنسوخ) على الرُّغْم من (التعديلات) التي أدخلتها على هذين الموضوعين في طبعة سابقة. فقد ترجح عندنا: التشديد في قبول روايات أسباب النزول، بعد أن تأكد لنا؛ من خلال مراجعة تفاسير ـ وتراث ـ الفِرق، أنها (الوادي الثاني) للأحاديث الواهية والموضوعة، بعد (وادي) أحاديث الفضائل الذي تحدث عنه الحافظ ابن حجر، كما رجعنا بوقائع (النسخ) إلى العدد الذي لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة .وما يزال لدينا حول هذا الموضوع آراء وملاحظات نرجو أن نفردها ببحث مستقل إن شاء الله.

وقمت كذلك بحذف بعض الصفحات من بعض الموضوعات، وبخاصة (تشبيهات القرآن) و(القصة القرآنية)، علمًا بأن المساحة التي أفردناها لهذين النوعين من أنواع علوم القرآن أوسع مما أفردناه لسائر العلوم، وبخاصة (القصة القرآنية) نظرًا للمساحة التي شغلتها في القرآن الكريم، ولتكرار معظمها أكثر من مرة.. ومن ثم أهمية الفصل الخاص بها في التمهيد لتفسير القرآن، والدخول إلى رحابه.

وأرجو أن يكون في الفقرة التي أضفناها في هذه الطبعة في فصل (المحكم

والمتشابه) بعنوان: (المتشابه وآيات الصفات) حلاً لمسألة مهمة في العقيدة الإسلامية ـ أو بعبارة أدق: في تاريخ الفكر العقائدي عند المسلمين ـ أو أن تؤسِّس على أقل تقدير، لطَيِّ صفحة جدلٍ طويلٍ لم تَخْلُ في أحيانٍ كثيرة من تبادل التهم والتنابز بالألقاب! وآمل بمناسبة هذه الإشارة في الفصل المذكور: أن يكون في (مدخلنا) إلى رحاب المتشابه، وفي حديثنا عن السبب الرئيس لانقسام كلام الله تعالى إلى محكم ومتشابه، ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه في تحديد معنى المحكم والمتشابه، من جهة، وفي (الحكمة) من ورود المتشابه في كلامه ـ سبحانه ـ من جهة أخرى.

ـ ٤ ـ

وأشير أخيرًا إلى أن الفصل الخاص بالتفسير العلمي للقرآن ـ والذي جاء تعبيرًا عن وجهة نظرنا في كل ما كتب فيه ـ وردت فيه بعض النقاط المتصلة بإعجاز القرآن، وبخاصة ما ورد في فقرة: (التفسير العلمي لا يسمى إعجازًا) والفقرة التي حملت عنوان: (كلمة نقدية أخيرة). وقد جاءت هذه النقاط في هذا الفصل من منطلق أن ما يدعى ـ عند كثيرين ـ إعجازًا علميًا لا يعدو أن يكون تفسيرًا يعوّل فيه على العلم (التجريبي)، ولا صلة له بالإعجاز المقرون بالتحدي، والذي يعدّ في الحقيقة ثمرة له! إن معظم النقاط التي لها صلة بالإعجاز والتي جاءت في فصل التفسير العلمي هذا لم أُعِد عنها الحديث مرة أخرى في الفصول الخاصة بإعجاز القرآن؛ اعتمادًا على أن في وسع القارئ أن يعود إلى قراءتها في ضوء الآراء والنظريات التي قيلت في تفسير الإعجاز ـ والتي استعرضناها في هذه الفصول ـ وفي ضوء النقاط والملاحظات التي أضفناها في هذا الباب، وبخاصة تلك التي صدَّرنا بها الفصل الذي يحمل عنوان: (الصورة الأدبية للقرآن بين المضمون والأسلوب).

ـ ٥ ـ

أدعو الله تعالى أن ينفع بهـذا الكتاب، وأن يكتب له القبول، وأن يجعله في عداد حسناتي يوم العرض عليه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، والحمد لله رب العالمين.

الرفاع الشرقي ـ مملكة البحرين
في ٩ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ
٢٥ تموز (يوليو) ٢٠١١م

عدنان محمد زرزور

مقدمة الطبعة الحادية عشرة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، **وبعد**:

ـ ١ ـ

فقد كان هـذا الكتاب يحمل في طبعته السابقة عنوان: (علوم القرآن وإعجـازه وتاريخ توثيقه) ويقع في مجلد واحد. أما طبعاته المتعددة السابقة، فقد كـان أولهـا في جامعة دمشق، في منتصف سبعينيات القرن الميلادي الماضي، وجـاء اسـتجابة لحاجة طلبة قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، وحمل ـ لذلك ـ عنوان المقرر الجامعي: (القرآن ونصوصه)، ثم جرى بعد ذلك تعديل هـذا العنـوان البعيـد، أو غير المعبر. وطبع بعنوان: (علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه) ـ كما جـرى شـطره في بعـض الطبعـات ـ وتتـابع عـلى طباعتـه كـل مـن (المكتـب الإسلامي) في بيروت ودمشق، و(دار القلم) بدمشق وجدّة، وأخيرًا (دار الأعلام) بعمّان. وقد قامت بعض دور النشر هـذه بطبعه أكثر من مرّة.

وفي هـذه الطبعة التي بين يدي القارئ ـ ونحسبها الحادية عشرة ـ والتـي بلـغ عدد صفحاتها نحوًا من ألف صفحة، بزيادات كبيرة ومهمّة، وهو في جزأين ضمن مجلد واحد، يحمل كلاهما عنوان (علوم القرآن): بإضافة عبارة: (مدخل وتاريخ) إلى عنوان الجزء الأول. وعبارة: (مناهج التفسير وإعجاز القرآن) إلى عنوان الجزء

الثاني. وقد أشرنا في مقدمة طبعة دار الأعلام إلى أن محور (تاريخ القرآن) ما زلنا نبحث فيه تحت عنوان: «قطعية النص القرآني وتاريخ توثيقه» وهو الباب الثاني من الجزء الأول من طبعتنا هذه، وقد اشتمل على ستة فصول. كما أن الباب الثالث من هذا الجزء، وعنوانه (علوم القرآن) ضم كذلك على ستة فصول، أو ستة علوم من علوم القرآن. أما الباب الأول الذي يمثل المدخل، فعنوانه: (القرآن الكريم واللغة العربية) وقد اشتمل على ثلاثة فصول.

أما الجزء الثاني من الكتاب، فقد جاء كذلك في ثلاثة أبواب: الأول بعنوان: (ملامح التفسير القديم والمعاصر) وفيه ستة فصول. والثاني بعنوان: (إعجاز القرآن: الملامح العامة) وفيه خمسة فصول. أما الباب الثالث فعنوانه: (إعجاز القرآن: ملامح فنية خاصة) وفيه ثلاثة فصول، وهي: (تشبيهات القرآن) و(أقسام القرآن) و(القصة القرآنية). وبهذا فقد بلغ عدد فصول الكتاب ـ بجزئيه ـ تسعة وعشرين فصلاً، تناولت ـ بدقة وعمق إن شاء الله ـ تاريخ توثيق النص القرآني، وأهم علوم القرآن، وبخاصة إعجازه ومناهج تفسيره.

ونشير هنا إلى أهم زيادات هذه الطبعة ـ الحادية عشرة ـ في جزئي الكتاب.

ـ ٢ ـ

أولاً: زيادات الجزء الأول: في الباب الثاني: (قطعية النص القرآني وتاريخ توثيقه) أضفنا في الفصل الثالث (نزول القرآن والحكمة من تنجيمه) فقرة قارنا فيها بين سورتي العلق والفاتحة، من حيث إن الآيات الأولى من سورة العلق أول ما نزل من القرآن، وإن سورة الفاتحة هي التي استهل بها المصحف الشريف. وفي موضوع (جمع القرآن وتدوينه): الفصل الرابع: توسعنا في الحديث عن جمع القرآن على عهد الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، كما توسعنا في الرد على شبهات

حرق الصحف والمصاحف الذي تمّ في عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، ودققنا في موقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ من خلال الروايات المتعددة ـ كما دققنا مرة أخرى في موقف الشيعة الإمامية من (التحريف والتنقيص) وانتهينا إلى تأكيد أن مصحف عثمان هو مصحف عثمان وعلي، وسائر الخلفاء الراشدين وأئمة الإسلام والمسلمين، وأن دعاوى التحريف والتنقيص محض نفاق وكذب وافتراء. وصدّرنا مبحث (الآيات والسور وترتيبهما): الفصل الخامس، بفقرة جديدة، وتوسعنا في (ترتيب الآيات) بمزيد من الأدلة، وبمنهج دراسة. كما ألحقنا بهذا الفصل فقرة عن (مناسبة الآيات والسور).

أما موضوع (الأحرف السبعة): الفصل السادس، فقد أضفنا إليه إضافات مهمة من جهة، ورجحنا أن المراد بهذا العدد مجرد التوسعة والتيسير، وليس العدد الحقيقي. من جهة أخرى.

أما الباب الثالث من هذا الجزء، والذي حمل عنوان: علوم القرآن، فقد أضفنا في فصل متشابه القرآن، وأعني متشابه المعنى والدلالة كما أسميناه في هذه الطبعة، نقاطًا وأفكارًا جديدة، كما أضفنا بعض الفقرات، ومنها فقرة بعنوان: التنزيه وأساليب التعبير. وقد أكدنا في هذا كله ما ذهبنا إليه في تفسير المتشابه وحكمة وجوده، أو سبب وجوده في القرآن الكريم.

كما أضفنا في فصل القراءات بعض النقاط في مسألة اشتراط التواتر في القراءة القرآنية، وعرّفنا كذلك بأهم كتب القراءات.

ـ ٣ ـ

ثانيًا: أما الجزء الثاني، فقد أضفنا في فصل: (نشأة التفسير وتطوره) ملاحظة مهمة حول تفسير القرآن بالحديث. وأعدنا صياغة فقرة (التفسير بالرأي وشروط

المفسّر) بإضافة واسعة وتعديل. وفي مناهج علماء الكلام: وضعنا بين يدي القارئ خلاصة عن أصول الاعتزال التي عوّل عليها الزمخشري ومفسرو المعتزلة. كما توسعنا في الحديث عن منهج الصوفية، وعقبنا عليه بالحديث عن تفاسير فلاسفتهم، كما استشهدنا ببعض روايات الإمامية التي عوّلوا فيها على الباطنية أو التفسير الباطني. وعرّفنا في هذه الطبعة بـ (التفسير الموضوعي) وقارنا بينه وبين التفسير التحليلي، كما عرّفنا بالتفسير الإجمالي والتفسير المقارن.

أما الفصل الخاص (بترجمة القرآن) فإن مراحل الترجمة الثلاث التي تحدثنا عنها في الطبعة السابقة ارتقت إلى ست مراحل، مع تفصيلات في بعض هذه المراحل شملت الحديث عن أنواع الترجمات في المرحلة الثالثة الجديدة. وهذه الزيادات جميعها مما أمدّني به أخي العزيز الأستاذ الفاضل عادل صلاحي الذي قام بترجمة الكتاب إلى اللغة الإنكليزية، فجزاه الله تعالى خيرًا على ترجمته العالية، وعلى هذه الإضافات التي اشتملت أيضًا على فقرة مهمة بعنوان: (ما المطلوب في ترجمة القرآن؟).

وفي الباب الثاني (إعجاز القرآن: الملامح العامة) ـ في الفصل الثاني ـ أضفنا إلى النظم القرآني مدخلاً أو لمحة تاريخية في نحو خمس عشرة صفحة، كما عقدنا فقرة خاصة للتفريق بين النظم عند القاضي عبد الجبار والإمام عبد القاهر. كما أضفنا تعقيبًا عامًا على نظرية عبد القاهر تضمن ثلاث نقاط، إلى جانب بعض النقاط والأفكار الأخرى التي تضمنها هذا الفصل الهام.

ـ ٤ ـ

آمل أن يكون في هذه الإضافات والتعليقات ـ وسائر المراجعات والتعديلات ـ ما يرتقي بالكتاب إلى الدرجة المرجوّة في خدمة كتاب الله تعالى،

والذّب عنه، والدخول إلى رحاب بيانه وتفسيره.. ولا يعلم إلا الله تعالى إن كانت الفرصة سانحة لمراجعة أخرى قريبة أو مماثلة.

أدعو الله تعالى أن يلهم دارسه وقارئه وسائر المنتفعين به الدعاء لمؤلّفه وأن يسألوا الله تعالى له الرحمة والمغفرة... في الحياة وبعد الممات. والحمد لله تعالى أولاً وآخرًا. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آمين.

ـ ٥ ـ

وأخيراً، فإن هذا الكتاب يعود مرة أخرى إلى المكتب الإسلامي الذي قام على نشره في أول طبعاته خارج الجامعة، ليقوم على نشره في طبعته هذه، ولكن بعد غياب مؤسس المكتب الأخ المحقق الشيخ **زهير الشاويش** الذي طالما خدم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وعلوم السلف، والذي كان مثالاً نادرًا من أمثلة الكرم والفضل والنبل، والعمل الدعوي الدؤوب على أكثر من صعيد، وسوف يحفظ له التاريخ أياديه الجليلة في إحياء تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، وفي حركة التوثيق والتصحيح للحديث النبوي التي أبرز فيها معارف العلاَّمة المحدّث الشيخ ناصر الدين الألباني، رحمهما الله تعالى رحمة واسعة، وجزاهما عن الإسلام والمسلمين أفضل ما يجزي عباده الصالحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تركيا: قبيل غروب شمس يوم الأحد

السادس عشر من شهر رمضان المبارك ١٤٣٥ هجرية

الموافق للثالث عشر من شهر تموز (يوليو) ٢٠١٤ ميلادية

عدنان محمد زرزور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقدمة الطبعة الثانية عشرة

- ١ -

الحمد لله الذي نوَّر بكتابه العقولَ والقلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب؛ فأعيت معارفُه العلماءَ والحكماء، وأعجزت بلاغتُه البلغاءَ والفصحاء. أحمده أنْ جعل الحمد فاتحة آياته وأنواره، وخاتمة تصاريفه وأقداره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. وأصلي وأسلّم على رسوله المصطفى، ونبيّه المجتبى؛ محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وخاتم من نزل على قلبه الروح الأمين. وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار الأبرار.

- ٢ -

أما بعد، فقد وجدتني أعيد النظر في الكتاب ولما يمض على طبعته السابقة وقت طويل، وذلك في ضوء وضعه بين أيدي طلبة الدراسات العليا في التفسير وعلوم القرآن، حتى إن بعض الإضافات أو الهوامش المتعلقة ببعض مسائل البلاغة كانت تلبية لحاجتهم. وأعتقد ـ بهذه المناسبة ـ أن طلبة الشريعة والدراسات الإسلامية ـ وبخاصة شعبة أصول الدين ـ ينبغي ألا تقلّ معارفهم في النحو والبلاغة، عن معارف زملائهم طلبة اللغة العربية وآدابها.

أما سائر الإضافات والإضاءات، فقد جاءت استكمالاً لنقصٍ وجدناه في بعض مسائل الإعجاز وعلوم القرآن، وتأكيدًا لبعضها الآخر، أو تعمقًا في الاستدلال عليه. ونشير هنا باقتضاب إلى أهم هذه الإضافات:

في تعريف (الوحي) شرعًا ألقينا ضوءًا على التعريف الذي كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ رفعًا لظُلامة لحقت به أو وقعت عليه، وربما دفعًا لتوهم أو سوء فهم! كما أضفنا في مسألة نقض مزاعم تحريف القرآن ما ذكره المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون) من أن المستشرقين لم يقفوا خلال ثلاثة أجيال على أي تحريف في القرآن عن الصورة التي تركها عليه محمد ﷺ. وفي (مناسبات الآيات) أضفنا إلى رأينا رأي أحد العلماء الأفاضل، وفي مصطلح (علوم القرآن) أضفنا بعض النقاط في تاريخ هذا المصطلح. كما أضفنا فكرةً أو نقطة مهمة في الدفاع عن رأينا في متشابه المعنى والدلالة. وتوسعنا في فصل القراءات القرآنية بذكر ترجمةٍ موجزة لرواة القرّاء العشرة (راويان لكل قارئ) كما أعدنا ترتيب بعض فقرات هذا الفصل، وكتبنا حول مسبّع السبعة هامشًا أثبتنا فيه رأي الإمام أبي العباس المهدوي في نقد هذا التسبيع، أثبتناه بحروفه موثقًا من رسالته في القراءات، بعد أن كنّا نقلنا خلاصة هذا الرأي من السيوطي. كما نقلنا رأيه ورأي أحد العلماء الآخرين في بعض مسائل النسخ.

وقد أضفنا فقرة أجبنا فيها عن تساؤل بعض الزملاء عن سبب جمعنا ـ في فقرة واحدة أو تحت عنوان واحد ـ بين الباطنية والحداثيين، كما قدمنا شرحًا إضافيًا لمقدمتين أو قاعدتين من مقدمات أصول التفسير: قاعدة أن القرآن لجميع العصور وتخاطب به جميع الأجيال، وقاعدة أنه لا يجوز الدخول إلى النص القرآني بمقرر فكري مسبق.

وفي الفصل الذي ختمنا به الحديث عن الملامح العامة للإعجاز (الفصل الخامس، وعنوانه: الصورة الأدبية للقرآن بين المضمون والأسلوب) أضفنا فقرة مقتضبة نحسبها من الأهمية بمكان، وعنوانها: (أسلوب علمي وإعجاز أدبي) وجاءت بعد الحديث عن (خصائص معاني القرآن) وجميعها من الأمور التي لم يسبق لأحد الحديث عنها في باب إعجاز القرآن، أو في مداخله ومقدماته. ويشير العنوان المذكور إلى أن قاعدة الأسلوب القرآني، في كل مراحل التنزيل وفي جميع موضوعاته كذلك، (علميّة)، في الوقت الذي بلغ فيه هذا الأسلوب حد الإعجاز (الأدبي) أو في البلاغة والبيان. وفحوى ذلك أن سائر ما قدمناه ـ سابقًا على الفصل المذكور من نظريات الإعجاز ومن الخصائص الأسلوبية ومزايا الأداء القرآني ـ إنما جاءت أو وقعت شرحًا لهذا الجانب أو لهذا الأسلوب البياني الذي ارتقى ـ كما أشرنا ـ إلى مقام الإعجاز .ويمكن القول :إن ما نراه الآن ونضيفه: هو أن الحديث عن (البيان) لا يكفي في بيان هذا الأسلوب، على الرغم من أن الحديث عن تلك الخصائص والمزايا صحيح ولا غبار عليه.. لا ريب في ذلك، ولكن يجب بيان وتأكيد أن ذلك جميعه جاء أو كان على (قاعدة علمية) حتى في موضوعات الأدب ـ إن صح التعبير ـ كالتشبيهات والقصة ونحو ذلك.

ولا نعتقد أن (الجمع) بين الأسلوب العلمي ـ أو القاعدة العلمية ـ والعرض البلاغي أو الأسلوب الأدبي، من سمات الأداء البشري أو الإنساني بوجه عام، ناهيك عن المعجز وغير المعجز. ونعتقد أن هذه القضية تحتاج إلى دراسة موسّعة، والله تعالى أعلم.

ـ ٣ ـ

وأخيرًا، فإن الفقرة الخاصة بالمقسم به المسبوق بأداة النفي (لا)، في فصل أقسام القرآن، أضفنا رأيًا جديدًا ـ ثالثًا ـ ذهب إليه أو قال به الأخ العالم المفسّر

الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، وهو رأي جدير بالتأمل، وكان رحمه الله قد حدّثني به من سنوات طوال عندما كنّا نلتقي في تركيا، مصطافين في مكان واحد. فرأيت أن الواجب العلمي، وواجب الوفاء كذلك لهذا العالم الأديب المدقق، أن أضيف رأيه مع أحد الشواهد التي قام بشرحها وتفسيرها. وكنّا قد نشأنا في حي واحد من أحياء دمشق، ـ وكان مقدَّمًا عليَّ في السنّ والفضل ـ وكان والده العلاَّمة الجليل الشيخ حسن شيخنا جميعًا، وكان شيخ والدي كذلك. وقد أخذ الشيخ عبد الرحمن عن والده أكثر بكثير جدًا مما أخذت، ومما أخذ آخرون، رحمهم الله تعالى جميعًا، وجمعنا بهم في مستقر رحمته.

ـ ٤ ـ

وأختم هذه المقدمة بما ختمت به مقدمة الطبعة السابقة ـ الحادية عشرة ـ من الدعاء إلى الله تعالى أن يلهم دارس هذا الكتاب وقارئه وسائر المنتفعين به ـ أيًّا كان قدر هذا الانتفاع قليلاً أو كثيرًا ـ الدعاء لمؤلفه، وأن يسألوا له المغفرة والرحمة.

والحمد لله تعالى أولاً وآخرًا.

البحرين في العاشر من المحرم الحرام ١٤٣٨هـ

الموافق للحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٦م.

عدنان بن محمد بن ياسين زرزور

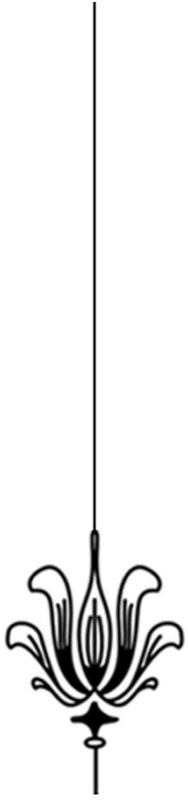

علـــوم القـــرآن

الجزء الأول

مدخل وتاريخ

الباب الأول

القرآن الكريم واللغة العربية

.

- الفصل الأول: لغة القرآن الكريم.
- الفصل الثاني: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية.
- الفصل الثالث: أثر القرآن الكريم في الحضارة والثقافة الإسلامية.

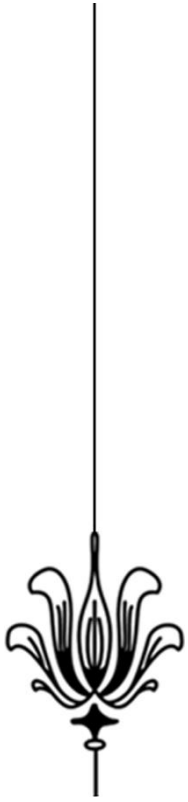

الفصل الأول

لغة القرآن الكريم

- أولاً: اللسان العربي.
- ثانياً: العرب والقرآن.
- خلاصة وتعقيب.

الفصل الأول

لغة القرآن الكريم

أولاً ـ اللسان العربي[(١)]:

إن اختيار لغة العرب لينزل بها آخر كتب الله تعالى للإنسان، على تعدد لغات البشر واختلاف ألسنتهم، يشير إلى فضيلة بيانية جامعة امتاز بها اللسان العربي على كل لسان، وبخاصة إذا ذكرنا أن إعجاز القرآن أو معجزة النبي الكبرى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ جاءت متعلقة بهذا البيان ومتصلة به، بل كانت في حقيقة الأمر من جنسه، لأن الإعجاز الذي جاء في القرآن الكريم مقرونًا بالتحدي أو ثمرة له ـ كما سنشرح ذلك في مبحث الإعجاز القادم ـ كان بيانيًا صرفًا، على الراجح من أقوال العلماء والباحثين.

---

(١) عبّر القرآن الكريم عن اللغة واللغات باللسان والألسنة، ولم ترد فيه كلمة: لغة ولغات. ومن مزايا التعبير القرآني باللسان: الإشارة إلى الجانب الصوتي مع الجانب الدلالي؛ الأمر الذي يدع الباب مفتوحًا لدراسة الألسنيات، أو الانتفاع بها في دراسة العربية من جهة، كما أنه يشير – في موضوع القرآن الكريم وعلومه – إلى مسألة التلاوة والترتيل، والأداء المتصل بالأحرف والقراءات، من جهة أخرى. أما الاستعانة بها في تفسير القرآن أو في دراسة (النص الديني) ـ كما يقال ـ فندع مناقشته والبحث فيه إلى مناسبة أخرى إن شاء الله.

ومما يدل على هـذه الفضيلة البيانية، أو الميزة البيانية، ويشير إليها على أقل تقدير: أن من استقام لسانه بالعربية ـ كما هو ملاحظ ومشـاهد ـ اسـتقام بكـل لغـة أو لسـان آخر، ولا عكس. أي أن من نشأ عـلى العربيـة ورضـع لبانهـا، وتفتـق لسـانه بحروفهـا وكلماتها وتراكيبها.. بمعنـى أن هــذه الحـروف والكلمـات والتراكيـب كانـت هـي السابقة إلى لسانه وشفتيه نشأةً وتعليمًا؛ فإن في وسـعه أن يـتقن في المسـتقبل.. في سـن الحداثة والصبا، أو في سنّ المراهقة والبلوغ.. وربما بعد ذلك أيضًا، أي لغـة أخـرى، وسوف يبلغ بهـذه اللغة ـ مع إجادة التعليم والـتعلّم ـ مبلـغ أهلهـا مـن حيـث الإبانـة والنطق، بحيث يصعب فصله عنهم أو تمييـزه بيـنهم مـن خـلال الحـديث والكـلام. ولـكن العكس غير صحيح في سائر الألسنة واللغات، ولسوف يبقى في لسان من نشـأ على غير العربية، بقيّة من لُكْنَةٍ تحـول بينـه وبـين إجـادة نطـق جميـع حـروف العربيـة وكلماتها وعباراتها.. أو بين نطقها على نحو تام، أو سليم.

ويعود السبب في ذلك، على الأرجح، إلى الاستخدام الأمثل للمدرج الصوتي أو لجهاز النطق الإنساني في لغة العرب[1]، والذي توزعت عليه حروف هـذه اللغة

(١) يمكن القول إن العلاّمة ابن خلدون رجع هـذا السبب إلى الدُّربة والممارسة أو إلى (المَربى والنشأة) وسَبْق اللسان، ولم يشر إلى المزايا الخاصة بلسان العرب. انظر الفصول التي عقدها ابن خلدون تحت العناوين الآتية: «فصل في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان، وتحقيق معناه، وبيان أنه لا يحصل غالبًا للمستعربين من العجم» و«فصل في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هـذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم، ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر» و«فصل في أنه لا تتفق الإجادة في فنَّي المنظوم والمنثور معًا إلا للأقل» الصفحات ٥٢٨ ـ ٥٣٤ من المقدمة ط دار الشعب بمصر. قال في هـذا الفصل الأخير: «وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصرًا في اللسان العربي أبدًا. فالأعجمي =

على أتم صور التوزيع وأشملها وأدقها إذا ما قيست هـذه الحروف بسائر اللغات، أو بحروف هـذه اللغات وأبجدياتها! يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في معرض حديثه عن اللغة العربية بوصفها لغة شاعرة ـ أي لغة بُنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية ـ وبيان أن هـذه «الخاصة في اللغة ظاهرة من تركيب حروفها، على حدة، إلى تركيب مفرداتها، على حدة، إلى تركيب قواعدها وعباراتها، إلى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيد» يقول رحمه الله: «إن جهاز النطق الإنساني أداة موسيقية وافية لم تحسن استخدامها على أوفاها أمة من الأمم القديمة أو الحديثة كما استخدمتها الأمة العربية، لأنها انتفعت بجميع مخارجها الصوتية في تقسيم حروفها، ولم تهمل بعضها وتكرر بعضها الآخر بالتخفيف تارة، والتثقيل تارة، كما فعل المتكلِّمون بسائر اللغات المعروفة، ومنها الهندية الجرمانية والساميّة والطورانية»[1].

ويقول الأستاذ العقاد إن حروف الهجاء أو الأبجدية العربية ليست أوفر عددًا من الأبجديات في هـذه اللغات جميعها ـ أي اللغات الهندية الجرمانيـة، واللغـات الطورانية، واللغات السامية ـ «فإن اللغة الروسية ـ مثلاً ـ تبلغ عدة حروفهـا خمسـة

=

الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصرًا فيه ولو تعلّمه وعلّمه! وكذا البربري والرومي الأفرنجي قلَّ أن تجد أحدًا منهم محكمًا لملكة اللسان العربي. وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر. حتى إن طالب العلم من أهل هـذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي، جاء مقصِّرًا في معارفه عن الغاية والتحصيل».

ويمكن القول: إن العلاّمة ابن خلدون أشار ـ وإن يكن في سياق مختلف ـ إلى الشق الأول من المسألة التي نتحدث عنها، وسكت عن شقِّها الثاني. ص٥٣٤

(١) اللغة الشاعرة للعقاد، ص١١، المكتبة العصرية، بيروت.

وثلاثين حرفًا، وقد تزيد ببعض الحروف المستعارة من الأعلام الأجنبية عنها. ولكنها على هذه الزيادة في حروفها لا تبلغ مبلغ اللغة العربية في الوفاء بالمخارج الصوتية على تقسيماتها الموسيقية؛ لأن كثيرًا من هذه الحروف الزائدة إنما هو حركات مختلفة لحرف واحد، أو هو حرف من مخرج صوتي واحد، تتغير قوة الضغط عليه كما تتغير قوة الضغط في الآلات، دون أن يستدعي ذلك افتنانًا في تخريج الصوت الناطق من الأجهزة الصوتية في الإنسان.. وبمثل هذا الاختلاف في الضغط، أو الاختلاف في الحركة، يمكن أن تبلغ حروف الأبجدية خمسين أو ستين، ولا تدل على تنويع لمخارج النطق الإنساني على حسب الملكة الموسيقية الكامنة في استعداده. وتظل اللغة العربية بعد ذلك أوفر عددًا في أصوات المخارج التي لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها، **فليس هناك مخرج صوتي واحد ناقص في الحروف العربية**، وإنما تعتمد هذه اللغة على تقسيم الحروف على حسب موقعها من أجهزة النطق، ولا تحتاج إلى تقسيمها باختلاف الضغط على المخرج الواحد!»[(١)].

وعلى هذه الصورة تمتاز اللغة العربية بحروف لا توجد في اللغات الأخرى **كالضاد والظاء والعين والقاف والحاء والطاء**، أو توجد في غيرها أحيانًا ولكنها ملتبسة مترددة لا تضبط بعلامة واحدة[(٢)].

---

(١) اللغة الشاعرة ص٩.

(٢) قال ابن عطية في بيان معنى (المبين) في تفسير الآية الأولى من سورة يوسف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾: «وقيل: المبين من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذْ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان، روي هذا القول عن معاذ بن جبل..» المحرر الوجيز (٧/ ٤٣١)، طبع قطر.

وقد جاء في عُرض كلام العقاد، وهو يتحدث عن شاعرية هـذه اللغة من هـذا الجانب وحده ـ جانب الأبجدية أو تقسيم الحروف ـ وصفها بأنها **إنسانية ناطقـة!** نظرًا لهـذا الاستخدام الأمثل لجهاز النطق في الإنسان، فـلا توجـد في العربيـة أداة صوتية ناقصة تحسّ بهـا أبجديـة هـــذه اللغـة! «إذ لـيس في حـروف الأبجـديات الأخرى حرف واحد يحوج العربي إلى افتتاح نطق جديـد لم يسـتخدمه. وكـل مـا هنالك أنه قد يحوجه إلى الضغط الآلي على بعض الحروف المعهودة، وهو ضـغط يدل على العجز عن تنويع الأصوات، واستخدام أجهزة الحياة الناطقة على أحسـن الوجوه، وأقربها إلى التنويع والتفصيل»[1].

ونضيف هنا: أن الحروف السابقة التي قـال الأسـتاذ العقـاد رحمـه الله إنهـا لا توجد في اللغات الأخرى، اشتهر منها حرف الضاد كما هو معلوم، حتـى سُـمِّيت اللغة العربية بلغة الضاد، أو جرى تمييزها مـن بـين سـائر اللغـات بهـــذا الحـرف وحده دون سواه! وربما كان السبب في ذلك يعود إلى أن هـذا الحرف يمثل وحـده جهاز النطق أو الجهاز الصوتي في اللغة العربية؛ إذا كانت الحروف الأخـرى التـي جعلها العقاد وقفًا على العربية أو خاصة بها، قد توجد في غيرها متردّدة أو ملتبسة.. وموزعة في الوقت نفسه على أكثر من لغة. إن هـذا الحـرف ـ الضـاد ـ هـو حـرف الاستطالة الوحيد في لغة العرب؛ قال علماء التجويد: ومعنـى الاسـتطالة: امتـداد الصوت من أول اللسان إلى آخره! فهو بهـذا التعريف أو الاصـطلاح يمثـل جهـاز

(١) العقاد، المصدر السابق، ص١٠.

النطق ولا نظير له في الواقع في سائر اللغات[١]. وقال ابن الجزري: «والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلَّ من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاء، ومنهم من يخرجه بالذال، ومنهم من يجعله لامًا مفخمة، ومنهم من يشمّه الزاي...»[٢].

وقد يفهم من إشارة العقاد الأخيرة إلى أن اللغة العربية لغة إنسانية: أن السبب في هذا يعود إلى أن هذه اللغة جمعت، بالإضافة إلى هذا الانفراد ببعض الحروف، ما وزّع من سائر هذه الحروف على اللغات الأخرى.

ولا يتّسع المجال هنا لتلخيص كل ما قاله الأستاذ العقاد فيما يمكن تسميته بعبقرية الحرف العربي أو دلالة الحروف على السليقة الشاعرة في اللغة العربية.. فضلاً عما قدمه رحمه الله بعد ذلك في باب: المفردات، والإعراب، والعروض، وأوزان الشعر، والمجاز، وما أسماه: الفصاحة العلمية.. إلخ. ويكفي أنه قال في **(الكلمات)**: إن ظهور السليقة الشاعرة فيها كظهورها في **(الحروف)** المتفرقة أو أظهر «لأنها تضيف الموسيقية في القواعد، والموسيقية في المعاني، إلى الموسيقية

---

(١) ولهذا ـ فيما يبدو ـ اختلف العلماء في وصف مخرج هذا الحرف، أو في حيِّزه الذي يخرج منه من جهاز النطق، قال ابن أبي مريم (ت٥٦٥): «ومن مبدأ حافّة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، وبعضهم يجعل مخرج الضاد قبل مخرج الجيم والشين والياء ـ وهذه مخرجها من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى» قال: «وأنت في إخراج الضاد مخيَّر، فمن أيّ حافتي اللسان شئت أخرجته، وإخراجه من اليسرى أيسر». الكتاب الموضح (١/ ١٦٤)، تحقيق الدكتور عمر حمدان الكبيسي، جدّة، ١٩٩٣م.

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٢١٩).

الملحوظة في مجرد النطق أو السماع بغير معنىً يتم به التخاطب بين المتكلمين»[١] .. «وحسبنا أن نلاحظ في تركيب المفردات من الحروف أن **الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في اللغة العربية**، وأن اللغات السامية التي تشارك هذه اللغة في قواعد الاشتقاق لم تبلغ مبلغها في ضبط المشتقات بالموازين التي تسري على جميع أجزائها، وتوفّق أحسن التوفيق المستطاع بين مبانيها ومعانيها، فالفرق بين ينظر، وناظر، ومنظور، ونظير، ونظائر، ونظارة، ومناظرة، ومنظار، ومنظر، ومنتظر، وما يتفرع عليها، هو فرق بين أفعال وأسماء وصفات وأفراد وجموع. وهو كله قائم على الفرق بين وزن ووزن، أو قياس صوتي وقياس مثله على اختلاف الحركات والنبرات، أي على اختلاف **النغمة الموسيقية في الأداء**».

«وعلى غير هذا النسق تجري أوزان الكلمات في اللغات الأخرى، وأولها لغات النحت على التخصيص، فإن الكلمات فيها قد تجري على وزن واحد بغير دلالة على اتفاق في المعنى، ولا في تقسيم الأسماء والأفعال والحروف، ولولا هذه المشابهة العَرضيَّة بين بعض كلماتها لكان فيها من الأوزان عداد ما فيها من الكلمات!»[٢] .

---

(١) ومن هنا ـ فيما يبدو ـ جاءت ظاهرة الطرب بسماع هذه اللغة الذي أشارت إليه المستشرقة الألمانية الكبيرة الأستاذة الدكتورة آنا ماري شيمل عليها رحمة الله، حين قالت: «وإذا كنا نطرب نحن لأنغام الموسيقى فإن المسلم أقرب للطرب بجرس الكلام». انظر كتاب: سيقهر الماء صم الحجر ص٥٨

(٢) اللغة الشاعرة ص١٢، ويضيف العقاد: «إن كلمات: آن وبان وتان وثان وجان وذان وران وفان ومان» توجد في اللغة الإنجليزية اتفاقًا ومنها الحروف والأفعال والأسماء، فليس بين أوزانها ومعانيها ارتباط على الإطلاق كالارتباط القياسي الذي يوجد في أوزان اللغة العربية التي اطردت على قياس واحد».

وتكفينا هـذه الإشارات القليلـة لإدراك طـرف مـن أسـباب وصـف اللسـان العربي ـ في القرآن الكريم ـ بأنه (مبين) وأسباب مقابلته في الوقـت نفسـه باللسـان الأعجمي، الذي ينطبق على سائر الألسنة الأخرى[(١)]، قال تعالى في سـورة النحـل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [١٠٣].

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [١٩٢ ـ ١٩٥]. كما تكفينا هـذه الإشارات لمعرفة السبب الذي نزل القرآن الكريم من أجله بلغة العرب؛ فاللسان العربي المبين أو بوصفه لسانًا مبينًا، هو أوفر الألسنة ـ التي وزّعها الله تعالى على الشعوب والأقوام ـ حظًا لينزل به كتاب الله تعالى المعجز بلفظه ومعناه جميعًا؛ قال

---

(١) يمكننا القول إن عدم الفصاحة الذي توصف به بعض الكلمات أو الجمل والتراكيب في اللغة العربية مردّه إلى سوء الاستخدام للمدرج الصوتي، أو لجهاز النطق الإنساني في هـذه الكلمات أو التراكيب ـ فقط ـ على ندرتها في اللغة العربية، وليس مردّه إلى عدم التفنّن في استخدام هـذا الجهاز على الوجه الأمثل، لأن هـذه حال اللغات الأخرى.

ولهـذا فإن هـذا الاستخدام السيئ ـ أو الضعيف ـ يبدو في اجتماع نوع واحد أو متقارب من الحروف في كلمة واحدة، مثل كلمة «الهُعْخُع» التي توالت فيها حروف الحلق على هـذا النحو. أو اجتماع هـذه الحروف في كلمات متجاورة، كقول الشاعر: «وليس قربَ قبر حرب قبر»! **وفحوى ذلك أن عدم الفصاحة يعد من مثالب الاستخدام لا من مثالب اللغة أو اللسان!**

ولهـذا أيضًا كان من أسباب إعجاز النظم الموسيقي في القرآن رصْفُ حروف اللغة العربية على اختلاف صفاتها وموقعها من جهاز النطق الإنساني، على هـذا النحو الذي بلغ قمة السلاسة والعذوبة في الآيات والسور القرآنية.. والذي بلغ الذروة العليا من الفصاحة والبيان في جميع مفردات القرآن وجمله على حد سواء.

تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢].

واللغة الشاعرة بحروفها ومفرداتها وإعرابها.. هي أوفر لغات الأرض حظًا لينزل بها هـذا الكتاب الخالد.. **والذي أراد الله سبحانه أن يفوق بإعجازه الشعر في وجازته وتأثيره، وفي لحنه وموسيقاه**[(١)]! فالتعبير القرآني كما هو معلوم ليس فيه قافية الشعر الموحدة، ولا تفعيلاته التامة، ولـكن القرآن الكريم قابل للتلاوة ترتيلاً وتجويدًا، وعلى النحو الذي يتسع للألحان والأوزان، ففاق بذلك الشعر، وكان نثرًا من نوع فريد.. حتى كان قابلاً للحفظ عن ظهر قلب خلال شهور، وربما خلال أسابيع، ولا يدانيه في ذلك أي خطبة بليغة من خطب فصحاء العرب، ولا أي نصٍّ من نصوص «النثر» الرفيعة في تاريخ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام.

ونشير هنا إلى أن نزول القرآن الكريم بـ(اللغة الشاعرة) أغنته، من أجل حفظه وتلاوته على الوجه المذكور، عن أن يكون شعرًا.. وبخاصة أنه بلغ بهـذه اللغـة أو هـذا اللسان، حد الإعجاز. كمـا أن هـــذه اللغـة ـ الشـاعرة ـ لا بـد في شـعرها أن تكون (أوزانه) ذات دلالة إضافية.. فوق أوزان الصيغ والكلمات، ولهـذا فـإن مـا ينطبق على (الشعر) في اللغات الأخرى لا ينطبق عليها بالضرورة. ومـن هنـا جـاء

---

(١) نقلت الدكتورة «شيمل» عن الشاعر والكاتب الألماني «فردرش ركارت» قوله: **إن الشعر هو اللغة الأم للجنس البشري**. راجع كتاب: سيقهر الماء.. المشار إليه، ص٥٩.

قلت: هل يمكننا القول تعقيبًا أو تعليقًا: إن اللغة الشاعرة هي أم اللغات أو اللغة الإنسانية النموذج أو المثال؟ نعتقد ذلك.

استغرابنا لما يسمى ـ عندنا ـ (قصيدة) النثر! أو الشعر المنثور!! بغض النظر عن الإبهام الشديد.. الذي وصل إلى حد «الباطنية» التي غلبت على معظم هذا الشعر المزعوم.

فإذا أضفنا إلى ذلك ـ بهذه المناسبة ـ الإشارة إلى «النظم» القرآني المتفرّد أو إلى بناء هذا النص الإلهي في جُمله وآياته وسوره ـ أو ما يمكن تسميته بروحه أو روح التركيب فيه ـ جاز لنا أن نقول كذلك: **إن من استقام لسانه بهذا الكتاب المعجز، استقام بأي نص من لغة العرب وآدابها في الجاهلية والإسلام، ولا عكس.** وقد يكون التدليل على هذا الأمر بحاجة إلى دراسات نظرية وتطبيقيه موسّعة. ولكن القدر الذي يمكننا الإشارة إليه في هذه العجالة: أن بلاغة هذه اللغة وشاعريتها الظاهرة في حروفها ومفرداتها وقواعدها وعباراتها ـ والتي تحدث عنها العقاد ـ تبلغ ذروتها أو درجتها «الإعجازية» في هذا الكتاب الكريم الخالد، فضلاً عن الأثر البيّن لتلاوته وتجويده في تطويع الألسنة على بليغ القول وتنمية مهارات اللسان، والإمداد بثروة كبيرة من العبارات والمعاني الدقيقة التي لا تقتصر على العالِم دون الجاهل، ولا على الكبير دون الصغير. بل إن القرآن الكريم بوصفه الكتاب الجامع لأفصح التراكيب اللغوية وأجمل الصيغ البلاغية التي تنطبع في الذاكرة.. يحمي الطفل حين يبدأ بحفظ القرآن وهو في سن الخامسة أو السادسة على سبيل المثال.. من مرض الازدواج اللغوي؛ كما يعطيه زخمًا إيمانيًا وصلة بالغيب، وصلابة خلقية لا تتخلى عنه طيلة حياته! والله أعلم.

ثانيًا ـ العرب والقرآن:

لقد نزل القرآن الكريم في العرب وبلغتهم، وبُعث النبي العربي القرشي

الهاشمي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين ظهرانيهم، وأطلّ العرب بهـذا الكتاب الكريم على العالم رسالة إنسانية ورحمة للعالمين.. دورهم فيه دور التبليغ والهداية والجهاد، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، لا دور المدلّ بعصبية أو عنصرية، بل دور التكليف الأشد والجهاد الأفضل، لأن المزايا الإنسانية تكليف وأعباء لا متع وأزياء! قال الله تعالى في سورة الزخرف مخاطبًا نبيّه الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [٤٣ ـ ٤٤].

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى (٤٣): (أي خذ القرآن المنزل على قلبك؛ فإن هـذا هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم) وقال في معنى الآية الثانية (٤٤): (إن القرآن شرف للنبي ولقومه.. من حيث إنه نزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعمَلَهم بمقتضاه)[1].

قلت: إن الله تعالى لم يُنَوِّع بين الأمم والشعوب، ولم يميِّز بعضَها عن بعض بميزات عقلية أو أدبية أو علمية إلا لتُكمل البشرية بعضُها بعضًا لا ليفخر بعضها بذلك على بعض؛ لأن الفخر بمثل هـذه الأمور الفطرية التي لا حيلة للإنسان في كسبها أو دفعها ـ كاللون أو الجنس ـ لا يعدو أن يكون طورًا من أطوار الطفولة أو المراهقة، أو مرحلة من المراحل السابقة للرشد الإنساني! ولقد كان يجب على الإنسانية أن تتجاوز تلك المراحل من حين نزل قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، لأن هـذه الآية الكريمة تشير بعد ذلك إلى ميزان

(١) تفسير ابن كثير الجزء الرابع، ص١٢٨، دار المعرفة، لبنان.

التفاضل الحقيقي، وأنه ينبع من الأعمال الكسبية، ومن الإرادة الحرة، والعزيمة النافذة، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

أي إن ميزان التفاضل لا ينبع من تلك الخصائص التي امتاز بها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، لأن ذلك التفاضل أريد به التأكيد على وحدة المجتمع الإنساني وتعارفه، لا تناكره واختلافه!.. كما أن لكل فضيلة ضريبتها أو تبعاتها وتكاليفها الخاصة بها، أو التي تتناسب مع حجمها وطبيعتها! قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»[1].

ونحن لا نشك في أن خلاصة الفضائل الإنسانية، أو مكارم الأخلاق التي جاء بها القرآن الكريم بوصفه كتاب الإنسانية الأخير الذي نزل به الوحي الأمين.. تَمَثَّل منها عند العرب في جزيرتهم، فطرة واستعدادًا، ما لم تملك مثله أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، أو قبيلة من القبائل.

أقول: فطرة واستعدادًا، تمييزًا لهذه الأهلية من حيث الفطرة والاستعداد، عن واقع العرب وسلوكهم وممارساتهم في الجاهلية. فالعرب أصلح شعوب الأرض قاطبة لنزول القرآن فيهم وبلغتهم، وللنهوض بحمل أعباء رسالة الإسلام الإنسانية؛ **فطرةً واستعدادًا، ومواهب وملكات، لا واقعًا وسلوكًا وممارساتٍ**.. في لحظة تاريخية غلبت عليها الحروب والمنازعات، أو سرت إليها بعض الأخطاء والنقائص في الاقتصاد والاجتماع وسائر شؤون الحياة.. ومن هنا جاء قول النبي ﷺ: «**تجدون الناس معادن،**

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بإسناد حسن. وابن ماجه والحاكم ـ وقال: على شرط مسلم ـ بزيادة: «لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر..» إلخ الحديث بعد قوله: «ثم الصالحون». فيض القدير للمناوي، (١/ ٥١٩ ـ ٥٢٠).

فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه» ـ رواه الإمام مسلم ـ وهذا أيضًا ما دل عليه دعاء النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذي والإمام أحمد: «**اللَّهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر ابن الخطاب**» فإن الدعاء لأحدهما على هذا النحو يدل على إمكانية ترقي كل منهما، بناءً على موهبته واستعداده، في المعارج التي ارتقى إليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أسلم، والمكانة التي تبوأها في التاريخ الإسلامي والإنساني، في حين توارت مواهب عمرو بن هشام ـ أبي جهل ـ التي لم تكن بأقل من مواهب ابن الخطاب، وراء رمال الجزيرة، قتلتها العداوة، ودفنها الصلف والجحود! وإن شئت قلت: ضاعت تلك المواهب، أو تلك الفطرة وذلك الاستعداد.. حين لم تتصل بالإسلام، أو حين كفر صاحبها بمحمد والقرآن!

وقد أشار **شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله**، في سياق حديثه عن الخصائص العقلية والبيانية، وسائر الخصائص الأخرى التي فُضّل بها العرب.. إلى نحو هذا التفريق الذي قدمناه، فقال:

«وسبب هذا الفضل ـ والله أعلم ـ ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم.. وذلك أن الفضل إما **بالعلم النافع، وإما بالعمل الصالح**.

«والعلم له **مبدأ**: وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم. وتمام: هو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. والعرب هم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة. **ولسانهم أتمّ الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني**..

«وأما **العمل** فإن مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة. لكن كانوا **قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطّلة عن فعله**. ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي،

ولا هم أيضًا مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة. إنما علمهم ما سمحت بـه قرائحهم من الشعر والخطب، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، وما احتاجوا إليـه في دنياهم من الأنواء والنجوم، أو من الحروب.

«فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالهدى، الذي ما جعل الله في الأرض، ولا يجعل أعظم منه قدرًا، وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادة الجاهلية والظلمات الكفرية، التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتهم، فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم، واستنارت بهدي الله الذي أنزل على عبده ورسوله، **فأخذوا هـذا الهدي العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم**، بمنزلة أرض جيدة في نفسها، لـكن هي معطلة عن الحرث، أو قد نبت فيها شجر العضاة والعوسج، وصارت مأوى الخنازير والسباع، فإذا طهرت عن المؤذي من الشجر والدواب، وازدُرع فيها أفضل الحبوب والثمار، جاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله»[(١)].

أشار ابن تيمية رحمه الله في هـذا الكلام الناصع إلى مزية اللسان العربي على كل لسان ـ المسألة التي عرضنا لها في النقطة السابقة ـ كمـا أشـار إلى مـدى المواءمـة والتوافق بين الكمال بالقوة أو الكامن في فطرة العرب، وكمال القرآن ـ والشريعة ـ الذي أنزله الله تعالى فيهم، أو بعبارة أخرى مدى المواءمـة والتوافـق بـين العـرب ورسالة الإسلام.. أو بين مواهب العرب وخصائص الإسلام.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦١١ ـ ٧٢٨هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي، ص١٠٦ ـ ١٦٢، المطبعة السلفية.

ونحن لا نشك في أن نزول القرآن ورسالة الإسلام في العرب، واختيار خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام منهم، كان بسبب ما تمتعوا به من الصفات النفسية والذهنية، وما عرفوا به من الفضائل الحميدة، والصفات الكريمة، كالصبر والصدق والكرم والشجاعة والأمانة، وصلة الرحم، والدفاع عن المظلوم، والوفاء بالوعد... إلخ، فضلاً عن تأثرهم الشديد بالكلام وما ينطوي عليه من أسباب البلاغة والبيان.

وعلينا أن نلحظ هنا، شرحًا لهذه النقطة، وتعقيبًا على تفريقنا المشار إليه بين المواهب والفطرة والاستعداد ـ أو الكمال بالقوة المخلوقة في العرب بحسب عبارة شيخ الإسلام ـ (والواقع) الذي كان عليه القوم عند بعثة النبي ونزول القرآن.. علينا أن نلحظ أن جزءًا كبيرًا من هذا الواقع السيئ أو الفاسد، إن لم يكن الجزء الأكبر والأهم، **كانت دوافعه نبيلة، ومقاصده حسنة!** وإنما لحقه الخطأ والفساد من اختيار الطرق والوسائل، أو من المغالاة التي قد توقع صاحبها في أسوأ مما كان يحذر؛ كوأد البنات خشية العار على سبيل المثال. ومن المعلوم أن من أسوأ أعمال العرب في الجاهلية: معاقرة الخمر، ولعب الميسر والقمار. وإنما حملهم على هاتين الخلّتين: **الجود والكرم، والرحمة بالفقراء والمساكين**. أما الخمر فقد أطنب الشعراء في مدحها لأنها تعلّم الخروج عن المال، وتعوّد على البذل والسخاء، وأما الميسر فكان الفائز أو الرابح لا يأخذ من الإبل التي جرت عليها المقامرة شيئًا! بل يجعل لحومها للفقراء والمساكين. وهذه هي المنافع التي تعود على (الناس) من الخمر والميسر، والتي أشارت إليها الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وقد سمّى العلامة الهندي عبد الحميد الفراهي ـ الملقّب بالمعلّم ـ أوضاع

العرب الفاسدة التي كانوا عليها في الجاهلية «سيئات»، وذهب في تعليل دوافعها النبيلة، ومقاصدها الأخلاقية الحسنة، إلى حد القول: إن هذه السيئات نبعت من الخيرات، قال رحمه الله:

«فإن العرب على علاتها كانت على سذاجة الفطرة، وحب المعالي؛ من الجود وصلة الرحم، والغيرة، والشكر، ولاسيما شرفاؤهم وخيارهم، حتى **إن سيئاتهم نبعت من الخيرات**، فمعاقرتهم للخمر ومقامرتهم للميسر، جاءت من الجود. وحروبهم: من أداء حق المقتول. والغضب: للقسط. وظلمهم: من إباء النفس عن الدنيّة، ولذلك رحموا الضعفاء والأرامل، ولم يقتلوا في الحروب الإماء ولا الأطفال، ولم يرهقوا المنهزمين. وإنما بقوا على الفقر وسوء العيش لإبائهم عن الطاعة لملك يجمع أمرهم، إلا من لا يتكبر عليهم، ويعدل بينهم، ويكون كأحدهم؛ كما كان الشيخان ـ في الإسلام ـ وذوو أمرهم في الجاهلية. فأملكهم وأقهرهم: أعدلهم! كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه **فلم يرد إلا أن يقهرهم بكمال عدله**»[1].

وقبل أن نختم هذه الفقرة، نشير إلى ما قاله النبي الكريم نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في أخلاق العرب في الجاهلية.. فقد جاء في حديث مطوّل أن رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعلي، مرّ حين كان يعرض نفسه على القبائل في موسم الحجّ «على بني شيبان بن ثعلبة في مجلس عليهم السكينة والوقار» فتقدم أبو بكر فسلّم، قال علي: وكان أبو بكر مقدمًا في كل خير. وعرّفهم برسول الله ﷺ، فقال

(١) نقلاً عن الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ص١١، السنة السادسة، العدد الثالث عشر، رمضان ١٤٠٩هـ.

مفروق ـ وهو من سادتهم ـ: إلى ما تدعو **يا أخا قريش**؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال: **أدعو إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني وتنصروني**.. وتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقال مفروق: وإلى ما تدعو أيضًا **يا أخا قريش**؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

فقال مفروق: دعوت والله **يا أخا قريش** إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والله لقد أَفِكَ قوم كذّبوك وظاهروا عليك..

وقال هانئ بن قبيصة ـ وهو صاحب دينهم ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أنّ ترْكَنَا دِينَنَا واتِّبَاعَنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، زلّة في الرأي، وقِلّة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة من العجلة! ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر..

وقال المثنى بن حارثة ـ وهو صاحب حربهم ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا.. وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ـ وقد نزلوا بين أنهاره ومياه العرب ـ أن لا نحدث حدثًا، ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعوننا إليه مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا..

فقال رسول الله ﷺ: «**ما أسأتم في الردّ إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن**

ينصره إلا من حاطه بجميع جوانبه، أرأيتم إن تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم..» الحديث.

«ثم نهض النبي ﷺ فأخذ بيد أبي بكر، فقال: يا أبا بكر، يا أبا حسن! **أيَّةُ أخلاق في الجاهلية ما أشرفها! بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم»**[1].

قلت: والناظر في هذا الحديث، أو هذا الحوار بنصّه في كتب السيرة ـ وقد طوينا بعض جوانبه المطوّلة ـ لا يصعب عليه أن يهتدي إلى ما كان عليه أمر القوم، أو هذا الحي من أحياء العرب من نظام وشورى، وإنزال الناس منازلهم، ومعرفة لكل ذي حقٍّ واختصاصٍ حقَّه وقَدْره، إلى جانب ما تمتعوا به من أدب وحسن استقبال، وأناةٍ، وبصر بالسياسة وعواقب الأمور، وحفظ للمواثيق والعهود.. فوق ما عرفوا به جميعًا من الشجاعة ونصرة المظلوم، وما انطوى عليه لسانهم من بلاغة وبيان، وقدرة فائقة على الخلوص وحسن التعبير!..

خلاصة وتعقيب:

وأخيرًا: فإن الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها من خلال هذا العرض الموجز للنقطتين السالفتين: أن هذا الاختيار الإلهي للعرب ـ قومًا ولسانًا ـ لينزل القرآن الكريم بلغتهم، وليكلَّفوا بحمل أعباء رسالته إلى العالمين.. يتساوق

---

(١) «الروض الأنف» للفقيه النحويّ المحدِّث أبي القاسم السهيلي، (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢) طبعة الإمبابي بمصر ١٩٧٢. وانظر الطبعة الأخرى بتحقيق عبد الرحمن الوكيل (٤/ ٦١). والحديث أخرجه الحاكم وأبو نعيم والبيهقي بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر الزرقاني في شرحه على المواهب» (١ / ٣٠٩).

أو ينسجم تمامًا مع الطابع الإنساني، العام والخالد، لهـذه الرسـالة. بـل إن هـذا الاختيار في الواقع يومئ إلى هـذا الطابع الإنساني ـ لا القومي ـ ويـدل عليـه! لأننـا حين أنعمنا النظر في لغة العرب، وجدنا أنفسنا أمام لغة إنسانية، كما وصفها العقاد بحق. وحين نظرنا في جماع الفضائل الإنسـانية التـي جـاء بهـا القـرآن، مـن جهـة، وحقيقة البواعث الأخلاقية وجملة الملكات والخصـائص النفسـية والعقليـة التـي تؤهل أصحابها للنهـوض بتبعـات التكليـف بأحكـام الإسـلام عـلى نحـو شـامل ومتوازن، من جهة أخرى، وجدنا أنفسنا أمـام جيـل العـرب كـذلك.. والله أعلـم حيث يجعل رسالته.

❁❁❁

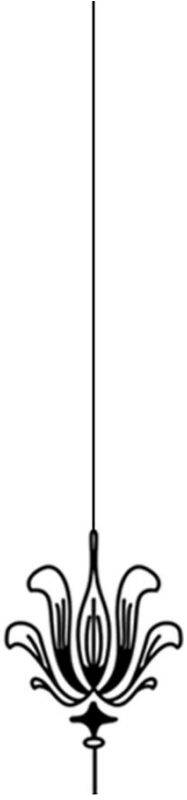

الفصل الثاني

أثر القرآن الكريم في اللغة العربية

- أولاً: أثره من الوجهة التاريخية.
- ثانياً: الأثر الموضوعي للقرآن الكريم في اللغة العربية.

الفصل الثاني

أثر القرآن الكريم في اللغة العربية

يبدو هـذا الأثر من وجهتين: تاريخية وموضوعية.

أولاً ـ أثره من الوجهة التاريخية:

يمكن تلخيص هـذا الأثر الذي تركه القرآن الكريم في اللغة العربية بأنـه كـان لها قوة دافعة، من جهة، وقوة واقية أو حامية، من جهة أخرى:

أ ـ القوة الدافعة:

ونعني بالقوة الدافعة: أن القرآن الكريم كان لهـذه اللغة قوة كبيرة جدًا دفعـت بها خارج حدودها، أو خارج نطاق الجزيرة العربيـة، فقـد عـرّب القـرآن العـراق والشام، ومصر وسائر بلاد إفريقية الشمالية، مع حركة الفتح العربي الإسلامي، أو مع المدّ الإسلامي الأول زمن الخلفاء الراشدين، وملوك بنـي أميـة. يقـول شـيخ الباحثين في قضايا العروبة والقومية الأستاذ ساطع الحصري رحمـه الله: إنـه يجـب «أن لا يغرب عن البال أن العرب قبـل الإسـلام كـانوا قليلـين، كمـا أن مـواطنهم كانت محدودة نسبيًا، فإن البلاد التي تستحق النعـت بالعربيـة كانـت منحصـرة في الجزيرة العربية، وبحافّات بعض البلاد المجاورة لها، وأما حدود العروبة إلى سائر أنحاء العالم العربي الحالي، فقد تمّ بفضل الفتوحات العربية التي سارت تحت راية

الإسلام. فإن معظم أقسام العراق والشام، وجميع أنحاء إفريقية الشمالية ـ من مصر والسودان إلى المغرب الأقصى ـ كانت غير عربية، ولم تستعرب إلا بعد الإسلام.

«وليس معنى ذلك أن العرب بقوا منطوين على أنفسهم في جزيرتهم على كرّ الأزمان، بل إنهم كانوا ينزحون من الجزيرة إلى تلك البلاد المجاورة، إلا أن قبائلهم التي نزحت قبل حمل رسالة القرآن كانت تفقد صلاتها مع موطنها الأصلي وتتعرض إلى سلسلة من الأحداث والتطورات التي تنسيها ماضيها، وتؤدي إلى اندماجها بسكان البلاد التي تستوطنها». ويضيف ساطع الحصري قائلاً: «ولكن الموجة البشرية التي تدفقت من الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام، (**قلت**: أو التي رفعت راية الإسلام، ومشت في ركاب الفتح، للهداية والتحرير) قد امتازت عن سابقاتها من هذه الوجوه امتيازًا هامًا جدًا، إنها لم تفقد صلتها بمنبعها الأصلي، بل ظلت وثيقة الاتصال به من الوجهتين المادية والمعنوية، وفضلاً عن ذلك استطاعت أن تنشر لغتها في مواطنها الجديدة، وانتهت إلى تعريب سكان أقطار واسعة من البلاد المفتوحة تعريبًا تامًا»[(١)].

هذا هو دور القوة الدافعة الذي تمّ بفضل القرآن الكريم، والذي يمكن تلخيصه **بنشر اللغة العربية وتوسيع آفاقها**.

يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم ترك أثرًا واضحًا في لغات الشعوب الإسلامية التي آمنت بالقرآن، ولكن لم يكتب لها أن يتعرب لسانها، كالفارسية والتركية، وأثرًا آخر أكثر وضوحًا في اللغات التي شاركت لغة القرآن في صنعها بين

(١) ساطع الحصري: ما هي القومية؟ ص٢٠٦، الطبعة الثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.

ظهرانيهم، كالأُردية على سبيل المثال. بالإضافة إلى إصابة هذه الشعوب جميعًا قدرًا لا بد منه من اللغة العربية، وهو القدر الذي تقيم به بعض سور القرآن الكريم لأداء الصلاة والعبادة وبعض الأدعية والقراءات والأحكام الدينية الأخرى.

وإن من أهم الأمور التي يجب اعتبارها في هذا الموطن أن القرآن الكريم قد تُعبّد المسلمون بتلاوته بألفاظه وحروفه. لأن التحدي ـ كما سنرى في تعريف القرآن ـ قد وقع بلفظه ومعناه، ولهذا لم يكن القارئ لترجمته قارئًا للقرآن، وعلى هذا: لا يترتب على تلاوته هذه أي أثر من آثار الثواب الذي وعد به النبي ﷺ قارئ القرآن، وهو أن له بكل حرف عشر حسنات ـ كما جاء في الحديث ـ قال النبي ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف**»[(١)] ومعنى ذلك أننا نملك معادلتين اثنتين، تنص الأولى على ثواب قارئ القرآن وتحض المسلمين ـ كل المسلمين ـ على تلاوته وتدبره. وتنص الثانية على أن الترجمة لا تعدّ قرآنًا، كما أجمع على ذلك العلماء في جميع العصور. قال الإمام النووي: «لا تجوز قراءة القرآن بالعجمية سواء أحسن العربية أو لم يحسنها، وسواء أكان في الصلاة أم في غيرها؛ فإن قرأ بها في الصلاة لم تصح صلاته، هذا مذهبنا ومذهب مالك وأحمد وداود وأبي بكر ابن المنذر»[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه (٢٩٢١) في ثواب القرآن: باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، وحسّنه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. قال محققا «زاد المعاد» لابن القيم: وهو كما قالا. انظر زاد المعاد (١/ ٣٣٩)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، طبع مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص٥٢، طبع دار المعرفة بدمشق.

قلت: وبهـذا يغدو التعريب بالقرآن وتحت رايته جزءًا لا يتجزأ من رسالة الإسلام.

حول تخلف حركة انتشار العربية عن انتشار الإسلام:

إن لتخلف حركة التعريـب عـن انتشـار الإسـلام في بعـض المـواطن أسـبابًا تاريخية وموضوعية لا مجال هنا للإفاضة في الحديث عنها، ولـكن في وسـعنا أن نشير إلى أن انتشار الإسلام الذي تمّ في جزائر الهنـد الشـرقية ووصـل إلى أقاصـي إندونيسيا قد تمّ بجهود أفراد من التجار الذين كانوا يرحلون من جنـوب الجزيـرة العربية بحرًا بالسفن الشراعية، وإن هـؤلاء مع بعض الدعاة القلائل كانوا قـادرين على دعوة الناس إلى الإسلام بعملهم وقولهم، ولـكنهم لم يكونوا يملكـون القـدرة على تحويل الناس عن لغة معاملتهم وخطابهم.. هـذا بالإضافة إلى ما تـمّ في هـذه البلاد من تعريب شامل في معاهد العلم الديني والدراسات الإسلامية بعـد ذلـك. وقل مثل ذلك أو قريبًا منه في انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء.

كما أن انتشار الإسلام في بعض المراحل تمّ على أيـدي المغـول وعـلى أيـدي السلجوقيين العثمانيين، بُعيد حملهم لرسالة القرآن، وقبـل أن يتعلمـوا هـم لسـانه العربي المبين.

أما البلاد التي دخلها القرآن في زمن الفتوح الأولى، فإن اللغة العربية لم تنحسر عنها، والمثال الرئيس أو الوحيد هنا هو بلاد فارس، إلا بعد قرنين ونصف أو

ثلاثة قرون[١]، وبعد الحركات الشعوبية والانفصالية التي قادها حكام طامحون وقاوموا في تيارها ما يستطيعون مقاومته من عوامل الاستعراب.. على أن التعبير هنا بالانحسار لا يبدو أنه تعبير دقيق، فإن هـذا لم يتم في أي عصر من العصور.

يقول الدكتور طه حسين: «وما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون في بلاد فـارس ويستقرون فيها حتى تعلم الفرس هـذه اللغة الجديدة، وغلبـت عـلى ألسـنة كثيـر منهم وأقلامهم، وما أكثـر الفـرس الـذين شـاركوا في إنشـاء علـوم اللغـة العربيـة وتدوينها، وما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هـذه العلوم حتى أصبحوا كأنهم أصحابها، وكلنا يعلم أيضًا استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية».

---

(١) فتح العرب بلاد فارس وأهلها يتكلمون البهلوية (لغة المرحلة الوسطى بين لغتهم القديمة قبل فتح الإسكندر لبلادهم، ولغتهم الحديثة التي نشأت في منتصف القرن الثالث الهجري) فلما احتكت اللغة العربية بالبهلوية صارعتها فصرعتها في الإنتاج العلمي والأدبي، واستأثرت به أطول من قرنين، إذ صارت لغة النابهين من أبناء الفرس، إلى أن بعثوا ـ أو أسسوا ـ اللغة الفارسية الحديثة محاكية للعربية، ثم زاحمتها شيئًا فشيئًا حتى استقلت. وعلى الرغم من أن هـذه اللغة الحديثة ولدت من هـذا الامتزاج بالعربية (امتزاج اللغة الفارسية الوسطى أو البهلوية بالعربية بعد الفتح العربي الإسلامي) فإن الفرس حاليًا لا يستطيعون قراءة أي عبارة من اللغة البهلوية، لأنها سقطت من الاستعمال مع ولادة الفارسية الحديثة. ولا تبلغ (أرومة) المفردات الباقية فيها من تلك اللغة أكثر من ١٥ ـ ٢٠ بالمئة. كما أن هـذه اللغة الحديثة تضم نحوًا من ٢٠ بالمئة من المفردات التركية والإنجليزية والفرنسية، في حين تبلغ نسبة الكلمات العربية فيها أكثر من ٦٠ بالمئة، وتكاد تكون أسماء المعاني ـ فيما نلاحظ ـ كلها عربية، فضلاً عن تأثر النحو الفارسي بالنحو العربي، ومحاكاة العروض الفارسي لعروض الشعر العربي في دوائره وبحوره ومصطلحاته، واعتماد الأدب الفارسي في نشأته على الأدب العربي. راجع كتاب: تيارات ثقافية بين العرب والفرس للأستاذ الدكتور أحمد محمد الحوفي رحمه الله، ص٢٨١، الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر، ١٩٧٨م، وانظر فيه الصفحات ٢٨٩ ـ ٣٠٢.

ويضيف الدكتور طه: «ومع أن الفرس قد أحبوا لغتهم الفارسية ونظموا فيها الشعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة، فقد ظلت اللغة العربية لغة العلم والفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى!! وانظر إلى كتب ابن سينا والتفتازاني والسيد الجرجاني والطوسي وغيرهم، وكل هـذا بفضل القرآن الكريم، فبفضله انتشر الإسلام»[(١)].

القرآن هو القوة الدافعة وليست السلطة الحاكمة!

ولا يحسن إنهاء هـذا الحديث الموجز عن القوة الدافعة التي أصـابتها اللغـة العربية بفضل القرآن الكريم، قبل الإشارة إلى أنه لا يصح تفسير هـذا المد الواسع الذي أصابته اللغة العربية بغير عوامل جلال القرآن ورسالته، وعامل حـب هـــذه اللغـة وتفضـيلها عـلى اللغـات المحليـة الخاصـة السـابقة لـدخول أصـحابها في الإسلام، ولهـذا فإن من فساد الرأي ما ذهب إليـه بعـض البـاحثين مـن أن اللغـة العربية اعتمدت في انتشارها على السلطة الحاكمة، أو السـلطة الغازيـة، لأن هـــذه المنطقة غُزيت قبل الإسلام وأيّدت لغة الغازي بالسلطة السياسية، لـكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بتراثها ولغتها، وبقيت متشبثة بها حتى دخول الإسلام، ثم تمّ هـذا التخلّي بعد ذلك في ظل القرآن، وغير بعيد في الوقت نفسه عن قوانين علم الاجتماع، تقول الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمـن رحمها الله تعالى:

«ولم يكن موقف الشعوب من لغة القرآن أن فرّطت في ألسنتها فجأة، أو

---

(١) من المقدمة التي كتبها الدكتور طه حسين لكتاب: القرآن الكريم واللغة العربية للشيخ أحمد حسن الباقوري، طبع دار المعارف

أكرهت على التخلي عنها بحد السيف، كما ذهب المؤرخ (فيليب حِتي) في تاريخه الكبير، ولا صدرت قوانين ملزمة به من الدولة، وإنما مر الصراع اللغوي في مراحله الطبيعية التي تحكمها سنن الاجتماع، فبدأ بمرحلة عزلة تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الإقليم قربًا وبعدًا، وميراثه الفكري والحضاري ومسلكه الصوتي واللغوي..» ثم تقرر أن هـذه «المرحلة اللغوية لم تطل، والقرآن هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا»[(١)].

وتقول في التعقيب على انتصار العربية على اللغـات الأجنبيـة المفروضـة عـلى المنطقة ـ الرومانيـة واليونانيـة والفارسـية والبيزنطيـة ـ ثـم في مواجهتهـا للغـات الوطنية:

«وكان من المتصور أن تجمع هـذه الشعوب بين العربية: لغةَ دين، وبين لغاتها القومية التي صانتها طويلاً ضد الغزو، لغةَ حياة، ولـكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام، بل تركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة في الإسلام»[(٢)].

لقد كان انتصار اللغة العربية في هـذه المعركة حاسـمًا في الوقـت الـذي شـق الإسلام طريقه إلى العقـول والقلـوب. ولهـذا فـإن بعـض البـاحثين أعـاد هـذا الانتصار على نحو مباشر إلى (**السلطان الديني للإسـلام**) الـذي اختارتـه الأغلبيـة

(١) كتاب: لغتنا والحياة للدكتورة بنت الشاطئ.

(٢) لغتنا والحياة.

الساحقة من هذه الشعوب، أو الذي لم يكرهها أحد على اعتناقه ـ كما قالت الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن عليها رحمة الله ـ قال الأستاذ المحقق عبد السلام هارون رحمه الله: «ولقد بلغ من السلطان الديني للإسلام أن استطاع أن يمحو اللغة القبطية في مصر، التي كانت تطورًا من اللغة المصرية القديمة الحضارة، في زمن وجيز، وأن يقضي كذلك على لغة القرطاجنيين وغيرهم في شمال إفريقية، وعلى لغة النبط في شمال العراق، وأن يقلص ظل اللغة الروميّة من الأطراف الشمالية لبلاد الشام»[(١)].

ويقول الأستاذ الدكتور أحمد محمد الحوفي رحمه الله: إن مصر اختفت منها كل من اللغة القبطية واليونانية، وكانت الأولى لغة التخاطب، والثانية لغة الأدب والشؤون الرسمية، قال: «وتوارت البربرية من شمال إفريقية ـ ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ـ وانكمشت الفارسية في العراق وفارس، وانزوت اللهجة النوبية من بلاد النوبة. ثم بعد حين توارت اللهجة السودانية والكوشيتية من السودان. ولم تظهر واحدة من هذه كلها بعد اختفائها، ما عدا الفارسية التي استطاعت أن تسترد حياتها منذ القرن الرابع للهجرة»[(٢)].

ب ـ القوة الواقية:

أما «القوة الواقية» أو دور حفظ اللغة العربية وتحصينها، الذي تمّ بفضل «وجود» القرآن الكريم فهو أخطر دور يمكن أن يؤديه كتابٌ لِلُغةٍ من اللغات،

---

(١) قطوف أدبية ص١٦٠، ط١، عام ١٩٨٨، مكتبة السنة، القاهرة.

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ص٢٢٧، ٢٢٨.

هـذا إن وُجد كتاب آخر ـ سماوي أو وضعي ـ أدّى قريبًا من مثل هـذا أو عُشره في لغةٍ من لغات الأرض! وغني عن البيان أن مثل هـذا الكتاب ـ أيًّـا كـان مصـدره ـ ليس له وجود.

لقد وقف القرآن، وخصوصًا في الـزمن الـذي انقسـمت فيـه الدولـة العربيـة الإسـلامية إلى مـدن ودويـلات، حـائلاً وسـدًا دون سـريان اللهجـات المحليـة وانتشارها، ولـولا هـذا الكتـاب الكـريم الـذي صـانه الله تعـالى عـن التحريـف والتبديل، وتكفّل بحفظه إلى يوم الدين، لما كان نصيب اللغة العربيـة مـن التجـزؤ والانقسام بأقل منه في اللغة اللاتينية وما آلت إليه اليـوم.. وبفضـل هـذا الكتـاب الخالد بقيت الوحدة اللسانية ـ والفكريـة ـ قائمـة بـين شـعوب الأقطـار العربيـة، وبفضله كذلك نقرأ اليوم أدب العربية من عصر الجاهلية إلى العصر الحـديث.. في مدة ستة عشر أو سبعة عشر قرنًا من الزمان[1]! في ظاهرة فريدة عزيزة المنال.

يقول الأستاذ ساطع الحصري: «ومما يجب أن لا يغرب عن البال أن اللغة العربية بعد أن أصبحت لغة الجميع في هـذه البلاد الشاسعة (المشار إليها في الفقرة السابقة) تعرضت إلى محن خطيرة، مدة قرون طويلة، بسبب ما طرأ على

(١) هـذا هو منشأ هـذه الظاهرة الفريدة، بل لو قدر الله تعالى لرجل مات من ألف عام أن يسمع اليوم المتحدثين بالعربية لعرفها وما أنكرها، وربما علل بعضهم ما أشرنا إليه من عدم تعرُّض العربية لخطر التفكك والانحلال بأن ذلك يعود إلى عناية علماء الإسلام بضبط لغتهم، وذلك من أجل المحافظة على القرآن الكريم. وهـذا عندنا وارد بدون شك وإن كان أقرب إلى تصوير المسألة بطريقة معكوسة، لأن ذلك الضبط لم يكن في وسعه حماية اللغة العربية من تلك الأخطار لولا وجود القرآن الكريم نفسه. ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كان «باعثًا» على ضبط اللغة العربية وحافظًا لها في نهاية المطاف.

العالم العربي من التفكك السياسي، والجمود الفكري والاجتماعي، والانحطاط الثقافي، لأن كل ذلك كان من شأنه أن يؤدي إلى انحلال الروابط المادية والمعنوية بين مختلف الأقطار العربية، ويفسح مجالاً واسعًا لتغلب العامية، ويطلق العنان للهجات المحلية. ولذلك أصبحت اللغة العربية معرضة لخطر التفكك التام، والتفرع إلى لغات عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافًا كبيرًا، لا يترك مجالات لتفاهم المتكلمين بها.. وذلك مثلما حدث للغة اللاتينية»[١].

ويضيف الحصري: «وغني عن البيان أنه لو حدث ذلك، لأدى حتمًا إلى انشطار الأمة العربية إلى أمم مختلفة، ولما بقي على البسيطة شيء يستحق التسمية باسم القومية العربية».

ثم يقول: « **ولكن القرآن وقف سدًا منيعًا أمام هذه الأخطار الجسيمة، وحال دون استشراء هذا التفكك**، وذلك لكونه عربيًا، ولكون الديانة الإسلامية تفرض على جميع المسلمين والمسلمات حفظ طائفة من آياته، وتلاوتها كل يوم عدة مرات خلال الصلوات».

القرآن الكريم وفشل الدعوة إلى العاميّة:

ونستطيع أن نقول في التعقيب على هذا الموضوع ـ بكلمة عابرة ـ: إن الدعوات المشبوهة إلى العامية ـ التي أرَّخت لها بدقة الدكتورة نفّوسة زكريا في كتابها: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر[٢] سيكون نصيبها الفشل

(١) «ما هي القومية؟» ص ٢٠٧.

(٢) طبع منشأة المعارف بالإسكندرية.

المحقق، لا نقول هـذا رجمًا بالغيب، ولـكن بالنظر إلى التاريخ الذي تحدثنا عنه قبل قليل، والذي أثبت استعصاء اللغة العربية الفصيحة على الاضمحلال والتفكك والزوال، ما دام القرآن موجودًا يعلن خلود لغته خلوده، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

إن التكفل الإلـهي بحفظ القرآن الكريم ـ بوصف الإسلام الدين الخاتم إلى يوم الدين ـ يتضمن تلقائيًا، أو في طياته تكفلاً بحفظ اللغة العربية من التحلل والتفكك والزوال.. فبقاء القرآن يعني بقاء لغته الشريفة! إن اللغة العربية لن يأتي عليها زمان ـ من وقت نزول القرآن إلى يوم الدين ـ تصبح فيه لغة ميتة أو تاريخية.. أو بحيث يصبح فهمها والتعامل معها ـ فضلاً عن استخدامها ـ لا يقوى عليه إلا الخاصة، أو يحتاج إلى ترجمان! ولسوف تبقى العربية مع ذلك التكفل الإلـهي لسانَ الملايين.. وبخاصة إذا تذكرنا أيضًا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وعلى الرغم من اعتقادنا الجازم بأن مسألة انتصار اللغة العربية الفصيحة على سائر اللهجات «والعاميّات» في البلاد العربية، مسألة محسومة، ولا تحتاج منا إلى جهد يذكر! فإننا ننظر إلى دعوة بعضهم ـ اليوم وبعد الاستعمار اللغوي الثقافي الطويل في الجزائر وغيرها ـ إلى الكتابة بالعامية ـ كسعيد عقل ولويس عوض وضربائهما ـ على أنها دعوات مشبوهة، هدفها الأخير قطع الأمة العربية الإسلامية عن ماضيها وتراثها وتاريخها، لتبدأ ـ على زعمهم ـ من الصفر، ولتتمزّق من ثم إلى شعوب متباينة وأمم شتى! وكأن أصحاب هـذه الدعوة ـ بالنظر إلى ما قدمناه من فضل القرآن الكريم ويده الطولى على العربية، بل ما منحه إياها من الشرف والرفعة والسموّ والقداسة ـ إن صح التعبير ـ يقومون بحركة التفاف وتطويق حول القرآن

الكريم نفسه، وحول الثقافة العربية والفكر الإسلامي على وجه العموم؛ علَّهم ينجحون حيث أخفق الكثير من محترفي الاستشراق والتبشير: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ثانياً ـ الأثر الموضوعي للقرآن في اللغة العربية:

أما الأثر الخاص أو الموضوعي الذي تركه القرآن الكريم في اللغة العربية، فأكبر من أن تتسع له هذه الصفحات أو المقدمات، وبحسبنا أن نشير إلى ما نقله السيوطي في التدليل على أن القرآن الكريم كان السبب المباشر في نشأة معظم علوم العربية والعلوم الإسلامية، وكيف أن العلماء تفرغوا على خدمته والعناية به في علوم كثيرة أنشؤوها لذلك.. وما زالت هذه العلوم تنمو وتتفرع حتى قامت على سوقها في القرنين الثالث والرابع الهجريين اللذين يمكن عدّهما أزهى عصور التأليف في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية.

وربما كان موضوع العلوم التي نشأت راجعة إلى القرآن الكريم، أو نشأت في سبيل خدمته وتيسير فهمه أدْخَل في الأثر التاريخي السابق، أو أدخل في باب الثقافة التي سنتحدث عنها في فقرة ثالثة. لكننا على كل حال نذكّر هنا بالآثار الموضوعية ـ المباشرة والمحدودة ـ الآتية:

١ ـ **توحد لهجات العرب**: كان للعرب قبل نزول القرآن الكريم لهجات كثيرة متباينة تربو على العشرين[(١)] ـ منها الرديء المستنكر؛ ومنها الفصيح المقبول ـ

(١) انظر الكتيب الخاص بهذه اللهجات بعنوان: لهجات العرب للعلامة المحقق أحمد تيمور باشا رحمه الله. المكتبة الثقافية بمصر، العدد ٢٩٠. وقد عدَّ من هذه اللهجات: القطعة: كقوله يا =

نتيجة لاختلاف الأقاليم وظروف الحياة البدوية والحضرية ونحو ذلك، ولـكنها على ذلك متقاربة في أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها، ولم تكن المغايرة بينها تخرجها ـ على كل حال ـ عن عدّها في الأصل لغة واحدة ذات قوانين تطرد في جميعها، ما عدا لغة حِمْيَر فإنها تخالف لغة مضر خلافًا ظاهرًا، ولا توافقها في أكثر أوضاعها ومقاييسها[1].

وإلى جانب هـذا الاختلاف من حيث هيئة النطق وما إليه مما يسمى باللهجة؛ فقد كان هنالك اختلاف لغوي آخر من حيث معاني الكلمات، عـلى نحـو مـا ذكـر السيوطي في كتابه المزهر وأكده ببعض القصص، على بُعد بعضها وغرابته!

=

بلحكم، بدل: يا أبا الحكم ـ فيقطع كلامه ـ. وهي لثغة في بني طيِّئ. والعجعجة: إبدال الياء ـ جميعًا ـ جيمًا في الوقف، نحو تميمج ـ في تميمي. وهي في قضاعة وناس من بني سعد. والعنعنة: إبدال العين من الهمزة. وتنسب إلى تميم، قال ذو الرمة: أعَنْ ترسمت (وفي رواية توسّمت) من خرقاء منزلة. أراد: أأن. (وقيل: إنها تعرض في لغة قضاعة) والكشكشة: إبدال الشين من كاف الخطاب، أو خطاب المؤنث، كقولهم: ما الذي جاء بش؟ يريدون: بك. والتلتلة: كسر أول حرف المضارعة. والطُمطمانية: ما يشبه كلام العجم، وتعرض في لغات حِمير، كقولهم: طاب أُمْهواء: يريدون: طاب الهواء. والطمطمة: إبدال اللام ميمًا. واللخلخانية في أعراب الشحر وعُمان، كقولهم: مشا الله كان، يريدون: ما شاء الله كان. والتضجع: إمالة الحرف إلى الكسر. والفحفحة: جعل الحاء عينًا.. إلخ. وانظر: فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي: الفصل ٢٣، ص١٠٧.

(١) اللغة العربية (لغة مُضر أو عرب الشمال في نجد) هي إحدى اللغات الأعرابية التي يقال لها خطأ: «اللغات السامية». وإذا نظرنا في تمام القاموس العربي وفي كمال الصرف والنحو، وجب أن نعدّ اللغة العربية أُمًّا للغات الأعرابية جمعاء. وهـذه اللغات هي: العربية والحميرية والآرامية والبابلية وأخواتها. وسماها الدكتور فروخ أعرابية، لأنها كلها نشأت في شبه جزيرة العرب. راجع كتاب: عبقرية اللغة العربية للأستاذ الدكتور عمر فروخ رحمه الله، ص٧، دار الكتاب العربي ـ لبنان، ١٩٨١م.

وعلى أية حال فقد قضى القرآن الكريم حين نزل بلغة قريش على هـذا التنـاكر والاختلاف، وجمع العرب على هـذه اللهجة ـ أو اللغة ـ على المـدى البعيـد، **وقـد قيل في لغة قريش**: إنها كانت أفصح اللغات وأعذبها لأنها صـقلت بحيـاة الحضـر، وبكثرة الاختلاط بالقبائل العربية، نظرًا لمكانة قريش الدينية والتجارية في جزيـرة العرب، وقد كانت هـذه اللغة يومئـذ أوسـع اللغـات انتشـارًا في الجزيـرة، وكـان الناس يقبلون عليها ويستريحون إليها أكثـر مـن غيرهـا. ويـوجز الشـيخ العلامـة محمد الخضر حسين أسباب **تفضيل لغة قريش** على سائر لغـات العـرب، وعـدّها أفصح هـذه اللغات، بوجهين:

أحدهما: بعدهم عن بلاد العجـم مـن جميـع جهـاتهم. ولهـذا لم يحـتجّ أهـل الصناعة العربية إلا بلسانهم أو ما كان قريبًا منه، ولم يعتمـدوا لغـات القبائـل التـي تجاور غيرها من الأمـم، كلغـة لخـم وجـذام وقضـاعة وغسـان، ولم يخـالفهم في شرطهم هـذا إلا أبو عبد الله بن مالك، فنقل في كتبه لغـة لخـم وقضـاعة وغيـرهم ممن يسكن أطراف الحجاز.

ثانيهما: أن العرب كانوا يفدون عليهم في موسم الحج ويقيمون عنـدهم قريبًـا من خمسين يومًا، فيتخيرون من لغات أولـئك الوفـود مـا تعادلـت حروفـه وخـف وقعه عـلى الأسـماع، ويرفضـون كـل مـا يثقـل عـلى الـذوق ولا يجـد في السـمع مساغًا[1].

فإذا ذكرنا الجامعة التي أقامها القرآن للعرب، وتوحدهم الذي تمّ عـلى يديـه،

(١) دراسات في العربية وتاريخها ص١٢٨، طبع دار الفتح بدمشق.

ذكرنا فضله في الذهاب بالجانب الأعظم من تناكر اللغات واختلاف اللهجات، وهم يقرؤونه بلغة قريش في المقام الأول.

٢ ـ **أثر القرآن في ألفاظ العربية ومعانيها**: أما التأثير الذي أحدثه القرآن في ألفاظ العربية ومعانيها فهو تأثير كبير، بل هو ثورة كبرى في الواقع. وهذا الموضوع جدير بأن يفرد ببحث جاد دقيق، وبحسبنا في هذا التقديم السريع أن نقول: إذا كانت اللغة صورة لحياة الأمة وبيئتها ومعارفها، ووعاء لأفكارها وثقافتها؛ فإن تأثير القرآن الكريم في كل ذلك بالنسبة للعرب كان كبيرًا جدًا.. لقد تأثرت ألفاظ اللغة العربية تأثرًا مباشرًا من حيث تهذيبها وترقيق حواشيها ـ والقرآن ينقل العرب من حال إلى حال: من البداوة إلى الحضارة، ومن الجزيرة إلى الأمصار ـ ومن حيث هذا الحشد من الألفاظ المشتركة والاصطلاحية والألفاظ الإسلامية الجديدة.

أ ـ **أما الألفاظ الاصطلاحية** فيراد بها تلك التي خرجت عن دلالتها الأولى إلى الدلالة على معانٍ جديدة ـ اصطلاحية ـ لم تكن معروفة وموجودة عند العرب، فقد اقتضى القرآن ـ فوق الحياة الجديدة ونظام الدولة وما يتصل بذلك ـ علومًا شرعية ولغوية وكلامية وطبيعية.. وفي كل علم مصطلحاته وتعريفاته؛ حتى لقد قام بعض المصنِّفين بوضع معاجم خاصة لتلك المصطلحات العلمية، مثل كتاب «التعريفات» للجرجاني و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي..

قال ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: ت٣٩٥هـ)) في كتابه الصاحبي: «كان العرب في جاهليتهم على إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال، ونُسخت ديانات وأبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر، بزيادات زيدت،

وشرائع شرعت، وشرائط شُرطت، فعفّى الآخر الأول، وشُغل القوم ـ بعد المُغاورات والتجارب وتطلّب الأرباح والكدح للمعاش في رحلة الشتاء والصيف، وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة ـ بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والتفقه في دين الله عز وجل، وحفظ سنن رسول الله ﷺ، مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام.

فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن!

وحتى تكلموا في دقائق الفقه، وغوامض أبواب المواريث، وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوِّن وحُفظ حتى الآن».

وبعد أن ذكر ابن فارس طائفة من العلوم الشرعية ومصطلحاتها التي جدت على لغة العرب، قال: «فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب ـ بتوفيقه ـ عما ألفوه ونشأوا عليه وغدوا به، إلى مثل هذا الذي ذكرناه» اهـ.

ثم عرض لبعض التعريفات أو الألفاظ الإسلامية التي جاءت على وفق المعاني اللغوية، وما أضافته إليها أو قيدته، وقال: «فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: في الصلاة اسمان لغوي وشرعي، ويذكر ما كانت العرب تعرفه، ثم ما جاء الإسلام به. وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم..»[1].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة.. ص٤٤ ـ ٤٧، المكتبة السلفية، ١٩١٠. قال ابن فارس: «فكان مما جاء في الإسلام: ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، وإن العرب إنما عرفت (المؤمن) من الأمان والإيمان، وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافًا بها سمّي المؤمن بالإطلاق: مؤمنًا. وكذلك: (الإسلام والمسلم) إنما عرفت منه: إسلام الشيء، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء، وكذلك لا تعرف من (الكفر) إلا الغطاء والستر. فأما (المنافق) فاسم ما جاء به الإسلام لقوم =

قلت: هذا كلام قيم، وإن كان الأمر أبعد من مسألة الاصطلاحات والتعريفات، لأنه ينطلق من أن العربية باتت (حاملة) الثقافة الإسلامية، والمعبّرة عن حضارة الإسلام، بعد أن أضحى القرآن الكريم المحور الذي نشأت حوله معارف العرب التي جدَّت في حياتهم بعد الإسلام، حتى صح لنا ما أشرنا إليه في مناسبة سابقة من أن القرآن الكريم يشكل المصدر الأول للثقافة العربية الإسلامية ـ وملاذها الأخير ـ هذه الثقافة الغنية الواسعة التي اشتملت على علوم القرآن والحديث، والأدب واللغة والسيرة والفلسفة والفقه والأصول.. والتي اتسعت لها لغة العرب بعد نزول القرآن الكريم، كما هو معلوم.

ب ـ ولعل هذا يختصر علينا طريق المتابعة في **الأغراض والمعاني** التي تركها القرآن في اللغة العربية؛ لأن الألفاظ في الواقع ليست أكثر من وعاء للمعاني والأغراض الجديدة، ولكن كما أثّر القرآن في معاني اللغة من حيث ما جاء به من اشتراع جديد، كان له أثر في ظهور معانٍ جديدة. «فقد تناول أيضًا **معانيهم التي كانوا يتعاورونها بينهم فتصرّف فيها وهذّبها**، وزاد بها أو نقص منها ووضعها مواضع تناسبها، بحيث أصبحت تلائم كل الأذواق في كل العصور، بعد أن كان فيها ما لا يسمح لها بالبقاء إلا في عصرٍ جاهليٍّ له ذوق خاص».

هذا وقد تأثرت معاني اللغة العربية أيضًا من خروجها الجديد إلى الممالك المتحضرة، تنتزع منها معاني وأخيلة هي وليدة الحضارة وربيبة المدنية، بل هي تراث أمم مختلفة، ونتاج لغات متعددة.

=

أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من: نافقاء اليربوع. ولم يعرفوا في (الفسق) إلا قولهم: فسقت الرُّطَبة: إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق: الإفحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى.

وقد لخص العلامة الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله تأثير الإسلام في اللغة العربية ـ من هذه الجهة ـ بقوله:

«طلع الإسلام على العرب، وفي هدايته من المعاني ما لم يكونوا يعلمون، **بل في هدايته ما لم تفِ اللغة يومئذ بالدلالة عليه! فعبر عن هذه المعاني بألفاظ ازدادت بها اللغة نماءً**».

«ومن الجليّ أن القرآن الكريم والحديث النبويّ قد سلكا في البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ. ثم إن فتح الممالك الكبيرة كبلاد الفرس والروم زاد مجال اللغة بسطة بما نقل إليها من المعاني العلمية أو المدنية».

ثم قال: «ففضل الإسلام على اللغة العربية يظهر في غزارة مادتها، وبراعة أساليبها، واتساع مذاهب بيانها، وكثرة الأغراض التي يتسابق إليها فرسان الخطابة والكتابة»[1].

❁❁❁

(١) دراسات في العربية وتاريخها مصدر سابق.

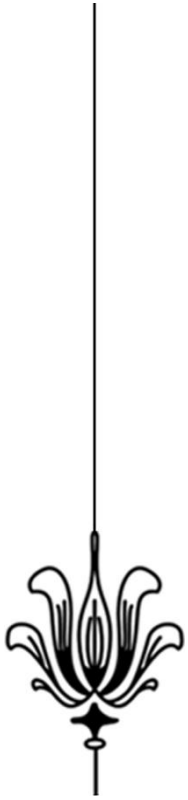

الفصل الثالث

أثر القرآن الكريم في الحضارة والثقافة الإسلامية

الفصل الثالث

أثر القرآن الكريم في الحضارة والثقافة الإسلامية

وإتمامًا لموضوع القرآن الكريم واللغة العربية، نعرض هنا بإشارة عابرة إلى «الواقع» الحضاري ـ والثقافي ـ الذي أحدثه القرآن الكريم **واتسعت له لغة العرب على نحو مثير للدهشة والإعجاب**؛ لأننا نخشى أن يفهم من حديثنا السابق أن اللغة العربية تغيرت مع الثقافة الإسلامية أو مع المعارف التي جاء بها القرآن الكريم بإضافة ـ أو بحذف ـ كلمات تناسب الكلمات التي أدخلت أو أهملت.. وأن الأمر وقف عند هذا الحد! ولو كان الأمر كذلك لما كانت اللغة أكثر من «قاموس» بأسماء الأشياء!! ولكن الواقع غير ذلك: «فاللغة هي عبارة عن نظام من الرموز ذات المعنى تعبر عن التنظيم الكامل لحياة وتفكير حضارة من الحضارات»[(١)] وإذا كانت «الثقافة» تتضمن أكثر من اللغة، كالتقاليد والمؤسسات والقوانين والآداب والفنون، والمهن والمهارات وكل ما صنعه الإنسان، فإن اللغة تحتل من بين جميع هذه المظاهر مكانًا فريدًا بوصفها «**مرآة الثقافة كلها**» لأن كل

(١) فيليب هـ. فينكس: فلسفة التربية ترجمة الدكتور لبيب النجيحي، ص٦٤٩، دار النهضة العربية ـ القاهرة، ١٩٦٥م.

ما يصنعه الإنسان يحمل اسمًا، فقوانينه ومؤسساته وعقائده لها تعبيراتها اللفظية، والأشياء التي تكون في الطبيعة تظهر أيضًا في اللغة، ولكن من وجهة نظر ثقافةٍ معينة على الدوام. ولهذا فإن اللغات لا تختلف فقط في الكلمات التي تعبر عن معان مشتركة، ولكنها تختلف أساسًا في الطرق المختلفة للتفكير، أو في مجموعة المعاني التي يعبر عنها خلال اللغة، **فلكل ثقافة مفاهيمها الخاصة بالحياة والعالم، وتنعكس هذه المفاهيم على طبيعة لغتها.**

يقول الأستاذ العلامة فيليب هـ. فينكس: «ومن خلال اللغة يسهم الفرد في المعاني الحيوية للثقافة. والسبب الأساسي لتعلم اللغات الأجنبية أن يستطيع الفرد فهم الثقافات التي تمثلها هذه اللغات فهمًا حقيقيًا ومن الداخل. فدراسة اللغة اللاتينية لا تستهدف تدريب العقل ولا مساعدة الفرد على فهم أفضل للّغة الإنجليزية فحسب.. ولكن الهدف الأساسي من هذه الدراسة أن تقدم للفرد معنى الحضارة الرومانية، ذلك الكلّ المعقد الغريب من التقاليد والقوانين والمفاهيم التي أتاحت لقرون عديدة بعض الأسس للأمن والوحدة لشعوب عديدة يائسة. ودراسة اللغة اليونانية القديمة تربط الفرد ربطًا وثيقًا بحضارة تقوم على تأمل فلسفي عميق، وتتميز بالمسرحية والتاريخ، وبديمقراطية سياسية ذاتية، وبخلق فني جبار.. إلخ»[1].

والذي نود تقريره هنا: هو القول بأن دراسة اللغة العربية تقدم للفرد معنى الحضارة الإسلامية، وتربطنا ربطًا وثيقًا بهذه الحضارة التي تقوم على مبدأ

(١) فلسفة التربية ص٦٥٢.

الإيمان العميق بالإلـه الواحد جل وعلا، وتنبني على قواعد من التوازن والشـمول والإيجابية، وتدور على مبررات إنسانية قوامها روح المسـاواة بـين الأفـراد وبـين الأمم والشعوب.

فإذا علمنا أن هـذه المبررات وتلك القواعـد إنمـا جـاء بهـا القـرآن الكـريم، وأضفنا إلى ذلك ما قـدمناه في الأثـر الموضـوعي السـابق؛ أدركنـا معنـى صـدور الحضارة العربية والفكر الإسلامي عن القرآن، واستطعنا من خلال ذلك: التقـدم لإيراد بعض الأمور الشارحة والموضحة لهـذه الحقيقة الكبيرة:

لقد مرت البشرية ـ كما ذهب إلى ذلك كثير من مـؤرخي الحضـارات، وكمـا أكّده المفكر الجزائري الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ـ بأكبر تجربتين حضـاريتين في التاريخ: التجربة الرومانية، أو الرومانية اليونانية، والتجربة العربيـة الإسـلامية. وقد كانت الحضارة الأولى متجلية بالروح الإمبراطوريـة التـي تقسـم الإنسـان أو الناس إلى مواطن روماني يتمتع بكامل الحقوق، وإلى غير مواطن مسلوب من جميع الحقوق، وعلى هـذا الأسـاس حكمـت وسـادت، وقنَّنـت وشـرعت، وأعطـت ومنعت. وهي وإن أخفقت في معالجة مشكلات الإنسان قديمًا، فقد أتـيح لهـا أن تبدو في صورة جديدة تتمثل في الحضارة الغربية المعاصرة التي أخذت مـن تلـك الحضارة الرومانية روحها الاسـتعمارية، وتشـرّبت مبادئهـا، وكثيـرًا مـن نظراتهـا الجوهرية؛ بعد أن تخطّت الحضارة الإسلامية التي جـاءت في أعقـاب الحضـارة الرومانية وزاحمتها، وأزاحتها عن مقعد السيادة على مسرح التاريخ! وبغـض النظـر في هـذا السياق عن مدى إفادة الحضارة الأوروبية من الحضارة العربية الإسلامية بوجه عام، ومن الإرث اليوناني الذي وصل إليهم عن طريق هـذه الحضارة بوجـه خاص.

وتهمنا هنا الإشارة إلى أن الروح الاستعمارية في هذه الحضارة الأوروبية مساوية للروح الإمبراطورية التي عاشت عليها الحضارة الرومانية القديمة. في حين أن روح الحضارة الإسلامية، أو المبرر الذي عاشت عليه هذه الحضارة يتمثل في روح المساواة التي جاء بها القرآن الكريم ونطق بها النبي ﷺ وأكدها في آخر خطبه الجامعة في حجة الوداع: «.. **كلكم لآدم وآدم من تراب.. لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى**».

يضاف إلى ذلك أن النظرة إلى الوجود المتمثلة في مبدأ الإيمان بالله الواحد الأحد ـ وما يتبع ذلك وينبني عليه من النظر إلى الكون والحياة والإنسان ـ هي التي أعطت للحضارة الإسلامية طابعها الخاص، وجعلتها ـ من قبل ـ قادرة على أن تهضم وتتمثل ـ ولا تذوب بالطبع ـ في تيار العقائد والمذاهب التي كانت سائدة في «بيئة» الحضارة الإسلامية. وأعني البلاد التي انتشر فيها الإسلام، وهي البيئة التي شهدت في الواقع أعرق الثقافات والحضارات القديمة في بلاد الشام والرافدين ووادي النيل والهند وبلاد فارس وما وراء النهر..

ولا مجال هنا للإفاضة في هذه الجوانب المتشعبة من البحث، ولكن نكتفي بالتذكير بأن القرآن الكريم الذي انبثقت منه روح هذه الحضارة يشكل في الوقت ذاته وبدرجة واحدة **كذلك مصدر الثقافة الإسلامية الأول وملاذها الأخير**. ـ كما أشرنا قبل قليل ـ ولا نقوم هنا بتحليل عناصر «الثقافة» ولكننا نذكر بأن تصنيف هذه العناصر وتقديم بعضها على بعض [1] ـ وهو الذي يميز ثقافة عن ثقافة أخرى ـ

(١) انظر كتاب مشكلة الثقافة للأستاذ مالك بن نبي رحمه الله.

يعود إلى الدين، أو ينطلق من القيم الدينية التي جاء بها القرآن الكريم، مع تسليمنا بما ذهب إليه الفيلسوف الناقد «ت. س. إليوت» من القول بالأصل الديني لكل الحضارات والثقافات، والذي بنى عليه قوله بوحدة الثقافة الأوروبية المعاصرة ـ على الرغم من تعدد اللغات والمذاهب والقوميات ـ وقوله بتلاشي هـذه الثقافة حين تفقد أصلها الديني[1].

❁❁❁

(١) راجع كتاب ملاحظات نحو تعريف الثقافة لإليوت، ترجمة الأستاذ الدكتور شكري عياد. وقارنه بما كتبه الأستاذ مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة وتحليله لعناصر الحضارة (إنسان + تراب + وقت) ودور العقيدة الدينية (كعامل مركب) لهـذه العناصر.

وانظر بسطًا لهـذا الموضوع في كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني الفقرة الخاصة بموقف العلمانية من العقيدة الدينية. والفقرة التي تتحدث عن أثر المسيحية في الثقافة الأوروبية: ص١٤٥ ـ ١٥٤ المكتب الإسلامي ـ بيروت، ١٩٩٩.

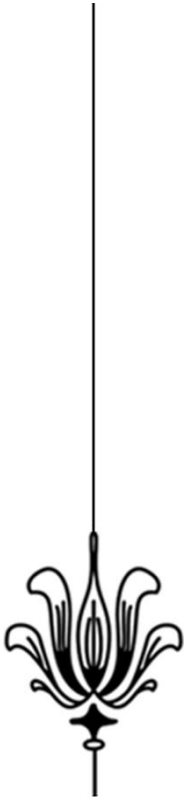

الباب الثاني

قطعية النص القرآني وتاريخ توثيقه

- الفصل الأول: القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة.
- الفصل الثاني: الوحي أو مصدر القرآن الكريم.
- الفصل الثالث: نزول القرآن والحكمة من تنجيمه.
- الفصل الرابع: جمع القرآن وتدوينه.
- الفصل الخامس: الآيات والسور وترتيبهما.
- الفصل السادس: الأحرف السبعة.

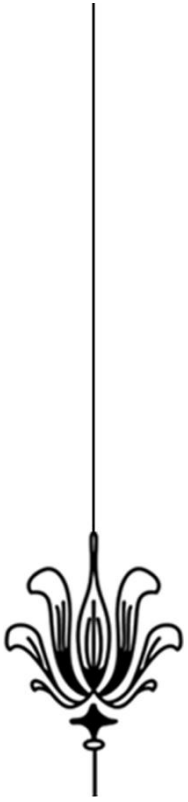

الفصل الأول

القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة

- أولاً: تعريف القرآن والفرق بينه وبين الحديث.
- ثانياً: مقارنة سريعة مع هذه الكتب السماوية.
- ثالثًا: أسماء أخرى للقرآن، ولون آخر من ألوان الحفظ.

الفصل الأول

القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة

أولاً ـ تعريف القرآن والفرق بينه وبين الحديث:

١ ـ هذه الكلمة «قرآن» لغةً على وزن فُعلان: لفظ مشتق من القُرء، بمعنى الجمع؛ يقال: قرأ الشيء قُرءًا وقرآنًا: جمعه وضم بعضه إلى بعض، ومنه قرأتُ الماء في الحوض: جمعته. قالوا: وسمي القرآن الكريم قرآنًا لأنه جمع القصص والأمر والنهي، والوعد والوعيد. أو لأنه جمع الآيات والسور.

وقيل: إن هذا اللفظ ـ قرآن ـ مشتق من القرائن التي يصدّق بعضها بعضًا، أو يشابه بعضها بعضًا. وقالوا: وكذلك حال الآيات والسور في القرآن الكريم.

وقال اللحياني وجماعة من أهل اللغة: قرآن مصدر كغُفران، سُمي به «المقروء» أي المتلوّ؛ تسمية للمفعول بالمصدر ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٨] أي قراءته، والمراد جبريل عليه السلام. ومنه كذلك قول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنهما:

ضَحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحًا وقرآنا

أي: قراءة. ويقال قرأ الرجل، إذا تلا، يقرأ قرآنًا وقراءة.

وبغض النظر عن أصل اشتقاق هـذا اللفظ، على دقة ما ذهب إليه اللحياني وترجيحنا له؛ فإن «القرآن» بهـذا اللفظ المعرَّف صار عَلمًا شخصيًا على «الكتاب» المعجز الموحى به من الله سبحانه، والمنزل على سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ورسوله الخاتم؛ سُمي به هـذا الكتاب[1] كما سميت التوراة التي نزلت على

(١) معنى أن لفظ «القرآن» «علم شخص» أنه يطلق على مجموع كلام الله تعالى، المكتوب بين دفّتي المصحف من الفاتحة إلى آخر سورة الناس. فيكون ـ أي لفظ (القرآن) ـ دالاً على شخص معيّن، متميز عن غيره «بمشخصات» لا يشاركه غيره فيها. وبناء على هـذه الخصائص يكون عند إطلاقه عليه «علم شخص». وعَلَمِيَّته تكون باعتبار دلالته على الشخص المعيّن المعروف. وفي هـذه الحالة يكون إطلاق لفظ (القرآن) على البعض مجازًا، من باب تسمية الجزء باسم الكل كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩].

وقيل: يطلق هـذا اللفظ ويراد به جميع المكتوب بين دفتي المصحف. كما يراد به أي جزء من أجزائه أو سورة من سوره. أو بعبارة أخرى: يراد منه «مطلق» ما نزل على محمد ﷺ؛ فيكون بهـذا المعنى «اسم جنس» يطلق على القدر المشترك بين المجموع، وكل بعضٍ من أبعاضه.

وقد ورد القرآن الكريم بهـذين الاستعمالين، فمن إطلاقه على الكل المشخص قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج]، فإن المحفوظ في اللوح هو كل القرآن.

ومن استعماله بمعنى مطلق ما نزل، والذي يصدُق على الكل والجزء: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل]، فطلب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء أكان المقروء كله أم بعضًا منه.

ولهـذا قال بعض العلماء: إن لفظ (القرآن) مشترك معنوي موضوع للدلالة على الشخص المكتوب بين دفتي المصحف خاصة، وموضوع كذلك للدلالة على مطلق ما نزل الذي يعم الكل والأجزاء. وفي كل موطن من هـذه المواطن، أو في كل مقام من هـذه المقامات، تتكفل القرينة ببيان المراد من اللفظ.

انظر كتاب ترجمة المعاني القرآنية للدكتور محمد أحمد السنباطي، ص٣٩ ـ ٤٠، وقارن بـ مناهل العرفان ١ ١٤ ـ ٢٣. فقد ذهب الزرقاني رحمه الله إلى أن (القرآن) مشترك لفظي «بدليل التبادر عند إطلاق

=

موسى، و الإنجيل الذي نزل على عيسى عليهما الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

حتى قيل إن بعض العلماء، منهم الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، عدّ هذا اللفظ المعرّف كما قلنا ـ القرآن ـ اسم عَلَم غير مشتق، خاص بكلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ.

٢ ـ أما ما ذكره العلماء من تعريف «القرآن» ـ **اصطلاحًا** ـ بالأجناس والفصول، بحسب عبارات المناطقة أو بحسب شروطهم في التعريفات، لتمييزه عما عداه مما قد يشاركه في الاسم ـ ولو توهمًا ـ ذلك أن سائر كتب الله تعالى، والأحاديث القدسية، وبعض الأحاديث النبوية، تشارك القرآن في كونها وحيًا إلهيًا، فربما ظن أنها تشاركه في اسم القرآن أيضًا، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به، ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع؛ فقال أكثرهم في تعريفه:

«هو الكلام المعجز، المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته».

وأوجزه بعض العلماء بقوله: «**القرآن هو كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته**».

وقد قيل في **تحليل هذا التعريف** الأخير:

أ ـ إن « **الكلام** » جنس شامل لكل كلام، وإضافته إلى « الله **تعالى** » تميزه من

=

اللفظ على الكل وعلى البعض كليهما، والتبادر أمارة الحقيقة.. وهو ما يفهم من كلام الفقهاء إذا قالوا مثلاً: (يحرم قراءة القرآن على الجنب) فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على السواء».

كلام مَن سواه، سواء أكان من الإنس أو غيرهم[(١)].

ب ـ «**المنزَّل**»: مخرج للكلام الإلـهي الذي استأثر الله تعالى به في نفسه، أو ألقاه ـ عزّ من قائل ـ إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر؛ إذ ليس كل كلامه منزلاً، بل الذي أُنزل منه قليل من كثير، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

ج ـ **وتقييد المنزّل بكونه على «محمد ﷺ»**، لإخراج ما أُنزل على الأنبياء من قبله، كالتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والزبور المنزل على داود، والصحف المنزلة على إبراهيم، عليهم السلام.

د ـ أما قيد « **المتعبّد بتلاوته** » ـ أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة ـ فلإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك، كالقراءات القرآنية المنقولة إلينا بطريق الآحاد، وكالأحاديث القدسية، وهي المسندة إلى الله ﷻ[(٢)]، إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها.

٣ ـ أما **الأحاديث النبوية** فإنها بحسب ما حوته من المعاني تقسم إلى قسمين:

---

(١) الجنس: جزء الماهية المشترك. والفصل: جزء من مفهوم الماهية، ولـكنه الجزء المختص بها الذي يميزها عن جميع ما عداها.

(٢) الحديث القدسي هو الذي يرويه النبي ﷺ على أنه من كلام الله. وذلك على هذا النحو: «قال رسول الله: قال الله تعالى، أو قال رسول الله فيما يرويه عن ربه»، وقد نقلت إلينا الأحاديث القدسية على النحو الذي تمّ فيه نقل الأحاديث النبوية.

قسم توفيقي، استنبطه النبي بفهمه ونظره في كلام الله تعالى، أو بتأمله في حقائق الكون. وهـذا القسم ليس من كلام الله تعالى.

وقسم توقيفي، تلقى الرسول مضمونه من الوحي فبينّه للناس بكلامه، وهـذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوبًا إلى معلِّمه وملهمه سبحانه، لـكنه ـ من حيث هو كلام ـ حريٌّ بأن ينسب إلى رسول الله ﷺ، لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألَّفه على نحو خاص، ولو كان ما فيه من المعاني قد تواردت عليه الخواطر وتلقَّاه الآخر عن الأول.

فالحديث النبوي إذًا خارج بقسميه من القيد الأول «وهو كون الكلام كلام الله» في هـذا التعريف[1].

«وكذلك **الحديث القدسي** إن قلنا إنه منزل بمعناه فقط. وهـذا هو أظهر القولين فيه. لأنه لو كان منزَّلاً بلفظه، لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني؛ إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله تعالى، فكان من لوازم ذلك: المحافظة على نصوصه، وإجزاء قراءته في الصلاة، وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعًا، وعدم جواز مسّه للمحْدِث. ولا قائل بذلك كله.

وأيضًا: فإن القرآن لما كان مقصودًا منه مع العمل بمضمونه شيء آخر، وهو التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته، نزل بلفظه أو احتيج لإنزال لفظه ـ ولهـذا فإن ترجمته لا تعدّ قرآنًا ـ والحديث القدسي لم ينزل للتحدي ولا للتعبد، بل لمجرد العمل بما فيه، وهـذه الفائدة تحصل بإنزال معناه، فالقول بإنزال لفظه قول بشيء

(١) النبأ العظيم ص١٠ ـ ١١، للأستاذ المحقق الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله. وانظر فيه تفصيلات أخرى في تحديد معنى القرآن.

لا داعي في النظر إليه، ولا دليل في الشرع عليه، اللَّهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسي إلى الله بصيغة «يقول الله تبارك وتعالى كذا»[١].

لكن القرائن التي ذكرناها آنفًا، كافية في فسح المجال لتأويله بأن المقصود: نسبةُ مضمونه لا نسبة ألفاظه، وهذا تأويل شائع في العربية، فإنك تقول حينما تنثر بيتًا من الشعر: «يقول الشاعر كذا» وتقول حينما تفسر آية من كتاب الله بكلام من عندك: «يقول الله تعالى كذا». وعلى هذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى وفرعون وغيرهم مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم وأسلوب غير أسلوبهم، ونسب ذلك إليهم[٢] والله تعالى أعلم.

٤ ـ **ملاحظة مهمة حول هذه الفروق**: وتذكّرنا هذه الفروق بين القرآن الكريم وأنواع الحديث النبوي، بضرورة القول: إن لدينا اليوم، وبعد هذه القرون التي مرت على بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن: المصادر الآتية المستقلة، أو المفصول بعضها عن بعض، وإن هذا الفصل والتمييز يعد من أبرز خصائص الأمة الإسلامية، ومن أهم مزايا الإسلام ومصادر الثقافة الإسلامية:

أ ـ لدينا أولاً: القرآن الكريم، بوصفه كلام الله تعالى المنزل أو الموحى به بلفظه ومعناه، أو بوصفه النص الإلهي المبرّأ من الزيادة والنقصان، ومن سائر وجوه التحريف والتبديل. والمتكلم أو المخاطب ـ بكسر الطاء ـ فيه هو الله تعالى جلَّ شأنه.

ب ـ ولدينا إلى جانبه: كلام النبي ﷺ، أو أقواله وأحاديثه الشريفة، التي لم

---

(١) النبأ العظيم ص١١.

(٢) المصدر السابق، ص١١، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

تختلط بحرف واحد منها بالقرآن الكريم. سواء أكانت أحاديث قدسية أم عادية ـ مع التنويه بهذه الدقة في التمييز بين هذين النوعين ـ علمًا بأن نسبة الأحاديث القدسية ضئيلة، إذا ما قيست بسائر أحاديث النبي الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ. وبغض النظر عن طبيعة موضوعاتها، ودرجة توثيقها عند المحدّثين.

ج ـ وعندنا كذلك: الصورة الكاملة لأعمال النبي ﷺ وحياته اليومية، الخاصة والعامة في السلم والحرب. وما كان عليه صلوات الله عليه من محاسن الأخلاق، وقد تضمّنتها كتب (السيرة النبوية) والشمائل ـ التي يمكن وصفها باختصار بأنها: تاريخ حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

د ـ ويوجد إلى جانب هذه المصادر الثلاثة: القرآن والحديث والسيرة، مصادر خاصة بحياة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وبطبقاتهم كذلك.

هـ ولدينا أخيرًا كتب التاريخ العام: أو كتب التاريخ ـ التي نَقَلت لنا على اختلاف طرائقها في التأليف ـ وقائع حياة المجتمعات الإسلامية عبر القرون.

وليس هناك أدنى خلط أو تداخل بين القرآن والسنَّة القولية، أو بين القرآن والسيرة وتاريخ الأصحاب ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ. بل إن من الملاحظ أن القرآن الكريم نادرًا ما يتحدث عن تاريخ «محمد» الإنسان ﷺ، وعن آلامه العظمى، أو عن مسرّاته التي لم ترد فيه قط!!

ونستطيع أن نؤكد بعد ذلك أن هذا التمييز المطلق الذي نملكه الآن، والذي حرص النبي ﷺ على تأكيده حين نهى عن كتابة القرآن والحديث في صحيفة واحدة، تفتقر إليه الديانات والكتب السماوية السابقة التي يختلط فيها النص الإلهي المنزل أو الموحى به، ـ على ندرته الشديدة، حتى إنه لا يبين ـ بأقوال النبي ومواعظه وأخباره وسيرته مع أصحابه ومع الناس. والتي وردت فيها صفحات

مطوّلة، أو (أسفار) كثيرة في الأدب والتاريخ! كما سنوضح ذلك فيما يلي.

ثانياً ـ مقارنة سريعة مع هذه الكتب السماوية:

ويكفينا عند المقارنة، من أجل تأكيد هذه الملاحظة: أن نعرّف فقط بالتوراة والإنجيل، لنقف على مدى الخلط الذي آل إليه (الوحي) أو الكتاب الذي نزل على موسى وعيسى ـ على نبيِّنا وعليهما الصلاة والسلام ـ. ولكن لا بد من الإشارة إلى (الزيادات) أو الملحقات التي أضيفت إلى هذين الكتابين ـ فضلاً عن التحريف والتبديل الذي لحق بهما ـ لأن هذه الزيادات تبرز بدورها، أو تؤكد مدى ضياع النص الإلهي الموحى به، ومدى الإغراق الذي أصابه في خضم هذه الزيادات والملحقات التي غلبت على (الأصل)! ومدى الخلط الذي حصل في مصادر الدين والتشريع في تاريخ اليهودية والمسيحية.. حيث جَمَعَت هذه المصادر على صعيد واحد بين الوحي المنزل، ـ أو ما بقي أو سلم منه، وهو نادر ـ وخطب الأنبياء وأحاديثهم وأمثالهم ومواعظهم، وسيرتهم وحياتهم، وأعمال الرسل، وحياة الحواريين أو الأصحاب، وحياة الملوك، وتاريخ بني إسرائيل!

أهل الكتاب وهيمنة القرآن:

يطلق اسم أو مصطلح (أهل الكتاب) في القرآن الكريم على اليهود والنصارى. وغني عن البيان أن سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام بعث في بني إسرائيل خاصة، وهو لذلك أحد أنبيائهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

وجاء في الإنجيل: «قال يسوع: إنما أرسلني الله إلى الخراف الضائعين من بني إسرائيل»[(١)]. وجاء فيه أيضًا: «هـؤلاء هم الاثنا عشر الذين أرسلهم يسوع رسلاً وأوصاهم قائلاً: لا تذهبوا إلى غير اليهود ولا تدخلوا أي مدينة سامرية. بل اذهبوا إلى الخراف الضالين من بني إسرائيل»[(٢)].

وهـكذا فإن الشريعة اليهودية، أو الحقبة الإسرائيلية السابقة على عيسى.. نجدها ممتدة في النصرانية ومستمرة معها[(٣)].

ومن هنا يبدو المصطلح القرآني: «أهل الكتاب» واضحًا ومعجزًا في جمع اليهود والنصارى في كتاب واحد، أو على كتاب واحد، علمًا بأن مصطلح «الكتاب» أو كلمة: كتاب، وحدها.. تطلق في القرآن على جميع كتب الله تعالى المنزلة؛ إشارة كذلك إلى تصديق هـذه الكتب بعضها بعضًا، وأنه لا تناقض بينها ولا اختلاف!.

ولهـذا جاء القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].. وقد انفرد بحق الهيمنة على سائر الكتب السابقة، أو انفرد بحق الحكم والتصويب، بوصفه الكتاب الأخير الذي تكفّل الله تعالى بحفظه من

---

(١) الكتاب المقدس إنجيل متّى، الإصحاح ١٥ الفقرة ٢٤ (الإنجيل: ترجمه عن اليونانية أبو الطيب القدسي) القدس ١٩٩١، ص٤١ وص٢٣ وص٢٢. وفي ترجمة أخرى: «الخراف الضّالة».

(٢) نفس المصدر: الإصحاح ١٠ الفقرتين ٥ ـ ٦. وانظر الفقرة ٣٣ من الإصحاح التاسع، والفقرة ٢٣ من الإصحاح الرابع.

(٣) ما تزال «التقاليد الثقافية اليهودية المسيحية للحضارة الأوروبية» توصف بهـذين الوصفين مجتمعين، على حدّ قول بعض الساسة الأوروبيين المعاصرين. وتشكل روح حضارة القوم ونسيج مجتمعاتهم.

التحريف إلى يوم الدين. وبوصفه كتابًا مهيمنًا، فإن الطلب من النبي ﷺ أن يحكم بين اليهود أو النصارى بما أنزل الله إنما هو حكم بما أقره القرآن من كتبهم، أو بما لم يسبق لهم تحريفه. وكذلك أمر القرآن الكريم لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه؛ بوصف الإنجيل ـ كذلك ـ مصدقًا لما بين يديه من التوراة؛ قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٨].

إن «الكتاب المقدس The Bible ـ الواحد ـ لدى النصارى يشمل توراة موسى وإنجيل عيسى عليه السلام. أو يشمل:

أ ـ التوراة، وسائر الأسفار المقدسة التي ألحقت بها وأضيفت إليها في الحقبة اليهودية أو الموسوية.. أو قبل مجيء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. وسميت جميعها **بالعهد القديم**.

ب ـ الأناجيل الأربعة، ورسائل الرسل في العهد المسيحي. وسميت **بالعهد الجديد**.

وواضح من هذه التسمية: العهد القديم والعهد الجديد، أنها من عمل العصور المسيحية؛ تفريقًا بين العهد ـ أو الميثاق ـ الذي جاء به موسى عليه السلام، أو انحدر إليهم من عهده، أو أخذه الله عليه، والعهد أو الميثاق الجديد من عهد عيسى[(١)].

(١) راجع: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي رحمه الله، ص١٢ ـ ١٣، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧١م.

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول في أسفار العهد القديم، وفي الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل، والمشكلات التي تثيرها هذه الأسفار والأناجيل، أو التي يثيرها النظر في تاريخ (الكتاب المقدس) على وجه العموم، وتاريخ تكوّن أو تشكّل العقيدة المسيحية ـ عقيدة التثليث ـ على وجه الخصوص، لأن هذا كله موضعه الكتب المتخصصة في تاريخ الأديان.

وكل ما قصدنا إليه في هذا السياق: بيان أن الخلط والتحريف قد لحق بالوحي أو التنزيل عند اليهود والنصارى، وأن الحيف الشديد قد لحق بالتوراة والإنجيل حتى كاد أن يعصف بهما، بل عصف بهما على الحقيقة! كل ذلك من أجل الوقوف على جانب أو طرف من المزيَّة الإسلامية في حفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل، إلى جانب عدم الخلط بين القرآن، وسائر النصوص النبوية، والمصادر الأخرى، في تاريخ الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي وحضارة الإسلام.

ونكتفي لبيان ذلك بالإلماعة الآتية عن كل من العهد القديم والعهد الجديد:

١ ـ أقسام العهد القديم:

يتألف العهد القديم من تسعة وثلاثين سفرًا، موزعة على الأسفار الآتية:

أ ـ الأسفار الناموسية أو الموسوية، وعددها خمسة أسفار وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين (الأحبار) وسفر العدد، «وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة في نظر اليهود». ولهذا أطلق عليها لفظ «الناموسية» أي الموحى بها بطريق الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام.

ب ـ الأسفار التاريخية، وهي اثنا عشر سفرًا تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين، وبعد استقرارهم في فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة في حياتهم وسائر شؤونهم.

ج ـ الأسفار الشعرية أو أسفار الأناشيد، وعددها خمسة أسفار.. وهي سفر أيوب، ومزامير داود، وأمثال سليمان، والجامعة من كلام سليمان، ونشيد الإنشاد. وواضح من تسمية هذه الأسفار، ومن مضامينها، أنها كتبت بلغة شعرية، وأنها أناشيد ومواعظ. مع الإشارة إلى ما تضمّنه نشيد الإنشاد من انحلال خلقي يضارع شعر المجون!!

د ـ أسفار الأنبياء، وعددها سبعة عشر سفرًا، وهي أسفار أشعيا، وأرمياء، ومراثي أرمياء، وحزقيال، ودانيال.. إلخ.

٢ ـ ملاحظات على العهد القديم:

أ ـ أهم هذه الأسفار: الأسفار الناموسية الخمسة الأولى، لأنها هي التي ينسبها اليهود إلى موسى، ويعتقدون أنها بوحي من الله، وأنها تتضمن التوراة ـ أما بُعد سائر الأسفار عن أن تكون وحيًا فأوضح من أن يشار إليه ـ يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي، في أسفار التوراة هذه: «لقد ظهر للمحدَثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمدٍ غير قصير ـ وعصر موسى يقع على الأرجح حوالي القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ـ وأن معظم سفري التكوين والخروج قد أُلف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، وأن سفر التثنية قد أُلف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفري العدد واللاويين قد أُلِّفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.. وأن جميعها مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار

والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل.. فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة الذي يذكر القرآن الكريم أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله تعالى على موسى»[(١)]، وإلى هـذا يشير القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقد روى ابن بكير عن مالك، عن زيد بن أسلم، أن كعب الأحبار جاء إلى عمر بمصحف قد تشرّمت حواشيه (تشققت) فقال له: يا أمير المؤمنين! في هـذا: التوراةُ أفأقرؤها؟ فقال عمر: (إن كنت تعلم أنها التوراة التي أُنزلت على موسى يوم طور سيناء، فاقرأها بالليل والنهار)[(٢)].

ب ـ صورت التوراة المزعومة هـذه ـ وخاصة في سفري التكوين والخروج ـ الذات الإلـهية بصورة مجسّمة وشبّهت الله سبحانه بخلقه ـ حتى قال علماؤنا: إن التشبيه من دين اليهود ـ بل لقد وُصف الله تعالى ـ في هـذه التوراة!ـ بالضعف، والكذب، والغفلة، والندم، والتعب[(٣)]!

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١٦.

(٢) تفسير الموطأ لأبي المطرِّف عبد الرحمـن بن مروان القرطبي (ت٤١٣هـ) (١/ ٢٣٨)، تحقيق الأستاذ الدكتور عامر حسن صبري. طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م. وانظر إحالات المحقق حفظه الله تعالى.

(٣) انظر قصة صراع يعقوب مع الله! وكيف أنه كان قويًا على ربه، حتى سماه إسرائيل (وهـذا أحد معاني هـذه الكلمة في العبرية) في سفر التكوين، الإصحاح ٣٢ الفقرات ٢٤ ـ ٣٢. وراجع الكتاب المشار إليه سابقًا للدكتور وافي: الأسفار المقدسة ص٢٤. وانظر ما ورد في سفر التكوين أيضًا من أن الله سبحانه بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع! وكان يوم سبت فباركه وحرَّم فيه العمل. الفقرات الأولى من الإصحاح الثاني. وانظر الفقرات ٢١ ـ ٢٢ من الإصحاح الثالث عشر، والفقرات ١٦ ـ ٢٠ من الإصحاح ١٩.

وأنه يجري عليه البَداء[١]، وسائر ما يجري على الناس بوجه عام، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ج ـ ورد ما هو أسوأ من ذلك من سفر التكوين بحق أنبياء الله ورسله! فوُصف نوح عليه السلام بأنه شريب خمر، وقالوا في إبراهيم عليه السلام أنه تاجر بعرض زوجته من أجل متاع دنيوي، وجاء في سفر التكوين أيضًا أن لوطًا شرب الخمر، وزنى بابنتيه، فأنجبتا منه مؤاب وعمون.. في قصة مختلقة تقشعر منها الأبدان[٢]!

إن هذا وأمثاله يبرز مدى التحريف الرهيب الذي عصف بالعهد القديم وبالكتاب المقدس.. كما قلنا، فأخرجه عن الوحي والقداسة، والصدق والحق.. بل أخرجه كذلك عن العقل والذوق والأدب!

٣ ـ أقسام العهد الجديد:

يتألف العهد الجديد من **ثلاث مجموعات، وسفرين**. أما المجموعات فهي: مجموعة الأناجيل، وعددها أربعة، ومجموعة رسائل بولس، وعددها أربع عشرة رسالة. ومجموعة الرسائل الكاثوليكية، وعددها سبع رسائل. وأما السفران فهما: سفر «أعمال الرسل» للوقا، وسفر «رؤيا يوحنا» أو «الأبوكاليبس» ليوحنا.

وأبرز هذه المجموعات: **الأناجيل الأربعة**، لا لأنها تستأثر بنحو ما يقرب من

---

(١) انظر الفقرات الأولى من مطلع سفر التكوين، والبداء ـ بفتح الباء ـ معناه أن تبدو لله تعالى الأمور كأنه كان لا يعلمها قبل أن تقع، علمًا بأنها لم تقع إلاّ لأنها كانت في علمه الذي أحاط بكل شيء، سبحانه وتعالى. وقد حكم علماؤنا بكفر من يقول بجواز البداء على الله تعالى.

(٢) الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين، وانظر في اتهام سيدنا إبراهيم عليه السلام الإصحاح التاسع، الفقرات ٢٠ ـ ٢٧.

نصف صفحات العهد الجديد.. بل لأنها هي التي يظن بأن لها علاقة بالوحي، أو بـ(الإنجيل) الذي نزل على سيدنا عيسى ابن مريم، والذي تحدث عنه القرآن الكريم. بالإضافة إلى أن هـذه الأناجيل تحتل في النصرانية مكان القطب والعماد، يقول العلامة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: «وإذا كانت شخصية المسيح وما أحاطوها به من أفكار هي شعار المسيحية؛ فإن هـذه الأناجيل هي المشتملة على أخبار تلك الشخصية، من وقت الحمل إلى وقت صلبه في اعتقادهم، وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال، ثم رفعه بعد أربعين ليلة، وهي بهـذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم، والصلب والفداء، أي أنها تشمل على لبّ المسيحية في نظرهم بعد المسيح ومعناها»[(١)].

أ ـ إنجيل متّى، أما إنجيل متى فمؤلفه هو الرسول متى، أحد الحواريين الاثني عشر ـ والكنيسة تسمي هـؤلاء الحواريين رسلاً ـ وإنجيله هو أقـدم الأناجيـل، إذ يرجع تأليفه إلى سنة ٦٠م على الأرجح. وقـد كتبـه بالعبريـة، ولـكنه لم يعـرف إلا باليونانية، ولا يعلم من الذي قام بترجمته إلى هـذه اللغة.

ب ـ أما إنجيل مرقص، فمؤلفه هو القـديس مـرقص ـ وهـذا لقبـه، واسـمه يوحنا ـ أحد التلاميذ السبعين، وقد ألفه باليونانيـة حـوالي ٦٣ أو ٦٥ عـلى أرجـح الأقوال. ويروي ابن البطريق، أحـد المـؤرخين المسـيحيين الشـرقيين، أن الـذي كتب هـذا الإنجيل هو بطرس نفسه، رئيس الحواريين، ونسبه إلى تلميذه مرقص!

ج ـ وإنجيل لوقا، مؤلفه القديس لوقا. وقد ألّفه على أرجح الأقوال في العصر نفسه الذي ألّف فيه مرقص إنجيله، أي حوالي سنة ٦٣ أو ٦٥، وألفه باللغة

---

(١) محاضرات في النصرانية لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله تعالى ـ ص٤٦.

اليونانية. «وقد اختلف الباحثون في شخصية كاتبه، وفي صناعته، وفي القوم الذين كتب لهم، وفي تاريخ تأليفه. ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من تلاميذ المسيح، ولا تلاميذ تلاميذه، وإلا على أنه كتب باليونانية»[(١)].

د ـ أما إنجيل يوحنا، فينسب إلى الرسول يوحنا بن زبدي ـ أحد الحواريين الاثني عشر ـ وألفه على الأرجح باللغة اليونانية، وكان تأليفه له حوالي سنة ٩٠ بعد الميلاد على أرجح الأقوال «فهو لذلك أحدث الأناجيل جميعًا إذ تفصله عنها مرحلة زمنية كبيرة تبلغ زهاء ثلاثين عامًا»، ويعد هـذا الإنجيل في الوقت نفسه أخطر هـذه الأناجيل لأن الفقرات الأولى من إصحاحه الأول نصت على ألوهية المسيح! وذلك على النحو الآتي: «١ ـ من الأزل كان الكلمة وكان الكلمة مع الله، ٢ ـ هو في البدء مع الله، ٣ ـ به خلق الله كل شيء وما كان شيء ليخلق مما خلق لولاه، ٤ ـ هو مصدر الحياة وكان حياته نورًا للناس»[(٢)].

وقد كان هـذا الاعتقاد هو الباعث على «تأليف» هـذا الإنجيل، لأن بعض الناس ـ كما تقول الكنيسة ـ قد سادت عندهم فكرة أن المسيح ليس بإلـه! وأن كثيرين من فرق الشرق كانت تقرر تلك الحقيقة، فطلب إلى يوحنا أن يكتب إنجيلاً يتضمن بيان هـذه الألوهية، فكتب هـذا الإنجيل[(٣)]!

وقد ارتاب في صحة نسبة هـذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري بعض الفرق

---

(١) محاضرات في النصرانية ص٥٧. وانظر حول هـذه الأناجيل جميعًا: أبو زهرة رحمه الله، ص٤٦ ـ ٦٦، والدكتور وافي: الأسفار المقدسة ص٧٦ فما بعدها.

(٢) الإنجيل مصدر سابق.

(٣) أبو زهرة، المصدر السابق، ص٦١.

المسيحية القديمة في أواخر القرن الثاني الميلادي، وكثير من الباحثين في المسيحية من قدامى ومحدثين. ومن هـؤلاء: العلماءُ الذين أشرفوا على تحرير المسائل المسيحية في دائرة المعارف البريطانية، فقد قالوا: «إنه لا مرية في أن مؤلف إنجيل يوحنا شخص آخر غير يوحنا بن زَبَدي الحواري المشهور» ومن هـؤلاء العلماء المحدثين كذلك: مؤلفو دائرة المعارف الفرنسية المشهورة باسم: «لاروس القرن العشرين» فقد ذكروا أنه «ينسب ليوحنا هـذا: الإنجيل، وأربعة أسفار أخرى من العهد الجديد ـ ثلاث من الرسائل الكاثوليكية ورؤيا يوحنا ـ ولـكن البحوث الحديثة في مسائل الأديان لا تسلِّم بصحة هـذه النسبة»[1].

٤ ـ ملاحظات على العهد الجديد:

أ ـ يدل هـذا العرض الموجز عـلى أن **هـذه الأناجيـل لم تنـزل علـى المسـيح عيسى ابن مريم عليه السلام ولم توح إليه**.. وغني عن البيان أن عيسـى ـ عـلى نبيّنـا وعليه الصلاة والسلام ـ أوحي إليه بإنجيل واحد.. علمًا بـأن مـؤرخي النصـرانية مجمعون على أن الأناجيل ـ في تـاريخ المسـيحية ـ كثـرت كثـرة عظيمـة! وحـين أرادت الكنيسة في أوائل القرن الرابع الميلادي أن تحافظ على الأناجيل الصحيحة أو الصادقة ـ في نظرها ـ اختارت هـذه الأناجيل الأربعة من بين عشرات الأناجيل!

ب ـ **وليست هـذه الأناجيل كذلك من «إمـلاء» المسـيح**، حتـى تكـون عنـد أصحابها بمنزلة السنَّة عندنا نحن المسلمين ـ على سبيل المثال ـ بل هي أقرب مـا تكون إلى سيرة المسيح وتاريخ حياته، كتبها بعض حواريّيه وسـواهم عـلى النحـو

(١) الدكتور وافي رحمه الله، ص٧٨ ـ ٧٩.

الذي تذكّروه ـ بعد نحو ربع قرن أو بعد أكثر من نصف قرن بالنسبة إلى إنجيل يوحنا ـ من رفعه، أو على النحو الذي سمعوه.. مع ما أشرنا إليه في حديثنا السابق عن هذه الأناجيل من أنواع الجهالة التي اكتنفتها، من حيث المؤلف، والزمن، واللغة، والمترجم، وتاريخ الترجمة.. وأخيرًا: الشك في صحة النسبة من الأصل، كما رأينا في إنجيل يوحنا الأخير.

وهذا هو السبب في أن القصص شغلت أكبر حيز من كل إنجيل من هذه الأناجيل.. وبخاصة قصة مريم وحملها بالمسيح، وولادته وما أحاط بها من عجائب وغرائب، وما كان يحدث له من أمور خارقة للعادة، وكيف دعا إلى دينه، واجتبى إليه الحواريين.. إلى جانب الحديث عن «صلبه»!ـ على زعمهم ـ وقيامه من قبره.. إلخ. والعجيب ـ بهذه المناسبة ـ أن تُوصَف مريم عليها السلام في بعض فقرات إنجيل متّى بأنها كانت مخطوبة ليوسف النجار قبل أن تحمل بالمسيح عليه السلام وفي فقرات أخرى من الإنجيل نفسه بأنها كانت زوجة له!![1].

ج ـ على الرغم من اتفاق هذه الأناجيل الأربعة في جوهر القصص والعقيدة والتشريع والأخلاق والزواج ـ مع الاختلاف الحادّ المشار إليه في إنجيل يوحنا ـ «فإنها تختلف فيما بينها في كثير من التفاصيل، ويبدو خلافها هذا حتى في القصص نفسه» وقد كتب الإمام ابن حزم رحمه الله في بيان وجوه الاختلاف بين هذه الأناجيل، وما تشتمل عليه من «أكاذيب ومتناقضات ودلائل دامغة على

(١) انظر الفقرات ١٦ ـ ٢٤ من الإصحاح الأول من إنجيل متى. وراجع: الأسفار المقدسة للدكتور وافي رحمه الله، ص٧٩.

التحريف» ـ بحسب عبارته ـ صفحات مطوّلة، وفعل ذلك أيضًا بعض العلماء والباحثين المعاصرين من مسلمين وأوروبيين[١].

ثالثًا ـ أسماء أخرى للقرآن، ولون آخر من ألوان الحفظ:

نعود بعد هذا الحديث، أو هذه الإلماعة السريعة عن الكتب السماوية السابقة، والتي كان لا بد منها لبيان حقيقة المزية الإسلامية، أو للوقوف على طرفٍ من هذه المزية التي تفرد بها القرآن الكريم في تاريخ النبوات والكتب السماوية؛ نعود لتأكيد هذه المزية ـ مزية الحفظ والخلود ـ التي ذهب بها القرآن في هذا التاريخ، تحقيقًا للتكفل الإلهي ووعد الله سبحانه الذي لا يتخلّف.. وذلك من خلال الإشارة إلى بعض أسماء القرآن الكريم التي سمّى الله تعالى بها كتابه. ودلالة هذه الأسماء على أعلى درجات الحفظ والتوثيق التي هيأها الله سبحانه وتعالى لكتابه الكريم، والتي سنقف على دلالتها وتطبيقاتها في المبحث الخاص ـ القادم ـ بجمع القرآن وتدوينه.

سمّى الله تعالى القرآن الكريم بأسماء أخرى كثيرة أشهرها: الذِّكْر، والتنزيل، والكتاب، والفرقان. وقد ورد اسم «الكتاب» في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، قال الله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾. وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾. وقال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ [الشعراء: ١ ـ ٢].

و«**الفرقان**» مصدر أُطلق على القرآن فصار علمًا عليه، كما يقول بعض

(١) راجع: الأسفار المقدسة ص٧٩ ـ ٨٩، و الفصل لابن حزم، (٢/ ١ ـ ٧٠)، وكتاب إظهار الحق لمؤلفه «رَحْمَةُ الله الهندي» الذي أحصى من الخلافات بين الأناجيل أكثر من مئة موضع.

العلماء؛ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]. والراجح أن هـذا المصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل، أي أنه الفارق بين الحق والباطل.

وقد قيل في تعليل تسمية القرآن «قرآنًا» و«كتابًا» أن التسمية الأولى روعي فيهـا كونه متلوًّا بالألسن، كما روعي في التسمية الثانية ـ الكتاب ـ كونه مدونًا بـالأقلام، فكلا التسميتين من تسمية الشـيء بـالمعنى الواقـع عليـه. قـال الأسـتاذ العلامـة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله: «وفي تسميته بهـذين الاسـمين إشـارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، وأعني أنه يجب حفظـه في الصدور والسطور جميعًا.. فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليـه أول مـرة. ولا ثقة لنا بكتابـة كاتـب حتـى يوافـق مـا هـو عنـد الحـافظ بالإسـناد الصـحيح المتواتر».

قال الدكتور دراز: «**وبهـذه العناية المزدوجة** التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيّها، بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز، إنجازًا لوعد الله الذي تكفَّل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند؛ حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكَلَها إلى حفظ الناس. فقال تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] أي بما طُلب إليهم حفظه. والسرُّ في هـذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التأقيت لا التأبيد، وأن هـذا القرآن جيء به مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته، وكان سادًّا مسدَّها ولم يكن

شيء منها ليسدّ مسدَّه، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمرًا يسّر له أسبابه، وهو الحكيم العليم»[١].

ونشير أخيرًا إلى ما ذكره بعض العلماء من معاني «الذِّكْر» الذي سمى الله تعالى به كتابه الكريم في آيات كثيرة.

قال ابن عطية رحمه الله: «وأما الذِّكْر فسُمِّي به ـ القرآن ـ لأنه ذَكَّر به الناسَ آخرتَهم وإلـههم وما كانوا في غفلة عنه، فهو ذِكرٌ لهم. وقيل: سُمِّي بذلك؛ لأن فيه ذكر الأمم الماضية والأنبياء، وقيل سُمي بذلك؛ لأنه ذكرٌ وشرفٌ لمحمد، وقومه، وسائر العلماء به»[٢]. والله تعالى أعلم.

أما أشهر أوصاف القرآن فهي: الهدى، والنور، والرحمة، والشفاء، والموعظة.

❁❁❁

(١) النبأ العظيم ٨ ـ ٩.

(٢) المحرر الوجيز (١ /٦٩)، طبع قطر. وانظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي الحنبلي: ١٣/ ٣٨٠، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

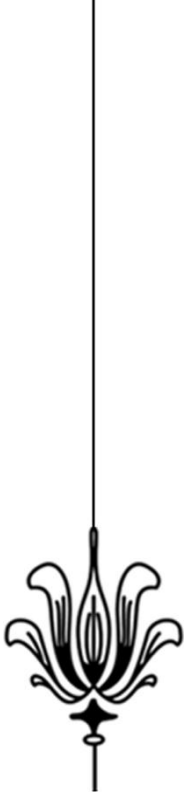

الفصل الثاني

الوحي أو مصدر القرآن الكريم

- أولاً: ظاهرة الوحي.
- ثانياً: مع المتخرصين في تفسير ظاهرة الوحي.
- ثالثاً: صدق ظاهرة الوحي.

الفصل الثاني

الوحي أو مصدر القرآن الكريم

قلنا في الفقرة السابقة في تعريف القرآن: إنه كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ.. وهـذا يقتضينا أن نعرض بعد ذلك، لزامًا واختصارًا، لإثبات أنه من كلام الله تعالى ـ.. غير أن الأدلة القاطعة على أنه من كلام الباري جلّ وعلا، واسعة ومتشعبة ومترامية الأطراف.. بل إن أطرافها لا تحصى فقط بمناهج الدارسين والباحثين، على اختلاف أساليبهم ووسائلهم وتنوع ثقافتهم ومعارفهم.. في القديم والحديث، حتى ينضاف إليها رحابة الموضوعات القرآنية ذاتها وسعة آفاقها.. وفهمها المتجدد الذي لا يبلى، والذي يحمل في كل يوم دليلاً أو أدلة جديدة على مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين.

ولهـذا، فقد رأيت أن أعرض لهـذا الموضوع من زاويتين اثنتين:

الأولى: ظاهرة الوحي، وهي الظاهرة التي جرت العادة بعدم إغفالها في كتـب علوم القرآن.

والثانية: حياة النبي ﷺ كدليل عـلى ذلـك المصـدر، وأن الوظيفـة أو المهمـة الأولى للنبي ﷺ في هـذا القرآن هي «الحكاية والتبليغ».

ونذكّر هنا ـ على أية حال ـ بأن هاتين النقطتـين أو الـزاويتين ليسـتا أكثـر مـن

مدخل إلى هـذا البحث وإشراف على ساحته. وأن كثيـرًا مـن موضـوعات القـرآن وعلومه، وبخاصة موضوع الإعجاز، والخصـائص الأدبيـة والأسـلوبية وطريقـة القرآن في خطاب الإنسان، تحمل المزيد من الأدلة، وتصـب في نهايـة المطـاف في هـذا البحر المحيط.

أولاً ـ ظاهرة الوحي:

أ ـ مقدمة عن عالم الغيب:

تمثل ظاهرة الوحي مبدأ اتصال عالم الغيب بعالم الشهادة ـ بحسب المصطلح القرآني عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ـ كما يمثل الوحي مصدرَ المعرفة الإنسانية عن عالم الغيب، في حين يشكل العقل ـ والحواس ـ مصدر هـذه المعرفة عن عالم الشهادة. والأمر الجوهري الذي لا غنى لنا عن الإشارة إليه هنا بين يدي الكلام على ظاهرة الوحي: أن الإيمان بعالم الغيب ليس خارجًا عن نطاق القدرة العقلية، فضلاً عن أن يكون فيه مناقضة لهـذا العقل أو خروج عن قوانينه الفطرية. إن في وسع العقل ـ بوصفه صاحب الدور الأول في إدراك عالم الشهادة[1] ـ أن يستدل بعالم الشهادة على عالم الغيب، أو على رأس الإيمان بعالم الغيب، وهو الإيمان بالله تعالى، ولا يكون العقل بذلك قد سَلَّم بسر باطل أو عقيدة مستحيلة.

نذكر هنا من القوانين التـي تحكـم عـالم الشـهادة، والتـي جعلهـا الفيلسـوف

(١) الحواس هي منافذ للمعرفة، والعقل هو الذي يقف وراءها فيجعل من إحساساتها إدراكات أو معارف حقيقية، بمعنى أنه ينقلها من مجرد كونها غرائز وانعكاسات يشترك فيها مع سائر الحيوانات التي تملك مثل تلك الحواس.

الشهير «كانْت» من جملة قوى العقل وقوانينه الفطرية: قانون السببية أو العِلِّيَّة الذي يُملي فيه العقلُ البحثَ عن المؤثر عند حدوث الأثر، وعن الصانع عند رؤية المصنوع. إن هذا القانون، كما يتناول الظواهر الجزئية في الكون فيطلب لكل معلول علة، ولكل مُسبَّب سببًا، يتناول من باب أولى مجموع الكون ككل، فيتطلب بالبداهة نفسِها علة وسببًا لوجوده، وممارسة هذا القانون ـ قانون العِلِّيَّة ـ وتطبيقه على الكون ككل، وطلب علة له بجملته واقع في دائرة القدرة العقلية بدون شك، لأن عالم الحس كما يشمل المحسوسات الجزئية، فإنه يشمل المحسوس العام الأعظم وهو العالم.. بل إن العقل «مضطر» إلى هذا الطلب صُعُدًا من طلبه علةً لكل شيء جزئي محسوس[(١)].

يضاف إلى ذلك أن العقل الإنساني نفسه لا يقنع بكل ما جمعته البشرية من علوم وفنون ومتع بدنية وعقلية فيستغني بها عن طلب تفسير لهذا الكون، أو عن دوره هو فيه ومصيره من بعده؟! وسوف يبقى أمام هذا العقل في طرفي الوجود، وهما المبدأ والمصير، أو المصدر والغاية، أو العلة الأولى والغاية الأخيرة، شيء لا تفسره المعارف العلمية بوجه من الوجوه.

---

(١) يمكن القول هنا باختصار: إن وجود الكون يحتاج إلى تعليل، وحركته وارتباط أجزائه واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه يحتاج إلى تفسير. وهل يصدق العقل أن القوة التي تدفع كل جزء في الكون في وجهتها، وكل حادثة في خط سيرها بحيث يتكون من المجموع كلٌّ متناسق متكامل في عالم الجماد وفي عالم النبات، وفي عالم الأحياء.. إلخ، هل يصدق العقل أن هذه القوة قوة ذاتية عمياء! ألا يثير موضوع «الخلق» من عدم، نَظَر الإنسان إلى التفكير والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور]. انظر كتاب: نظام الإسلام لأستاذنا محمد المبارك رحمه الله، الجزء الأول، ص٤٥ فما بعدها.

نعود من هـذا إلى القول: إن التسليم بعالم الغيب ليس خارجًا عن نطاق العقل، بل إن العقل نفسه يدل على سـاحة هـــذا العـالم، كـل مـا في الأمـر أنـه يعجـز عـن اقتحامها، أو معرفة كنهها بوسائل عالم الشهادة ـ العقل والحواس ـ. وهنا يأتي دور الوحي الذي يعرف الإنسـان بحقيقـة هـــذا العـالم، ويقفـه عـلى طبيعـة الصـفات الإلـهية، ويرسم له طريق الحياة الأمثل.. إلى غير ذلك من موضوعات الوحي.

فاعجب بعد ذلك لمن يقدم على إنكار عالم الغيب أو مـا وراء الطبيعـة بحجـة عدم دخوله تحت سلطان الحسّ والمشاهدة! ونحن إن تركنا الحديث عن الوعي بوجود الله تعالى ـ أساس الإيمان بعالم الغيب ـ وأن هـذا الوعي يخـالط كـل نفـس إنسانية، فإن عدم تمكن العقل من الوقوف على كنه عالم الغيـب، أو حقيقـة الـذات الإلـهية، لا يضعف من شأنه أو دوره في عالم الشهادة، ولـــكنه يضـعه في موضـعه: قادرًا على تيسير الحياة لا تصوير الوجود، ـ كما يقول «برجسون» ـــ ويُطـامِن مـن كبريائه، حين يعلم أن هـذه الوسيلة ـ العقل نفسه ـ لم تدرك حقيقة ذاتها بعـد. والله تعالى أعلم.

ب ـ معنى الوحي وصوره:

أصل الوحي **لغة**: الإشارة السريعة، وقيل: إنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوحى أو يُوجَّه إليه بحيث يخفى على غيره.

وقد رُوعي في إعلام الله تعالى لأنبيائه ـ بأي صورة من الصور ـ المعنيان الأصليان لهـذه المادة اللغوية (وحى) وهما: **الخفاء والسرعة!** ولهـذا قال الأستاذ الشيخ محمد عبده في تعريف الوحي **شرعًا**: «إنه عِرفان يجده الشخص من نفسه،

مع اليقين بأنه من قِبَل الله تعالى، بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت»[(١)].

وقد حددت الآية القرآنية الآتية ثلاث صور لتكليم الله تعالى عباده، أو لهذا الإعلام الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

---

(١) رسالة التوحيد للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. ص ١٠٨، دار المنار بمصر ١٣٦٥هـ تصحيح محمد رشيد رضا، قال الشيخ رحمه الله: «وقد عرّفوه ـ أي الوحي ـ شَرعًا: أنه إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان...» إلخ، هذا، وقد فرّق الشيخ رحمه الله بين الوحي والإلهام، فقال أو أضاف: «ويفرق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور».

قلت: ولا مجال للارتياب في اعتقاد الشيخ محمد عبده رحمه الله أن الوحي من الله تعالى لقوله في هذا العرفان: «مع اليقين بأنه من الله تعالى» على الرغم من محاولات بعض المغرضين ـ وبعض الفضلاء كذلك ـ اتهام الشيخ بأنه يعتقد أن هذا العرفان ـ أو الوحي ـ نابع من نفسه وليس من عالم الغيب. وهو ما زعمه كثير من المستشرقين. وهو الزعم الذي سننقضه بعد قليل. ونحن نحيل أصحاب هذه المحاولات ـ فقط ـ إلى ما كتبه الأستاذ الإمام في شروط المفسّر للقرآن، وإلى ما نصّ عليه ـ في سياق هذه الشروط ـ أو أشار إليه من وجوه الصعوبة في تفسير القرآن، والذي سننقله عنه في صفحات قادمة، فضلاً عما قاله في تفسيره للقرآن، أو في دروسه في التفسير، التي جمعها تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، ثم تابع فيها بعد وفاة الشيخ رحمهما الله تعالى. ولا ندري هل وجد ـ أو يوجد ـ أحد يزعم أن الأستاذ الإمام عليه رحمة الله كان لا يعتقد أن القرآن وحي؟! وأنه من كلام الله تعالى؟ أين ذهبت ظنون الناس؟ بل أين ذهبت عقول بعضهم ودينه وعلمه؟ وإذا كان تعريف الشيخ محمد عبده للوحي لا يدخل فيه القرآن، أو المراد به القرآن الكريم؟ فما المقصود به إذن؟! رحمة الله تعالى ورضوانه على الشيخ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انظر: تحريف المصطلحات القرآنية للدكتور فهد الرومي، ص ٣٨ ـ ٣٩، ط الرياض ١٤٢٤هـ.

وهـذه الصور هي:

١ ـ إلقاء المعنى في قلب النبي، أو إلقاء الله تعالى ما يريد إعلامه مباشرة في قلب النبي الكريم، من غير توسّط ملك الوحي. وهـذه الصورة كما هو واضح هي أكثر صور الوحي ـ أو الإعلام ـ خفاءً وسرعةً! ولهـذا أطلقت الآية اسم «الوحي» عليها ابتداءً[(١)].

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ قال: هو داود، أوحي في صدره فزبر الزبور. ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وهو موسى. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ وهو جبريل إلى محمد ﷺ.

٢ ـ الكلام من وراء حجاب، أي أن يكلِّمه الله تعالى بكلام يسمعه ولا يرى المتكلم سبحانه، لأن الذي يسمع محجوب عن الرؤية، فالحجاب إذن راجع لمن يكلّمه الله، أو لمكان الكلام، لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام، وقد كلّم الله تعالى موسى عليه السلام من وراء الشجرة ـ الحجاب ـ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٣ ـ تكليم النبي بواسطة مَلَك الوحي، وهو جبريل عليه السلام. غير أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بأسلوبين أو على شكلين: **الأول**: أن يأتيه مَلَك الوحي

---

(١) وذلك على الرُّغْم من أن الصورتين التاليتين أو الأخريين فيهما إعلام خفي وسريع، إلا أن الأولى منهما يدخل فيها الكلام المسموع، وتتم الأخرى عن طريق ملك الوحي جبريل عليه السلام، ولهـذا عادت الآية الكريمة فأضافت هـذه الصورة الأخيرة إلى (الوحي) أو إلى الله تعالى الذي (يوحي) بإذنه ما يشاء.

في مثل صَلصلة الجرس. **والثاني**: أن يتمثل له المَلَك رجلاً فيكلِّمه فيعي عنه ما يقول، أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثلَ صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أشدُّه عليَّ، فيُفصَم عنِّي وقد وَعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لِيَ المَلَكُ رجلاً فيكلِّمني فأعي ما يقول**» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البَرْد، فيُفصم عنه وإن جبينه ليَتَفصَّد عَرَقًا![1].

وقد تمّ الوحي بالقرآن الكريم، بلفظه ومعناه جميعًا، على الأسلوب الأول، أو الكيفية الأولى.. والتي هي أكثر صور الوحي شيوعًا، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥][2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

فقد نصت هاتان الآيتان على أن الوحي بالقرآن الكريم كان بواسطة جبريل ـ أي وليس بأي صورة أخرى من صور الوحي ـ أما وجه الاستدلال بهما على أن جبريل كان ينزل بصورته الملائكية فهو: أنهما نصتا كذلك على أن **مناط هذا النزول أو محلَّه هو قلب النبي الكريم**.

---

(١) رواه البخاري (ح رقم ٢)، ومسلم (ح رقم ٢٣٣٣) ص١٤٣٤ وغيرهما.

(٢) قال ابن عطية: «الروح الأمين: جبريل عليه السلام بإجماع، ونزل باللفظ العربي والمعاني الثابتة في الصدر والمصاحف. واللسان عبارة عن اللغة. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى حفظه إياه» وعلل النزول على قلبه بكونه من المنذرين، «لأنه لا يمكن أن ينذر به إلا بعد حفظه». «المحرر الوجيز» (١١/ ١٤٧) ط. دولة قطر.

وفي هـذه الكيفية أو الصورة كان يهبط جبريل بصورته النورانية أو الملائكية (أي الغيبية) فلا يُرى، وكان النبي الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يجد فيها جهدًا ومشقة بالغة! وما كان خبر السماء يهبط به أمين الوحي جبريل فيصل عالم الغيب بعالم الشهادة إلا أمرًا بالغ الخطر عظيم الشأن[1] هيأ الله تعالى له نبيّه وأعدّه لاستقباله؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وإن كان في وسعنا أن نقول: إن الجانب الروحي أو الغيبي كان هو مناط هـذا الاتصال في شخص النبي ﷺ، سواء أقلنا إن النبي مهيأ لمثل هـذا الاتصال على الدوام، وبدون ارتفاع أو ارتقاء روحي خاص في حالة نزول الوحي.. أم قلنا بمثل هـذا الارتقاء، أو الدخول في صورة ملائكية أو غيبية في حالة نزول الـوحي، حتى يتمكن النبي الكريم من التلقي عن عالم الغيب ومن أمين السماء! كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء والباحثين. ونحن نرى أننا لسنا بحاجة إلى كل هـذه الفروض:

أ ـ في الوقت الذي حددت فيه الآيات السابقة مَحلَّ النزول أو مَنَاطه، وهو قلب النبي الكريم: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

---

(١) قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، في قصة الإفك: «فوالله ما رام رسول الله وما خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى إنه ليتحدَّر منه مثلُ الجُمان من العَرَق، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي ينزل عليه..» الحديث: البخاري (رقم ٤٧٤٥) ص٩٢٣، بيت الأفكار الدولية للنشر ـ الرياض.

ب ـ وفي الوقت الذي صوّر فيه النبي نفسُه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الصوت الذي يسمعه في هـذه الحالة بأنه مثل صلصلة الجرس.. إيذانًا ببدء الوحي، أو إشارة إلى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يسمع أصواتًا سريعة ومتوالية من عالم الغيب، فيستغرق في انقطاع روحي، أو روحانية يجد معها من شدة الوحي ووطأته ما يجعل راحلته تبرك به إلى الأرض وقد كان راكبها! وقد جاءه الوحي مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت أن ترضّها[1]! وصدق الله العظيم حين خاطب نبيه في سورة المزمل ـ وهي من أوائل ما نزل عليه من القرآن ـ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]، وربما سمع الحاضرون صوتًا عند وجه الرسول ﷺ كأنه دويّ النحل، ولـكنهم لا يميزون كلامًا ولا يفهمون حديثًا.. أما النبي الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلا يلبث أن تسريَ عنه تلك الشدة، وينجلي عنه الوحي، حتى يجد ما أُوحي إليه حاضرًا في ذاكرته يتلوه على الناس قرآنًا وذكرًا للعالمين.. «**فيُفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال**»[2]! وصدق رسول الله ﷺ.

ثانيًا ـ مع المتخرصين في تفسير ظاهرة الوحي:

ونقف هنا، بكلمة عابرة، أمام تخرصات من زعم أن الوحي على هـذه الصورة: ضرب من الحالات المرضية التي كانـت تعـرض لمحمـد. أو أنهـا ـ في الاحتمـال الثاني، أو في أحسن أحوالها ـ: ضرب من الكشف الذاتي أو الإلـهام الداخلي.

---

(١) قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أنزل الله على رسول الله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ، حتى خفت أن تَرُضَّ فخذي». انظر البخاري: الباب ١٢ من الكتاب الثامن (كتاب الصلاة) ص٩٤، ط بيت الأفكار الدولية.

(٢) جزء من حديث سابق، تقدم في الصفحة ١٠٢.

وندع الرد على هـذا الاحتمال الثاني إلى الفقرة التالية، مكتفين هنا بالرد السريع عـلى الـزعم الأول، الـذي ذكـره مـع الأسـف غيـر واحـد مـن المستشـرقين ـ والمستغربين! ـ، والذي استعاروه هـذه المرة من فروض علماء النفس، أو عيـادة الأمراض النفسية، في تاريخ تهجمهم الطويل على مقام النبي الكريم ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أو على الأقل: إنكارهم المستمر لنبوته، فنقول:

ألا ما أعجب أن يصدر عن «حالة مَرَضِيّة» أو غير سويّة ـ مـن أي داء مزعـوم كانت!ـ مثلُ هـذا الكلام المعجز، وأن ينفصل هـذا الكلام من جنس كلام النبي ـ وهو الحديث النبوي ـ بوجوهٍ كثيرة تفضُلُه صـار بهـا معجـزًا عـلى مـدى الـدهور والعصور! وحتى استحال على جميع الإنس والجن ـ ولذكر الجن هنا دلالـة مهمـة لأنهم من عالم الغيب ـ أن يأتوا بسورة من مثله، ولا يصعب عـلى بعـض النـاس أن يحاكيَ أسلوب النبي نفسه، في أحاديثه التي كان يقولهـا في غيـر تلـك الحـالات ـ المرضية! أو الاستثنائية أو الطارئة ـ فيضع على لسانه حديثًا أو أحاديث ربما ظننـا أنها من كلامه ﷺ لولا قواعد المحدِّثين في قبول الروايات التي أبانـت عـن هـذه النسبة المنحولة أو المدّعاة! ويبقى القرآن الكريم الذي جاء من طريـق الـوحي لا يقبل أي كلمة غريبة أو جملة مقحمة، فضـلاً عـن انعـدام القـدرة عـلى محاكاتـه في أقصر سورة من سوره كما هو معلـوم، وهـكذا وُجـد عنـدنا سـيل أو ركـام مـن الأحاديث الموضوعة، نفاها المحدّثون بتلك القواعد التي أصَّلوها، والعلم الذي استحدثوه ـ علم مصطلح الحديث ـ ولـكن أحدًا لم يحتج، ولـن يحتـاج أبـدًا، إلى استخدام تلك القواعد لكي ينفي عن القرآن ما زعم بعض الأعاجم أنـه منـه، مـن نصٍّ مفقود أو سورة مجهولة، بل إن الإعلان عن مثـل هـذه السـورة، أو الجهـر بها.. سوف يفضح ـ لدى أي قارئ للقرآن أيًا كانت درجة ثقافته ـ مـدى مفارقتهـا

للقرآن وبعدها عنه! وفي جميع الأحوال: لن تكون مثل هـذه السورة المزعومة أكثر من كلماتٍ وجُمَل وعباراتٍ (مسروقة) من النص القرآني نفسه، ولـكنها تفتقـر في صياغتها إلى أناقة الأسلوب القرآني، ونظمه وإعجازه.. ولهـذا لـن يـتم الإعـلان عنها، أو المجاهرة بها، فضلاً عن التحدي، في يوم من الأيام! ولهـذا لم يكـن مـن باب الطرائف ـ عندنا ـ أن نستدل بالأحاديـث الموضـوعة عـلى الـوحي وإعجـاز القرآن.. وربّ ضارة نافعة!

ونضيف إلى ذلك أيضًا: أن من كان في غيبوبة أو في مثل المرض الذي ذكره بعض المستشرقين ـ الصرَع أو نحوه[1] ـ لا يتذكر أصلاً ما جرى له أو ما كان فيه، فضلاً عن أن يأتي بكلام معجز مثل القرآن!!

وعلينا أن نذكر هنا: أو بهـذه المناسبة، أن الواجب العلمي بات يفرض علينـا الترفع عن الوقوف أمام هـذه الفروض والخـزعبلات التـي انطلقـت عنـد بعـض المستشرقين وضربائهم من عُقَد تاريخية مسـتحكمة، ومحـاولاتٍ دائبـةٍ لصـرف الناس عن الإسلام، أو لإقامة حواجز تحول دون فهم رسالته على وجـه صـحيح، أو دون تأثيره في الناس، أو دون تأثر أقوامهم به.

حديث بدء الوحي:

على أن في وسعنا أن نؤكد النقطة التي ذكرناها أو اكتفينا بها قبل قليـل ـ لأن في الفقرة التالية مزيدًا من البيان ـ من خلال الحديث الصحيح الذي أخرجه الشيخان حول بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) راجع كتاب: الدفاع عن القرآن ضد منتقديه للدكتور عبد الرحمـن بدوي، ص١٥٩ ـ ١٦٠، مكتبة مدبولي الصغير، ط١، سنة ١٩٩٨، القاهرة.

«أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح. ثم حُبِّب إليه الخَلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه، وهو التعبد، الليالِيَ ذواتِ العَدَد[(١)]، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك فقال: اقرأ، فقال: **ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلَني، فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: **زمِّلوني**، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع[(٢)]، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: **لقد خشيتُ على نفسي!** فقالت خديجة: كلا والله ما يُخزيك الله أبدًا، إنك

---

(١) أي عدة ليالٍ. ويمكن عد هـذا التعبد الذي استمر لمدة شهر واحد، مع الرؤيا الصالحة التي سبقته: مقدمة الإعداد الإلـهي للتلقي عن الوحي، أو لبدء نزول الوحي عليه بالقرآن. وانظر: مقدمة العلاّمة الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز لكتاب الظاهرة القرآنية للمفكر وفيلسوف الحضارة: مالك بن نبي رحمه الله، ص١٣ ـ ١٤، دار الفكر بدمشق، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(٢) عقّب ـ هنا ـ الأستاذ محمود محمد شاكر (عليه الرحمة والرضوان) بقوله: «وذلك أنه قد أتاه أمر لا قبل له به، وسمع مقالاً لا عهد له بمثله، وكان رجلاً من العرب، يعرف من كلامها ما تعرف، وينكر منه ما تنكر. كان هـذا الروع الذي أخذه ـ بأبي هو وأمّي ـ أول إحساس في تاريخ البشر، بمباينة هـذا السمع، للذي كان يسمع من كلام قومه، وللذي كان يعرف من كلام نفسه».

قلت: ولم يكن هـذا هو السبب الوحيد في الرَّوع الذي أخذ النبي ﷺ، ولا نعتقد أن هـذا يمكن أن يفهم من كلام الأستاذ شاكر، أو أنه إنما قصد إليه.

لتَصِل الرَّحِم، وتحمل الكَلّ، وتَكْسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.. الحديث»[(١)].

إن في هـذا الحديث دليلاً على صدق النبي ﷺ مع نفسه وعلى صدقه مـع ربـه، وأن أمر السماء فَاجَأهُ وهو بغار حراء، فرجف فؤاده وانطلق يقول لخديجة: «لقـد خشيت على نفسي»! فلـم يكـن ﷺ في حالـة مـن حـالات الإشـراق الروحـي! أو حديث النفس، أو فيض الخاطر! ولو كان ينتظر مثل ذلك لما خشيه حين وجده أو اتفق له أو وقع فيه!! وصدق الله العظيم الذي خاطبه في محكم التنزيل بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص: ٨٦]. وبقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

ثالثًا: صدق ظاهرة الوحي:

نكتفي في تأكيد هـذه الظاهرة، بالحديث عـن جـانبين اثنـين تنطـوي تحتهمـا جوانب فرعية كثيرة لا مجال هنا للإفاضـة فيهـا، والخـروج بهـا إلى دائـرة دلائـل النبوة، وهي دائرة واسعة، كتب فيها الكثير في القديم والحديث.

الجانب الأول: أحوال النبي مع هذه الظاهرة:

الجانب الأول الذي نؤكد من خلاله صدق ظاهرة الوحي، وأنه لم يكن ظاهرة مرضية أو من حديث النفس ـ أي أنه لم يكن نابعًا من داخـل نفـس النبـي، ولــكنه

(١) فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل أسد بن عبد العزَّى، ابن عم خديجة..» إلى آخر الحديث: البخاري (٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٠).

حقيقة خارجة عنه، تتصل به وتنزل عليه ـ فهو أحوال النبي مع هـذه الظاهرة:

أ ـ فكم مرة **أبطأ عنه الوحي** وهو في انتظارٍ له ليفتي في أمر أو يجيب عن مسألة، حتى أرجف المشركون بهـذا الإبطاء والانقطاع، وحتى قال قائلهم: لقد قلى محمدًا ربُّه! فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ الآيات.

ب ـ وكم مرة نزل عليه الوحي، وهو بحسب أحوال الإنسان العادية **على غير استعداد**.. حتى عدّ العلماء من علوم القرآن، أو من أنواع القرآن ـ بحسب حالات نزوله على النبـي ﷺ ـ «الحضـري، والسـفري، والنهـاري، واللـيلي، والصـيفي، والشتائي، والفراشي، والنومي..» إلى آخر هـذه الأنواع.

أقول: ومتى كان يكتب ـ أو يملي من ذاكرته!ـ المريض والنائم أو العائـد مـن قتال الأعداء وقد أثخنته الجراح أو بلغ به التعب كل مبلغ! ثم كيـف يتـأتى لـه أن يأتي في جميع هـذه الأحوال بنسقٍ واحد من الكلام، هو النسق المعجز المعهـود في سائر أحواله بدون استثناء! فلا يكون بعضه أدنى في البلاغة من بعض، فضـلاً عـن أنه لا أثر في شيء منه لتعب أو مرض أو اختلاف مزاج ونحـو ذلـك ممـا يعـرض لسائر الناس.

وفي وسعنا أن نفهم هـذه النقطة في ضوء سـائر النقـاط التـي نوردهـا في هـذا الجانب. أو بعبارة أخرى: علينا أن نلحظ اجتماع هـذه النقاط ـ وغيرها كثيـر ـ في الموقف الواحد، والحالة الواحدة.

ج ـ وكم مرة نزل عليه الوحي **بغير ما يحبه ويميل إليه**.. وربما خطّأه تارة، أو تلقاه بشيء من العتاب أو التحذير تارة أخرى! قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

وعزّ وجه النبي الكريم، وتنزّه مقامه عن أن يتقوّل على الله تعالى.. وهو الذي لم يكن يكذب على الناس، **ولـكنه الإعلام الإلـهي القاطع في أن النبي متلقٍّ عـن الله لا متقوّل عليه!**

د ـ يضاف إلى ذلك ـ كما هو واضح من هـذه الآيات ـ أن القرآن الكريم يتحدث عن محمد ﷺ **بصيغة المخاطب، أو الغائب، ويخاطبه أو يناديه بوصف النبوة والرسالة**، ويأمره من باب التعليم والإرشاد والتثبيت[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل: ١ ـ ٢] إلخ السورة.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

---

(١) راجع كتاب: نظام الإسلام: العقيدة والعبادة لأستاذنا محمد المبارك رحمه الله، طبع دار الفكر بدمشق.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٨ ـ ٢٩].

والآيات في هـذا كثيرة جدًا كما هو معلوم، بل إن طبيعة النص القرآني، أو طبيعة بناء هـذا النص قائمة على هـذا **الوضوح المطلق بين مقام الألوهية ومقام النبوة**، وعلى أن كل مقام سوى مقام الخالق جل وعلا، داخل في باب العبودية لله، والخضوع لربوبيته.. وإن كان سيدنا محمد ﷺ وسائر الأنبياء الكرام يتقدمون هـذا الركب بوصفهم العباد المصطفين الأخيار[(١)].

كما يدل النص القرآني كله، وبوضوح كامل، على أن محمدًا في مقام التلقي

---

(١) جاء النص على عبودية النبي ﷺ، أو التعبير عنه بـ(عبده) في سياق الآيات التي تحدثت عن معجزة النبي التي تلي معجزة القرآن، وأعني: الإسراء والمعراج، والتي طوي له فيها: الزمان والمكان، وبلغ فيها ما لم يبلغه نبي من الأنبياء، قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٨ ـ ١٠].

قلت: ومن ثم فإن إضفاء أي صفة من صفات الألوهية أو الربوبية على أي عبد من عباد الله ـ وكلهم دون النبي ﷺ ـ لا صلة له بالقرآن والإسلام.

عن الله تعالى، كما أشرنا قبل قليل. وإلى هـذا يشير قوله عز من قائل مخاطبًا نبيه الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦].

هـ وأخيرًا، فإننا قد نهتدي بقليل من التأمل إلى ملاحظة **عدم انفعال القرآن بالأغراض التي ينفعل لها الأنبياء**، فضلاً عن سائر الناس، كما لا تعرض للذات الإلـهية، التي يلمحها القارئ من خلاله، الحالات النفسية التي تعرض لهم! فلقد اغتمَّ النبي صلوات الله وسلامه عليه ـ على سبيل المثال ـ وأصابه الحزن والألم بسبب إعراض قومه عن الهداية وإصرارهم على تنكب طريق الوحدانية.. حتى خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وبقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦].

ولـكننا إذا عدنا إلى استعراض مزاعم المشركين والكفار في الله سبحانه وتعالى، وما نسبوه إليه من الولد، ورأينا عبادة بعضهم للأصنام، وآخرين للعجل، وغيرهم للكواكب أو الشمس والقمر! إلى جانب ما رموا به أنبياء الله ورسله، وقالوا في ملائكته.. وتأملنا في الوقت ذاته ردود القرآن على هـذه المفتريات، وتفنيده لهـذه المزاعم والتُّرَّهَات.. لرأينا في ذلك كله قوة إلـهية تؤثر ولا تتأثر! وذاتًا عُلويةً «تصف لك الحقائق خيرها وشرها، في عزة من لا ينفعه خير، واقتدار من لا يضره شر»[1] سبحانه وتعالى.

ومن هنا، فإن في وسعنا أن نقول في خاتمة المطاف، تلخيصًـا لهـذا الجانـب كله (أحوال النبي ﷺ مع ظاهرة الوحي) وتعقيبًا عليه:

---

(١) راجع كتاب: النبأ العظيم ص١٢٠، للعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله.

إن أية دراسة نفسية تحليلية لموضوع القرآن الكريم تدلّنا على نحوٍ لا مرية فيه على صدق ظاهرة الوحي، وعلى أن هـذا الكتاب الخالد تنزيل من حكيم حميد. ولله الحمد في الأولى والآخرة.

الجانب الثاني: طبيعة الموضوعات القرآنية ورحابتها:

إن أدنى مقارنة بين شمول الموضوعات القرآنية وتنوعها وعمقها، وخروجها من إطار الزمان والمكان، وبين حياة النبي ﷺ ومعارفه قبل البعثة لا تدع مجالاً للشك في أن محمدًا ﷺ لم يكن إلا واسطة لعلم غيبي مطلق! ولقد جاءت الآية القرآنية الكريمة تشير إلى هـذا الشمول والتنوع بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

وجاءت الآية الأخرى تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

في حين تأمره الآية الثالثة بهـذا الأمر: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

إن جميع معارف عصر نزول القرآن ـ لا معارف النبي ومعارف بيئته ـ ومعارف عصور لاحقة، لا تمثل شيئًا من شمول المعارف القرآنيـة وتنوعهـا وعمقهـا، بـل تصحيحها وتقويمها لتلك المعارف الإنسانية حتى ما كان منها سابقًا لعصر نـزول القرآن! **فإن لم يكن هـذا وحيًا فأي شيء يكون؟**

يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله:

«إن العبقرية الإنسانية تحمل بالضرورة طابع الأرض حيث يخضع كل شـيء

لقانون الزمان والمكان! بينما يتخطى القرآن دائمًا نطاق هـذا القـانون ليشـير مـن خلال رحابة موضـوعاته التـي تجـاوزت حـدود الزمـان والمكـان إلى أن الـذات المحمدية لم تكن إلا واسطة لعلم غيبي مطلق»!

قلت: ألم يتخط القرآن هـذا القانون في الحديث عن الماضي وعن الحاضر وعن المستقبل! ونزلت فيه هـذه الآية في حراسة هـذا الحديث وفي التحدي بصدقه وصحته إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢] لأن معنى الآية أن القرآن مبرّأٌ من أن يلحقه خطأ وخلل وباطل لا من جهة ما أشار إلى وقوعه قبل عصر نزول القرآن، ولا من جهة ما دلّ على وقوعه بعد ذلك العصر!

أ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣ ـ ٤٦].

وقال تعالى في سورة آل عمران في بدء العرض القرآني لقصة مريم عليها السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الآية ٤٤].

إن الآيات القرآنية التي تحدثت عن ماضي الإنسانية البعيد، وجاء فيها إسهاب وتتبع لكثير من الدقائق والتفاصيل، وبخاصة في قصص كثير من الأنبياء كإبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام، تحمل دلالة واضحة على أن القرآن وحي يوحى! خصوصًا إذ لاحظنا أن دراسات المؤرخين المعاصرين ووثائقهم وأحافيرهم لم تنته ـ ولا يمكن لها ذلك ـ إلى أي أمر يناقض القرآن ويخالفه بحال!

ب ـ وقل مثل ذلك في وقوع ما أخبر القرآن بوقوعه في المستقبل! قال تعالى في مطلع سورة الروم: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ

سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: ١ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥].

ج ـ أما تخطي القرآن ذلك القانون في الحديث عن الحاضر ـ أو وقت النزول ـ فالآيات والمواقف فيه كثيرة أيضًا، وبحسبنا هنا أن نسأل: من الذي يملك أن يقول في أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: ٣] فيحكم عليه ـ في موقف مشهور من مواقف السيرة النبوية ـ أنه سيبقى على كفره ولن يدخل في الإسلام؟! وقد دخل فيه فيما بعد مَن كان في مثل عداوته لهـذا الدين وحربه عليه! وقد كان في وسع أبي لهب، ولو بحيلة كاذبة أو نفاق مستور، أن يقول إنه آمن أو دخل في الإسلام، فيدل الناس بذلك ـ لو كان أمر القرآن للنبي ﷺ، أو أن الوحي لم يكن ظاهرة صحيحة وصادقة ـ على تقوّل النبي على عالم الغيب وعلى خطئه ـ وحاشاه من ذلك كله!ـ حين حكم على أبي لهب بالبقاء على الكفر، وبورود النار يوم القيامة! أم إنه الله العليم الخبير الذي أنزل الفرقان، ويعلم ما في النفوس والعقول، والذي بيده مفاتيح الهداية والإيمان، هو الذي أخبر عن أبي لهب، وكان الأمر كما أخبر سبحانه.. طيلة عصر التنزيل، أو مدة حياة أبي لهب؟

وقل مثل ذلك في قوله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدثر: ٢٦] وغير ذلك من هـذه المواقف الكثيرة في كتاب الله العزيز.

د ـ وغني عن البيان أن نشير بعد ذلك إلى رحابة الموضوعات القرآنيـة، التـي بلغت حد الدلالة اليقينية القاطعة على أن القرآن وحـي يـوحى، في الأبـواب التـي أكدتها العلوم التجريبية والمعارف الإنسانية في هـذا العصر، حتى دعاها الكثيرون إعجازًا، أو أدخلوها في حد إعجاز القرآن.. فصار الحديث عن الإعجاز العلمـي، والإعجاز التشريعي.. إلى جانب الإعجاز الغيبي، والإعجاز البياني.. وفي وسع أي

دارس اليوم أن يعود إلى ما كتبه في ذلك كله المختصون في علم الأجنَّة، وعلوم الطب، وعلم الفلك، وعلم النبات، وعلوم الجغرافية، وعلوم البحار، وعلم الإنسان، وعلم الأخلاق.. في الكتب والمؤلفات، وفي الندوات والمؤتمرات، ليعلم معنى رحابة الموضوعات القرآنية، ومعنى معارف القرآن التي سبقت العصور.. وكيف أن محمد بن عبد الله الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنما كان واسطة لعلم غيبي مطلق! وأن الذّكْر الذي قرأه على العالمين، نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين.

قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٢-٤] وصدق الله العظيم.

❁❁❁

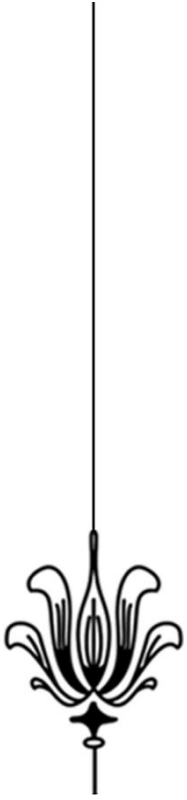

الفصل الثالث

نزول القرآن والحكمة من تنجيمه

- أولاً: الوحي والتنزيل.
- ثانياً: مدة نزول القرآن، وأول ما نزل منه، وآخر ما نزل.
- ثالثًا: الحكمة من تنجيم القرآن.
- رابعًا: حكم أخرى للتنجيم: إضافة وتعليق.
- بين الوحي والواقع.

الفصل الثالث

نزول القرآن والحكمة من تنجيمه

أولاً ـ الوحي والتنزيل:

عبر القرآن الكريم عن كونه وحيًا إلهيًا، إما بمادة (الوحي) ذاتها، أو بمادة (النزول) وما يتصل بها ويشتق منها. وغالبًا ما يأتي التعبير بالوحي في سياق الحديث عن نزول القرآن على النبي ﷺ، أو مخاطبته به، أو وصوله إليه، أو باختصار في سياق العلاقة بين النبي والقرآن على وجه العموم. وغالبًا ما يأتي التعبير عن القرآن الكريم بالنزول في سياق الحديث عن القرآن بوصفه حقيقة موضوعية (أنزله) الذي يعلم السرّ في السماوات والأرض، أو لبيان أطراف التنزيل: الموحي به سبحانه، وأمين الوحي النازل بالقرآن: جبريل عليه السلام، ومحمد ﷺ الذي (نزل) عليه القرآن.

وقد جاء التعبير بهذه المادة ـ النزول ـ وما تصرّف منها تنويهًا بشرف القرآن، وعلوّ مكانته ومقامه؛ مصداقًا لقوله تعالى في فاتحة سورة الزخرف: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ١ ـ ٤].

والذي نحب أن نؤكده هنا هو أن الذي نزل به جبريل عليه السلام هو القرآن الكريم باعتبار أنه الألفاظ المعجزة أو الكلام العربي المعجز من أول سورة

الفاتحة إلى آخر سورة الناس[(١)]، وأنه كلام الله تعالى وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في إنشائه وترتيبه. فمهمة جبريل عليه السلام: الحكاية للرسول والإيحاء إليه. أما مهمة النبي ﷺ فهي: وعي القرآن وحفظه، ثم حكايته وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره والعمل بمقتضاه. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦].

---

(١) يرى بعض العلماء أن في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: ١ ـ ٢] ما يشير إلى أن تنزلات القرآن كانت إلى: اللوح المحفوظ، وأنه تنزل إليه جملة لا مفرقًا، لأن أسرار تنجيم القرآن على النبي ﷺ لا يعقل تحققها في هـذا التنزيل، ويقولون أيضًا: إن هنالك تنزلاً ثانيًا إلى السماء الدنيا، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فيستدلون بهـذه الآيات مجتمعة على نزوله جملة في ليلة القدر من شهر رمضان، أما نزوله الثالث على النبي ﷺ: فقد كان مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة كما هو معلوم.

ويتعين الذهاب إلى هـذا التفسير إن ثبتت التنزلات الثلاثة بالأحاديث الصحيحة، أو يقال في مثل هـذه الحال: إن هـذا التفسير وارد بدليل تلك الأحاديث، لأن هـذه الآيات تحتمل وجهًا آخر من وجوه التفسير، وقد لا يفهم من آية سورة البروج التي استُدل بها على التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ أكثر من أن القرآن الكريم عند الله ثابت، وإن قوله هو المرجع الأخير في كل ما يتناوله من الأمور، وأن كل ما قضاه الله ﷻ من قرآن وغيره هو في هـذا اللوح، الذي لا يدرك البشر طبيعته، لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله تعالى بعلمه. كما أن الآيات الأخرى التي استدل بها على التنزيل الثاني، تفيد أن ليلة القدر من رمضان كانت بدء نزول القرآن على النبي ﷺ، أي أن القرآن ابتدئ تنزيله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجمًا في أوقات مختلفة من سائر الأزمان. والله تعالى أعلم. قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: ٣]: «ومعنى هـذا النزول أن ابتداء نزوله كان في ليلة القدر، وهـذا قول الجمهور. وقالت فرقة: بل أنزله الله تعالى جملةً ليلة القدر إلى البيت المعمور» تفسير ابن عطية (١٣ / ٢٦٢). وراجع: الإتقان للسيوطي (١ / ١١٦ ـ ١٢٠) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، ١٩٨٥، القاهرة.

وقال: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وإذا كانت هذه النصوص في شأن إيحاء المعاني، فإن الآيات التالية دالة على أن الوحي كان باللفظ أيضًا ـ كما أشرنا إلى طرف من ذلك في موضوع الوحي ـ قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: ٦].

وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١].

وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ [القيامة: ١٦].

وقال عز من قائل: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

والإقراء، وتحريك اللسان، والترتيل.. إنما هي من عوارض أو صفات الألفاظ، وليس المعاني كما هو معلوم.

وقد قال بعض العلماء في تفسير الآيات السابقة من سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾... الآيات، إن سبب نزولها أن الرسول كان إذا نزل القرآن عَجَّل بتحريك لسانه به، أي بقراءته، حُبًّا له، أو حتى يحفظه ولا ينساه، فنهاه الله ﷻ عن ذلك، وأمره بالاستماع إلى جبريل، وطمأنه بأن عليه ـ سبحانه ـ جمعه له في صدره حتى يحفظه، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٧] قال: جمعه له في صدره وقراءته عليه وتقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة: ١٨] قال.. فاستمع له

وأنصت. «فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي كما قرأه»[(١)].

أما إضافته ـ تعالى ـ القرآن إلى النبي ﷺ أو إلى جبريل، فلبيان أنه ليس بسحر كما زعم بعضهم، ولكنه كلام (رسولٍ) مُرسَل به من رب العالمين، أو كلامُ مُرسِل رَسُولٍ كريم، على مجاز الحذف، قال الله تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣﴾ وقال تعالى في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

ثانيًا ـ مدة نزول القرآن، وأول ما نزل منه، وآخر ما نزل:

١ ـ كانت مدة نزول القرآن الكريم ثلاثة وعشرين عامًا؛ لأن مقام النبي ﷺ في مكة كان ثلاث عشرة سنة اتفاقًا، ومقامه في المدينة عشرة أعوام على أشهر الروايات.

وقد تتابع نزول القرآن خلال هذه المدة الطويلة، فكانت تنزل السورة مرة، وتنزل الآية أو الآيات مرة أخرى، فيقول الرسول ﷺ: ضعوا هذه الآية في موضع كذا من سورة كذا ـ كما سنرى عند الكلام على تأليف القرآن ـ جمعه ـ على عهد النبي ﷺ، حتى تمّ نزول هذا الكتاب الكريم قبيل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) صحيح البخاري (حديث رقم ٥). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه إذا أُنزل عليه القرآن؛ يخشى أن ينفلت منه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ قال: علينا أن نجمعه في صدرك ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ فإذا أنزلناه فاستمع.. الحديث، البخاري (حديث رقم ٤٩٢٩)، مسلم (حديث رقم ٤٤٨).

٢ ـ وكان أول ما نزل من القرآن قول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[(١)].

يدل على ذلك: ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة، الذي أشرنا إليه عند الكلام على الوحي وصوره في البحث السابق.

غير أنه قد روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمـن أنه قال: سألت جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾. فقال أحدثكم ما حدَّثنا به رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**إني جاورت بحراء، فلما قضيت جواري، نزلتُ فاستبطنت الوادي**[(٢)]**، فإذا هو جبريل،**

---

(١) نشير هنا إلى أن المناخ العقلي الذي أشاعه القرآن الكريم والشروط النفسية والاجتماعية التي أوجدها، والتي كانت السبب في الاكتشاف والتقدم العلمي في الإسلام، كما سنشير في مبحث التفسير العلمي للقرآن، بدأت مع بداية الوحي. يقول الأستاذ مالك بن نبي: «بينما ينفتح كتاب العهد القديم، منذ السطر الأول في سفر التكوين، على عالم الظاهرات المادية، وينفتح كتاب العهد الجديد في إنجيل يوحنا على عملية التجسيد، ينفتح القرآن على الجانب العقلي: [﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.... ﴿اقْرَأْ﴾.. هـذه الكلمة الأولى التي تفتح إليها أول ضمير إسلامي، ضمير محمد، ويتفتح لها بعده كل ضمير مسلم.

«إن الحروف هي حقًا أداة الروح، لكل رسالة، لكل بلاغ، فهي الحامل والرمز لكل معلومة من المعلومات، فأول ما نزل به القرآن يشير إلى أهميتها، ويخصّ موضوعها بالذكر، ويرسم في الضمير الإسلامي قيمتها منذ اللحظة الأولى في كلمة ﴿اقْرَأْ﴾.

«إن الحرف ينقل ويبلغ الروح، وفي نفس الوقت يحفظه من الضياع، وسيحفظ أولاً وقبل كل شيء القرآن نفسه، ذلك الكتاب الذي لم يتغير فيه حرف واحد منذ أربعة عشر قرنًا، على خلاف كل الكتب الأخرى..» كتاب إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث للأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، ص٣٢.

(٢) زاد في رواية: فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، ثم نظرت إلى السماء. راجع البخاري: (٤، ٤٩٢٢، ٤٩٢٤) ومسلم (١٦١).

فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ».

ولـكن هـذه الرواية تشير إلى أول ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي، أو بعد نزوله السابق، أو أول مرة، بدليل قوله ﷺ: «**فإذا هو جبريل**»، وهو ما جاء التصريح به فيما رواه الشيخان أيضًا من حديث جابر نفسه: «**بَيْنا أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فَجُئِثْتُ**[1] **منه حتى هَوَيْتُ إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زمّلوني زمّلوني، فأنزل الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.. إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قال: **فحَمِي الوحي وتتابع**».

فكأن جابر بن عبد الله حدث بما فهمه من الحديث الأول قبل ما سـمعه عـن النبي ﷺ ـ في الحديث الآخر ـ من نزول الملك عليه بسورة «اقرأ».

٣ ـ **بين سورتي العلق والفاتحة**: الآيات الخمس الأولى من سورة العلق أول ما نزل من القرآن، أو هي الآيات التي استُهلّ بها هـذا النزول. وسـورة الفاتحـة هـي التي استُهلَّ بها المصحف الشريف، أو ترتيب سور القرآن، وآيـات الفاتحـة سـبع آيات كما هو معلوم.

وقد قيل إن السبب في هـذين الاستهلالين: اشتمال كلٍّ منهما على جميع مقاصد القرآن الكريم. وعند البلاغيين: أن «براعة الاستهلال» معناها: أن يشتمل

---

(١) جُئث: فَزِع. وجَئث: ثَقُل عن القيام. يقال: جُئث جئوثًا، فهو مجؤوث. وجَئِث جَأثًا. ورواية الحديث بضم الجيم، والمعنى: أنه ﷺ فزع فَرقًا لما رأى جبريل عليه السلام الذي كان قد جاءه بحراء. وفي رواية أخرى للبخاري: «فَرُعبت منه» البخاري (٤ و٣٢٣٨)، ومسلم (١٦١).

أول الكلام على ما يناسب الحال المُتكلَّم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله. قال بعض المفسرين: إن الفاتحة اشتملت على «العلوم التي احتوى عليها القرآن، وقامت بها الأديان» وهي أربعة: علم الأصول: ومداره على معرفة الله تعالى وصفاته، وإليه الإشارة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ ومعرفة النبوات، وإليه الإشارة بـ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾ ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة بـ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وعلم العبادات: وإليه الإشارة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وعلم السلوك: وهو حمل النفس على الآداب الشرعية، والانقياد لرب البرية، وإليه الإشارة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وعلم القصص: وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، ليعلم المطلع على ذلك: سعادة من أطاع الله تعالى، وشقاوة من عصاه. وإليه الإشارة بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾»[1].

أما آيات سورة العلق، بوصفها أول آيات القرآن نزولاً على النبي الخاتم الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين؛ فقد قال بعض المفسرين: «إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن»! لأن فيها «ما يتعلق بتوحيد الرب جل وعلا، وإثبات ذاته وصفاته: من صفة ذاتٍ وصفة فعلٍ»

قلت: ولأن فيها كذلك ما يتعلق بالنبي المبلِّغ ـ الذي نزل عليه القرآن ـ وبالإنسان المبلَّغ، أو الذي أهّله الله تعالى ليكون محلاً صالحًا للخطاب والتكليف، بما حباه من العقل والعلم؛ وقد أشرنا إلى أن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ انفتاح على الجانب العقلي عند الإنسان. أما قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ فمعناه: أنه

(١) الإتقان للسيوطي (٣/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩).

تعالى الخالق الموجد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، والمتكفل بصلاحهم من رزق وعافية.

أما تعليم الإنسان بالقلم: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ والارتقاء الدائم بعلمه ومعارفه عبر الأمم والعصور: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ فهـذا جميعه من لوازم ربوبيته تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

وقد كُررت هـذه الكلمة مرتين، كما أن الأمر بالقراءة كُرر مرتين، وكذلك فعل ﴿عَلَّمَ﴾.. إنه ﴿رَبُّكَ﴾ الذي ﴿عَلَّمَ﴾. علمًا بأن القراءة تستلزم الإشارة إلى المكتوب.. ﴿بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ (١).

وإذا كانت سورة الفاتحة ـ أو السبع المثاني ـ **سميت فاتحة الكتاب**، لأنها أول ما يكتبه الكاتب في المصحف، وأول ما يتلوه القارئ من الكتاب العزيز؛ فإن آيات سورة العلق ـ أو الخمس الأوائل ـ يمكن أن تُدعى: **عنوان التنزيل**، لأنها دليل القارئ المعلَّم، أو المخلوق المربوب المكلَّف. والله تعالى أعلم.

٤ ـ **أما آخر ما نزل من القرآن**، فهو قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ كما نقل ذلك عن ابن عباس. وفي رواية للبخاري عن ابن عباس أيضًا أن آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨]. وعن سعيد بن المسيب «أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدًا بالعرش آية الدَّيْن» وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾.. ـ إلى قوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ

(١) انظر السيوطي. وراجع بحثنا: (تكريم الإنسان في النظام التربوي في القرآن) مجلد: بحوث في علوم القرآن ص٣٩٨ ـ ٤٠٤.

لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ ـ وهي أطول آية في القرآن. وقال السيوطي: إن هذه الآراء الثلاثة يمكن الجمع بينها، لأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصاحف[1] لأنها في قصة واحدة، فأخبر كل واحدٍ عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل، وإن كان من الراجح أن آخر ما نزل بإطلاق هو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١] لأن بعض الروايات تنص على أن النبي توفي بعد نزول هذه الآية بتسع ليالٍ فقط[2].

على أن الزركشي في كتابه البرهان عدَّد بعض روايات في آخر ما نزل، كما بلغ بها بعضهم إلى عشرة أقوال، ليس من بينها كلها آية سورة المائدة التي اشتهرت عند بعض الدارسين، أخذًا من موضوعها، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وذلك لأن هذه الآية نزلت في يوم عرفة من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، وقد عاش النبي ـ صلوات الله عليه ـ بعدها واحدًا وثمانين يومًا، في حين لم يكن بين وفاته عليه السلام وبين نزول آية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾... سوى تسع ليالٍ فقط! كما أشرنا قبل قليل.

وإكمال الدين في الآية المذكورة، يراد منه: إقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء

---

(١) آية الدَّين رقمها في سورة البقرة (٢٨٢)، وآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾... رقمها (٢٨١).

(٢) انظر: البرهان للزركشي (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠). وفي رواية أخرى: أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها سبع ليالٍ، وفي رواية ثالثة: إحدى وعشرين ليلة، كما ذكر ابن حجر في الفتح. راجع: الكلمات الحسان للشيخ محمد بخيت المطيعي، ص٧.

المشركين عنه، حتى حجَّه المسلمون لا يخالطهم المشركون. يؤيد هـذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المشركون والمسلمون يحجّون جميعًا، فلما نزلت سورة براءة نُفي المشركون عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين» فكان ذلك تمام النعمة[(١)]. والله تعالى أعلم.

ثالثًا ـ الحكمة من تنجيم القرآن:

لتنجيم القرآن ـ أي: لنزوله مفرقًا على دفعات، ـ والعرب تسمّي التفريق: تنجيمًا ـ وفي هذه المدة الطويلة التي أشرنا إليها ـ فوائد وحكم كثيرة، بعضها يتصل بشخص النبي ﷺ، وبعضها الآخر يتصل بالمجتمع الإسلامي الوليد الذي كانت تتنزل عليه الآيات.. وبعض هذه الحكم يتصل بالنص القرآني نفسه؛ ونجمل هنا القول في هذه الحكم:

١ ـ **تثبيت فؤاد النبي** ﷺ، وإمداده بأسباب القوة والمجابهة أمام حملات المشركين ودسائس المنافقين، فتجديد الوحي الذي يحمل في طياته تأكيدًا لنبوّته كل يوم أو حالاً بعد حال، يمثل لونًا من ألوان الرعاية الإلهية التي تمده بأسباب الثبات والمضي فيما اختاره الله تعالى له، ولهذا فإن المشركين عندما اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة، كما كانت الحال في الكتب السابقة، رد عليهم سبحانه بما في هذا التنجيم من حكمة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: ٣٢ ـ ٣٣].

---

(١) انظر للمؤلف: رسالة بعنوان: آية الولاية عند الشيعة الإمامية: تفسير ونقد ص ٤٤ ـ ٤٧. دار الآل والصحب، الرياض، ١٤٣١هـ.

كم هي الشدائد التي عرضت للرسول الكريم.. والتي حملتها الأيام المتلاحقة في أوضاع ومناسبات شتى.. والوحي الإلـهي يهوّن من تلك الشدائد والمصاعب والآلام، ويقدّر لها أجلاً وقدرًا مقدورًا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣].

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

ويقول تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦].

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

الآيات التي تعزّي الرسول الكريم والتي تـأمره بالصـبر والمصـابرة كثيـرة في كتاب الله، ولـكن يبقى مبدأ تجديد اتصال الوحي به، ومتابعة نزوله، يحمل معنـى تثبيت فؤاده بإطلاق، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة السابقة في سورة الفرقان.

وتحمل الآية الثانية السابقة: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾... الإشارة إلى أن من أهم صور هـذا التثبيت: الرد على **مزاعم المشركين وشبههم واعتراضاتهم**، قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة ولا شبهة، ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم. وقال ابن عباس في تفسير «المثل»: ما يلتمسون به عيب القرآن والرسول، ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم. قال: «وما هـذا إلا اعتناء كبير وشرف للرسول ﷺ

كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحًا ومساءً، وليلاً ونهارًا، وسفرًا وحضرًا»[(١)].

٢ ـ تسهيل حفظه على الرسول والمؤمنين، بوصفه لونًا من ألوان الحفظ الذي تكفل الله تعالى به: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

فقد اختار الله تعالى تنزيله على هـذا الوجه ليسهل على الناس حفظه، ولهـذا جمع بين الأمرين في هـذه الآية فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾.

وإذا كان الله تعالى قد تكفل لرسوله بحفظه ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦]. فإن أفراد المسلمين كانوا بحاجة إلى أن يُعطوا فرصة تمكنهم من حفظه في الصدور، وهو الحفظ الأول والأهم بوصفهم أُمّة أُميَّة كما هو معلوم.

٣ ـ يمكن القول: إن من حكم هـذا التنجيم، بصورة عامة، **رسم صورة المجتمع الآخر**، أو الفئات الثانية من منافقين ومشركين.. وفضح أساليبهم ونواياهم، ومفاجأتهم بحقيقة ما يقولون ويبيِّتون ويمكرون. قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

وتظهر أهمية هـذه الفائدة إذا قارناها بالحكمة الرابعة الآتية:

٤ ـ ومن أهم هـذه الحكم: تربية الأمة الناشئة وإعدادها لبنة لبنة، أو سورة سورة، وآيات بعد آيات.. بحيث تمّ بناء هـذه الأمة في نهاية المطاف من خلال نصوص القرآن الكريم. إن هـذا البناء لم يتم في يوم وليلة؛ بل تمّ خلال ما يقرب من ربع قرن كان القرآن الكريم فيها ينزل منجَّمًا فيربّيها ويعدّها وينشئها.. بل

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٣١٧)، قال الطبري: «ولا يأتيك يا محمد هـؤلاء المشركين بمثل يضربونه إلا جئناك من الحق بما نبطل به ما جاؤوا به وأحسن منه تفسيرًا».

يرسم للناس جميعًا خطوات البناء الأمثل في الحاضر والمستقبل؛ يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «لقد جاء هـذا القرآن ليربّي أمة وينشئ مجتمعًا، ويقيم نظامًا. والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد. إنما تتأثر يومًا بعد يوم بطرف من هـذا المنهج، وتتدرج في مراقيه رويدًا رويدًا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئًا فشيئًا، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخمًا ثقيلاً عسيرًا، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح في اليوم التالي أكثر استعدادًا للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها والتذاذًا بها»[(١)].

وقد تمّ هـذا الإعداد الذي اقترن به عنـد المسـلمين القـول بالعمـل بوسـائل متعددة، وأمور كثيرة تحتاج إلى دراسة خاصة، ونشير هنا فقط إلى نقطتين اثنتين:

أ ـ التربية العملية على أرض الواقع، وذلك من خلال ربط الأمور بأسبابها ومسبباتها، أو التعقيب على نتائجها في الحياة اليومية على صعيد الفرد والمجتمع، وهـذا أدعى إلى بيان مدى الواقعية في هـذا الدين، وأن أحكامه أحكام عملية لا نظرية، وأدعى ـ من وجه آخر ـ إلى الفهم والتذكر والمسارعة في التنفيذ؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهـذه امرأة ترفع إلى الرسول شكواها بأن زوجها ظاهَرَ منها؛ فينزل قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٥٦٢)، ط دار الشروق.

سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]. وفي مناسبة أخرى يخاطب الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وقصة الإفك التي تشير إلى أمر طارئ أو إشاعة يطلقها منافقون، ويقع في تصديقها أو احتمال وقوعها مؤمنون صالحون، أو مغرضون فاسدون، أو يتلقاها هـؤلاء وهـؤلاء «بألسنتهم» دون عقولهم وأفهامهم.. هـذه القصة أو الإشاعة تعالج في الوقت المناسب، وبعد أن يتخذ كل واحد من الناس موقفًا أو يُفتي برأي!! ليتعلم الناس على مدى الدهر طريقة المعالجة، أو كيف يتلقون الشائعات، وما الموقف الواجب الاتباع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [النور: ١١].

ولعل مما يشير إلى هـذه الحكمة أو النقطة قول الله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ب ـ **التدرج في التشريع**: وذلك في الأمور المتمكنة من الأفـراد وفي المجتمـع بحيث يحتاج اجتثاثها أو التعفية على آثارها إلى وقت يقصر أو يطول؛ أي: إنّ تخلي المجتمع عن مفاسده وشروره تمّ بواسطة هـذا التدرج، وبعمق لم يشهد له التاريخ أو الواقع مثيلاً. وكأن العملية التربوية المشار إليها في الفقرة السابقة وهـي العمـل الإيجابي، كانت تتم في خط موازٍ لهـذه الناحية السلبية، أو لعلها كانـت تـأتي عـلى أعقابها في معظم الأحيان، على مبدأ (التخلية ثم التحليـة). أي تخليـة الـنفس عـن الرذائل قبل تحليتها بالفضائل.

ومن أمثلـة هــذا التـدرج المشـهورة: تحـريم الخمـر الـذي تـمّ عـلى هــذه المراحل:

نزل أولاً قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فوصفت هذه الآية حالة الخمر والميسر، وأن الإثم فيهما أكبر من النفع[1] ولكنها لم تُصرّح بتحريمهما أو طلب الكفّ عنهما. فإذا أضفنا إلى ذلك أنها افتتحت بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أدركنا أهمية ذلك الوصف في تهيئة النفوس للتحريم، لأن الأمر صار موضع سؤال المجتمع وحديثه.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فحرّمت هذه الآية عليهم أن يصلوا وهم في حالة السكر، فكأنها وقّتت تحريم شرب الخمر بوقت ليس بالقصير، لأن أوقات الصلاة متقاربة لا يذهب خلالها أثر السكر، فامتنعوا عن شربها سحابة النهار، حتى إذا صلوا العشاء الآخرة قارف الخمرَ مَن أراد، وكأنهم في هذه المرحلة الثانية أُعطوا الفرصة لتقوية العزيمة والإرادة على الكف والمنع المطلق، في الوقت الذي كان فيه الجانب التربوي الإيجابي يُبنى باستمرار كما قلنا.

ثم نزل أخيرًا قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْرِهِۦ ۚ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١]، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ قالوا: يا رب انتهينا، وتركوا الخمر، وقاموا إلى ما في دورهم منها فأهرقوه في طرقات المدينة؛ عن أبي النعمان قال: «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريم الخمر، فأمر مناديًا فنادى، فقال أبو طلحة: اخرج

(١) انظر إشارتنا السابقة إلى هذه الآية في الفقرة الثانية (العرب والقرآن) من الفصل الأول، ص٤٠.

فانظر ما هـذا الصوت؟ قال: خرجت، فقلت: هـذا منادٍ ينادي: ألا إن الخمر قد حُرِّمت، فقال لي: اذهب فأهرقها، قال: فَجَرت في سكك المدينة»[(١)].

من أراد أن يقف على أثر التدرج في التشريع، أو هـذه الحكمة من فوائد نزول القرآن منجمًا بوجه عام، فليقارن فعل المجتمع الإسلامي هـذا بفعل المجتمع الأمريكي يوم صدر عندهم «قانون المنع» المشهور[(٢)]، والذي رد عليه الناس بمضاعفة الشرب، ومن الأنواع الرديئة، أضعافًا مضاعفة..

روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما نزلَ ما نزل منه سورةٌ من المفصَّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّلَ شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا. ولو نزل لا تزنُوا، لقالوا: لا ندع الزنى أبدًا»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (ح٤٦٢٠)، ص٨٧٨.

(٢) حرّمت الكحول في الولايات المتحدة الأمريكية لمدة ثلاثة عشر عامًا (١٩٢٠ ـ ١٩٣٣) وقد اتخذ الكونغرس قراره بالمنع في العام المذكور (١٩٢٠)، بعد حملة إعلامية واسعة الانتشار ربطت ـ بوجه خاص ـ بين شرب الكحول وحوادث السير التي كانت تقتل الآلاف كل عام، وشارك في هـذه الحملة: أطباء، ومحامون، وسياسيون، وعلماء اجتماع، وصحفيون.. إلخ. ثم اضطر الكونغرس للعودة عن قرار المنع، بعد ثلاثة عشر عامًا، أمام الإصرار وعدم الاستجابة، وأمام الرد المشار إليه.

(٣) صحيح البخاري (٦ / ١٠١) باب: تأليف القرآن. (ح٤٩٩٣)، ص٩٩٣ بيت الأفكار الدولية. وسياق الحديث، أو روايته كاملاً، جاءت في البخاري على النحو الآتي: قال الإمام البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى: أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال: أيُّ الكفن خير؟ قالت: ويحك وما يضرُّك؟ قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لعلِّي أؤلِّف

=

٥ ـ وأخيرًا، لعل من أهم حكم تنجيم القرآن: **الدلالة على إعجازه وإثبات مصدره.**

ففي نزول القرآن خلال هذه المدة الطويلة، وكلما نزلت آيات قال النبي ﷺ: «**ضعوا هذه الآيات في موضع كذا من سورة كذا**» وربما نزلت الآيات التي توضع في آخر السورة قبل الآيات التي توضع في أولها أو مقدماتها، وربما لم يكتمل بناء بعض السور ـ المفتوحة ـ في وقت قصير!.. ثم يكون القرآن الكريم بعد ذلك متسقًا هذا الاتساق المعجز، منسّق الآيات والسور، محكم السرد، دقيق السبك، قوي الأسلوب.. إن في ذلك جميعه ما يشير بوضوح إلى مصدر هذا الكتاب الكريم، وأنه تنزيل من حكيم حميد، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] لأن الرسول الكريم الذي كان يأمرهم بوضع الآيات عندما تنزل في موضع كذا من سورة كذا؛ بشر لا يدري ما ستجيء به الأيام، وكيف سيتم بناء هذه السورة ومتى يتم في المستقبل؟

والاختلاف المشار إليه في الآية الكريمة يكون من وجهين رئيسين:

الأول: من حيث النظم والأسلوب والبيان الذي لم يختلف في القرآن أو يتخلف في موطن من المواطن، وذلك على خلاف المعهود عند الكتّاب والأدباء أيًّا كان حظهم من التفوق، ومع تفرغهم للعمل الأدبي الواحد في زمن معين أو

=

القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلّف. قالت: وما يضرك أيَّهُ قرأت قبلُ! إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار..» الحديث. وفي آخره: «لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السور.

فترات متقاربة لا يمكن أن تصل إلى ما يقرب من ربع قرن!! ومع التقديم والتأخير، واختلاف المناسبات والأحوال التي تمّ فيها وعليها نزول القرآن الكريم.

أما الاختلاف الثاني: فهو اختلاف المعاني والمضامين، فإذا لم تختلف هذه المعاني عند أحد طيلة حياته، بل بقي المرء عند آرائه وأفكاره لم يعدّل منها شيئًا ـ وهذا في العادة بعيد ـ فهل يمكن لهذه الآراء والأفكار أن تكون مفهومة أو تأتي على نحو منسجم عندما يضم الكلام ـ الذي قاله في سنوات طوال ـ بعضه إلى بعض، ويجمع في باب واحد، أو في فصول متفرقة؟ إن الحديث النبوي نفسه الذي لم ينطق فيه النبي ﷺ عن هوى أو بما يتعارض، هل يمكن أن يؤلف الآن على ذلك النحو الذي تألف ـ اجتمع ـ عليه القرآن! يقول العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله:

«خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحديث بها في أوقات مختلفة، وتناولت أغراضًا متباينة، أو خذ من كلام من شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك، وحاول أن تجيء بها سردًا لتجعل منها حديثًا واحدًا من غير أن تزيد بينها شيئًا أو تنقص شيئًا. ثم انظر: كيف تتناكر وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام! وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المسترسل»[(١)].

ويقول أيضًا: «اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى

(١) النبأ العظيم ص١٤٠.

واحد، وما أكثرها في القرآن فهي جمهرته، وتنقل بفكرك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت، وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها؟ ووطّأت أُولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطول من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجومًا»[(١)].

وقد أشار الإمام الغزالي إلى هـذين الوجهين من وجوه الاختلاف المنفي عن القرآن.. وإلى وجوه أخرى قريبة أو مماثلة، حيث سئل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] فقال رحمه الله:

«الاختلاف لفظ مشترك بين معان، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه، بـل نفي الاختلاف عن ذات القرآن، ويقال هـذا كلام مختلف؛ أي لا يشبه أوّلُه آخـره في الفصاحة، أو هو مختلف الدعوى؛ أي بعضه يدعو إلى الدين، وبعضه يـدعو إلى الدنيا. أو هو مختلف النظم، فبعضه على وزن الشـعر، وبعضـه منزحـف، وبعضـه على أسلوب مخصوص في الجزالة، وبعضه على أسلوب يخالفه» قال: «وكـلام الله تعالى منزه عن هـذه الاختلافات؛ فإنه على منهاج واحـد في الـنظم.. وعـلى درجـة

(١) المصدر السابق، ص١٤٩. وانظر الصفحات القادمة: النقطة الأخيرة: = رقم ٣ من فقرة: ترتيب الآيات (ص٢٢٦) وانظر فقرة: مناسبات الآيات والسور (ص٢٣٥ ـ ٢٣٨) وكذلك: الوحدة الموضوعية للسورة من مبحث: التفسير الموضوعي (ص٥٧٤ ـ ٥٧٥).

واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشمل على الغث والسمين، ومسوق لمعنى واحد، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى».

أما كلام الآدميين فإن هـذه الاختلافات تتطرق إليه «إذْ كلام الشـعراء والمترسّـلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم، ثم اختلاف في درجـات الفصـاحة، بـل في أصـل الفصـاحة، حتـى يشـتمل عـلى الغـث والسـمين، ولا يتسـاوى رسـالتان ولا قصيدتان، بل تشتمل قصيدة ـ واحدة ـ على أبيات فصيحة وأخرى سخيفة!

«وكذلك تشـتمل القصـائد والأشـعار عـلى أغـراض مختلفـة؛ لأن الشـعراء والفصحاء في كل وادٍ يهيمـون.. فتـارة يمـدحون الـدنيا، وتـارة يـذمونها.. وتـارة يمدحون الجبن ويسمونه حزمًا، وتارة يذمونه ويسـمونه ضـعفًا! وتـارة يمـدحون الشجاعة ويسمونها صرامة، وتارة يذمونها ويسمونها تهورًا!».

ثم يعلل الإمام الغزالي وجود هـذه الاختلافات في كلام البشر ـ دون كـلام الله تعالى ـ فيقول:

«ولا ينفك كلام آدمي عن هـذه الاختلافات؟ لأن منشأها اختلاف الأغراض والأحوال. والإنسان تختلف أحواله؛ فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه، وتتعذر عليه عند الانقباض. وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى؛ فيوجب ذلك اختلافًا في كلامه بالضرورة؛ فلا يصادف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن؛ فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد، ولقد كان النبي ﷺ بشرًا تختلف أحواله، فلو كان هـذا كلامه أو كلام غيره من البشر، لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا»[1].

(١) الإتقان للسيوطي، (٢/ ٢٤٤). دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ.

رابعاً ـ حكم أخرى للتنجيم: إضافة وتعليق:

ويمكننا أن نضيف إلى هـذه الحكم والأسباب: النقاط الآتية، نوردها على نحو موجز لأنها مرتبطة عندنا بملاحظات وأفكار ـ ومنطلقات ـ أخرى يحتاج بيانها أو بسط القول فيها إلى صفحات مطوّلة، ومناسبات ثقافية أخرى[1] وهي المناسبات التي أومأت عندنا إلى هـذه النقاط الجديدة:

أ ـ توثيق وقائع السيرة النبوية والدلالة على أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين:

إن هـذا النزول المنجم هيأ الفرصة لضـمّ سـيرة النبـي ﷺ إلى سـائر قصـص الأنبياء والمرسلين، وحياة الأمم السـابقين، وأحـداث التـاريخ الكبـرى منـذ آدم ونوح، وهي الأحداث التي خُتمت بأعظم وقائع التـاريخ الإنسـاني، وهـي واقعـة بعثة محمد بن عبد الله ﷺ ونزول القرآن.

لقد ارتقى القرآن الكريم بالسيرة النبوية النبراس والمثل الذي يحتذى إلى يوم الدين، ووقائع الجماعة الإسـلامية الأولى في عهـديها المكـي والمـدني، إلى مقـام التواتر والتوثيق الإلـهي، ولم يدع هـذه الوقائع وتلك السيرة وحدها، دون أحداث التاريخ والأمم والأنبياء السابقين، إلى الـرواة والقصّـاص والمـؤرخين، بالغًـا مـا بلغت عدالتهم أو درجة ضبطهم وتوثيقهم.

إن التوثيق الذي منحه القرآن الكريم لحياة الأنبياء السـابقين وقصصـهم مـع أقوامهم، قد منحه كذلك، بل تَوَّجَهُ، بمعالم سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين، ولـولا النزول المنجم للقرآن لما أدركنا كيف كان سيتم ذلك!

---

(١) راجع بحثنا: التاريخ بين ثقافتين، حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، العدد الثامن، ١٩٩٠م.

بل إن هـذا التنجيم لم يتسع لأحداث السيرة النبوية ومعالمهـا الكبـرى.. كطريـق من طرق التوثيق ارتقى بها إلى درجة التواتر فحسب، بل بوصفها كذلك قاعدة التـاريخ الإسلامي وطليعته التي تقدمت (عمل) جيل التنزيل، أو التي تفاعل معها هـذا الجيـل نفسه. وفحوى ذلك أن هـذا التنجيم اتسع للحديث عن السـلوك والأعمـال، أو عـن التطبيق والتنفيذ ـ كما يتضح بعد قليل ـ وإن شئت قلت: اتسـع للحـديث عـن السـنن النفسية والاجتماعية من خلال نفاذها ووقوعهـا في المجتمـع الإسـلامي طيلـة حيـاة النبي ﷺ ومدة نزول القرآن! أي من خلال البعد العملي أو التطبيقي لهـذه السـنن. في الوقت الذي أشار القرآن الكريم إلى هـذا الوقوع أو النفاذ في مواطن (تاريخية) أخـرى كثيرة من خلال (قصص الأنبياء) وتاريخ الأمم السابقة على الأمـة الإسـلامية؛ والتـي كانت تأتي بدورها في السياق الملائم عبر هـذا النزول المنجّم.

لا غرو إذن أن تنزل سائر كتب الله تعالى على الأنبيـاء السـابقين جملـة واحـدة، وأن ينفرد القرآن الكريم بنزوله منجمًا بما يوازي بناء جيل طليعي واحد من أجيال التاريخ.

وربما أمكننا القول ـ من الوجهة المقابلة، أو في الوقت ذاته ـ: إن هـذا النزول المنجّم يحمل في ذاته الدلالة على أن القرآن الكريم خاتمة الكتب السـماوية، لأنـه حين اتسع بهـذا النزول لضم سيرة النبي ﷺ إلى حياة الأنبياء السابقين الذين نزلت كتبهم مرة واحدة! أدركنا أنه **لا كتاب بعد القرآن يهيمن أو يوثّـق!** وأدركنـا معنـى كونه خاتمة الكتب وأن محمد بن عبد الله خاتم النبيين، صلوات الله عليه وعلـيهم أجمعين. أو بعبارة أخرى: إن آخر الرسـل أو خـاتم النبيـين، سـوف ينـزل (كتابـه) منجمًا، حتى يتسع لمعالم سيرته الشريفة، أو حتى تُضَمَّ هـذه السيرة إلى حياة سـائر الأنبياء والمرسلين، والله تعالى أعلم.

ب ـ تصويب حركة التطبيق والتنفيذ:

إن تصويب حركة تطبيق الشريعة وتنفيذ الأحكام، أو الدلالة على مواطن الخطأ، ووجوه التقصير في هـذا التطبيق والتنفيذ فيه تأكيد بالغ الأهمية على ضرورة استجابة (الواقع) للوحي أو النص استجابة تامة غير منقوصة.. ومن ثم لتقديم الصورة (الواقعية) المثلى لهـذه الحركة عبر عصور التاريخ. أو التي يجب أن تُحتذى عبر هـذه العصور.. بعد أن قدم جيل التنزيل ـ وإن شئت قلت جيل التنجيم الذي قام بالتطبيق وجرى عليه المراجعة والتصويب ـ النموذج الأفضل، والمثال الذي يحتذى! لقد نزل القرآن الكريم تباعًا، أو موقفًا في إثر موقف، يسجّل على هـذا الجيل النقص والخطأ، ويقفهم رأي العين أو في (الواقع) الذي عاشوه وعاينوه على سنن الاجتماع الإنساني في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والهزيمة والنصر.. لا ليعلِّمهم ويدربّهم على تغيير الواقع الفاسد أو المغلوط، باتجاه (الواقع) المطلوب أو المرغوب فيه فحسب، بل ليدرّبهم فوق ذلك على أن الواقع المؤلم أو المكروه والذي أفرزه مبدأ صائب أو الذي جاء في أعقابه وانبنى عليه، لا يجوز له أن يشكل مبررًا لتجاوز المبدأ أو العودة عليه بالتحوير والتبديل! كما حصل يوم أُحد على سبيل المثال؛ لقد نزل في هـذا اليوم آيات كثيرة كما هو معلوم، منها ـ في هـذا الجانب الثاني وحده ـ قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فقد أمرت هـذه الآية الكريمة النبي ﷺ بالتزام مبدأ الشورى على الرغم من أن

الهزيمة جاءت في أعقاب شورى النبي لأصحابه، وبسبب غير مباشر منها![1] لأن السبب المباشر كان عدم التزام الرماة بما أمرهم به النبي القائد ـ كما هو معروف ـ ولكن هذه الهزيمة لا يجوز لها أن تبرر تجاوز هذا المبدأ أو هذا التشريع، أو الانتقاص منه، فضلاً عن تكريس نقيضه!! بحجة (الواقع) الذي أفرزه أو انبنى عليه.

بين الوحي والواقع:

والعجيب بعد هذا أن يتوهم بعض الباحثين أن (الوحي) كان استجابة للواقع!! اعتمادًا على أن بعض آيات التشريع أو الأحكام جاءت بسبب نزول معين. وعلى الرغم من أننا سوف نتناول الرد على هذا الزعم في مبحث سبب النزول؛ فإن حديثنا قبل قليل عن «التربية من خلال الواقع» ــ الحكمة الرابعة السابقة من حكم تنجيم القرآن ـ قد يكون مشمولاً بهذا الوهم أو الزعم؛ الأمر الذي يفرض علينا إيجاز القول في نقضه هنا ببعض النقاط:

١ ـ إن معظم آيات القرآن الكريم نزلت ابتداءً، أي بدون سبب نزول خاص أو معين. ويدخل في ذلك الجانب الاعتقادي، أو آيات الإيمان والاعتقاد، ويتصل بهذه الآيات أو بهذا الجانب في القرآن الكريم سائر آيات العهد المكي بموضوعاتها الرحبة والمتعددة (الكون والطبيعة ـ الإنسان ـ التاريخ).

وبعض آيات هذا الجانب نزلت فهدمت (الواقع) القائم، وعفت على آثاره

---

(١) انظر: في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ ص٥٣٢ ـ ٥٣٣ (المجلد الأول) الطبعة الرابعة، دار الشروق، ١٩٧٧.

وأقامت على أنقاضه بناءً شامخًا يأوي إليه (الإنسان) في جميع العصور. كما أن بعضها الآخر (أسست) معارف جديدة ليست مرتبطة (بواقع) معين! سواء أكان واقع عصر النزول أم غيره! (مظاهر خلق الطبيعة، وتسخير السنن، وخلق الإنسان، وحياة الأنبياء، وتاريخ الأمم والمجتمعات.. إلخ) وفي كلا هاتين الحالتين فإن من سوء الفهم والقصد معًا، أن يقال: «إن الوحي نزل حسب متطلبات الواقع أو كما يقول علماء الأصول طبقًا لأسباب النزول وتبعًا لإمكانيات تقبله!..»[1] أو أن يقال: إن الواقع إذا اشتد اشتد الوحي، وإن تراخى تراخى الوحي معه!

٢ ـ الآيات التي كان لها سبب نزول لا تعدو أن تكون بعضًا أو طرفًا من آيات الأحكام، أو الجانب التشريعي في القرآن الكريم، أو ما يتصل به بوجه من الوجوه؛ علمًا بأن آيات هذا الجانب جميعها لا تزيد في القرآن عن خمسمائة آية! وحين تصفحنا الروايات التي وردت في أسباب النزول، وجدنا أن ما يعتد به منها عند المحدّثين عدد قليل! مع الإشارة إلى ضرورة ملاحظة ما ليس من هذا الباب. أو تحديد المراد بسبب النزول والتدقيق في فهم عبارات المفسرين حوله، من أجل الوقوف على ما يمكن عدّه من هذا الباب، وإخراج ما ليس منه. وقد اتفق علماء التفسير وعلوم القرآن على أن سبب النزول يراد به: «ما نزلت الآية أو الآيات مبيّنة لحكمه أيام وقوعه»، وهذا هو المعبّر عنه «بالواقع» في العبارة السابقة!

---

(١) حسن حنفي: قضايا معاصرة (١ / ٩٢) وانظر مناقشة ضافية لهذه القضية في مبحث: التراث والتجديد للزميل الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد محمد الطيِّب، حولية كلية الشريعة بجامعة قطر، العدد الحادي عشر، ١٩٩٣م.

٣ ـ هـذا القدر نفسه يمكن عده ـ كما قلنا ـ أمثلة أو شواهد أو أدلّـة وبـراهين على مدى الواقعية في هـذه الأحكام والتشـريعات، بمعنـى نفـي المثاليـة الخياليـة عنها، ونعني بها: تلك التي ليست أكثر من رؤيا في عالم الخيال، أو رسمًا على الورق أو في الفراغ، كما فعل بعض الفلاسفة على سبيل المثال.

وحين يتأمل المرء هـذا القدر يجد أنه قام على بيان أحـوال نابعـة مـن طبيعـة الإنسان، أو «مفصّلة عليه» إن صح التعبيـر، بغـض النظـر عـن ملابسـات الزمـان والمكان والأشخاص، أي أنه قدم نماذج إنسانية وصورة ما يجب أن تكـون عليـه هـذه النماذج إلى يوم الدين. ومن هنا جاءت عبارة الأصوليين المشـهورة: **العبـرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**.

وفي وسعنا أن نفهم سـبب النـزول ـ في ضـوء هـذه الملاحظـات ـ عـلى أنـه **المناسبة التي استدعت ظهور الحكم، ووضعه موضع التطبيـق**، أي بدايـة توقيـت العمل بـه.. في نسـق هـدم أوضـاع الجاهليـة، وبنـاء أحكـام الإسـلام في الـنفس والمجتمع يومًا بعد يوم، أو طيلة عصر التنزيل.

وغني عن البيان أن أحداث السيرة ووقائع الجماعـة الإسـلامية الأولى ـ التـي أشرنا إليها في النقطة الأولى السابقة ـ ليست داخلة في نطاق أسـباب النـزول بهـذا المفهوم، أو بمفهوم (الواقع) الذي قيل فيه ما قيل! **لأنها قضية تسجيلية** في المقـام الأول، أقرب مـا تكـون إلى حـديث القـرآن الكـريم عـن تـاريخ الأنبيـاء والأمـم السابقين، أو هي من هـذا الجنس.

وحين تناولت الآيات الكريمة من هـذه الأحداث والوقـائع جوانـب أخـرى متصلة بالواقع، بـالمعنى المشـار إليـه أو المتحـدث عنـه، لم يـأت هـذا التنـاول استجابة للواقع أو تبريرًا له، ولـكنه جاء ـ كمـا قلنـا في هـذه النقطـة ـ تصـحيحًا وتقويمًا لحركة التطبيق والتنفيذ.

بل يمكن القول إن أحداث السيرة بوصفها جزءًا من (التاريخ) واكبت الوحي ومشت في ركابه طيلة عصر التنزيل الذي نتحدث عنه، كدليل على أن (الـوحي) أو الثقافة بمعناها الشامل هي التي صنعت التاريخ وليس العكس.

ولا يتسع المقام هنا لبسط القول في هـذه النقطة التي توضح العلاقة بين الثقافة والتاريخ، أو بين النظرية ـ إن صح التعبير ـ والتاريخ على الصعيد الإسلامي، والتي لم تقتصر على هـذه الفكرة القائلة: إن الثقافة (النظرية أو الوحي) هي التي صنعت التاريخ[١]، بل التي أضفنا إليها ما قلناه قبل قليل من أن (التاريخ) واكب ـ أيضًا ـ الوحي ومشى في ركابه طيلة عصر التنزيل ـ أو التنجيم ـ من أجل تصحيح وقائعه، أو تصويب حركة التطبيق والتنفيذ! فكيف يقال بعد هـذا: إن الواقع هو المتحكم في الوحي؛ إن اشتد اشتد الوحي، وإن تراخى تراخى الوحي معه؟

إن هـذا القول ـ فيما نقدّر ـ **مأخوذ أو منتزع في الحقيقة من الثقافات الوضعية!** لأن الثقافة الأوروبية التي قابلنا بينها وبين ثقافتنا الإسلامية ـ في مناسبة أخرى[٢] وعلى سبيل المثال ـ هي التي صنعها التاريخ، وليس العكس، على نحو ما عليه الحال في الثقافة الإسلامية، **ومن ثم فإن جعل (الواقع) هو الحاكم على الوحي، يشير إلى التسوية بين القرآن والثقافات الوضعية، وربما انطوى كذلك على المساس بكون القرآن وحيًا إلـهيًّا!** ولا ندري ـ في مثال الشورى الذي تحدثنا عنه ـ لماذا لم (ينزل) الوحي ناعيًا عليها أو منتقصًا من قدرها بحجة (واقع) الهزيمة الذي أفرزته!

---

(١) راجع بحثنا المشار إليه: التاريخ بين ثقافتين.

(٢) المصدر السابق.

ج ـ وأخيرًا: فإن في وسعنا أن نضيف إلى حكم تنجيم القرآن الكريم حكمة أخرى، أو أن نؤكد ـ بعبارة أدق ـ الحكمة الخامسة السابقة، **وهي إثبات مصدر القرآن، وأنه تنزيل من حكيم حميد**.. ولكن لا بدليل اتساق القرآن وعدم اختلافه في الأسلوب والمضمون، على الرغم من نزوله واستكمال بنائه خلال فترة النزول الطويلة هذه، ولكن ـ هذه المرة ـ بدليل وقوع الأحداث والبشائر على النحو الذي تحدث عنه القرآن وأشار إليه طيلة عصر التنزيل، أو بدليل انقضاء مدة النزول أو التنجيم على هذه الأحداث والبشائر، وعلى سائر وعود القرآن وإيعاداته من غير خُلف أو اختلاف.

ألم ينزل القرآن الكريم يقول في شأن أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: ٣] فبقي أبو لهب على كفره فيما استقبل من فترة نزول القرآن حتى وافاه الأجل! وقد كان في وسعه ـ سياسةً أو نفاقًا ـ أن يقول إنه دخل في الإسلام فكيف يحكم عليه محمد ﷺ بأنه سيبقى على كفره، وأنه سوف يرد النار يوم القيامة. بل إنه الوحي والعلم الإلهي القاطع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

أليس في مثل هذا الحكم على المستقبل، هنا وفي قوله تعالى في شأن الوليد ابن المغيرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾! [المدثر: ٢٦] ما يشير إلى أن هذا كله من شأن من بيده مفاتيح الهداية والإيمان، وأزِمَّة الأفئدة والعقول، جل شأنه؟

وإذا نظرنا إلى مثل هذه المواقف في ضوء مسألة (الواقع) التي أشرنا إليها في الحكمة السابقة، فهل يمكن القول: إن هذا الحكم كان استجابة للواقع؟ ومن الذي استجاب لهذا الواقع: (الوحي) أم محمد ﷺ؟ أما الوحي فقد نزل بحكم الله تعالى القاطع! وأما محمد ﷺ فلم يكن من وجهة نظر السياسة **والواقع**، أي من جهة حرصه على إيمان قومه، أو طمعه في إيمانهم أيًّا كانت درجة عداوتهم له ولما

جاء به.. لم يكن مستعدًا من هـذه الوجهـة، ولا مـن الوجهـة النفسـية ـ وقـد بـدأ بإعلان دعوته على الملأ من قريش ـ أن يواجـه أبـا لهـب بمثـل هـذا الموقـف أو الإعلان المخيف!

بل إن بعض الآيات أخبرت هي نفسُها أن من نزلت فيهم لن يفعلوا ما طالبتهم الآيات بفعله، أو أن يتمنَّوا ـ مجرَّد تمنٍّ فقط ـ ما أمرتهم به إن كانوا صادقين؛ قال تعالى في شأن اليهود في أول سور القرآن نزولاً بالمدينة ـ سورة البقرة ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

وقد كان في وسعهم أن يفعلوا ذلك ولو كذبًا أو نفاقًا، كما قلنا في شأن أبي لهب. بل ربما كان الأمر هنا آكد أو أبلغ في الرد والتكذيب، ـ أي: للنبي ﷺ ـ وبخاصة أن الله تعالى أعاد عليهم هذا مرةً أخرى بعد سنوات في سورة الجمعة ـ السورة ٢٣ نزولاً بالمدينة ـ تأكيدًا لقوله تعالى ـ في آية سورة البقرة ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

ونذكّر في ختام هـذه النقطة بأن جزءًا كبيرًا مـن حـديثنا السـابق عـن (صـدق ظاهرة الوحي) يمكن أن يدخل ضمن هـذه الحكمة من حكـم التنجـيم أو يلحـق بها، والله تعالى أعلم.

❁❁❁

الفصل الرابع

جمع القرآن وتدوينه

- تمهيد.
- أولاً: حفظ القرآن وكتابته في عهد النبي ﷺ.
- ثانياً: جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه عام ١٢هـ.
- ثالثاً: نسخ المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه عام ٢٦هـ.
- رابعاً: قاعدة عثمان في النسخ ومزايا المصاحف العثمانية.
- خامساً: حرق الصحف والمصاحف الأخرى (شبهات وردّ).
- سادساً: رسم المصحف أو الرسم العثماني.
- سابعاً: شكل المصحف ونقطه وتحزيبه.
- ثامناً: طبع المصحف في العصر الحديث.

الفصل الرابع

جمع القرآن وتدوينه

تمهيد

حديثنا هنا عن « **حفظ القرآن وكتابته** » زمن النبي ﷺ و« **جمعه** » ـ في مصحف واحد ـ أيام أبي بكر رضي الله عنه، ثم « **نسخ** » المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه. وإن كانت هذه الأعمال الثلاثة يطلق عليها جميعًا، في كثير من الأحيان، لفظ «الجمع»، لكنه يطلق ويراد به مرة «الحفظ» وأخرى: «الكتابة والتدوين» و«الجمع في مصحف واحد»!

وإذا كان حفظ القرآن ـ بمعنى جمعه في الصدور ـ و«كتابته» على الأوراق المختلفة المتفرقة قد تمّ في عهد النبي ﷺ، فإن «جمعه» ـ بمعنى جمع أوراقه المكتوبة في مصحف واحد ـ قد تمّ في عهد الخليفة الصدِّيق. ثم «نسخ» من هذا المصحف عدة نسخ بُعث بها إلى الأمصار زمن عثمان رضي الله عنه.

نذكر هذا في مطلع هذا الفصل حتى ننبّه إلى الوهم ـ أو الخلط ـ الذي وقع فيه الدكتور «آرثر جيفري»[1] حين قال في مقدمته لكتاب «المصاحف»: «الرأي

---

(١) جيفري من أكثرهم أوهامًا، وأضعفهم في فهم النصوص. وأخطاؤه التي وقفنا عليها في نشره لكتاب مقدمتان في علوم القرآن تدل على جهله بالعربية، وعلى رسوخ قدمه في الجرأة على التحريف والتصحيف! أما كتاب المصاحف لأبي داود (٢٣٠ ـ ٣١٦هـ) فقد نشره جيفري عام =

الشائع في أن القرآن الكريم كتب في عهد النبي ﷺ لا يقبله المستشرقون، لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى، أنه قبض ﷺ ولم يجمع القرآن في شيء»!

ولا وجه لأدنى خلط بين «كتابة» القرآن في عهد النبي الكريم، وما جاء في بعض الآثار الأخرى «أن النبي قُبض ولم يجمع القرآن في شيء»! أي في شيء خاص به، من مصحف أو سجلّ أو كتاب!! فإن كانت هـذه العبارة موهمة عنده، أو محتملة في ذاتها!، فإن «جيفري» قد قرأ في الكتاب الذي حققه بيده ـ وأعني كتاب «مقدمتان في علوم القرآن ـ روايات «تصرح» «بكتابة» القرآن على عهد النبي ﷺ، وبلفظ «الجمع» كذلك، جاء فيها: «أن القرآن كان مجموعًا على عهد رسول الله ﷺ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له، أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا»[(١)]. بل إن الآثار نفسها التي أوهمت (جيفري) كان لبعضها تتمة، أو جاءت مفسّرة على النحو الذي قلناه! أخرج الطبري عن سعد بن الربيع، من حديث الزهري قال: «قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع، وإنما كان في الكرانيف والعُسُب» اهـ[(٢)].

لـكن الحسن فيما أشار إليه «جيفري» أنه اعتمد في رأيـه، أو عـدم قبولـه لمـا

=

١٩٣٦. وانظر قوله المشار إليه في الطبعة التي حققها د. محب الدين واعظ، ونال بها وبدراسة الكتاب درجة الدكتوراه، (١ / ١٢١).

(١) مقدمتان في علوم القرآن نشر جيفري، ص٢٧.

(٢) أي كان مكتوبًا فيها، والكرانيف: جمع كِرنافة، وهي أصول السَّعف الغلاظ العراض التي إذا يبست صارت أمثال الأكتاف، وكانوا يكتبون فيها. انظر: تفسير الطبري تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، (١/ ٦٣)، طبع دار المعارف.

نقول، على «أحاديث أخرى» أي أنه حصر الخلاف في ميدانه الطبيعي، وهو تحقيق الآثار والأخبار التاريخية، أو فهم هـذه الآثار والأخبار، بغض النظر عن مثل هـذا الفهم السقيم. ولا ندري مـن الـذي أعطـى «جيفـري» الحـق في أن يـتكلم باسـم المستشرقين هـكذا.. ونحن نعلم أن جمهورهم ـ أو كثيرًا منهم، على الأقل ـ وكمـا سنشير في هـذا الفصل ـ يسلِّم بصحة نقل القرآن، بعد أن تمّ حفظه وكتابته في وقت مبكر، منذ نزوله إلى أن تمّ توزيع المصـاحف عـلى الأمصـار الإسـلامية، في عهـد الخليفة الراشد الثالث رضي الله عنه. يؤكد هـــذا أن موضـوع «حفـظ القـرآن» في صدور المئات من الحفّاظ لا ينازع فيه أحد.

وقبل أن نبدأ الكلام عـن حفـظ القـرآن الكـريم وكتابتـه في زمـن النبـي ﷺ، بوصف ذلك أولى خطوات التوثيق ومراحل الجمع، وأول الخطوات الدالـة عـلى قطعية النص القرآني وتواتره، نذكّر بالكلمـات التـي ختمنـا بهـا موضـوع تعريـف القرآن، عندما قلنا: إن تسمية القرآن: (قرآنًا) و(كتابًا)، تؤكد أن من حقه أن يكـون مصونًا وموثقًا من طريق الحفظ، والكتابة جميعًا.

أولاً ـ حفظ القرآن وكتابته في عهد النبي ﷺ:

أ ـ الحفظ والجمع في الصدور:

يعدّ حفظ القرآن الكريم في الصدور من خصائص هـذا الكتاب التي انفرد بهـا في تاريخ الكتب السماوية، وفي تـاريخ الكتـب والمؤلفـات «الوضـعية» عـلى حـد سواء. ولا استثناء في هـذا الباب لغير القصائد ودواوين الشـعر، إن جـاز تسـميتها بالكتب والمؤلفات، أو مقارنتها بالقرآن، علمًا بـأن القـرآن لـيس بشـعر كمـا هـو معلوم، وكما سنشير إلى ذلك في مبحث الإعجاز القادم.

وفي الوقت الذي حفظ فيه القرآن في الصدور ـ أو عن ظهر قلـب كمـا يقـال ـ

من قبل مئات ملايين الحفاظ عبر عصور التاريخ، بدءًا من عصر التنزيل حتى الآن، فإن هذا لم نعهده في أي دين من الأديان، أو في أي لغة من اللغات.

وقد أشارت بعض الآيات والأحاديث إلى هذه المزية القرآنية؛ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقال تعالى في الحديث القدسي الصحيح مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: «**وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء**»(١) وجاء في وصف المسلمين في الكتب السماوية السابقة: «أناجيلهم في صدورهم»(٢).

١ ـ رسول الله ﷺ أول من حفظ القرآن:

كان سيد الحفاظ وأولهم هو الرسول ﷺ، الذي «فرق» الله عليه القرآن ليقرأه على الناس ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، والذي تكفل له بحفظه وجمعه في صدره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٨].

---

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٥٩). من حديث رواه عياض المجاشعي، وفيه: «**إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان**...» الحديث. قال الإمام النووي: إن معنى: «لا يغسله الماء: أنه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مرّ الأزمان. وأما قوله تعالى: تقرأه نائمًا ويقظان، فقال العلماء: معناه: يكون محفوظًا لك في حالتي النوم واليقظة، وقيل تقرؤه في يسر وسهولة». مسلم بشرح النووي ص١٦٦٦.

(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري (١ / ٦). رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عبد الله ابن مسعود. وقد ضعّفه علماء الحديث. وقد روي موقوفًا على قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ..﴾ [الأعراف: ١٥٤] من حديث طويل، قال موسى عليه السلام: قال ربّ إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها، وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظرًا.. إلخ، قال: تلك أمة أحمد. انظر: تفسير ابن كثير (٢ / ٢٨٥).

وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى حفظه إياه. وعلل النزول على قلبه بكونه من المنذرين، لأنه لا يمكن أن ينذر به إلا بعد حفظه»[(١)].

وقد كان سبيل هـذا الحفظ مُمَهَّدًا أمام النبي ﷺ، وأمام الصحابة كذلك، واعتمادهم في الأصل إنما هو على الذاكرة دون الكتابة، بوصفهم أمة أميَّة لهم كل خصائص الفطرة النقية، والذكاء الأصيل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

هـذا إلى جانب مـا عـرف عـنهم ـ في الصـحراء ـ مـن صـفاء الـذهن وجـودة القريحة.

بل إن حفظ النبي ﷺ كان يجري عليه لـون مـن ألـوان الزيـادة في الاطمئنـان والتثبيت؛ـ ولعله الوجه الذي نراه من وجوه التكفّل الإلـهي لـه بحفظـه وجمعـه في صدره حتى لا يضيع منه شيء ـ وذلك بأن يقرأه النبي على جبريل في كل عام مـرة؛ فالقارئ الآن هو النبي ﷺ، والمتلقي أو المستمع هو جبريل عليه السلام، وهـكذا يتم التعاون والتعادل بـين أمـين السـماء وأمـين الأرض، وإن شـئت قلـت أمـين الأرض، والأمين على خبر السماء ﷺ.

أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجودُ ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل

(١) المحرر الوجيز (١١/ ١٤٨).

ليلة في شهر رمضان، حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة»[(١)].

حتى إذا دنا حضور أجل النبي ﷺ عارضه جبريل بالقرآن مرتين؛ جاء في البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن فاطمة بنت النبي عليها السلام «أسرّ إليّ النبي ﷺ أن جبريل كان يُعارضني بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي»[(٢)]، وأخرج البخاري أيضًا من حديث أبي هريرة قال: «كان جبريل يعرض على النبي القرآن كل عام مرة، فعَرَض عليه مرتين في العام الذي قُبض، وكان يعتكف كل عام عشرًا، فاعتكف عشرين في العام الذي قُبض»[(٣)].

٢ ـ الصحابة الحفاظ:

ثم يأتي دور الصحابة الذين كانوا يتسابقون في حفظ القرآن واستظهاره، يهجرون من أجل تلاوته في الأسحار نومهم وراحتهم، حتى ليمر الرجل ببيوت الصحابة في غسق الدّجى يسمع فيه دويًا كدويّ النحل بالقرآن، فقد كان شغفهم به عظيمًا جدًا؛ روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا**

---

(١) صحيح البخاري (٦ / ١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) المصدر السابق (٦ / ١٠١). وبعده: «وإنك **أول أهل بيتي** لحاقًا بي..» الحديث رقم (٣٦٢٤)، طبع بيت الأفكار الدولية للنشر ـ الرياض.

(٣) المصدر السابق (٦ / ١٠٢). وانظر: طبعة بيت الأفكار، الحديث رقم (٤٩٩٨).

بالنهار». وأقل ما يقال في هـذا الشغف العظيم: إنه ـ فيما وراء التلقي للفهم والعمل والتطبيق ـ من أجل قراءة القرآن في النوافل والفرائض، والتقرب إلى الله تعالى بتلاوته. إلى جانب أن النبي ﷺ كان يحثهم على العناية بالتنزيل، ويبعث إلى من كان منهم بعيدًا من يقرئهم ويعلمهم، كما بعث مصعب بن عمير، وعبد الله ابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته عليه السلام، يعلّمانهم الإسلام ويقرئانهم القرآن، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد الهجرة للتحفيظ والإقراء.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا». وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ القرآن في شهر**، قلت: إني أجد قوةً. قال: **فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك**»[(١)].

كانت النتيجة لكل هـذا: أن عدد الحفاظ من الصحابة كان كبيرًا، ويكفي أن نعلم أنه قتل منهم يوم بئر معونة ويوم اليمامة، أربعون ومائة، قال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد رسول الله، ببئر معونة ـ وما أدراك ما يوم بئر معونة ـ مثل هـذا العدد!

ومن الذين اشتهروا من الصحابة بحفظ القرآن: الخلفاء الأربعة، وطلحة ابن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن

---

(١) صحيح البخاري (٦ / ١١٤) وانظر فيه كذلك الرواية الأخرى المطوّلة، ص١١٣، وراجع: جامع الأصول لابن الأثير (٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٣) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، طبع دمشق، ١٣٨٩.

الزبير، ومعاوية بن أبي سفيان، ومن أمهات المؤمنين: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، ورملة بنت أبي سفيان أم حبيبة رضي الله عنهن، كما حفظه من الأنصار أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأنس بن مالك، وكثيرون غيرهم[(١)].

ويمكن القول: إن حفظهم للقرآن بهـذه الأعداد الكبيرة يمثل لونًا من ألوان «التوثيق»، إلى جانب أن بعضهم كان يقرأ على رسول الله ﷺ، أخرج البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ـ وقد جعله النبي ﷺ واحدًا من أربعة أمر بأن يؤخذ عنهم القرآن[(٢)] ـ قال: قال لي النبي ﷺ: « **اقرأ عليّ**، قلت: يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: **إني أحب** ـ وفي رواية: أشتهي ـ **أن أسمعه من غيري**، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال لي: **كُفّ أو أمسك**، فالتفتّ إليه، إذا عيناه تذرفان»[(٣)]! صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ب ـ الكتابة والتدوين:

هـذا في موضوع حفظ القرآن ـ بمعنى جمعه في الصدور ـ في زمن النبي ﷺ، فإذا انتقلنا إلى «الكتابة» والتدوين، نجد أن النبي ﷺ قد اتخذ كُتَّابًا للوحي[(٤)]،

---

(١) الكامل في القراءات لأبي القاسم الهذلي، (٢/ ٨ ـ ٩).

(٢) صحيح البخاري (٦ / ١٠٢)، وفيه: «قال النبي ﷺ: «**خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبيّ بن كعب**». وانظر: جامع الأصول لابن الأثير الجزري، (٢ / ٥٠٧).

(٣) صحيح البخاري (٦ / ١١٣ ـ ١١٤).

(٤) اتخذ الرسول ﷺ عددًا من المسلمين لكتابة الوحي، وللمكاتبات والمحالفات والعهود، وقد اختلفت المصادر في عدد هـؤلاء الكتّاب، فذكر بعضها أنهم كانوا (٢٣) ثلاثة وعشرين، وذكرت =

أمرهم بكتابة ما ينزل عليه من القرآن، منهم الخلفاء الأربعة: عثمان وعلي وأبو بكر وعمر رضي الله عنهم. وعبد الله بن سعد بن أبي سرح (وهو أول من كتب للنبي ـ بوجه عام ـ من قريش) وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه أبان ـ (وكانا من أوائل من دخل في الإسلام) ـ والزبير بن العوّام، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وأُبَيُّ بن كعب الخزرجي الأنصاري (وهو أول من كتب الوحي بين يدي رسول الله في المدينة)، وزيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري، وثابت بن قيس الأنصاري الخزرجي، وحنظلة بن الربيع الأسَيْدي التَميمي (المعروف بحنظلة الكاتب) ومحمد بن مَسْلَمة الأوسي، وشَرحبيل بن حَسْنة رضي الله عنهم أجمعين[(١)].

وكانوا يكتبونه فيما يسهل عليهم من: الصحف، والعُسُب، واللخاف،

=

بعض المصادر عددًا أكبر، وأوصل بعضها العدد إلى (٤٣) ثلاثة وأربعين. راجع كتاب: دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام للدكتور صالح أحمد العلي، رئيس المجمع العلمي العراقي سابقًا ص٧٦، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م. وانظر إحالاته على الجهشياري والكتَّاني وغيرهما. وكتاب كُتّاب النبي ﷺ للدكتور محمد مصطفى الأعظمي، الطبعة السادسة، طبعة المكتب الإسلامي، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

(١) انظر: التبيين في أنساب القرشيين لابن قدامة، ص٧٤. قلت: وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جعل الخلافة بعده شورى في ستة من سادات المسلمين ـ حتى لا يحمل أمر المسلمين حيًا وميتًا ـ فإنه قال: «ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلي أحدًا، إنهما كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل عليه» البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٤٥). فنوّه رضي الله عنه بهذه المزية الإضافية التي امتاز بها علي وعثمان رضي الله عنهما، وهي أنهما من كُتَاب الوحي؛ في إشارة أو دلالة على أن من يؤتمن على كتاب الله تعالى، يؤتمن على المسلمين، أو على أمة هذا الكتاب. والله أعلم.

والرِّقاع، والأكتاف، والأقتاب، وقِطع الأديم[(١)]، قال زيد بن ثابت: «كُنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع»[(٢)] وقال ـ بعد أن أمر بجمع القرآن ـ: «فتتبّعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال»[(٣)] وفي رواية: «فتتبعت القرآن أنسخه من الصحف والعسب واللخاف» وفي هذا دلالة على أن الشطر الأعظم من القرآن الكريم كان مكتوبًا على الورق وسائر أنواع الرقاع، بل لا بد من القول: إن القرآن كله كان مكتوبًا، بدليل أن النبي ﷺ ـ كما سنذكر في مبحث ترتيب الآيات والسور ـ كان إذا نزل عليه شيء من القرآن، دعا من كان يكتب فيقول: «**ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا**».

النهي عن كتابة غير القرآن:

وفوق ذلك فقد نهاهم الرسول الكريم عن أن يكتبوا شيئًا غير القرآن، فقال ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري ـ: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فلْيمحُه**»[(٤)] وذلك ـ فيما يبدو ـ حتى تتوافر جهودهم وهممهم على حفظ

---

(١) العُسُب، بضم العين والسين، جمع عَسيب: وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. واللِّخاف، بكسر اللام، جمع لَخْفة بفتح اللام وسكون الخاء، وهو الحجر الأبيض الرقيق. والرقاع جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو من رقٍّ أو كاغَد. والأكتاف جمع كتف، وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف. والأقتاب: جمع قَتَب ـ بفتحتين ـ وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليُركب عليه.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٩٤ (٢٩٠١)، قال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٥/ ٤٨٣ (٢١٦٠٧) والترمذي (٣٩٥٤).

(٣) صحيح البخاري (٦/ ٩٨) حديث رقم (٤٦٧٩) ورقم (٤٩٨٦) وفيه: (فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/ ١٢٩). ورواه أحمد والدارمي. وفي رواية: «**لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه**». وراجع: كتاب المصاحف لابن أبي داود، (١/ ١٦٠)، طبع وزارة الأوقاف بقطر.

القرآن في المقام الأول، وإن كان كثير من العلماء يرى العلة في هـذا النهي: خشية اختلاط القرآن بالحديث.

ونعتقـد أن هـــذا التفسـير ضـعيف، وأن مـن صـواب الـرأي أن نقـول: إن الاختلاط ـ لو رَخَّص لهم النبي بكتابة أحاديثه الشريفة ـ مأمونٌ من أدنى نظر بـين الأسلوبين، إلا أن يكون النهي عن جمعهمـا في صـحيفة واحـدة إن أمِـنَ صـاحبها اللبس ـ لمكان معرفته وتفريقه ـ في السورة الكاملـة أو الآيـات الكثيـرة، فلعلّـه لا يأمنه في آيات قليلة كان ينزل بها الوحي، أو إن أمن هو كل ذلك، فقد لا يـأمن عـلى من تقع هـذه الصحيفة في يده في وقت لاحق! وبخاصـة إذا كـان الـذي كُتـب مـع الآية: تأويلُها.

يؤكد ما أشرنا إليه من توافر الجهود الرئيسة أو الكبرى ـ زيادة في التوثيق ـ أن الحديث لا يُخشى عليه مثل هـذا الضياع والرسول بين ظهرانيهم، وفرصة الإعادة وتجدد مناسبة القول مفتوحة، وفي وسع من أراد السؤال أن يسأل. ولهـذا ـ وهـذا استطراد لا بد منه ـ لا نجد أي فرصة لاستغراب كثرة رواية أبي هريـرة رضـي الله عنه ـ كما يقال ـ مع تأخر إسلامه، بل لعل الشطر الأكبر من الأحاديث النبوية قالها النبي الكريم، أو أُثرت عنه بعد الهجرة، والوحي الإلـهي يلقي على عاتقه مع آيات التشريع وتوسع الحياة الاجتماعية أضعاف ما خصّه من الدور مع الآيات المكيـة التي كانت تدور في معظمها حـول الإنسـان، وأصـول العقيـدة وأركـان الإيمـان، وحول الكون والطبيعة والسنن، وقصص الأنبياء والأمم السابقين.

والنقاط التي يمكننا أن نفصّل فيها تفسـيرنا السـابق لموضـوع النهـي كثيـرة، وسوف نعود لبيان بعضها الآخر في مناسبة قادمة إن شـاء الله تعـالى. ونكتفـي هنـا بالقول: إن هـذا النهي على كل حال يمثل لونًا من ألوان التوثيق في الكتابـة يحسـن التنويه به، والإشارة إليه.

ثانيًا ـ جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه عام ١٢هـ ٦٣٣م[(١)]:

يحدثنا زيد بن ثابت، كاتب الوحي على عهد رسول الله ﷺ ـ فيما رواه البخاري ـ فيقول: «أرسل إليَّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة[(٢)]، فإذا عمر بن الخطاب

(١) توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام (١١) من الهجرة، وبويع لأبي بكر الصديق بالخلافة في هـذا اليوم وفي اليوم التالي يوم الثلاثاء، وخطب خطبته المشهورة بعد صلاة الظهر من هـذا اليوم، على بعد أمتار قليلة من النبي ﷺ الذي كان مسجىً في حجرة عائشة ابنته ـ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها، أي أن النبي ﷺ قدّمه ليؤم المسلمين في الصلاة حيًّا، حيث صَلَّى بهم سبع عشرة فريضة، واستمع إلى خطبته ميتًا، قبل أن يدفن آخر النهار بعد صلاة العشاء، أي في ليلة الأربعاء، بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه. ونشير بهـذه المناسبة إلى أن رسول الله ﷺ لا يشهد على زور حيًّا وميتًا، فلو كان الصّدِّيق رضي الله عنه مغتصبًا للخلافة كما يزعم أهل الفجور لما هيّأ الله تعالى له بيعة سريعة قبل دفن النبي ﷺ حتى لا يشهد خطبته وتوليته للخلافة.
وقد تمّ جمع القرآن الكريم في أواخر العام الهجري المذكور (أوائل العام الميلادي ٦٣٣) لأن مطلع هـذا العام (١ كانون الثاني «يناير» ٦٣٣) يصادف يوم الجمعة ١٣ شوال عام ١١هـ، وفي هـذا العام هزم المرتدون في ذي القَصَّة وفي البحرين، وهزم طُلَيحة الأَسَدي في معركة (بُزَاخة)، كما هزم مسيلمة، وقتل في أشرس المعارك مع المرتدين، وهي معركة اليمامة؛ قال ابن كثير: «قال خليفة بن خياط ومحمد بن جرير وخلق من السلف: كانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة، وقال ابن نافع: في آخرها، وقال الواقدي وآخرون: كانت في سنة ثنتي عشرة. والجمع بينهما: أن ابتداءها في سنة إحدى عشرة، والفراغ منها في سنة ثنتي عشرة، والله أعلم». البداية والنهاية ٦ / ٣٤٤.
قلت: وهـذا الذي ذهب إليه ابن كثير من الجمع بين هـذين العامين هو ما تدل عليه الأحداث. وعلى هـذا يكون جمع القرآن قد تمّ في أوائل العام الثاني عشر للهجرة (الشهر الأول أو الثاني) الموافق لشهر آذار (مارس) عام ٦٣٣م. والله تعالى أعلم.
(٢) أي بعد قَتْل مَنْ قُتِل في وقعة اليمامة، وهي الموقعة التي دارت بين المسلمين والمرتدين من أتباع مسيلمة الكذاب ـ والتي استشهد فيها ألف ومئتان من المسلمين، منهم سبعون من القرّاء، كما أشرنا إلى ذلك، وكان منهم: سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما الذي تقدم لحمل الراية بعد أن

=

عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه إن عمرَ أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ (اشتد) يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هـذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه ـ فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ـ **قلت**: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. قال: فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، حتى

=

استشهد زيد بن الخطاب ـ أخو سيدنا عمر رضي الله عنهما ـ ووقعت الراية! فقال المسلمون: يا سالم! إنا نخاف أن نؤتى من قبلك. فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلي! فلما انكشف المسلمون قال سالم: ما هـكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ، فحفر لنفسه حفرة وقام فيها ـ ومعه راية المهاجرين ـ فقاتل حتى قتل شهيدًا ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وأما راية الأنصار فكانت مع ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط وتكفن، ولم يزل ثابتًا حتى استشهد. وحين انكشف المسلمون في هـذه الوقعة الشديدة ثلاث مرات أهابوا بحملة القرآن أن يتقدموا الصفوف، وجعل الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة! وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن! زيّنوا القرآن بأفعالكم! ففعلوا حتى استحرّ القتل «وصبر الصحابة في هـذا الموطن صبرًا لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم». راجع: مجمع الزوائد للهيثمي (٩ / ٣٢٢)، و الاستيعاب لابن عبد البر (١ / ١٩٤). و البداية والنهاية لابن كثير (٦ / ٣٤٢)، المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية. وقيل: إن عدد من قتل من القرّاء في هـذا اليوم سبعمائة! انظر: تفسير القرطبي (١/ ٥٠). وهـذا فيما يبدو بعيد أو ليس بصحيح.

وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة ـ أو أبي خزيمة ـ الأنصاري، لم أجدها مع أحدٍ غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ حتى خاتمة براءة [الآيتان ١٢٨ ـ ١٢٩]، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما»[(١)].

١ ـ يدل هذا النص على أن **الباعث على الجمع** الذي تمّ في عهد الصِّدّيق وكان بإشارة من ابن الخطاب رضي الله عنهما هو الخوف من أن «يذهب كثير من القرآن» ولم يفهم «جيفري» ـ الذي علمت خبره ـ من هذا الخوف أنه تحرّ في الصيانة والحفظ، ولكنه فهم أن القرآن لم يكن مكتوبًا في عهد النبي ﷺ، وإلا لماذا يخاف عمر من استشهاد الحفاظ؟! وندع ما أشرنا إليه من أن القرآن الكريم «كتب» على عهد النبي ﷺ لنقول: إن ذهاب الحفاظ في المواطن أمر يُخاف منه، ويخشى من عواقبه في الغد القريب أو البعيد؛ وذلك لسببين:

السبب الأول: أن القرآن الكريم لا بد فيه من التواتر، وسبيله: الحفظ، أو (التسجيل) في صدور هذه الأعداد الكبيرة من الحفاظ، وليس سبيله: التدوين أو الكتابة في الصحف والأوراق.

السبب الثاني: أن طريقة أداء المكتوب، أو هذا المكتوب، لا تتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية، **وذهابُ** الذين حفظوا القرآن أيام النبي ﷺ، أو بين يديه وعلى يديه صلوات الله وسلامه عليه.. يعوق طريقة الأداء.

ولا ريب أن ذهاب هؤلاء الحفاظ أمر يخشاه عقل حازم، ونظر نافذ، كعقل

---

(١) صحيح البخاري (٦ / ٩٨ ـ ٩٩). وكانت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما وصيته من أولاده على أوقافه وتركته رضي الله عنه وأرضاه.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونظره، وما عُهد عنه من التفرد والسبق والابتكار «حتى ندر في الدولة الإسلامية من نظام لم تكن له أولوية فيه»[(١)] كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله.

بالإضافة إلى أن القرآن الكريم ـ كما قلنا ـ لا بد فيه من الكتابة والحفظ جميعًا! يؤكد هـذا: المنهجُ الذي رسمه أبو بكر لزيد بن ثابت في هـذا الجمع.

٢ ـ يتلخص **منهج الجمع**، كما رسم لزيد وأمر بتنفيذه، في وجـوب الاعتمـاد على مصدرين:

أولهما: ما كتب بين يدي النبي ﷺ.

وثانيهما: ما كان محفوظًا في صدور الرجال.

قال زيد: «فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال» وفي الحديث الآخر الذي أخرجه ابن أبي داود من طريق عبد الرحمـن بن حاطب قال: قدم عمر، فقال: من كان تَلَقَّى من رسول الله ﷺ شيئًا فليأت به ـ وقد شارك عمرُ زيدَ بن ثابت في موضوع الجمع، بإشارةٍ من أبي بكر رضي الله عنه قال: وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُسُب ـ وكان زيد لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان» قال السخاوي: المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وقد فسّر بعض العلماء هـذين الشاهدين: بالحفظ والكتابة.

ومعنى ذلك: الاكتفاء بشاهد واحد على الكتابة، ومثله على الحفظ! ولو صـح هـذا التفسير المخالف لما ذهب إليه جمهور العلماء، لما كان هناك من داع ليخص

---

(١) عبقرية عمر للعقاد، ص١٠١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م.

زيد بن ثابت ـ في رواية البخاري السابقة ـ آخر سورة «براءة» بالذكر! إن كان لا يتطلب على «الكتابة» أكثر من شاهد واحد! ومن نافلة القول أن نشير إلى أن قوله: «لم أجدها مع أحد غيره» لا يجوز تفسيره بأنه لم يجدها «محفوظة»!! لأنه كان رضي الله عنه يبحث عن آية «يحفظها» هو! ويحفظها معه المئات بل الألوف من الحفاظ.

فالشاهدان إذن على الكتابة.

قال الزركشي: «وقول زيد: لم أجدها إلا مع أبي خزيمة، ليس فيه إثبات القرآن بخبر الواحد، لأن زيدًا كان سمعها وعلم موضعها في سورة التوبة بتعليم النبي ﷺ، وكذلك غيره من الصحابة..» قال: «**وتَتَبُّعُهُ للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم**»[(١)]، أي ليستظهر بحفظهم، أي يتقوّى بحفظ الحفاظ، بإضافته إلى حفظه هو.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعليقًا على هذه الكلمة: «لم أجدها مع أحد غيره» أي: مكتوبة، لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقاها عن النبي ﷺ، وإنما كان زيد يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة»[(٢)].

قال أبو شامة: وكان غرضهم: أن لا يكتب إلا من عين ما كُتب بين يدي رسول الله ﷺ، لا من مجرّد الحفظ[(٣)].

---

(١) البرهان (١ / ٢٣٨).

(٢) فتح الباري (٩/ ١٢).

(٣) الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن للشيخ محمد نجيب المطيعي، ص١٢، المطبعة الأميرية، ١٣٢٣م

● **الكتابة ليست شرطًا في التواتر:**

بل إن من المؤكد أن طلب مثل هـؤلاء الشهود لا يراد به أكثر من مجرد الاستظهار والاستيثاق وتسهيل عمل زيد بن ثابت، لأن الأصل هو الحفظ المتواتر من قبل جمهور الصحابة رضوان الله عليهم. وهـذا معنى تخوّف الفاروق الذي لم يفهمه «جيفري» مرة أخرى! ولهـذا فإن التواتر هنا في نقل القرآن الكريم لا يكمن أو يتحقق في الشاهدين أو في الأربعة شهود، حتى نقول مع بعض العلماء: إن الاستظهار المتواتر لآخر سورة براءة من قبل الصحابة، قام مقام الشاهد الآخر على أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ[(١)] .. لأن هـذا عكس ما يجب قوله في هـذا المقام، **لأن التواتر إنما يكمن حقيقةً في موافقة هـذا المكتوب في الصحف، بشهادة أيِّ عددٍ كان، لما كان يحفظه الصحابة في صدورهم، وسواءٌ أكتب بين يدي الرسول ﷺ أم لا ـ بل إن الكتابة ليست شرطًا في التواتر أصلاً ـ** حيث تلقوا عمل أبي بكر بالقبول، وتمت عليه موافقتهم.. فكأنَّ جمع المتفرق كان سبيلاً ليعارَض بالمجتمع «ليشترك الجميع في علم ما جُمع فلا يغيب عن جمع القرآن أحدٌ منه شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودعَ المصحف، ولا يشكّوا في أنه جُمع عن ملأٍ منهم»[(٢)] كما قال الإمام الزركشي رحمه الله.

هـذا الجمع العلني والإعلامي، في مجتمع فضل وعلم ودين، هو الذي قال فيه

---

(١) انظر: كتاب علوم القرآن للأستاذ الدكتور صبحي الصالح رحمه الله، ص٧٦، دار العلم للملايين.

(٢) راجع البرهان للزركشي (١/ ٢٣٤)، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم رحمه الله، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧م

علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، رَحْمَةُ الله على أبي بكر، كان أول من جمع كتاب الله بين اللوحين»[(١)].

٣ ـ **وأخيرًا**: فإن من أبرز ما تضمنه حديث زيد السابق[(٢)] أن الصحف التي جمع فيها القرآن ـ بين لوحين أو في أجزاء متفرقة ـ كانت عند أبي بكر الخليفة رضي الله عنه، ثم آلت إلى سيدنا عمر من بعده، ثم صارت إلى حفصة بنت عمر أمير المؤمنين، ولم توضع عند عثمان لأن عمر رضي الله عنهما ترك الخلافة شورى من بعده في ستة من الصحابة أبرزهم علي وعثمان رضي الله عنهما، فلا يحسن دفع هـذه الصحف إلى واحد منهم، ولعله لو فعل ذلك لفهم على أنه من أمارات الترجيح! يضاف إلى ذلك أن حفصة ـ رضوان الله عليها ـ هي زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين، وكانت متمكنة من القراءة والكتابة[(٣)]، فضلاً عن حفظها للقرآن الكريم عن ظهر قلب، فبقيت هـذه الصحف عندها إلى أن طلبها منها الخليفة عثمان بن عفان، كما سنرى في الفقرة التالية:

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بإسناد حسن (١ / ١٦٦)، طبعة قطر، ورواه ابن أبي شيبة والإمام أحمد وأبو عبيد القاسم بن سلام وابن حجر في الفتح وغيرهم. انظر: تعليق المحقق في كتاب المصاحف.

(٢) من هـذه الأمور: الثقة المطلقة بزيد من قبل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، هـذه الثقة التي لم يؤكدها أنه كاتب للوحي، فحسب، حتى دل عليها بمكانه في الورع والتقى ـ لخشيته في الأمر ـ إلى جانب ما اتصف رضي الله عنه به من الحزم والعقل والتحري والضبط جميعًا.

(٣) ثبت من عدة طرق أن: الشفاء بنت عبد الله، المهاجرة القرشية العدوية، هي التي علَّمت السيدة حفصة أم المؤمنين الكتابة. راجع: الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (١٧٨٩)، و حقوق النساء في الإسلام لمحمد رشيد رضا رحمه الله، ص١٧، طبعة المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

ثالثًا ـ نسخ المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه عام ٢٦هـ ٦٤٦م[(١)]:

١ ـ كان الجمع الذي تمّ في عهد الصدّيق، إذن، جمعًا عامًا أو جمعًا رسميًا قام به الخليفة، وشارك فيه جمهور الصحابة أو جماعة المسلمين: الحافظ بحفظه والكاتب بكتابه. وكانت الغاية من هـذا الجمع حفظ القرآن الكريم من أن يضيع منه شيء، أو بعبارة أدق: حفظه على هـذا النحو المتواتر الموثّق، بحيث لا يُحتاج ـ فيما يستقبل من الأيام، أو إلى يوم القيامة ـ إلى إثبات بعض القرآن أو آية منه بخبر الواحد، أو نحو ذلك من الروايات والأخبار وطرائق النقل والتوثيق. ولـكن هـذا الجمع «لأصل» القرآن ـ إن صح التعبير ـ لم يرد له أبو بكر، ولم يكن هـذا من همّه أو همّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ أن يكون قاضيًا على الصحف الخاصة التي جمع فيها بعض الصحابة القرآن لأنفسهم، كما فعل عبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، والمقداد بن عمرو، وأُبيّ بن كعب، وعلي بن أبي طالب ـ وكان غالب هـذا الجمع يتمثل في تسجيلهم لما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ من القرآن ـ لأن همّ أبي بكر وعمر ـ كما قلنا ـ كان مصروفًا لمبدأ الجمع الموثق الذي يتم على ملأ من الحفاظ وعامّة المسلمين، والذي كان من أركانه بعضُ أصحاب هـذه الصحف أو المصاحف، ولهـذا فإن هـذه الصحف لم تختلف عن

---

(١) لم يكن هـذا عام ٣٠هـ كما ذكرنا في الطبعة السابقة، ولـكن في عام ٢٦هـ. وهو العام الذي سار فيه الوليد بن عقبة بجيش الكوفة ـ بعد توليته عليها في هـذا العام ـ نحو أذربيجان وأرمينية. راجع: البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ١٤٩).

قال الحافظ ابن حجر: وكان ذلك في سنة خمس وعشرين، قال: وغفل بعض من أدركناه فزعم أنه كان في حدود سنة ثلاثين، ولم يذكر له مستندًا. انظر: فتح الباري (٩ / ٢٣)، و الإتقان للسيوطي (١ / ٢٨٠) طبع مؤسسة النداء.

المصحف السابق إلا في ترتيب السور من ناحية، وفي بعض القراءات التفسيرية والقراءات ذات الطابع اللهجي من ناحية أخرى[١]، لأنهم إنما كانوا يدونون هـذه الصحف لأنفسهم، وتأكيدًا أو تطبيقًا لمبدأ نزول القرآن على سبعة أحرف، كما سنشير إلى ذلك في بحث قادم.

وقد علل صاحب كتاب المباني اختلافهم في ترتيب السور «بأن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها ثم خرج في سرية فنزل في وقت تغيّبه سورة، فإنه كان إذا رجع فأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، فيتتبع ما فاته على حسب ما يستهل له، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هـذا الوجه». قال: «وليس يقدح في الثقة بالقرآن أن كانت السور متفرقة على غير وَلاء، بعد أن كانت معروفة عند عامّتهم، محفوظة عن أن يزاد فيها أو ينقص، كما أنه ليس يقدح في قصائد زهير والأعشى وغيرهما من الشعراء أن تكون قصائدهم متفرقة، ثم تجمع بين دفتين فتقدم قصيدة وتؤخر أخرى»[٢].

أما **الاختلاف بالزيادة والنقص** ـ وبالنقص على وجه الخصوص ـ فلم يكن له وجود، ومن ظن ذلك فقد غفل عن النقطة التي أشرنا إليها، وهي أن هـذه الصحف صحف خاصة، وربما دوّن صاحبها على صحيفة من الصحف دعاءً أو حديثًا وهو يأمن أنه ليس من القرآن، أو ترك تدوين سورة يعلم كل واحدٍ أنها من القرآن.. فمصحف ابن مسعود ـ على سبيل المثال ـ كان يخلو من سورة الحمد!

---

(١) انظر دراسة مطولة لهـذه المصاحف في كتاب تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين، ص١٢٥ ـ ١٨٩، وانظر كتاب: الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم، (٢ / ٧٦ ـ ٨٠).

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ص٣٢ ـ ٣٣.

قال ابن قتيبة: «وكيف يظن به ذلك، وهو ـ أي ابن مسعود ـ من أشد الصحابة عناية بالقرآن؟ ولـكن ذهب ـ فيما يظن أهل النظر ـ إلى أن القرآن إنما جُمع وكُتب بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان، ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد ـ فاتحة الكتاب ـ.. فلما أَمِنَ عليها العلّة التي من أجلها كُتب المصحف، ترك كتابتها وهو يعلم أنها من القرآن»[(١)].

على أن الذي يمكن تقريره هنا: هو استبعاد أن يكون واحد من الصحابة قد (التزم) أو تمكّن بمفرده من تدوين القرآن كله، كاملاً غير منقوص، ولهذا فإن حديثنا عن (مصاحف) الصحابة لا نعني به سوى (الصحف) التي كتبها كل واحد منهم لنفسه.

٢ ـ غير أن تعدد هذه الصحف بجوار مصحف أبي بكر، وانتشار الصحابة القراء في الأمصار، تسبب في تعدد القراءات، واختلاف القراء. فكانت الحلقة الثالثة أو المرحلة الأخيرة من مراحل جمع القرآن الكريم، أو من مراحل توثيقه ونشره، قام بها عثمان بن عفان رضي الله عنه. وفي ذلك يروي لنا الإمام البخاري الخبر الآتي:

«عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهلُ الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حُذيفةَ اختلافهُم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا

(١) تأويل مشكل القرآن ص٤٧، بتحقيق وشرح الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله.

بالصحائف ننسخها في المصاحف[(١)] **ثم نردها إليك**، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيء من القرآن **فاكتبوه** بلسان قريشٍ فإنما نزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا **نسخوا الصحف في المصاحف** رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة. وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق»[(٢)].

يوضح هـذا النص أن الموضوع الآن يتصل بالرسم، أو بالكتابة المناسبة للقراءة، والتي تتسع لوجوه القراءة المأثورة، وتدل بعض الروايات الأخرى عند أبي داود، وفي كتابي البرهان و الإتقان أن **الاختلاف في القراءة الذي لاحظه حذيفة**، والذي ظهر عند اجتماع الجيوش الإسلامية الوافدة من الأقاليم ـ سورية والعراق ـ يعود إلى: أن أهل الشام كانوا يتبعون قراءة «أُبيّ بن كعب» والعراقيين

---

(١) يجوز في كلمة «المصحف» ثلاث لغات: ضم الميم وكسرها وفتحها، فالضم والكسر مشهورتان، والفتح ذكرها أبو جعفر النحاس وغيره. انظر: التبيان للإمام النووي، ص١١٢.

(٢) صحيح البخاري (٦ / ٩٩) حديث رقم (٤٩٨٧) وفي رواية ابن أبي داود: «وأمر بسوى ذلك من صحيفة أو مصحف أن يُحرق. وقيل: يخرق، بالخاء المُعْجمة. قلت: وأكثر الروايات صريح في التحريق. وفي بعضها أنها «ألقيت في ماء حار» (كتاب نصوص محققة في علوم القرآن ص٢٤٤). وقد جزم القاضي عياض بأنهم **غسلوها بالماء، ثم أحرقوها**. (كتاب المصاحف ١/ ٢٠٥). قال القرطبي، معقبًا على هـذه الرواية للإمام البخاري: «وكان هـذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلّة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبي ﷺ واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأيًا سديدًا موفقًا، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين» (١/ ٥٢).

يقرؤون بقراءة ابن مسعود.. وبعضهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري، فقال بعضهم لبعض: «قراءتنا خير من قراءتكم..»[١]. وهـذا أمر يُفزع من مثله، وإن دل على شيء ـ فيما وراء الاختلاف في القراءة الذي يسمح به نزول القرآن على سبعة أحرف ـ فإنما يدل على أن شيئًا من **الطابع الفردي أو الشخصي قد أُسبغ على مصحف أبي بكر رضي الله عنه، على الرغم من العناية التي بذلت في جمعه**[٢]، وإن الذي ساعد على ذلك ـ فيما يبدو ـ بقاؤه محفوظًا بعنايةٍ عند الخليفتين الأولين، إلى جانب طبيعة المكانة المتكافئة أو المتقاربة التي يحتلها الصحابة عمومًا، والتي لا تجعل من الخليفة رجلاً متميزًا في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت. ولا تجعل من عمله عملاً (رسميًا) أو ملزمًا كما يقال. كما هي الحال في الدول والحكومات العريقة أو القديمة. ولهـذا فإن الواجب الآن، بعد الاختلاف الذي أشار إليه حذيفة، يقتضي **إعطاء مصحف أبي بكر فرصه النشر والتعميم على الأقاليم الإسلامية، وجعله وثيقة للناس كافة**. وهـذا ما فعله عثمان بن عفان كما تدل على ذلك الروايات الكثيرة، وكما أقره عليه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عندما قالوا له: نِعمَ ما رأيت[٣].

---

(١) انظر: البرهان (١ / ١٣٩)، و الإتقان (١/ ١٠٢ ـ ١٠٣)، وانظر كتاب: مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور دراز، ص٣٨. وفي بعض الروايات أن عثمان رضي الله عنه قال: أي الناس أفصح؟ قالوا: سعيد بن العاص، ثم قال: أي الناس أكتب؟ قالوا: زيد بن ثابت، قال عثمان: فليكتب زيد، ولْيُمْل سعيد.. انظر كتاب: المصاحف (١/ ٢١٧)، حديث رقم (٨٣)، وانظر كذلك رقم ٧٠ (١/ ٢١٣ – ٢١٤) وكان سعيد بن العاص رضي الله عنه أشبه الناس لهجةً برسول الله ﷺ. وكان جوادًا كريمًا ممدّحًا، وموصوفًا بالحصافة والأريحية وسعة الصدر (ت سنة ٨٠هـ).

(٢) انظر الدكتور دراز، المصدر السابق.

(٣) مقدمتان في علوم القرآن ص٤٤، و الإتقان (١/ ١٠٣).

٣ ـ تنصّ رواية البخاري السابقة على أن اللجنة التي انتُدِبت للقيام بهذا العمل كانت مؤلفة من أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ: ثلاثة من قريش، وواحد من الأنصار وهو زيد بن ثابت.

وجاء في بعض الروايات أن الذين انتُدبوا للقيام بهذا العمل كانوا أكثر من هذا العدد[١]، ويبدو أن اللجنة التي كلّفت من قبل الخليفة تتألف من أربعة، إلا أن اجتماع الصحابة على العمل واشتراكهم في الإقرار بأن النبي ﷺ قرأ على هذا النحو ـ الذي نجده الآن في المصاحف ـ وتثبّت الجماعة في ذلك.. هو الذي أوهم كثرة العدد في اللجنة الرسمية التي أنيط بها العمل المذكور، أخرج ابن أشتة، من طريق أيوب عن قلابة أن عثمان بن عفان ـ وقد راعه اختلافهم ـ قال: يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إمامًا، فكتبوا، فكانوا إذا اختلفوا وتدارؤوا في آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلانًا، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة، فيقال له: **كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا** ؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكانًا.

وأخرج ابن أبي داود من طريق محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح، في رواية أخرى أن عثمان رضي الله عنه بعد أن أحضروا الصحف التي كانت في بيت أم المؤمنين السيدة حفصة «كان يتعاهدهم، فكانوا إذا ادّرؤوا في شيء أخروه، قال محمد: فظننت إنما كانوا يؤخّرونه لينظروا أحدثهم عهدًا بالعَرْضة الأخيرة فيكتبونه على قوله»[٢].

---

(١) الإتقان (١/ ١٠٣).

(٢) راجع: الإتقان (١/ ١٠٤) و١/ ٢٨١ ت الدكتور قيسية.

وتشير هـذه الرواية، مع سابقتها: «كيف أقـرأك رسـول الله؟» إلى أن الخـلاف كان في الحروف، أو في وجه القـراءة، عـلى التحقيـق. ومـن ثـم في طريقـة الرسـم والكتابة، كما دلّت عليه رواية البخاري، وكما أشرنا قبل قليل.

٤ ـ وقد استهدف عثمان رضي الله عنه من عمله في نشر القرآن وتعميمه أمرين أساسيين، كما يوجز ذلك الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله.

الأول: «منع التمـاري في القـرآن والشـجار بـين المسـلمين بشـأن القـراءات المختلفـة، لأن المصـاحف العثمانيـة أضـفت الصـفة الشـرعية عـلى القـراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدون، ولها أصل نبويٌّ مجمعٌ عليه.

الثاني: حماية النص القرآني ذاته من أي تحريف، نتيجة إدخال بعض العبارات المختلف عليها نوعًا ما، أو أي شروح يكون الأفراد قد أضافوها إلى مصاحفهم بحسن نية»[(١)].

بين عمل أبي بكر وعمل عثمان رضي الله عنهما:

بل يمكننا نحن القول، إذا قارنا عمل عثمان رضي الله عنه بالعمل الذي تمّ في عهد أبي بكر رضي الله عنه: إن الهدف الأساس من عمل سيدنا عثمان ليس حفظ القرآن من أن يضيع منه شيء، ولـكن «ضبط» الحروف وتقنين القراءات، أو وجوه الأداء المأثورة في بعض الكلمات؛ أي إن هـذا العمل كان منصبًا على أوصاف

(١) مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور دراز، ص٣. مع الإشارة إلى أن هـذا الكتاب وضعه الدكتور دراز في الأصل باللغة الفرنسية، لأنه كان جزءًا من رسالة دكتوراه الدولة التي تقدم بها إلى جامعة السربون رحمه الله.

القرآن لا على أصله، إن صح التعبير[(١)]. ولهـذا قام على استنساخ الصُّحف أو المصحف السابق في عدّة نُسخ، وعلى تعميم هـذه النسخ في أمصار العالم الإسلامي، حتى تكون هي الحجة فيما يقبل أو يرفض من الحروف أو وجوه القراءات.

ويمكن القول كذلك: إن أبا بكـر رضـي الله عنـه خلَّـص الـنص القـرآني مـن الشروح والتفاسير، مما دوّنه بعض الصحابة لأنفسهم، أما عثمـان رضـي الله عنـه فقد خلَّص القرآن من القراءات الشاذة أو التي لا أصل لها، وجمع المسلمين على ما ثبت من القراءات بالتواتر عن رسول الله ﷺ.

وقد تمّ (**الجمع**) الأول في عهد **الصدّيق** في أعقاب حروب الردة التي نجحـت في تثبيت أركان الإسلام والأمة والمجتمع. كمـا تـمّ (**النسـخ**) في عهـد عثمـان في سياق حروب الفتح والتوسع والتحرير.. كما نص حديث حذيفة رضي الله عنه.

ومن هنا يمكن لنا أن نتبين قاعدة اللجنة العثمانية في جمع القرآن على النحو الآتي:

رابعًا ـ قاعدة عثمان في الجمع (النسخ) ومزايا المصاحف العثمانية:

١ ـ كتابة القرآن بلغة قريش لأنه إنما نزل بلسانهم[(٢)]، وهـكذا احتفظت كلمة

---

(١) لعل مثل هـذا التفريق هو ما قصد إليه الزركشي حين قال: «اعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز. والقراءات: هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف، أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما» البرهان (١/ ٣٩٥) الطبعة اللبنانية.

(٢) هـذا هو الأعم الغالب؛ لأن طرفًا من اللهجات العربية ـ أو غير لغة قريش من لغات العرب ـ موجود في صحيح القراءات، مثل تحقيق الهمزة على وجه الخصوص؛ لأن التسهيل هو لغة قريش في جميع كلامها! وإن كان النحاة قد وضعوا له قيودًا ورسومًا لم تعرفها قريش، كما يقول الأستاذ العلاّمة عبد السلام هارون؛ قال رحمه الله: إن النصوص متواترة أن قريشًا لم تستعمل الهمزة في =

«تابوت» التي كانت تكتب «تابوه» في المدينة بشكلها المكي. أخرج البخاري والترمذي، قال ابن شهاب: اختلفوا يومئذ في (التابوت) فقال زيد: (التابوه) وقال ابن الزبير وسعيد بن العاص: (التابوت) فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه (التابوت) فإنه بلسان قريش[(١)] أي بطريقة الإملاء المعهودة في كتابة قريش. قال ابن عطية: قراءة زيد بالهاء، والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء[(٢)]. وسألوا عثمان رحمه الله أيضًا عن قوله تعالى: «لم يَتَسَنَّ» فقال: اجعلوا فيها الهاء[(٣)].

=

كلامها؛ قال الرضي (شرح الشافية ٣ / ٣١): «فَخَفَّفها قوم، وهم أكثر أهل الحجاز، ولاسيما قريش، روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: نزل القرآن بلسان قريش، وليسوا بأصحاب نَبْر، ولولا أن جبريل نزل بالهمزة على النبي ﷺ ما همزنا». وقال السيوطي (همع الهوامع ٢/ ٢٣٣): «والكتّاب بنوا الخط في الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين: أحدهما: أن التسهيل لغة أهل الحجاز، واللغة الحجازية هي الفصحى..». وقال ابن منظور (اللسان: ٧ / ٣٩ ـ ٤٠): «وفي الحديث: قال رجل للنبي: يا نبيء الله، فقال: لا تنبر باسمي! ـ أي لا تهمز ـ وفي رواية: فقال: إنا معشر قريش لا ننبر. والنبر: همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها. ولما حج المهدي قدّم الكسائي يصلّي بالمدينة، فهمز! فأنكر أهل المدينة عليه، وقالوا: تنبر في مسجد رسول الله ﷺ بالقرآن!» كتاب قطوف أدبية للأستاذ المحقق عبد السلام هارون، ص٥٤١ ـ ٥٤٢، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م ١٤٠٩هـ، مكتبة السنة، القاهرة.

(١) جامع الأصول لابن الأثير الجزري (٢/ ٥٠٦)، وكتاب: المصاحف لأبي بكر بن الأشعث السجستاني، المشهور بابن أبي داود (١/ ٢٠٧)، تحقيق د. محب الدين واعظ. وانظر الآية ٢٤٨ من سورة البقرة.

(٢) القرطبي (١/ ٥٤).

(٣) الوسيلة للإمام السخاوي، ص٦٧، والآية المشار إليها هي قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وانظر حول قراءاتها: الكتاب الموضح لابن أبي مريم، (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

٢ ـ كُتبت المصاحف العثمانية مُجرّدة من كل ما ليس قرآنًا، كالشروح والتفاسير التي كان يكتبها بعض الصحابة في مصاحفهم، مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] فقد كتبها ابن مسعود: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم (في موسم الحج)»(١) وقرأ غيره: «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة ـ صالحة ـ غصبًا»(٢) بزيادة كلمة «صالحة» بطريق الشرح والتفسير، أو للإشارة إلى سبب النزول أو أخذًا منه، لأنهم ـ كما قدمنا ـ كانوا يكتبون هذه المصاحف لأنفسهم، يدونون عليها بعض التفاسير؛ لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآنًا، فهم آمنون مِن الالتباس، أو محققون لما هو قرآن وما ليس بقرآن.

٣ ـ كانت هذه المصاحف خالية من الإعجام أو النقط والشكل، مما فسح المجال لقراءة القرآن بالحروف السبعة التي نزل عليها، وبذلك لم يسقط عثمان رضي الله عنه شيئًا من قراءات القرآن التي يتسع لها الرسم، كما أنه لم يمنع أحدًا من القراءة بأي حرف شاء، ما دامت هذه الحروف منقولة بالتواتر عن النبي ﷺ، ورسولُ الله يقول: « **فأيَّ ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا** » كما سنوضح ذلك في مبحث الأحرف السبعة.

---

(١) أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنَّة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فلما كان الإسلام فكأنهم تأثَّموا أن يتّجروا في المواسم، فنزلت:﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في موسم الحج، قرأها ابن عباس، هكذا.

(٢) قال تعالى ـ في قصة موسى عليه السلام مع العبد الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علمًا ـ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩].

(أ) فإن كان في الكلمة الواحدة أكثر من قراءة، وكان رسمها عند تجردها من النقط والشكل، يتسع لهـذه القراءات، رسمت في جميع المصاحف برسم واحد، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]. فقد كانت تكتب «فسوا» وتصلح أن تقرأ «فتثبتوا» وهي قراءة أخرى[(١)]. وكذلك كلمة «ننشزها» من قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٥٩] فإن تجرّدها من النقط والشكل يجعلها صالحة لأن تقرأ «ننشرها» وهي قراءة معروفة أيضًا[(٢)].

فإن قيل: إن الرسم العثماني الخالي من الشكل والنقط، يتيح المجال للكثير من الألفاظ القرآنية أن تقرأ بأكثر من وجه واحد، فهل تجوز القراءة بهـذه الوجوه؟ قلنا إن الأمثلة المذكورة التي صلح الرسم فيها للقراءتين المذكورتين، إنما جاز القراءة فيهما لورود الدليل القاطع على صحة القراءة بهما؛ إما لأن رسول الله ﷺ قرأ بهما، أو لأن أحد الصحابة قرأ بأحدهما بحضوره فأقره النبي ولم ينهه عن ذلك. أما ما وراء ذلك فلا تجوز القراءة فيه بغير الوجه الواحد المروي بطريق التواتر. ولذلك عُدّت قراءة «شاذَّة»: كل قراءة وجد عليها دليل أحادي غير متواتر، ولو صلح الرسم للقراءة بها، كقراءة ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] برفع لفظ الجلالة ونصب كلمة «العلماء» فهي قراءة شاذة؛ لأن القراءة المروية

---

(١) هنا في الحجرات، وكذلك في الآية ٤٩ من سورة النساء في موضعين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية. وقرأ من القراء ـ بعد ـ بالثاء والتاء: حمزة والكسائي، وقرأهن الباقون بالباء والنون. راجع: التذكرة في القراءات الثمان لابن غلبون (٢ / ٣٠٩)، تحقيق أيمن رشدي سويد، جدة، ١٤١٢هـ.

(٢) انظر المصدر السابق (٢/ ٢٧٤).

عن الثقات، بنصب لفظ الجلالة ورفع العلماء؛ لأنهم هم الذين يخشون ربهم سبحانه.

(ب) أما إذا كان اللفظ القرآني الذي جاء فيه أكثر من رواية متواترة يتعذر رسمه في الخط محتملاً لجميع الوجوه ـ بدون إعجام ـ فإنهم كانوا يرسمونه في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ـ أو حرف ـ وفي بعض آخر برسم يدلّ على قراءة أخرى، كقراءة «وصّى» بالتضعيف، و«أوصى» بالهمز الواردتين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [1] [البقرة: ١٣٢].

وغني عن البيان أنهم لم يكونوا يكتبون بالرسمين في مصحف واحد! حتى لا يظن أن الثاني تصحيح للأول ـ على سبيل المثال ـ خصوصًا إذا كتب أولهما في الأصل، والآخر في الحاشية، أو أن الأول أصل، والثاني فرع أو جائز أو محتمل، فيرجح أحدهما على الآخر بدون مرجح.

ونقول هنا تعقيبًا على هـذه الفقرة بنقطتيها هاتين:

(ج) إن المصاحف العثمانية التي كتبت على هـذا النحو، وأضحت معتمد القرّاء في البلاد التي وجّه إليها عثمان رضي الله عنه بهـذه المصاحف.. كانت وراء اختيارات القرّاء من الأحرف التي نزل عليها القرآن الكريم، أو السبب في التزامهم برسم

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٥٤)، وانظر: مناهل العرفان (١/ ٢٥٢)، وقراءة الهمزة في مصاحف أهل المدينة والشام، وقراءة التضعيف في باقي المصاحف. انظر: المقنع في معرفة مرسوم مصاحف الأمصار للداني ١٠٢، دار الفكر بدمشق ١٤٠٣هـ، وكتاب: الوسيلة إلى كشف العقيلة لعلم الدين السخاوي، تحقيق الدكتور محمد الإدريسي، ص١١٥، مكتبة الرشد ـ الرياض ٢٣. وراجع: الكتاب الموضح لابن أبي مريم (١/ ٣٠٢)، تحقيق الدكتور عمر حمدان الكبيسي، جدة، ١٤١٤هـ.

المصحف الذي وصل إلى مصرهم؛ قال القرطبي: إن عثمان رضي الله عنه «وجّه للعراق والشام ومصر بأمهات، فاتخذها قرّاء الأمصار معتمد اختياراتهم، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذي بلغه. وما وجد بين هـؤلاء القرّاء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم، فذلك لأن كلاً منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه؛ إذ كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ، ولم يكتبها في بعض إشعارًا بأن كل ذلك صحيح، وأن القراءة بكل منها جائزة»[(١)].

٤ ـ كلّف عثمان رضي الله عنه اللجنة بنسخ عدد من المصاحف بعث بها إلى عدد من الأمصار في الدولة الإسلامية، لتكون المرجع أو الحجة في ضبط القراءات، أو في إضفاء الصبغة الشرعية عليها، بعد ما نجم من خلاف أو تجاوز لبعض شروط القراءة المقبولة بين سكان الأقاليم على وجه الخصوص.

قال بعض العلماء: إنها سبع نسخ، ورجح بعضهم أنها كانت خمس نسخ، أخرج ابن أبي داود من طريق حمزة الزيات قال: «كتب عثمان أربعة مصاحف، فبعث بمصحف منها إلى الكوفة، فوقع عند رجل من مراد، فبقي حتى كتبت مصحفي منه» وفي رواية «عليه» وقال ابن أبي داود: «وسمعت أبا حامد السجستاني يقول: كتب سبعة مصاحف، فبعث واحدًا إلى مكة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وآخر إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحدًا»[(٢)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي، (١/ ٥٤).

(٢) كتاب: المصاحف ص٢٤١ ـ ٢٤٢، و التبيان للنووي، ص١١١، وفيه: قال أبو عمرو الداني: أكثر العلماء على أن عثمان كتب أربع نسخ، فبعث إلى البصرة إحداهن، وإلى الكوفة أخرى، وإلى الشام =

٥ ـ وأخيرًا، فإن مما يؤكد أن عمل عثمان رضي الله عنه كان **لضبط القراءات** أنه بعث مع كل مصحف من المصاحف مقرئًا ليقرئ الناس بما فيه، فبعث عبد الله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن أبي شهاب مع المصحف الشامي، وأبا عبد الرحمن السُّلَمي مع المصحف الكوفي، وعامر بن عبد الله بن عبد القيس العنبري مع المصحف البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يُقرئ بالمدينة (في المصحف المدني).

ولا يمكن للناظر في هذا، وفي تاريخ جمع القرآن وتدوينه ونسخه.. أن يقف على أعلى من هذا، في الضبط والإتقان والتوثيق العلمي، وفي خدمة الكتاب الكريم الذي قال الله تعالى في شأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

خامسًا ـ حرق الصحف والمصاحف الأخرى (شبهات وردّ):

ثم أمر سيدنا عثمان بعد ذلك بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق، كما أشرنا قبل قليل ـ وذلك لأن الأمر لم يعد يحتمل التهاون أو التأخير بعد ما نجم من خلاف، وبعد ما تمّ من التحرّي والضبط في نَسْخ مصحف أبي بكر رضي الله عنه، أو الصحف التي كانت لدى أم المؤمنين السيدة حفصة رضي الله عنها وعن أبيها أمير المؤمنين.

=

أخرى، وحبس عنده أخرى». وانظر كتاب: الوسيلة إلى كشف العقيلة للإمام علي بن محمد السخاوي (ت٦٤٣هـ)، ص٧٤ ـ ٧٥. قلت: والأرجح عندنا أنها خمس نسخ؛ تضاف إليها ـ أو تتصدرها ـ نسخة مكة التي ذكرتها روايات كثيرة.

ولهـذا فقد استجاب أصحاب «المصاحف» السابقة لأمر الخليفة رضي الله عنه، وقاموا بحرق صحفهم أو مصاحفهم سوى عبد الله بن مسعود الذي لم يكتف بالرفض.. حتى حرّض الآخرين ـ وقد أزعجه استجابتهم فيما يبدو ـ على الرفض! أخرج ابن أبي داود في المصاحف والترمذي مرسلاً من حديث الزهري «أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال: يا معشر المسلمين، أُعزل عن نسخ المصاحف، ويُولاّها رجلٌ، والله لقد أسلمتُ وإنه لفي صُلب رجل كافر!ـ يريد زيد بن ثابت ـ يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغُلُّوها، فإن الله يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]. فالقَوا الله ـ وفي رواية: فاتقوا الله ـ بالمصاحف. قال الزهري: فبلغني أن ذلك كره من مقالة ابن مسعود: رجال أفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ»[(١)].

قلت: ولعبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يغضب لعدم مشاركته، أو لعدم استدعائه للمشاركة في هـذا العمل التاريخي المشرّف، خصوصًا وأن الصحابة الكرام الذين قاموا به، يمكن وصفهم بأنهم كانوا «أدوات» الإرادة الإلـهية أو التكفل الإلـهي بحفظ القرآن. ولـكن ما كان لغضبه أن يصل إلى حد التعريض بزيد بن ثابت، الذي كان كاتب الوحي لرسول الله ﷺ، وبأمر لا يُقبل التعريض بمثله ـ **كما جاء في هـذه الرواية المرسلة** ـ علمًا بأن بعض العلماء يقول: إن زيدًا كان أحفظ للقرآن من عبد الله؛ إذ وعاه كلَّه ورسولُ الله حيّ ـ ووعاه معه على هـذا

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧) و المصاحف لابن أبي داود (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) طبع دولة قطر. ومعنى غلّوها: اكتموها وأخفوها، وأصله من الغُلّ بمعنى الخيانة. وغني عن البيان أن هـذا المعنى ليس مقصودًا بحال.

النحو: أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وحفصة، وعائشة.. وآخرون ـ في حين أن ابن مسعود حفظ منه في حياة رسول الله نيّفًا وسبعين سورة، ثم تعلّم الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ[(١)].

والذي يمكن تأكيده في هـذا السياق هو ـ فقط ـ مسألة غل المصاحف، وعتب ابن مسعود أو غضبه رضي الله عنه، **أما التعريض بزيد ـ وبهـذه الصيغة ـ فلم يرد في الصحيحين**، روى مسلم في صحيحه من حديث شقيق عن ابن مسعود أنه قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] ثم قال: على قراءة من تأمروني أن اقرأ، فلقد قرأت على رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني أعلمهم بكتاب الله..».

بل إن رواية الإمام البخاري ليس فيها كذلك حكاية غلّ المصاحف. روى البخاري من طريق آخر: «عن شقيق قال: خطبنا عبدالله بن مسعود فقال: «والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم»[(٢)].

بل إن رواية أخرى لابن أبي داود في المصاحف لم يُعرّض ابن مسعود بزيد بن ثابت رضي الله عنهما، بالعبارة السابقة، ولـكن بقوله: «وكيف يأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت مِن في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وإن زيد ابن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان..»[(٣)].

---

(١) انظر تفصيلاً لهـذه النقطة التي ذكرها ابن الأنباري، في تفسير القرطبي (١/ ٥٣).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (ح٢٤٦٢)، ص١٤٩٤، و صحيح البخاري (ح٥٠٠٠)، ص٩٩٤.

(٣) المصاحف (١ / ١٩٥)، وقد أسلم زيد قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، واستصغره يوم بدر، ثم شهد أُحدًا والمشاهد. أما ابن مسعود رضي الله عنه فقد كان شيخًا عند نسخ المصاحف، وكان =

ثم إن زيدًا رضي الله عنه **لم يشتهر عنه اختيار قراءة بعينها** أو الانحياز لها ـ كما فعل ابن مسعود، علمًا بأن الأمر الآن أو في هـذه المرحلة: أمر تقعيد الأحرف، وحسم الاختلاف في القراءة. وما قرأه ابن مسعود أو ما أخذه من في رسول الله ﷺ لا ينازعه فيه أحد، ولـكن النبي الكريم أقرأ غيره من الصحابة بوجوه أخرى، على ما نذكره في مبحث الأحرف السبعة، هـذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عمل اللجنة نَسْخٌ أو استنساخ، وليست جمعًا جديدًا للقرآن، كما قد توهم بعض الروايات الضعيفة![1].

ومعنى ذلك أن **الـدواعي لتكليـف ابـن مسـعود في هــذا العمـل، أو لانتظـار حضوره من الكوفة إلى المدينة**.. لم تكن قائمة! قال الحافظ ابـن حجـر: «والعـذر لعثمان في ذلك أنه فعله بالمدينة، وعبد الله بن مسعود بالكوفة. ولم يـؤخر مـا عـزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر. وأيضًا فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر.. وكان الذي نَسَخَ ذلك هو زيد بن ثابت، وكان كاتب الوحي، فكانت له في ذلك أولوية ليست لغيره» هو وسائر أعضاء اللجنة من قرّاء المدينة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وعلى أية حال، فإن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بعد أن سكت عنه الغضب، أو بعد أن ذهبت حدّة المفاجأة، وربما بعد أن بادر بالاطلاع على عمل

=

من السابقين للإسلام، وقد هاجر الهجرتين: إلى الحبشة والمدينة. وتوفي عام ٣٢هـ، أما زيد رضي الله عنه فقد قيل إنه توفي سنة إحدى وخمسين، وقيل قبل ذلك.

(١) راجع: المرشد الوجيز لأبي شامة، ص٦٥ فما بعدها. وانظر كتاب: المصاحف لابن أبي داود (١/ ٢١٨).

اللجنة من خلال مصحف الكوفة ـ فيما نقدّر ـ قام بإحراق مصحفه، وأقر بما قام به الخليفة الراشد رضي الله عنه وقد أشار إلى ذلك صاحب كتاب المصاحف في فقرة خاصة عقدها تحت عنوان: « **باب رضاء عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف** ». علمًا بأن صاحب هـذا الكتاب ـ ابن أبي داود ـ هو نفسه الذي روى الموقف السابق الغاضب لابن مسعود رضي الله تعالى عنه وأرضاه![1].

نقض مزاعم التحريف:

أما ما يزعمه الغلاة والطاعنون من أن عثمان حرص على حرق المصاحف ليخفي التبديل الذي أحدثه في النص القرآني! فأهون من أن يلتفت إليه، بعد كلّ ما قدمناه عن كتابة القرآن وحفظه، وعن المنهج العلمي الدقيق الذي اتُّبع في جمعه في زمن أبي بكر، ونسخه في عهد عثمان! ونكتفي ـ في هـذا المقام ـ بإيراد النقاط والملاحظات الآتية:

١ ـ لو أن حرق الصحف كان لإخفاء التبديل، أو التحريف، أو **التنقيص**.. أو ما شئت من هـذه الأوصاف! لكان يجب أن يتم ـ أي هـذا الحرق ـ في عهد الصدِّيق لا في عهد عثمان، وذلك قبل أن يتفرق حفظة القرآن وقرّاؤه ـ ومنهم بعض أصحاب الصحف أو المصاحف الخاصة ـ في الأمصار! ويأخذ الناس عنهم! ولهـذا لم ينقل

(١) كتاب المصاحف (١/ ٢٠٢). وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن ابن مسعود كان واليًا على الكوفة أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن عثمان قد عزله عنها! ولا نعتقد أن لهـذا صلة بموقفه الغاضب الذي تحدثنا عنه. ولو كان له صلة فإنه أدعى إلى الإعلاء من شأن هـذا الصحابي الجليل حيث تراجع عن موقفه، وأعلن رضاه عن عمل سيدنا عثمان رضي الله عنه. راجع كتاب: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية للدكتور عمر فروخ، ص١١٧، دار العلم للملايين، ١٩٨٦، بيروت.

عن واحد منهم أو عن واحد ممن أخذ عنهم ـ وهم كثير ـ مثلُ هذا الزعم أو الافتراء! **وفحوى هذا أن مزاعم التحريف أو التنقيص ينقضها ويسخر منها: الأمر بحرق المصاحف! بل إنه يدل على خلافها**. لقد أمر عثمان بحرق المصاحف، ولم يأمر به أبو بكر أو عمر ـ مثلاً ـ لأن الاختلاف في القراءة لم يكن قائمًا، أو لأنه لم يظهر بعد. وحين تفرق الصحابة في الأمصار، وأقرأ كل واحد منهم بقراءته ـ إن وجدت ـ أو ببعض وجوه القراءة التي سمعها وقرأ بها..ـ وحصل الاختلاف الذي رآه حذيفة رضي الله عنه ـ قام عثمان بما قام به، وأمر بما أمر به رضي الله عنه؛ تأكيدًا أن طريقة القراءة والأداء لا بد فيها من هذا العمل الجماعي الذي يُعارَضُ (يُقابَل) فيه المكتوب بالمحفوظ، وبجميع الأحرف والوجوه.

وفحوى ذلك أن الدواعي لما قام به عثمان قد جَدَّ في عهده، ولم يكن له وجود في عهد أبي بكر رضي الله عنهما، علمًا بأن (دواعي التحريف) عند من يزعمه (ينبغي) أن تكون قائمة في عهد الخليفة الأول الصدّيق رضي الله عنه، ولكن أحدًا لم يُحرِّف ولم ينقِّص! ولكن الذين زعموا التحريف فيما بعد، هم الكذبة والمخرّفون! سواء أكانوا من المنافقين الذين لم يفارقهم الحنين إلى دين آبائهم، أم من سواهم من الكارهين للقرآن، وللعروبة والإسلام، ولخلفاء المسلمين العظام وسائر صحابته الكرام.

٢ ـ إن عثمان رضي الله عنه لو أسقط شيئًا من القرآن ـ سواء أكان متعلقًا بسيدنا علي رضي الله عنه، أم بغيره أم بأي أمر آخر ـ لراجعه واحتج عليه وثار في وجهه حفظة القرآن، وما أكثرهم![1] اللَّهم إلا إن زعم الزاعمُ أن هؤلاء الحفظة

(١) سوف نشير في مبحث القراءات القادم إلى أن قراءات كثيرة لا يحتملها رسم المصحف ـ أو الرسم العثماني ـ بقيت أو نقلت، لأنها كانت محفوظة، ولم يكن للمصاحف أن (تقضي) على قراءة سمعها =

من المهاجرين والأنصار، مَن بقي منهم في المدينة، ومَن تفرق منهم وأخذ عنهم في سائر الأمصار البعيدة أو المترامية الأطراف؛ تواطؤوا جميعًا على ذلك!! والأسئلة التي تطرح نفسها أمام هـذا البهتان: لِم يفعلون ذلك؟ وكيف؟ ولماذا لم يؤثَر عن علي أو غيره إنكار أو اعتراض؟ ولمن شاء من العقلاء، أو من أصحاب الأهواء، أن يصدق أن الصحابة الذين لم يشفع عندهم تكرار البسملة في صدر ثلاث عشرة ومئة سورة من القرآن الكريم.. أن يصدِّروا بها السورة الوحيدة الباقية ـ سورة التوبة ـ لأنهم لم يسمعوا رسول الله ﷺ يفتتح بها هـذه السورة! أقول: لمن شاء أن يصدق أن هـؤلاء الذين بلغ بهم الالتزام والتدقيق هـذا المبلغ، يحرّفون القرآن، أو يتلاعبون فيه بالزيادة والنقصان! أيّ سخف هـذا؟ بل أي جهل وزندقة وبهتان؟!

٣ ـ ثم ألم يردّ عثمان الصحف التي كانت عند أم المؤمنين السيدة حفصة إليها؟.. ألا يشير هـذا التصرف ـ العفوي إن صح التعبير ـ إلى أن أي تحريف أو تبديل لم يلحق بالقرآن، لسبب واضح وهو أن ذلك لم يخطر ببال عثمان ولا ببال أحدٍ من الصحابة الكرام. وإلا فكيف يرد عثمان الصحف إليها؟! ألم يكن الأجدر به لو أن أي تحريف لحق بالقرآن، أن يبادر إلى حرق هـذه الصحف قبل مصاحف

=

الصحابي من النبي ﷺ وانطلق يقرأ بها. فكيف لا يتم نقل الآيات أو السور التي زُعم أنها كانت من القرآن، ولـكن أسقطها عثمان؟ رضي الله عنه وأرضاه. وهـذه الآيات والسور يحفظها المئات بل الألوف، في حين أن القراءات أو الأوجه المتعددة في قراءة بعض ألفاظ القرآن يحفظها آحاد أو عشرات، وليس في ذهابها ذهاب شيء من القرآن؟ وهل يقبل عاقل أن يقال: إنهم فرّطوا في القرآن، ولم يفرطوا في القراءات؟

الصحابة الأخرى، علمًا بأن أحدًا لم يسبق له الاعتراض على عمل أبي بكر ﷺ كما قلنا قبل قليل.

٤ ـ يضاف إلى ذلك أن ابن مسعود، في كل ما نُقل عنه في اعتراضه أو ثورته السابقة، لم يعترض إلا على إلزامه بالأحرف أو القراءات التي تضمنّها مصحف عثمان، **أو قراءة زيد بن ثابت، على حد قوله**، وهو ـ أي ابن مسعود ـ الذي قرأ مِن في رسول الله ﷺ! كما كان يقول[(١)]، ولم يعترض حتى على ترتيب هـذا المصحف! والمفارقة ـ هنا ـ أن المسألة الآن هي تقعيد الأحرف، وحسم الخلاف في القراءة، كما قلنا قبل قليل، وليس لابن مسعود رضي الله عنه أن يلزم اللجنة بقراءته، في حين أن اللجنة لم يُسجّل عليها الانحياز لقراءة بعينها! ولهـذا فإن ابن مسعود لم يكن عنده سوى هـذا الوجه من وجوه الاعتراض! ظنًّا منه أن القرآن تمّ نسخه بقراءة زيد لا بقراءته هو رضي الله عنهما. روى ابن أبي داود بإسناد صحيح من حديث الأعمش عن أبي وائل قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ غُلُّوا مصاحفكم ـ وفي رواية أخرى قال: ونعم الغُلّ المصحفُ يأتي به أحدكم يوم القيامة ـ قال: وكيف يأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما نزل من القرآن إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل. ما أحدٌ أعلم بكتاب الله منِّي، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكانًا تبلغه الإبل أعلم

---

(١) قال عبد الله بن مسعود: قرأت من في رسول الله ﷺ اثنتين وسبعين سورة ـ أو ثلاثًا وسبعين سورة ـ وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. قال أبو إسحاق: وتعلَّم عبد الله بقية القرآن من مُجمَّع بن خارجة الأنصاري. (القرطبي ١/ ٥٨).

بكتاب الله منيٍّ لأتيته»[(١)]. وقد أشرنا قبل قليل إلى قوله ـ في رواية الإمام مسلم ـ «**على قراءة من تأمرونني أن أقرأ؟**».

٥ ـ وبحسبنا في هـذه العجالة أن نقول: إن من سهل عليه أن يطعن في جميع الصحابة والمسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار لِزعمٍ قامت الأدلة على نقيضه من القرآن نفسه، الذي أثنى الله تعالى فيه على صحابة نبيّه الكرام في أكثر من موضع[(٢)]، سهل عليه أن يقول ما شاء؛ يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: «ونظرًا لغيرة المسلمين الأوائل، يستحيل علينا أن نعلّل قبول الكافّة لمصحف عثمان دون منازعة أو معارضة بأنه راجع إلى انقياد غير متبصّر من جانبهم! ولقد قرر «نولدكه» أن ذلك يعد أقوى دليل على أن النص القرآني « **على أحسن صورة من الكمال والمطابقة** »[(٣)].

وينقل عن «لوبلوا» قوله: «إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر» وكان «موير» قد أعلن ذلك قبله إذ قال: «إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر إلينا بدون أي تحريف. ولقد حُفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النُّسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة.. **فلم**

---

(١) المصاحف لابن أبي داود (١/ ١٩٥ ـ ١٩٦). وانظر فيه روايات أخرى كثيرة، مع تخريج المحقق.

(٢) انظر ما ورد من هـذه المواضع في سورة التوبة وحدها ـ على سبيل المثال ـ الآيات رقم: ٢٠ ـ ٢٢، ٤٠، ٨٨ ـ ٨٩، ١٠٠.

(٣) الدكتور دراز: مدخل إلى القرآن الكريم، ص٣٩.

يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهـذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا...»[١].

يضاف إلى «هـذا الاستعمال الإجماعي» بحسب عبارة (موير) ما ذكره المستشرق الكبير (لويس ماسينيون)- من أن المستشرقين لم يقفوا على أي اختلاف بين المصاحف عبر عصور التاريخ، وأن القرآن لم يلحقه أي تغيير؛ فقد ذكر أستاذنا محمد المبارك ـ الذي تتلمذ في جامعة السوربون على (ماسينيون) - أنه زاره في بيته في باريس مع مجموعة من زملائه الذين كانوا من طلبة ماسينيون؛ وكان مما حدثهم به أثناء هـذه الزيارة قوله: نحن المستشرقين بذلنا جهودًا كبيرة **خلال ثلاثة أجيال** في تتبع مخطوطات القرآن الكريم من أقدم ما هو محفوظ في دور الآثار والمكتبات العالمية، حتى الأوراق المفردة المقطوعة من مصاحف قديمة فقدت، وقارنّا كل ذلك بالمصاحف المطبوعة، لكي نعثر على أي اختلاف بين المصاحف، من مصحف عثمان إلى مختلف العصور، حتى المصاحف في عصرنا، ولو كان اختلافًا في آية أو جملة أو كلمة، فلم نجد أي اختلاف، ما جعلنا نعتقد مستيقنين أن القرآن الذي نطق به محمد باقٍ إلى اليوم كما نطق به، لم يتبدل فيه شي[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر كلمة لأستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا كتبها في رثاء أخيه الأستاذ المبارك. ونشرت بتاريخ ٢٠ /٧/ ٢٠٠٦م في موقع (الإسلام في سورية). www.islam syria

٦ ـ موقف الشيعة الإمامية (عرض وتعقيب): هـذا، وقد عبّر بعض علماء الشيعة الإمامية عن هـذا المعنى، فقال شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي رحمه الله: «إن اعتقادنا في جملة القرآن الذي أوحى به الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصاحف المتداولة بين الناس، وعدد السور المتعارف عليه هو ١١٤ سورة، أما عندنا فسورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة، وكذلك سورتا الفيل وقريش، وأيضًا سورتا الأنفال والتوبة. أما من ينسب إلينا الاعتقاد في أن القرآن أكثر من هـذا فهو كاذب»[(١)].

(١) المصدر السابق. قلت: وهـذا واضح في الحكم على علمائهم الذين قالوا بخلاف ذلك، أو زعموا أن تحريفًا قد أصاب القرآن، والذين يأتي في مقدمتهم الجزائري في (أنواره)! والمجلسي في (بحاره) وحسين بن محمد تقي الطبرسي النوري (ت١٣٢٠هـ) الذي كتب كتابًا بعنوان: فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، ادعى فيه الشهرة العظيمة بين المتقدمين من علماء الشيعة الإمامية على القول بالتحريف! وقد جمع فيه أكثر من ألفٍ ومائة رواية تؤكد هـذه المزاعم!! قال: «ومن جميع ما ذكرناه ونقلناه بتتبعي القاصر يمكن دعوى الشهرة العظيمة بين المتقدمين، وانحصار المخالف فيهم بأشخاص معينين يأتي ذكرهم» بل إنه ارتقى بهـذه الشهرة العظيمة إلى مرتبة التواتر على لسان الجزائري (ت١١١٢)؛ قال: «قال السيد المحدّث الجزائري في الأنوار النعمانية ما معناه: إن الأصحاب قد أطبقوا على صحة الأخبار المستفيضة، بل المتواترة الدالة بصريحها على وقوع التحريف في القرآن كلامًا ومادةً وإعرابًا والتصديق بها!!» صفحة ٣٠.

قلت: ومن تتبعنا نحن لهـؤلاء القائلين بالتحريف وجدنا أن أبا الحسن علي بن إبراهيم القمي (ت٣٠٧) يأتي في مقدمة هـؤلاء. ويمكن القول: إنه رائد القول بتحريف القرآن نصًا وتفسيرًا معًا أو في وقت واحد. وقد تبعه في ذلك تلميذه أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩) وآخرون. وينقل العياشي (ت٣٢٠) عن الأئمة قولهم: «لولا أنه زيدَ في كتاب الله ونقص منه، ما خفي حقنا على ذي حِجىً»!! ويروي عن الباقر قوله: «نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في عدونا، وربع فرائض وأحكام، وربع سنن وأمثال. ولنا كرائم القرآن»، وفي لفظ آخر: «نزل =

وقال أيضًا: «أما الكلام في زيادته ونقصه ـ أي القرآن ـ فمما لا يليق به أيضًا، **لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها**. وأما النقصان فالظاهر أيضًا من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى، وهو الظاهر في الروايات»[(١)].

وقال الشيخ الصدوق: «اعتقادنا أن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدّفّتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مئة وأربع عشرة سورة.. ومن نسب إلينا أننا نقول أكثر من ذلك فهو كاذب»[(٢)].

وعلى أية حال، فقد انتهى علماء الشيعة الإمامية المعاصرون ـ فيما يبدو ـ أو بعضهم على الأقل إلى التسليم بحفظ القرآن الكريم من التحريف، وصيانته عن النقصان، وسائر ضروب التبديل والتغيير. قال الخميني: «إن الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه، قراءةً وكتابةً، يقف على بطلان تلك المزعومة! وما ورد فيه من أخبار ـ حسبما تمسكوا ـ إما ضعيف لا يصلح للاستدلال به، أو

=

القرآن أثلاثًا، ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام» تفسير العياشي (١/ ٩) و الكافي (٢ / ٦٢٧)، وانظر بحثًا لنا بعنوان: «سلامة القرآن من التحريف وتنزيهه عن الباطل» حولية كلية الشريعة بجامعة قطر، ص٥٧ ـ ٩٣، العدد التاسع عشر، ٢٠٠١م.

(١) مقدمة تفسير مجمع البيان للطبرسي (للحجة محمد جواد البلاغي)، ص٢٦.

(٢) اعتقادات الصدوق ص١٠١ ـ ١٠٢ (مخطوطة رسالة الاعتقادات من مجموعة بدار الكتب المصرية رقم ب٢٣٩٣٤) نقلاً عن الأستاذة الدكتورة عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية ص١١٨، دار الثقافة، الدوحة، ١٤١٢هـ.

مجعولٌ (أي موضوع مكذوب) تلوح عليه أمارات الجعل، أو غريب يُقضى فيه بالعجب! أما الصحيح منها فيرمي إلى مسألة التأويل والتفسير، وأن التحريف إنما حصل في ذلك، لا في لفظه وعبارته» ثم قال: «إن الكتاب العزيز هو عين ما بين الدُّفتين، لا زيادة فيه ولا نقصان»[(١)] مع الإشارة إلى أن هـذا الذي قاله الخميني سبق لصاحب كتاب فصل الخطاب.. أن ناقشه ورده، وبخاصة مسألة التأويل والتفسير[(٢)].

وقد يكون من الغريب حقًا ـ في هـذا السياق ـ أن يثني الخميني الثناء كله على النوري الطبرسي، مع تأكيده ـ أي الطبرسي ـ وقوعَ التحريف في القرآن، ونفي الخميني له! فقد وصف الخمينيُّ النوريَّ هـذا بقوله: «المولى العالم الزاهد العابد الفقيه المحدث الميرزا حسين النوري نوّر الله مرقده الشريف»..[(٣)]!! اللَّهم إلا أن يكون هـذا الذي قاله الخميني في القرآن تقية لا حقيقة، والله تعالى أعلم بالنفوس والسرائر. ونحن لا يسعنا إلا تصديق الناس فيما يقولون أو يكتبون.

أما الفرق في طريقة تقسيم السور التي أشار إليها أبو جعفر الطوسي فهو فـرق نظري، لأن نسخ المصاحف المتداولة عند جميع الفرق الإسلامية، لا تختلف عـن مصاحف جمهور المسلمين أو المسلمين السنة فيما نعلم.

وفي جميع الأحوال: يكفي إنْ زعم لك زاعم أن لديه «سورة مجهولـة» أو نصًّـا مفقودًا، أن تلاحظ ـ فقط ـ الفرق بين التراكم الركيك مـن العبـارات، والكلمـات

---

(١) تهذيب الأصول (تقريرات أبحاث الإمام الخميني)، للشيخ جعفر السبحاني، (٢/ ١٦٥).

(٢) ص٣٣٥.

(٣) الأربعون حديثًا ص٢١، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، تعريب محمد الغروي، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

المسروقة من القرآن نفسه، وبين أناقة الأسلوب القرآني وتناسقه!! وإذا كان الناقص أو الساقط المزعوم آية واحدة، فإن النظر في السياق الذي وُضعت فيه أو أضيفت إليه، سرعان ما يظهرها «آية» مقحمة يأباها المعنى والمبنى جميعًا، وكذلك الحال في الكلمات التي أضيفت أو أبدلت بكلمات أخرى! **ومن هنا فإن مثل هذه المزاعم لم توجد إلا بعد مضي نحوٍ من ثلاثة قرون على عصر نزول القرآن الكريم**، حين بَعُدَ الناس عن سليقة اللغة وأسباب البيان بوجه عام، كما أن هذه المزاعم لم تلقَ أو تجد رواجًا إلا عند نفر من الأعاجم الذين قاوموا عوامل الأسلمة والاستعراب في القرنين الثالث والرابع الهجريين. ويمكننا وصف روايات التحريف والتنقيص هذه ـ وقد قمنا بمراجعتها ـ بأنه قد اجتمع فيها، أو لأصحابها أمران، **هما الغباء والعجمة**.

علي يؤيد عمل عثمان رضي الله عنهما:

وقد فات أصحاب هذه المزاعم أن سيدنا عليًّا لا يرضى بهذا الاختلاق ـ وحاشاه من ذلك ـ بل أرادوا الطعن في نهاية المطاف بعلي بن أبي طالب نفسه ـ كرّم الله وجهه ورضي الله عنه ـ، وأرادوا مخالفته ومناقضته ومناقضة الإسلام والقرآن جميعًا.. روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غَفَلَة الجُعفي[1] قال: «سمعت علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ يقول: يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلوّ في عثمان وقولكم حرّاق مصاحف! فوالله ما حرقها إلا على ملأٍ منّا أصحاب رسول الله ﷺ » وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب رضي

(١) توفي نحو سنة ٨٠ هـ. انظر الإصابة ٣/ ٢٢٧ تحقيق محمد علي البجاوي، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٢٧٨ حيدر أباد ١٣٢٥هـ

الله عنه: «لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل ما فعل» وفي رواية أخرى عن سويد قال: سمعت عليًا يقول: «رحم الله عثمان لو وليت ما وُلِّي عثمان لفعلت ما فعل في المصاحف[(١)]».

وأخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح عن مصعب بن سعد قال: «أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك»، وقال: «لم ينكر ذلك منهم أحد[(٢)]».

وروي عنه أيضًا بإسنادين صحيحين قوله: «فسمعت بعض أصحاب محمد يقول: قد أحسن» وقوله: «فما رأيت أحدًا عاب ذلك عليه»[(٣)].

القول بالتحريف طعن بعليّ:

ومعنى ذلك أن الدواعي لفعل عثمان ذي النُّورين كانت قائمة، وأن ما فعله لم يتم في الخفاء، ولـكن بعلم الصحابة ومشورتهم، ولو كان سيدنا علي يعلم أن في شيء من ذلك إسقاطًا أو تجاوزًا لما تجاوز هو عنه!.. ولئن جاز عليه ـ وحاشاه من ذلك ـ أن يتجاوزه وهو في صف المعارضة، كما تصوّره بعض الروايات، فإن

---

(١) انظر: تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني ص٤٦، و البرهان للزركشي (١ / ٢٤٠)، و مقدمتان في علوم القرآن ص٤٦، و تفسير القرطبي (١ / ٥٣)، و مناهل العرفان (١/ ١٥٥)، وانظر الرواية الأولى مطولة عن سويد، وما يتصل بتصحيح إسنادها، والقول في الروايات الأخرى: كتاب المصاحف لابن أبي داود، تحقيق الدكتور محب الدين واعظ (١ / ٢١٣ ـ ٢١٤)، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير، ج٧ ص٢١٨.

(٢) المصاحف (١/ ١٨٦).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

من غير الجائز أن يشتغل وهو خليفة للمسلمين **كافّة** لمدة تقرب من خمسة أعوام (أربعة أعوام وتسعة أشهر)[١] بمقاتلة من خالفوه في السياسة عن تصحيح القرآن ومقاتلة الذين رضوا بتحريفه وتبديله! بل إنه كان يتلوه على هـذا الوجه ويؤمّ الناس به في الصلاة. وفحوى ذلك: أن أمير المؤمنين عليه السلام أقرّ مصحف الخليفة الراشد الثالث رضي الله عنه برسمه وتلاوته؛ كما أقره سائر الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، وإن من أعجب العجب أن يقال: إن عليًا عنده مصحف مغاير- أي لهذا المصحف- قد جمعه بنفسه أو لنفسه بعد وفاة النبي ﷺ، وامتنع من دفعه لخليفة المسلمين! كما أنه لم يُظهره حين أضحى هو الخليفة! ولم يؤثر عن أي مخلوق- من الإنس أو الجن- أنه اطلع عليه أو قرأ فيه طيلة أيام خلافته رضي الله عنه. وإذا كان كتمان العلم – في أي مسألة- محرّمًا، بل لا خلاف على تحريمه، فكيف بمن يكتم كتاب الله تعالى، أو القرآن جميعه، وليس آية واحدة منه أو بضع آيات، أو سورة أو بضع سور! وهو إمام المسلمين الذي يؤمهم بالقرآن في صلاة الفجر وسائر الصلوات؟ أي جهل هذا؟ بل أي جهل وسخف وبهتان! وبخاصة أنه لم يفعل ذلك، أي لم يظهر هذا المصحف المزعوم، بوصفه القرآن الصحيح، في مقابل مصحف الصحابة الذي زعم الزاعم أنه محرَّف أو منحول؟!! ألا لعنة الله على الكاذبين.

---

(١) بويع لسيدنا علي بالخلافة يوم الجمعة في ٢٥ من ذي الحجة عام ٣٥هـ، واغتيل شهيدًا على يد عبد الرحمـن ابن مُلجَم الخارجي في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ. وكان استشهاد سيدنا عثمان يوم الجمعة في ١٨ من ذي الحجة عام ٣٥هـ.

مصحف عثمان وعليّ:

بل إن علينا أن نعدّ عليًّا من المشاركين في توثيق هـذا المصحف، لأن عدّ آيات القرآن الكريم ـ في المصاحف العثمانية المتداولة في كل بقاع الأرض ـ اتُّبع فيها طريقة الكوفيين، وهـؤلاء رووها ـ أي هـذه العِدّة ـ عن أمير المؤمنين الذي كان بين ظهرانيهم عليه السلام[(١)]. وربما أخذوا ذلك من تلاوته وطريقته في الوقوف على رءوس الآي، أو من تعليمه وإرشاده ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ بل إننا لا نرتاب في أنهم أخذوا ذلك عنه ـ كرم الله وجهه ـ لأن الذي روى هـذه العدّة عنه هو أبو عبد الرحمـن السّلَمي، الذي كان سيدنا عثمان قد بعثه مع مصحف الكوفة مقرئًا له، وقد لزم في الوقوف على رؤوس الآي قراءةَ أمير المؤمنين في الكوفة عليه السلام. حتى إن من حقنا ـ وقد يكون من واجبنا ـ أن ننسب مصحف عثمان.. إلى

(١) انظر: التعريف الملحق بآخر مصحف المدينة النبوية ـ على سبيل المثال ـ قالت اللجنة المشرفة على طبع هـذا المصحف الشريف: «واتبعت في عد آياته طريقة الكوفيين عن أبي عبد الرحمـن عبد الله بن حبيب السُّلَمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، على حسب ما ورد في كتاب ناظمة الزُّهر للإمام الشاطبي، وغيرها من الكتب المدونة في علم الفواصل. وآيُ القرآن على طريقتهم ٦٢٣٦ آية». صفحة (ب). وانظر تفسير القرطبي (١ ٦٥). وهم يعدّون البسملة آية من كل سورة. وهـذا مروي كذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام؛ أخرج الدارقطني بسند صحيح عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن السبع المثاني، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقيل له: إنما هي ست آيات، فقال: بسم الله الرحمـن الرحيم آية. انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ٣٧٠)، الدارقطني في سننه ١/ ٣١٣ (٤٠)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٥ (٢٢١٧).

وبعد أن ذكر السيوطي جملة من الأحاديث والآثار حول عدّ البسملة آية من كل سورة؛ قال: «فهـذه الأحاديث تعطي التواتر المعنوي بكونها ـ أي بسم الله الرحمـن الرحيم ـ قرآنًا منزلاً في أوائل السور» الإتقان (١/ ٣٧١). تحقيق الدكتور قيسية.

عثمان وعلي معًا رضي الله عنهما، فنقول: مصحف عثمان وعلي رضي الله عنهما. هـذا، وكنا قد نقلنا ـ في وقت سابق ـ ما ذكره الحاكم الجشمي في تفسيره عن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ت٢٩٨هـ) «أنه وجد مصحف علي عليه السلام عند عجوز من آل الحسن، فكان على ما في أيدي الناس»[(١)].

ثم وقفنا على تفصيل هـذا الخبر في بعض المصادر الزيدية؛ يرويه الإمام الهادي عن جده الإمام القاسم بن إبراهيم الرسّي (١٦٩ ـ ٢٤٦هـ). وفيه أن العجوز المسنّة من ولد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأن الإمام القاسم ـ عليه رضوان الله ـ قرأه «فإذا هو هـذا القرآن الذي في أيدي الناس حرفًا حرفًا، لا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا غير أن مكان: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] «اقتلوا الذين يلونكم من الكفار» قال: وقرأت فيه المعوذتين»[(٢)].

قال شمس الدين الأصفهاني في المقدمة الخامسة من تفسيره: «كان عليٌّ طول أيامه يقرأ مصحف عثمان ويتخذه إمامًا»[(٣)].

قلت: ونحن إذا لحظنا عمل أبي بكر وعمر في جمع القرآن من قبل؛ فـإن علينـا أن نقول: **إن مصحف علي وعثمان هو مصحف الخلفاء الراشدين، ومصحف أئمة الإسلام وسائر المسلمين**.

---

(١) راجع كتابنا: الحاكم الجشمي ص٣٥٦.

(٢) انظر: مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم الرسّي (١/ ١٣٦ ـ ١٣٧) (مقدمة التحقيق) دار الحكمة اليمانية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٣) انظر: المقدمة السادسة من مقدمات تفسير التحرير والتنوير للعلاَمة محمد الطاهر ابن عاشور (١/ ٥٢) دار سحنون، تونس.

ولا بد من الإشارة هنا إلى الإمام المقرئ أبي عبد الرحمـن السُّلَمي (عبد الله ابن حبيب بن رُبَيَّعة ـ بالتصغير ـ)، فقد استقر في الكوفة، وجلس في مسجدها الأعظم لتعليم الناس القرآن، ولم يزل يقرئ بها أربعين سنة، إلى أن توفي عام ٧٤هـ، وكان قد قرأ على أميري المؤمنين عثمان وعلي رضي الله عنهما. وقيل: تعلّم القرآن من عثمان، وعرضه على عليّ، وقال رحمه الله: «ما رأيت ابن أنثى أقرأ لكتاب الله من علي رضي الله عنه» وقال أيضًا: «**ما رأيت أقرأ من علي رضي الله عنه**». وقد صحب أمير المؤمنين عليًّا رضي الله عنه بالكوفة بعد مسيره إلى العراق سنة ست وثلاثين، حتى استشهاده في رمضان عام ٤٠هـ، فحضر معه معركة صفين، وكان من خاصة أصحابه، قال ابن مجاهد: كان أبو عبد الرحمـن يقول: «قرأت على أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه القرآن كثيرًا، وأمسكت عليه المصحف، فقرأ عليَّ، وأقرأت الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما حتى قرءا عليَّ القرآن..» ولهـذا وصف محمد بن حبيب ـ صاحب كتاب المحبّر ـ أبا عبد الرحمـن بأنه معلّم الحسن والحسين رضي الله عنهما. وكان يُخبر من يقرأ عنده بأعداد الآيات، وقد أخذ أهل الكوفة عدد الآيات في السور القرآنية عن أبي عبد الرحمـن السُّلَمي، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه[1]. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] وكذب الزائغون والمرجفون!

---

(١) انظر: الكتاب الموضح لابن أبي مريم (١ /١١٨) و معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي، ت شعيب الأرنؤوط (١ ١٥)، و تاريخ ابن كثير (٩ / ٧). و غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١/ ٥٤٦). وانظر بحثًا قيمًا للأستاذ الدكتور غانم قدوري الحمد بعنوان: أبو عبد الرحمـن السلمي وجهوده في الإقراء وتعليم القرآن الكريم: المؤتمر القرآني الأول ـ عمان ١٤٢٧هـ.

٧ ـ وأخيرًا، فإننا لا نشك ـ بهذه المناسبة ـ في أن الذين ينسبون القرآن إلى التحريف والتبديل، أو إلى الزيادة والنقصان، يخرجون من ساحة الإسلام والإيمان، إلى مستنقع الكفر والضلال والبهتان؛ لتكذيبهم بهذا التكفل الإلهي الذي حفظه من ذلك[(١)] ! ولأن معنى قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] «**منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها، أو يعارضوها بمثلها**» كما قال بعض العلماء[(٢)] والله تعالى أعلم.

سادسًا ـ رسم المصحف أو الرسم العثماني:

يراد بالرسم: كتابة الحروف الهجائية التي تدل على الكلام، ويراد بالرسم العثماني: رسم القرآن أو كتابته بالطريقة التي تمت على عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي الطريقة التي اتبعتها اللجنة الرباعية المتقدمة التي وُكل إليها أمر استنساخ مصاحف الأمصار.

وإذا كان الأصل في المكتوب ـ كما يقال ـ أن يوافق المنطوق تمام الموافقة من غير تغيير، فإن المصاحف العثمانية لم تجر على هذا الأصل، فوُجدت بها حروف كثيرة جاء رسمُها غيرَ موافق لأداء النطق، بحسب بعض قواعد خاصة في الخط والهجاء. وتعود هذه القواعد الخاصة جميعًا إلى الحذف والزيادة والبدل والوصل، وما فيه قراءتان فيكتب على إحداهما[(٣)] أو على هيئة تحتملهما[(٤)] مما

---

(١) راجع: القرطبي (١/ ٨٤).

(٢) ويمكننا القول: إنهم كذّبوا الله تعالى، من جهة، وكذبوا عليه ـ فيما حرّفوه وأضافوه ـ من جهة أخرى. وهذا الكذب وحده يسقط عدالتهم ويطعن في مروياتهم.

(٣) انظر: مفتاح السعادة (٢/ ٢٢٩)

(٤) قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. فقد رسمت

=

أسهب في شرحه وضرب الشواهد القرآنية عليه، كثيرٌ من العلماء، منهم السيوطي في **الإتقان**، والزركشي في **البرهان** الذي أفاض في ذلك تحت عنوان «اختلاف رسم الكلمات في المصحف والحكمة فيه»[(١)] إلى جانب العلماء الآخرين الذين أفردوا هـذا الفن بالتأليف، ومنهم أبو عمرو الداني في كتابه المقنع، وأبو العباس المراكشي في كتابه عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل وغيرهما.

وقد بقي هـذا الرسم العثماني سنَّة متبعة إلى يوم الناس هـذا، لا يغير ولا يبدل، وإلى ذلك ذهب علماء المسلمين على مدى العصور، فكرهوا أو حرّموا تغييره تبعًا لتغير رسوم الهجاء باختلاف الزمان والمكان؛ وزيادة في الحيطة والخشية والحذر من أي تغيير يصيب النص القرآني ولو في ناحية شكلية محضة؛ سئل الإمام مالك: «هل يكتب المصحف على ما جدّ (أو: أحدث) الناس من الهجاء؟ فقال: لا.. إلا على الكَتْبة الأولى[(٢)]. وقال الإمام أحمد بن حنبل: «يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألفٍ أو غير ذلك»[(٣)].

=

كلمة ﴿تقاة﴾ في الآية الكريمة هـكذا: ﴿تُقَىٰةً﴾ التي ورد فيها قراءاتان عشريتان: قرأ حفص عن عاصم والباقون جميعًا ـ عدا يعقوب ـ ﴿تُقَىٰةً﴾ وقرأ يعقوب وحده: (تقية)، وتدل الآية على أنه يجوز للمسلم إذا كان بين قوم كافرين يخشى منهم على نفسه أو عرضه؛ أن يظهر الموالاة للكافرين، وهو يبطن الحب لله تعالى ولرسوله ولجماعة المؤمنين. ولا يوجد في الكتاب والسنة (تقية) غير هـذه التي تكون من المسلم مع قوم كافرين، وفي باب (إظهار) الموالاة وعدم العداوة.. وغالبًا ما يكون المسلم بين ظهرانيهم أو بين أيديهم، والله تعالى أعلم.

(١) البرهان (١/ ٢٨٠)، وانظر: الإتقان (٢/ ٤٧١ ـ ٤٨٠)، و مناهل العرفان (١/ ٣٦٢).

(٢) رواه الداني في المقنع ثم قال: ولا مخالف له من علماء الأمة. الإتقان (٢/ ٤٧٠)، دار إحياء العلوم، بيروت.

(٣) المصدر السابق، وبه أفتت لجنة الفتوى بالأزهر. راجع كتاب: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص١٧.

أما صور اختلاف الرسم العثماني عن «الرسم الإملائي» ـ أو بعبارة أدق: الرسم الإملائي الذي تعارف عليه الناس أو استحدثوه فيما بعد، كما جاء في السؤال الموجه إلى الإمام مالك ـ فكثيرة، ذكر ابن قتيبة أن من أشهرها حذف ألف التثنية: قال «رجلن» ـ قال رجلان ـ وكتابة: «الصلاة، والزكاة، والحياة» بالواو: الصلوة، والزكوة، والحيوة، وكتابة «الربو» ـ الربا ـ بالواو. كما كتبوا ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المعارج: ٣٦] بلام منفردة. وكتبوا ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١] بزيادة ألف، وكذلك ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ [التوبة:٤٧] بزيادة ألف بعد لام ألف. قال ابن قتيبة: «وهـذا أكثر في المصحف من أن نستقصيه» ونحن ـ في هـذه العجالة ـ أولى بهـذا القول من ابن قتيبة. مع الإشارة إلى عدم اطراد رسم الكلمة الواحدة في بعض الأحيان، فكلمة ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] كتبت في سورة يوسف بالألف، ورسمت في سورة المؤمن (غافر) ـ الآية ١٨ ـ بالياء. ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ وعلّل بعض المفسرين هـذا الاختلاف بأن معنى الذي في يوسف (عند) والذي في غافر (في) فلذلك فرق بينهما في الكتابة![1].

(١) وقالوا في زيادة الألف في ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع! وفي زيادة الياء في (بأييد) ـ من قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات] إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية. وهـذا وأمثاله لا أصل له إلا التحكم المحض، كما قال ابن خلدون، المقدمة ص٣٧٨.

قلت: والأمر لا يعدو ما كان معهودًا من أساليب الكتابة عند قريش والعرب بوجه عام، ولهـذا فإن عثمان حين رأى اللجنة قد كتبت ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ و ﴿وَلَأَأَوْضَعُوا﴾ قال رضي الله عنه: «لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هذيل لم تكن هـذه الحروف الزائدة!» فسأله الكتبة في تدارك ذلك، فقال عثمان: «**دعوها فإن العرب ستقيمها بألسنتها**» فأشار بهـذا إلى أن المحفوظ في الصدور يُقرأ بدون هـذه الحروف الزائدة، فلا إشكال في بقائها في الرسم: قال الأستاذ حفني ناصيف: «وكانت =

والذي يمكن أن نختم به هـذه الفقرة، تأكيدًا لما ذهب إليه عامة العلماء من كراهية تغيير هـذا الرسم، أن الذي رفضه العلماء خلال العصور هو: **إخضاع الرسم العثماني للتغيير أو التطور الذي يصيب قواعد الرسم والإملاء، لا ترك ذلك الرسم مخالفًا لهـذه القواعد**.. لأن المصاحف العثمانية لم تكتب في الأصل بغير الرسم والإملاء الذي كان قائمًا وقت تدوينها، أو التي وضعت عند تدوين المصاحف[(١)] فدعوى مخالفة الرسم العثماني لقواعد الإملاء.. هـكذا بإطلاق، أمر غير صحيح.

أما كراهية إخضاع هـذا الرسم للتطوير والتعديل الذي يطـرأ مـع الأيـام فقـد علمت سببه، وهو لذلك أمر يجب تأييده.. ولا تخلو لغة من اللغات الحيـة اليـوم من حروف تكتب ولا تلفظ، أو من حروف تكتـب عـلى وجـه وتلفـظ ـ في بعـض الكلمات ـ على وجه آخر.. إلخ. وهي أمور يصـيبها التلميـذ عـن طريـق الـتعلم.. والقرآن عماد العربية وكتابها.. والأمر في لغته التعلـيم، وفي القـرآن الكـريم نفسـه **المشافهة والتلقي** كما قلنا أكثر من مرة.

أما الدعوة إلى تغيير هـذا الرسم تحت شعار: **المعاصرة والتسهيل**، فأعجب ما فيها ـ وعجائبها كثيرة لا مجال هنا للإفاضـة فيهـا وفي الـرد عليهـا وتقويمهـا ـ أن تكون في عصر الوسائل التعليمية المتنوعة الكثيرة والمتقدمة! وقد حُفـظ القـرآن،

=

ثقيف أبرع أهل الحجاز في الكتابة، كما أن هذيلاً كانت من أبرعهم في الفصاحة». انظر كتاب: علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي رحمه الله ص١٢٧. دار القلم بدمشق. وراجع فيما سبق الهامش (١) ص١٧١.

(١) قال القرطبي: «وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر» (١/ ٥٤).

وتعمم رسمه، وبقي اللسان العربي وقواعد الإملاء.. وقواعد النحو طيلة هذه القرون الخمسة عشر! وبدون تلك الوسائل التعليمية الحديثة.. فهل يستقيم عند دعاة المعاصرة هذه ـ لا مطلق المعاصرة والحداثة بالطبع ـ أن يقال فيهم وفي أبناء جيلهم ما لا نرتضيه لهم من الكسل والضعف وغير ذلك.

وعلينا أن نذكر أخيرًا أن القرآن الكريم الذي منح اللغة العربية الثبات والخلود، وحماها من التفكك والتحلل ـ كما قدمنا ـ وفّر علينا العناء الكبير في المقارنة (والترجمة) وأسباب التطور ووجوه التحول والانتقال من اللغة القديمة إلى الحديثة أو المعاصرة؛ أي في إطار اللغة الواحدة، كما هي الحال في اللغات الأخرى، أو في الإنجليزية على سبيل المثال. وفي المقابل فإن الأمر لا يحتاج ـ في اللغة العربية والقرآن الكريم ـ إلى أكثر من الوقوف على الفروق الطفيفة أو الهامشية بين الرسم العثماني القديم، والرسم الإملائي الحديث أو المعاصر!

أما الدعوة إلى كتابة القرآن **بالحروف اللاتينية**، فإنها لا تستحق الوقوف عندها أو الإشارة إليها، وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بأنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥] وجَعَله معجزًا بهذا اللسان، بل جعله معجزة النبي الكبرى، ودليله على النبوّة ـ كما سنشرح ذلك فيما بعد ـ ويَسَّر أسباب حفظه عن ظهر قلب، حتى وجدنا كثيرًا من الذين لا يحسنون اللسان العربي، بل لا يعرف بعضهم حروف هذه اللغة، يحفظونه ويتقنون تلاوته.. أي أن القرآن العربي يحفظه العجم أو غير العرب؟ فكيف نجعل حرفه غير عربي؟ وهل في وسع الحروف اللاتينية أن توازي أو يُعبَّر بها عن جميع حروف العربية وأصواتها؟!

وربما كان استفتاح تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بحروف التهجي – العربية بالطبع – للإشارة إلى أن القرآن المؤلف من هذه الحروف لا يعد قرآنًا إذا كتب أو قرئ بغيرها من حروف اللغات الأخرى.

ومن الملاحظ ـ بهذه المناسبة ـ أن كل الدعوات التي ظهرت في التاريخ والتي قصد منها التلاعب بالنص القرآني، في ألفاظه ومبانيه، أو في دلالاته ومعانيه.. ولدت ميتة! أو ماتت بعد وقت قصير! ويأبى الله إلا أن يتم نوره، والحمد لله رب العالمين.

سابعًا ـ شكل المصحف ونقطه وتحزيبه:

(**المصاحف في طور التحسين والتجويد**):

تم جمع القرآن ونَسْخ المصاحف في عهد الخلفاء الراشدين وعلى يد الصحابة الأكرمين، أما شَكْلُ المصحف ونَقْطُه فقد تمّ في عهد التابعين، ويروى أن عبد الملك بن مروان ـ الخليفة الأموي ـ هو الذي أمر به وعمله[(١)] «فتجرد لذلك الحجاج بواسط، وجدّ فيه، وزاد تحزيبه، وأمر ـ وهو والي العراق ـ الحسن البصري ويحيى بن يَعمَر بذلك»[(٢)] وهما من كبار التابعين، وكان ثانيهما وهو: أبو سعيد يحيى بن يعمَر القيسي العدواني، عالمًا بالقرآن والنحو، وكان شيعيًا يقول بتفضيل آل البيت عليهم السلام دون تنقيصٍ لأحد من الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك على النحو المعهود من التشيع الذي كان يمثل وجهًا من وجوه التعددية في المجتمع الإسلامي في ذلك الحين.

---

(١) يضاف هذا إلى فضل آخر للأمويين، وهو أن أبا سفيان والد معاوية، وجدّه حربًا، نقلا من الحيرة الخط إلى جزيرة العرب، كما يقول العلامة محمد كرد علي. انظر كتابه: دمشق مدينة السحر والشعر ص١٥، دار الفكر بدمشق، ١٩٨٤. وقد وصف رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق «كرد علي» هذا الفضل بأنه «**فضل على العرب لا ينسى على وجه الدهر**».

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية، (١/ ٥٤)، طبعة قطر.

ويبدو من مجموع الروايات حول شكل المصحف ونقطه ـ أو حول نقطه وإعجامه[١] ـ أن هـذا العمل أسهم فيه كل من: أبي الأسود الدؤلي، ونصر بن عاصم الليثي، حتى كان يقال له: نصر الحروف. وذكر الزبيدي أن ابن سيرين كان له مصحف نَقَطَه له يحيى بن يعمر[٢].

ولم يكره جمهور العلماء نقط المصحف وشكله، بل إنهم استحبوا ذلك كما يذكر الإمام النووي، قال رحمه الله: «قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيفه» وحتى الذين كرهوا النقط، مثل الشعبي والنخعي، «فإنما كرهاه في ذلك الزمان خوفًا من التغيير فيه، وقد أمن ذلك اليوم فلا منع»[٣].

وهـذا هو السبب في عدم كراهتهم بعد ذلك للتعشير، أي وضع علامة بعد كل عشر آيات. والتحزيب؛ أي تقسيم النص القرآني إلى أجزاء وأحزاب؛ قال أبو عمرو الداني: أطبق المسلمون في سائر الآفاق على جواز ذلك. وهـذه الأحزاب الستون هي المعهودة الآن في الطبعات المشرقية والمغربية للمصحف الشريف، ويضم كل حزبين منها ـ في الطبعات المشرقية ـ جزء واحد، بمجموع ثلاثين جزءًا[٤].

---

(١) النقط: رسم أصوات المد والسكون لضبط نُطق الكلمات. والإعجام: النقط الذي يفرق بين الأحرف المتشابهة. وصار يدعى بعد ذلك نقطًا، أما النقط والضبط بالحركات فصار يدعى شكلاً أو تشكيلاً.

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن ص١٦٢، طبع وزارة الأوقاف بدولة قطر.

(٤) تم تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءًا أخذًا من أمر النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بأن يقرأ القرآن في شهر، قال عليه الصلاة والسلام: (اقرأ القرآن في شهر) الحديث.

=

وبقي المسلمون يتداولون المصاحف المكتوبة بخط اليد طيلة قرون، وقد اتفق العلماء ـ كما يقول الإمام النووي ـ «على استحباب كتابة المصاحف، وتحسين كتابتها وإيضاحها، وتحقيق الخط دون مَشْقِه وتعليقِه»[(١)] وفي وسعنا أن نعزو تطور الخط العربي نفسه إلى تطور كتابة المصاحف الشريفة، بمعنى أن الرغبة في تحسين كتابة المصاحف وتجويدها يومًا بعد يوم، كان من أهم أسباب ارتقاء هـذا الفن من الفنون الجميلة في الثقافة العربية الإسلامية.

لقد بدأت كتابة المصاحف أول ما بدأت ـ بعد عصر الجمع الذي تحدثنا عنه ـ على الرق بالخط المكي والخط المدني المائل الذي اصطلح على تسميته بالخط الحجازي، ثم كتبت بالخط الكوفي في أواخر القرن الأول الهجري، وعلى الرغم من أن هـذا النوع من الخط بدأ يتنوع في العصر العباسي حتى أربى على خمسين نوعًا (من أشهرها: المحرَّر، والمشجَّر، والمربَّع، والمدوَّر..) فإنه بقي هو السائد في كتابة المصاحف حتى جاء الوزير والخطاط أبو علي محمد بن مقلة (ت٣٢٨هـ) وأخوه عبد الله الحسن (ت٣٣٨هـ) فأبدعا خط النسخ، وتمت على أيديهما هندسة هـذا الخط وخط الجليل وفروعهما[(٢)]؛ على الأشكال التي نعرفها

=

أخرجه البخاري ومسلم: (٥٠٥٤ و١١٥٩) وقسم كذلك إلى ستين حزبًا (كل جزء قسم إلى حزبين) وقُسِّم الحزب إلى أربعة أرباع.. للمساعدة على حفظه.

(١) التبيان ص١٦٣، والمشق: مدّ الحروف. ويراد بقلم التعليق عند الخطاطين: الخط الفارسي ـ الذي يُدعى كذلك بالانسيابي ـ وجاء اختراع هـذا النوع في عصر لاحق على إبداع خط النسخ، وكان استعماله عامًا في أواسط آسيا وفارس.

(٢) انظر دكتور الطاهر أحمد مكي: دراسة في مصادر الأدب ص٥٤، ط٥، دار المعارف، ١٩٨٠.

الآن، فصار هو الخط الغالب في كتابة المصاحف[١]، وبخاصة بعد التحسين الذي أضافه إليه ابن البوّاب (علي بن هلال ت٣٩١هـ) مبدع خط الثُّلُث.

ويمكن عدّ **الحافظ عثمان بن علي العثماني** نابغة الخطاطين جميعًا في كتابة المصاحف بهـذا النوع من الخط الجميل، وبقيت المصاحف التي كتبها ـ وعِدَّتُها خمسة وعشرون ـ أشهر المصاحف وأكثرها تداولاً في عصره، ثم في عصر الطباعة وحتى وقت قريب. وقد اختير رحمه الله معلّم خطٍّ لكل من السلطان أحمد خان الثاني (خليفة من ١٦٩١م إلى ١٦٩٥م) والسلطان مصطفى خان الثاني (خليفة من ١٦٩٥ إلى ١٧٠٣م)[٢].

وتمتاز المصاحف التي كتبها برشاقة الحرف وحيويته وليونته، إذا ما قيس بحروف سائر المصاحف[٣].

«أما الأندلسيون والمغاربة فلم يسلكوا نهج ابن مقلة وأصحابه، فظلوا يكتبون على طريقة الخط الحجازي إلى الآن، مع شيء من التعديل، وأبدعوا داخل هـذا الإطار فنونًا منه.. ويختلف أهل المغرب عن أهل المشرق في إعجام الفاء والقاف، فهم ينقطون الفاء بنقطة من أسفلها، والقاف بنقطة واحدة من أعلاها»[٤].

---

(١) يمثل المصحف الذي كتبه علي بن شاذان الكوفي، عام ٣٦١هـ ٩٧٢م، مرحلة الانتقال هـذه.

(٢) دكتور الطاهر أحمد مكي، ص٥٢.

(٣) ربما أمكننا القول ـ في هـذا السياق ـ إن حروف الحافظ عثمان في الكتابة أشبه ما تكون ـ وكُلٌّ في بابه ـ بصوت المقرئ الشهير الشيخ محمد رفعت في القراءة، ففي كليهما جمال ووهج وروحانية، وطرف من التفسير.

(٤) دكتور الطاهر أحمد مكي، ص٥٤.

ولم تكن عناية الخطاطين **بتـزيين المصـاحف وزخرفتهـا** بأقـل مـن عنـايتهم بخطّها وكتابتها، بل إن هـذه العناية أنتجت (فنًّا) إسلاميًا متميزًا عرف بفـن تـزيين المصاحف. ويؤرخ بعض الباحثين بالحقبة المملوكيـة بوصـفها محطـة بـارزة في مسيرة فنون الزخرفة للمصاحف. وقد قامت هـذه الزخرفـة عـلى أسـس هندسـية مبنية على الأشكال الهندسية الملوّنة بالأزرق والذهبي، على خلفية مـن الزخـارف النباتية المُوَرَّقة ذات الإيقاعات الموسيقية المفتوحة..

ثم عُني السلاطين العثمانيون بخط المصاحف وزخرفتها عـلى نحـوٍ فـاق مـا كان عليه الحال أيام المماليك. وما تزال المكتبـات الوطنيـة في العديـد مـن دول العالم تحتفظ بنماذج من المصاحف العثمانية ـ نسـبة إلى بنـي عثمـان ـ المزخرفـة تبين الإسهامات الكبيرة للخطاطين العثمانيين العظام في فنـون الخـط والزخرفـة، مع ملاحظة ابتعاد هـذه الزخرفة عن الزخارف الهندسية، وتركيزها عـلى التوريـق والأشكال النباتية المرسومة بدقة كبيرة.

أما طبع المصحف في العصر الحديث، أو بعد ظهور المطابع العربية، فقد تمّ طبع أول مصحف في مدينة البندقية عام ١٥٣٠م، ولـكن البابا أصدر أمره بإحراق جميع النسخ خشية تأثيرها في عقائد رعاياه من المسيحيين[(١)]. ثم طبع في هامبورغ عام ١٦٩٤م، ثم في مدينة بادو سنة ١٦٩٨م. ثم ظهرت أول طباعة إسلامية

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسة في مصادر الأدب ص٧٣، نقلاً عن:
.Montero vills, Jose' de: Mahoma, Su vida, tom 11, p.345, Madrid 1926

خالصة للقرآن في سانت بطرسبورغ في روسيا عام ١٧٨٧م أمر بها مولاي عثمان. ثم قدمت إيران طبعتين حجريتين، الأولى في طهران عام ١٨٢٨م والثانية في تبريز عام ١٨٣٣. ثم طبع في الهند عدة طبعات. ثم أخذت الآستانة ـ وكانت حاضرة البلاد الإسلامية ـ على عاتقها العناية بهـذا الأمر من عام ١٨٧٧م، وكان ذلك في مطبعة الآستانة التي بدأت بطبع الكتب ـ الأدبية والعلمية ـ عام ١٧٢٨.

وأخيرًا يمكن القول: إن المصحف الذي أشرفت على طبعه مشيخة الأزهر الشريف بأمر من الملك فؤاد عام ١٣٤٢هـ ١٩٢٣م[1] (برواية حفص عن عاصم) يعد المصحف الأشهر، لأنه أضحى عمدة كتّاب المصاحف **في المشرق**، وكان يدعى مصحف الملك، ثم صار يعرف بمصحف دار الكتب.

أما في **المغرب** فقد أضحى المصحف الذي طبع بأمر الملـك الحسـن الثـاني ملك المغرب، والذي كتب بالخط المغربي الأندلسي الجميل (برواية ورش عـن نافع) هو المصحف الأشهر، نظرًا للعناية التي بذلت في الهجاء والضبط ـ والتزيين ـ كسابقه مصحف الملك فؤاد، رحم الله الجميع.

وعلينا أن ننوّه أخيرًا بـ(**مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة**

---

(١) يمكن القول: إن هـذه العناية التي أظهرها الملك فؤاد بطبع المصحف بإشراف الأزهر الشريف، كانت فاتحة أعماله التي أراد أن يتقرب بها من العامة ومن الأزهر الذي كان يتمتع بنفوذ اجتماعي وسياسي كبير، فوق مكانته الدينية، فقد أضحى والي مصر يدعى بلقب الملك بعد الثورة التي قادها الأزهر ضد الاستعمار البريطاني، والتي انتهت بإعلان فبراير ١٩٢٢ الذي اعترفت فيه إنجلترا بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة، وهـكذا تمّ تأسيس الملكية في مصر في أعقاب هـذا الإعلان، بعد أن كانت ولاية عثمانية.

المصحف الشريف) في المدينة المنورة، بوصفه أهم معالم العصر الحاضر في تاريخ طبع المصاحف؛ نظرًا للعناية الفائقة التي بذلت ـ وما تزال ـ في الكتابة والطبع والمراجعة والتدقيق، بالإضافة إلى قيام المجمع بتوزيع عشرات الملايين من النسخ التي وصلت إلى أيدي المسلمين في جميع أنحاء العالم[1].

❁❁❁

(١) يبدو أن الخطاط الدمشقي المتقن الأستاذ عثمان طه الذي كتب مصحف المجمَّع ـ المعروف بمصحف المدينة النبوية ـ قد كتب عدة مصاحف ـ وربما بلغت بضعة عشر مصحفًا ـ ولـكن ليس من بينها فيما يبدو واحد بقلم القصب (النبات المعروف) الذي كان يكتب به الحافظ عثمان رحمه الله.

ورضي الله عن ذي النورين عثمان بن عفان الذي نُسخ في عهده القرآن، وبُعثت نسخ منه إلى الأمصار، فقد شاء الله تعالى أن تكون معظم نسخ المصاحف التي بلغت الآفاق ـ منذ عصر الطباعة حتى الآن ـ قد خطّها من يتسمّون باسمه! ورحم الله الشيخ عامر بن السيد عثمان شيخ عموم المقارئ المصرية، الذي كان له أيضًا من هـذا الاسم نصيب، والذي كان أبرز أعضاء اللجنة التي راجعت مصحف المدينة المذكور. وأذكر بهـذه المناسبة أننا أفدنا من ملاحظاته وتوجيهاته عندما كان يتردد على دار الكتب المصرية، ـ في عقد الستينيات ـ وكان بصحبته زميلنا الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، – وربما كانا يقومان بتحقيق كتاب: لطائف الإشارات لفنون القراءات للقسطلاني رحم الله تعالى الجميع، وجزاهم عن كتابه الكريم خير الجزاء.

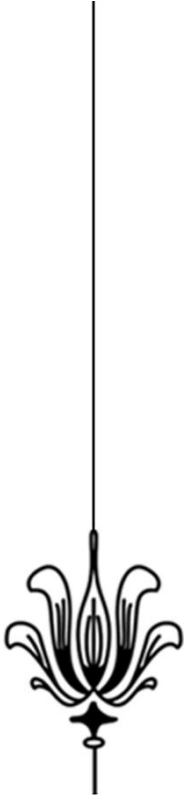

الفصل الخامس

الآيات والسور وترتيبهما

- أولاً: التسميات وطريقة القراءة.
- ثانياً: تعريف الآية والسورة.
- ثالثًا: عدد السور وأسماؤها واختلاف مقاديرها.
- رابعًا: ترتيب الآيات.
- خامسًا: ترتيب السور.
- سادسًا: حكم مخالفة ترتيب المصحف.
- سابعًا: مناسبة الآيات والسور.

الفصل الخامس

الآيات والسور وترتيبهما

أولاً ـ التسميات وطريقة القراءة:

نستهل هـذا الفصل بالقول: إن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه، هو الذي سمّى سور القرآن سورًا، وآياته آيات[1]..

بل إن جبريل عليه السلام قد نزل كذلك بطريقة قراءة القرآن، أو قراءة هـذه السور والآيات، وسمّاها ترتيلاً، فالقرآن رتَّله جبريل بأمر ربه، أو عن ربه جَلَّ وعلا؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٨] وواضح ـ كما أشرنا في موضع سابق ـ أن معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا قرأه عليك ملك الوحي بأمرنا ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: أتْبع قراءته بقراءتك، أو اقرأه مرتلاً ترتيلاً كما قرأه جبريل، وكما نصت عليه آية سورة الفرقان.

أما التسمية بـ(**السورة**) فقد وردت في القرآن الكريم تسع مرات، وجمعت فيه

---

(١) يقسّم الخلق مؤلفاتهم إلى أبواب وفصول ومباحث ومطالب، ونحو ذلك. كما يتألف كلامهم من عبارات وجُمل، أو من بحور الشعر وأوزانه، ونحو ذلك.

على (سور) في المرّة العاشرة؛ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

أما (**الآية**) فقد وردت في القرآن بعدة معانٍ في مئات المواضع. ومنها العديد من المواطن بالمعنى الذي نتحدث عنه (أي القطعة من القرآن الكريم جملة كانت أو كلمة أو كلمات). وبخاصة في مطلع بعض السور، حيث عُدّت بعض الكلمات آية، مثل ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ عند الكوفيين، أو في العدّ الكوفي المأخوذ من قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثانياً ـ تعريف الآية والسورة:

١ ـ تطلق « **الآية** » في **اللغة** على عدة معان، منها: الدليل والبرهان، والجماعة، والعلامة الظاهرة، والعبرة. وتجمع على: آي وآيات وآياء.

أما في **المصطلح**، أو في القرآن الكريم، فهي عبارة عن طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها، لها مبدأ ومقطع ـ (أو بداية ونهاية) ـ ومندرجة في سورة. وتعرف توقيفًا على الأرجح.

وقد سميت الآية من القرآن ـ أو هذه الطائفة منه ـ آية، لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وانفصاله. فهي بائنة من أختها ومنفردة! ولهذا كان الوقوف على رؤوس الآي سنَّة متّبعة.

وقيل: لما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها، وعلى عجز المُتَحدَّى بها سُمِّيت آية. وقد رجّح كثير من العلماء هذا التعليل[(١)].

---

(١) انظر تفسير ابن عطية: المحرر الوجيز (١/ ٧١)، و تفسير القرطبي (١ / ٦٦).

علمًا بأن التحدي لم يكن بأقل من سورة، كما سنتحدث في مبحث الإعجاز.

وفي الآيات الطويل والقصير، وأقصرها كلمة واحدة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ في فاتحة هاتين السورتين. و ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]. و﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ۝١٨﴾ [القلم: ١٨].

وأطول آية في كتاب الله تعالى: آية المداينة، أو آية الدَّين، وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، وأولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ وكلماتها ثمانية وعشرون ومائة كلمة، وحروفها: أربعون وخمسمائة حرف. ونذكِّر هنا ـ أو بهذه المناسبة ـ بأن هذا الطول والقصر ليس معهودًا في كلام البشر!

وعدد آيات القرآن الكريم (٦٢٣٦) ست وثلاثون ومئتان وستة آلاف آية.

٢ ـ أما « **السورة** » بدون همز ـ وهو المشهور ـ وتجمع على: سُوَر، كغرفة وغُرَف فمعناها: المنزل أو المكان المرتفع، ومنه سُور المدينة.

أو المنزلة الرفيعة، ومنه قول النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كل مَلْكٍ[1] دونها يتذبذب

أي: منزلة لا يبلغها أو يرتقي إليها سائر الملوك.

وقد قيل في القطعة من القرآن المشتملة على آي ذوات فاتحة وخاتمة ـ **وأقلها ثلاث آيات** ـ سورة، لأنها تحيط بالآيات التي تضمها إحاطة السُّور[2]، أو لارتفاعها وشرفها. وقد قيل: إنها سميت بذلك لتمامها وكمالها؛ من قول العرب للناقة التامة: سورة.

---

(١) مَلْك لغة في مَلِك، وتجمع على: ملوك.

(٢) ومنه: السّوار لإحاطته بالساعد.

ولا مانع عندنا من الجمع بين هـذه الأسـباب جميعًـا أو في وقـت واحـد؛ لأن السورة تحيط بالآيات إحاطة السور ـ من الوجهة المادية ـ، ولأنهـا شـريفة وذات منزلة رفيعة ـ من الوجهة المعنوية ـ، ولأن كل سورة من سور القرآن تامـة بنفسـها وكاملة بموضوعها ولها « **شخصيتها** » المسـتقلة أو المتفـردة في البيـان، وطريقـة العرض، وأسلوب التأثير.

وقيل: الحكمة من تسوير القرآن سورًا: تحقيقُ كون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله، والإشارةُ إلى أن كل **سورة نمط مستقل**[1].

قلت: وهـذا كلام حسن جدًا، ويشير كذلك إلى تعدد أسـاليب القـرآن بتعـدد سوره.

ثالثًا ـ عدد السور وأسماؤها واختلاف مقاديرها:

وتبلغ عدد سور القرآن أربعة عشر ومائة سورة، وهي مختلفة طـولاً وقصـرًا، فأقصر سورة هي «الكوثر»، وهي ثلاث آيات قصار (عشر كلمات)، وأطول سورة فيه «البقرة»، وهي ست وثمانون ومئتا آية، ومعظم آياتها من الآيـات الطـوال. وفي هـذا دليل على أن طول السورة ليس شرطًا في إعجاز القـرآن. وقـد قسـم العلمـاء هـذه السور، أو صنّفوها في أربعة أقسام، لكل منهـا اسـم معـين، وهـي الطُّـوَل أو (الطّوال)، والمِئين، والمثاني، والمفصَّل. (والطُّوَل، بضم الطاء جمع طُولى، كالكُبر جمع كُبرى).

---

(١) الإتقان للسيوطي (١ / ١٨٥).

فالطُّول: سبع سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وأخيرًا يونس أو «الأنفال وبراءة» معًا[(١)]؛ لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وتسميتهما بالقرينتين، ونزولهما جميعًا في المغازي.

والمئون: هي السور التي تزيد آياتها على مئة أو تقاربها، أي التي في حدود المائة آية.

والمثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات، وقال الفراء: هي السورة التي آيها أقل من مئة آية لأنها تثنَّى ـ أي تكرّر وتعاد ـ أكثر من الطُّول والمئين. وقد يطلق (المثاني) على سور القرآن كلها، طوالها وقصارها.

والمفصّل: هو أواخر القرآن، وأوله سورة محمد [السورة رقم ٤٧][(٢)] وقال النووي إن أوَّله «الحجرات» [السورة رقم ٤٩]، وسُمِّي بالمفصَّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة.

والمفصل ثلاثة أقسام: طُول وأواسط وقصار، فطواله من أول «الحجرات» إلى سورة «البروج»، وأوسطه من سورة «الطارق» إلى سورة «البينة»، وقصاره من سورة «إذا زلزلت» إلى آخر القرآن[(٣)].

ويمكن عدّ هذا التعدد أو الاختلاف في مقادير السور القرآنية من أدلة الإعجاز، لأن كل سورة من هذه السور، طالت أم قصرت، تامة بموضوعها، ولها

---

(١) وعلى طريقة التأثر والاقتباس، أو القياس! قالوا: السبع الطول من الشعر: معلقات امرئ القيس، وزهير، وعمرو بن كلثوم، ولبيد، وطَرَفة، وعنترة، والحارث بن حِلِّزَة.

(٢) قال الزركشي: وعزاه الماوردي للأكثرين. قال: والصحيح عند أهل الأثر أن أوله ﴿قٓ﴾: السورة رقم ٥٠، البرهان (١ / ٣١١).

(٣) انظر البرهان للزركشي (١/ ٣٠٧ ـ ٣١٢)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

ملامحها الخاصة أو «شخصيتها» المتميزة كما قلنا قبل قليل! ولأن هـذا ـ بدوره ـ ليس معهودًا في أساليب الكُتاب والأدباء والمؤلفين.

وأخيرًا فإن لكل سورة من سور القرآن اسمًا واحدًا، وهو الأعم الأغلب، وقد يكون لها اسمان، كسورة البقرة يقال لها: فسطاط القرآن، لعظمها وبهائها و«النحل» تسمى سورة النِّعَم، لما عدد الله فيها من النعم على عباده.. وسورة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ وتسمى سورة الشورى. وسورة «محمد» ﷺ وتسمى سورة القتال. وسورة «فاطر» وتسمى سورة الملائكة. وسورة «الإسراء» وتسمى سورة بني إسرائيل. أخرج الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول ﷺ الله لا ينام حتى يقرأ الزمر، وبني إسرائيل». وقد يكون لها ثلاثة أسماء أو أكثر كسورة «غافر» فإنها تسمى كذلك: الطَّول والمؤمن لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ [٢٨] وكسورة «الفاتحة» التي تسمى أيضًا بأم الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن.

وقد كره بعضهم هـذه التسميات بطريق الإضافة، وذهب إلى أن يقال في ذلك: السورةُ التي يُذكر فيها البقرة، أو السورة التي يذكر فيها آل عمران.. إلخ. وهـذا رأي ضعيف أو مرجوح، لأن الدليل على صحة التسميات السابقة: ـ أي بطريق الإضافة ـ هو الصحيح من المأثور. وقد روى الإمام البخاري في ذلك أحاديث كثيرة، أوردها تحت هـذا العنوان: «باب من لم ير بأسًا أن يقول: سورة البقرة وسورة كذا وكذا» وأوَّلها عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال النبي: «**الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كَفَتَاهُ**»[(١)]، فقد سماها النبي ﷺ «سورة البقرة» ولم يقل السورة التي يذكر فيها البقرة.

---

(١) صحيح البخاري (٦ / ١١١)، وانظر سائر أحاديث الباب. (عن دار الطباعة العامرة باستانبول) دار الفكر، ١٩٨١م، بيروت.

رابعاً ـ ترتيب الآيات:

دلّت النصوص الكثيرة، وتاريخ الحقبة النبوية المباركة في مكة والمدينة، وإجماع المسلمين، والنظم القرآني ونظام السورة القرآنية أو وحدتها الموضوعية.. دل ذلك كله على أن ترتيب الآيات (في السورة من القرآن) توقيفي لا شبهة في ذلك ولا خلاف، ومعلوم أن النبي ﷺ كان يقرأ في الصلاة، وغيرها، السور القرآنية على مسمع من الصحابة رضوان الله عليهم مُرتَّبة على النحو الذي كتبت فيه بالرقاع، وفي المصاحف بعد ذلك.

قال الإمام مالك رحمه الله إمام دار الهجرة: «إنما أُلِّف القرآن على نحو ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله ﷺ »[(١)] وروى الإمام البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] قد نَسخَتْها الآية الأخرى، فَلِم تَكْتُبها، أو تَدَعُها؟ قال: يا ابن أخي لا أغيِّر شيئًا منه من مكانه»[(٢)].

وقال الإمام البغوي: «وكان رسول الله ﷺ يلقّنْ أصحابه ويعلّمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل إيّاه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية: أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا؛ **فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه؛ فإن القرآن**

---

(١) الوسيلة إلى كشف العقيلة للشيخ علم الدين أبي الحسن السخاوي (ت٦٤٣هـ)، ص١١، و تفسير القرطبي (١/ ٤٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٣٠). وانظر الآية رقم ٢٤٠ من سورة البقرة، وانظر في البخاري كذلك الحديثين رقم (٤٥٣١) ورقم (٥٣٤٤) وما ذهب إليه في مسألة النسخ كل من ابن عباس ومجاهد.

مكتوب في اللوح المحفوظ على هـذا الترتيب، أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا، ثم كان ينزل مفرقًا عند الحاجة، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة»[(١)].

لقد تحدث الإمام البغوي عن ترتيب كل من الآيات والسور ـ وسنتحدث بعد قليل عن ترتيب السور ـ وقد أشار في باب ترتيب الآيات إلى بعض الأحاديث. ومنها ما رواه الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة؛ عن ابن عباس، قال: حدثني أُبيّ بن كعب قال: ربما نزل على رسول الله ﷺ الصدرُ من السورة فأكتبها، ثم ينزل عليه فيقول: «**يا أُبيّ اكتب هـذه في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا**»، وربما نزل عليه فأقف حتى أنظر ما يقول، حتى يحدث إليَّ فيقول: «**تلك الآيات ضعها في سورة كذا وكذا**»[(٢)].

ونضيف الآن بعض الأدلة على ما ذكرناه أو أشرنا إليـه مـن أن هـذا الترتيـب للآيات كان توقيفيًا لا خلاف في ذلك:

١ ـ الأحاديث الكثيرة التي جاء النص فيها على سور عديدة من القرآن، كان يقرؤها النبي ﷺ، أي بهـذا البناء الكامل المعهود. أو أحاديث جاء النص فيها على فضائل مجموعة من الآيات في بعض السور ـ كخواتيم سورة البقرة[(٣)]، أو العشر الأوائل من سورة الكهف، أو العشر الأواخر منها[(٤)] ـ إلى جانب أحاديث أخرى في

---

(١) شرح السنة (٤/ ٥١٢).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى ٥/ ١٠ (٨٠٠٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٠١).

(٣) عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كَفَتَاه**» أخرجه الإمام البخاري (٤٠٠٨) ومسلم (١٣٦٩).

(٤) عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدّجّال**». وفي رواية عن شعبة قال: «من آخر الكهف» أخرجه مسلم (٨٠٩) ص٥٤٠، وأبو داود (٤٣٢٣).

فضائل بعض السور: ومن هـذه الأحاديث الأخيرة ـ على سبيل المثال ـ ما رواه الإمام مسلم عن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غَمامتان، أو كأنهما غيابتان.. تحاجّان عن أصحابها. اقرؤوا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلة**» أي: السحرة[(١)].

أما الأحاديث الواردة في السور التي كان يقرأ بها النبي ﷺ، فقد رويت في كتب الصحاح ـ في البخاري ومسلم وغيرهما ـ روى مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: «صلّيت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح «البقرة»، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلّي بها ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها. ثم افتتح «النساء» فقرأها، ثم افتتح «آل عمران» فقرأها: يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ، ثم ركع...» الحديث[(٢)].

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس قال: قال رسول الله لأُبيّ بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١]، قال: وسمّاني لك؟ قال: **نعم**، قال: فبكى». وفي رواية: «فجعل أُبيّ يبكي»[(٣)].

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٨٠٤)، ص٥٣٨. قال الإمام النووي رحمه الله: سُمِّيتا الزهراوين؛ لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما. قال أهل اللغة: الغمامة والغيابة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما. قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين.

(٢) المصدر السابق، (ح٧٧٢)، ص٥٢٦.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٠٩)، و صحيح مسلم (٧٩٩).

«**اقرأ عليَّ**» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: «**فإني أحب أن أسمعه من غيري**»! قال: فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «أمسك» فإذا عيناه تذرفان[(١)].

وروى البخاري من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطور[(٢)]».

وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه «أن النبي كان في سفر، فصلّى العشاء الآخرة، فقرأ في إحدى الركعتين بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا، أو قراءة منه»[(٣)].

وأخرج النسائي من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ صلّى المغرب بسورة «الأعراف» فرَّقها في ركعتين[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٨٢)، و صحيح مسلم (٨٠٠). وللمرء أن يتأمل مدى تأثر النبي ﷺ بالقرآن وانفعال نفسه الشريفة به، وقد نزل على قلبه، فقلبه مفعم أو مليء بآياته الكريمة، حين يستمع إليها من غيره! فلا عجب أن تذرف دموعه أمام هذا الخطاب الإلـهي له في هذه السورة... وأمام المسؤولية التي حمّله إياها هذا الخطاب. وحين يتسع قلب النبي الكريم لكلام ربّه سبحانه، أو حين يمتلئ به... فإنه لن يتسلل إليه غلّ، أو حقد أو حسد... أو أي خلق ذميم من أخلاق العباد.. بل لن يتسع للهوٍ أو فراغ! فالقلب المملوء بالجواهر لا يتسع للحصى! فما بالك بجوهرة الوحي الإلـهي المعجز؟ ولهذا وصفه ربّه بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [سورة القلم: ٤] وقالت فيه السيدة عائشة أم المؤمنين ـ صاحبة الذكاء الباهر والعقل الوافر... زوجته في الدنيا والآخرة ـ: (كان خلقه القرآن)! ألا ما أصدقه من قول، وأدقه من تقرير، وأروعه من تصوير رضي الله عنها وعن أبيها الصديق الصدِّيق.

(٢) صحيح البخاري (٧٦٥)، وسورة الطور مكية ورقمها ٥٢.

(٣) صحيح البخاري (٧٦٩)، و صحيح مسلم (٤٦٤)، و جامع الأصول (٣٤٦٤).

(٤) جامع الأصول لابن الأثير (ح٣٤٥٨)، (٥ ٣٤٥).

وروى البخاري عن عروة بن الزبير، عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: ما لك تقرأ في المغرب بقصار المفصّل! وقد سمعت النبي ﷺ يقرأ بطُولى الطوليين؟»[(١)] وزاد أبو داود: قال: **قلت**: وما طولى الطوليين؟ قال: «الأعراف».

وروى الشيخان عن أبي هريرة قال رضي الله عنه: «كان النبي يقرأ في الجمعة، في صلاة الفجر: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ ـ السجدة ـ و ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ ـ الدهر ـ»[(٢)].

وأخرج الحاكم ـ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي ـ والترمذي: «أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على الجن».

وروى مسلم: «أن النبي قرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة «الجمعة»، وفي الثانية بسورة «المنافقون». وكان يقرأ بهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة»[(٣)].

وروى الإمام مسلم كذلك: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الأضحى والفطر بـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾»[(٤)].

وكان النبي ﷺ يخطب كثيرًا الجمعة بسورة ﴿قٓ﴾ كما روى الإمام مسلم رحمه الله[(٥)].

والأحاديث الصحيحة في هذا في سائر كتب الحديث كثيرة.

٢ ـ أما **الحقبة النبوية المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم في مكة والمدينة**؛ فهي قاطعة في أن كتاب الله تعالى كان مرتب الآيات في السور التي نزلت فيهما، فحين هاجر المسلمون إلى المدينة، كانوا قد حفظوا وقرؤوا من السور ما نزل

---

(١) صحيح البخاري (٧٦٤)، و جامع الأصول (٣٤٥٧).

(٢) صحيح البخاري (٨٩١)، و صحيح مسلم (٨٨٠).

(٣)(ح ٨٧٧).

(٤)(ح ٨٩١).

(٥)(ح ٨٧٣).

بمكة، وغني عن البيان أنهم كانوا يقرؤون هـذه السـور التـي تجـاوزت الثمـانين سورة ـ من سور القرآن المائة وأربعة عشـر ـ مرتبـة الآيـات، وكـانوا يتدارسـونها كذلك على هـذا النحو. ولا يخطر ببال عاقل أن واحدًا منهم حفظ أو قرأ أيَّ سورة من السور بخلاف هـذا الترتيب. وقد بلغ هـذا مبلغ التواتر، وكذلك كانت الحال في المدينة بعد الهجرة، فقد قرؤوا القرآن وتدارسوه على النحو الذي سـمعوه مـن النبي، وتلاه على مسامعهم في الصلاة وخارجها ـ كما أشرنا قبل قليل ـ.

بل إن جبريل الذي كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عـام مـرة ـ أي فيمـا كان قد نزل عليه منه حتى تاريخ هـذه المراجعة ـ قد عارضه فيـه مـرتين في العـام الذي تـوفي فيـه. وقـد رأى النبـي ـ صـلوات الله وسـلامه عليـه ـ في تكـرار هـذه المعارضة مرتين، أنها إشارة إلـهية إلى قرب أجله، أو (حضور أجله) ﷺ كما جـاء في الحديث الصحيح.

وغني عن البيان أن هـذا يدل بوضوح على أن سور القرآن الكريم كانت مرتبة الآيات، بل يدل على أن هـذه السور ذاتها كانت كذلك مرتبة على هـذا النحو الذي تمّ بعد ذلك في المصاحف، كما سنتحدث بعد قليل. ولهـذا انعقد الإجماع على أن « **ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك** » كما قال كثير من العلماء[(١)]. أو بحسب عبارة بعض هـؤلاء العلماء: «حصل اليقين من النقل المتواتر بهـذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هـكذا في المصحف»[(٢)] ويعني بإجماع الصحابة هـذا: ترتيب السور في المصحف كذلك.

---

(١) راجع: السيوطي في الإتقان (١/ ٢٨٤)، مؤسسة النداء.

(٢) الإتقان (١/ ٢٩١).

٣ ـ وأخيرًا، فإن مسألة (**النظم**) القرآني التي تشكل أبرز دلائل إعجاز القرآن، وكما سنتحدث عن ذلك في مباحث الإعجاز ـ تعود إلى هذا الترتيب للآيات، أو هي أساسه ومنطلقه، مما يدل على أنه من عمل الوحي يقينًا.

ويضاف إلى مسألة (النظم) هذه، ويتفرع عنها: نظام السورة الواحدة، أو وحدتها الموضوعية.. أو بناؤها الخاص الذي دعاه كثير من المفسرين القدامى بـ (**مناسبات الآيات**)، وقد تكفينا هذه التسمية في هذا السياق، لمعرفة أن طريقة عرض هذه الآيات وبناء بعضها على بعض: جزء لا يتجزأ من نسيج الإعجاز، وأنه كذلك من عمل الوحي. ونورد هنا هذه الكلمة الموجزة التي نقلها السيوطي عن بعض العلماء في بيان هذه المناسبات، على أن نعود للشرح والبيان في نهاية هذا الفصل، وفي بعض الفصول القادمة الخاصة بإعجاز القرآن.

قال السيوطي: «قال بعض المتأخرين: الأمر الكلّي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أن تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القُرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها. فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حُكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، **فإذا فعلته تبيَّن لك وجهُ النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة**»[1] والله تعالى أعلم.

---

(١) الإتقان ت الدكتور قيسية، (٤ ١٤)، مؤسسة النداء.

خامسًا ـ ترتيب السور:

١ ـ أما ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه **توقيفي كترتيب الآيات** سواء بسواء، قال أبو جعفر النحاس: «المختار: أن تأليف السور على هـذا الترتيب من رسول الله ﷺ، وروي ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم ساق بسنده إلى أبي داود الطيالسي: حدثنا عمران القطان، عن قتادة، عن أبي المليح الهذلي، عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيت مكان التوراة السبع الطُّوَل، وأعطيت مكان الزبور المِئين، وأُعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلتُ بالمفَصَّل**»(١)، قال أبو جعفر النحاس: وهـذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن ـ أي جمعه وترتيبه ـ مأخوذ عن النبي ﷺ، وأنه مؤلَّفٌ من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد؛ لأنه قد جاء هـذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن»(٢)، وروى ابن أبي شيبة في مصنفه أن رسول الله ﷺ كان يجمع المفصّل في ركعة، وأنه قرأ بالسبع الطُّوَل في ركعة.

وروى البخاري من حديث عبد الرحمـن بن يزيد قال: «سمعت ابن مسعود يقول في: بني إسرائيل ـ الإسراء ـ والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: إنهنَّ من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨ ١٨٨ (١٦٩٨٢)، بإسناد حسن، ورواه محدث الإمامية: الكليني، وفيه: «وفضّلت بالمفصل ثمان وستون سورة، وهو مهيمنٌ على سائر الكتب..». أصول الكافي (٢ ٨٠٥)، ط دار المرتضى، ١٤٢٩هـ.

(٢) البرهان (١ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، ط بيروت. و الإتقان (١ ٢٩٤ ـ ٢٩٥)، وربما أشار الحديث إلى أن رسالة الإسلام استوعبت رسالات الأنبياء السابقين وزادت عليها. ولنا هنا أن نقول: إن القرآن يغني عن غيره، ولا يغني عنه غيره.

العِتاق الأُوَل، وهنّ من تِلادي»[١] فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها.

ويؤكد أصحاب هـذا الرأي ما ذهبوا إليه بأن **المناسبات بين السور** لا تقل عن النظم، ووجه ارتباط الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة. وقد درج على بيان تلك المناسبات بعضُ المفسرين، وكانوا يطلبونها بين آخر السورة وأول السورة التي تليها، أو بين أول هـذه السورة وجملة السورة السابقة في بعض الأحيان[٢]. قال الزركشي: «لترتيب وضع السور في المصحف أسبابٌ تُطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم، أحدها: بحسب الحروف، كما في الحواميم. وثانيها: لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة. وثالثها: للوزن في اللفظ، كآخر ﴿تَبَّتْ﴾ وأول الإخلاص. ورابعها: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى. مثل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾»[٣].

وقد عبر عن هـذا الموقف كذلك: أبو بكر ابن الأنباري، ودافع عنه، ولخّص فيه القول على النحو الآتي: قال رحمه الله: «إن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فُرِّق على النبي ﷺ في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية جوابًا لمستخبر يسأل: ويوقِفُ جبريلُ رسول الله ﷺ على موضع السورة والآية؛ فاتّساق السور كاتّساق الآيات والحروف، كلُّه عن محمد خاتم النبيين عليهم السلام عن رب العالمين، فمن أخّر سورة مقدمّة، أو قدَّم أخرى

---

(١) صحيح البخاري (٦ ٤٧٣٩). ومعنى: من تِلادي: من أول ما أخذت من القرآن، شبّهه بتلاد المال القديم، قال أبو عبيد: ومعناه أن ذلك كان بمكة. انظر كتابه: فضائل القرآن ص٢٢١.

(٢) انظر: الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن، للمؤلف، ص٣٧٣ ـ ٣٨٠.

(٣) البرهان للزركشي (١ ٣٢٩). و الإتقان للسيوطي (٤ ٢١)، مؤسسة النداء، ط ١، ٢٠٠٣م

مؤخرة، فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات»[(١)].

٢ ـ ويورد السيوطي القول إن جمهور العلماء، ومنهم الإمام مالك، والقاضي أبو بكر الباقلاني في أحد قوليه، على أن ترتيب السور **اجتهادي** من فعل الصحابة! بدليل اختلاف مصاحفهم في هـذا الترتيب، فمصحف علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان على النزول «اقرأ، المدثّر، نون، المزمل، تبّت، التكوير..» وهـكذا إلى آخر المكّي والمدني[(٢)]. ومصحف عبد الله بن مسعود: «البقرة، النساء، آل عمران..».

ولـكن هـذا الإطلاق فيما يورده السيوطي ـ جمهور العلماء!ـ يتعارض بشكل حاد مع الروايات الصحيحة الدالّة على أن معظم سور القرآن ـ إن لم يكن جميعهـا ـ كان مرتبًا على هـذا النحو زمن النبي ﷺ.

أما ترتيب الصحابة (لمصاحفهم) ـ أو لصحفهم وما دُوّن فيها من السور ـ **فلم يكن أكثر من اختيار وقتي، أو مطلق جمع للقرآن أو لما تيسّر منه**، ولهـذا فإنهم لم يلتزموا الدفاع عنه، بل وجدناهم قد التزموا وأقرّوا بالترتيب الذي أقرته اللجنة العثمانية التي تحدثنا عنها. وقال بعض العلماء: إن اختلاف مصاحفهم ـ أبيّ وعلي وعبد الله رضي الله عنهم كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله ﷺ رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك[(٣)].

قلت: وإن مما لا يحتاج إلى تأكيد: الإشارة إلى أن معارضة جبريـل للنبـي ﷺ

---

(١) تفسير القرطبي (١ ٦٠). وانظر: البرهان للزركشي (١ ٣٢٨)، والسيوطي (١ ٢٩٢)، وفيه: «فقد أفسد نظم القرآن».

(٢) روى البيهقي في دلائل النبوّة بسنده: أن أول ما أنزل الله تعالى من القرآن بمكة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾، والمزمل، والمدثر، ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾، ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، الإتقان (١ ٣٦ ـ ٣٧).

(٣) تفسير القرطبي ١ ٦٠.

بالقرآن كانت على نحو مرتب، وأن النبي ﷺ كان يقرؤه على الناس على النحو الذي كان يعارضه به جبريل أو يقرؤه عليه، لا ريب في ذلك.

٣ ـ والذي يبدو لنا من مجموع الروايات والآراء حول هذا الموضوع: أن معظم سور القرآن الكريم كانت مرتبةً على هذا النحو في زمن النبي ﷺ، وأن العدد الأقل، أو عددًا قليلاً لعلّه لا يتعدى سورتين أو ثلاثًا، ـ أو بعبارة أدق: إلا الأنفال وبراءة ـ قد رُتب على أيدي الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ. قال الإمام البيهقي: «كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة»[(١)]. وإلى هذا ذهب السيوطي رحمه الله، وقال: إنه الذي ينشرح له الصدر، وأضاف: «ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سورًا وِلاءً، على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يردُ حديث قراءته «النساء» قبل «آل عمران»، لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز»[(٢)].

وحين أوهم كلامٌ لابن عطية أن هذا القدر الذي رتبه الصحابة أكثر من هذا.. استدرك عليه بعض العلماء المحققين؛ قال ابن عطية رحمه الله: «وظاهر الآثار أن السبع الطّوال، والحواميم، والمفصل، كان مرتبًا في زمن النبي ﷺ. وكان في السور ما لم يرتب، فذلك هو الذي رُتِّب وقت الكَتْب»[(٣)] قال أبو جعفر بن الزبير: «الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية، ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف»[(٤)].

---

(١) الإتقان للسيوطي (١ ٢٩٣).

(٢) الإتقان (١ ٢٩٦).

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (١ ٥٤)، طبع قطر.

(٤) الإتقان للسيوطي (١ ٢٩٣)، مؤسسة النداء، تحقيق د. القيسية.

سادسًا ـ حكم مخالفة ترتيب المصحف:

إن هـذا الترتيب الذي نجده في المصاحف، مبدوءًا بسورة الفاتحة، ومختتمًا بسورة الناس.. قد تمّ كما رأينا في العهد النبوي وفي الصدر الأول من الإسلام، ومضت الأمة على الالتزام بالعمل به هـذه القرون المتطاولة من الزمان.. فصار العمل به والوقوف عنده لازمًا لا يجوز التحوّل عنه أو المصير إلى غيره، بل لا يجوز ذلك حتى لو كان مستند هـذا الترتيب اجتهاد الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ. لا يجوز إذن طبع المصحف، أو «تأليف سُوَرِه في الرسم والخط خاصة»[(١)]. بحسب عبارة العلماء، على غير هـذا الترتيب.

١ ـ أما تلاوة القرآن في الصلاة وتعليم سُوَرِه في المساجد أو دور العلم.. فيجوز فيهما مخالفة هـذا الترتيب؛ قال أبو الحسن بن بطَّال: «ولا يعلم أن أحدًا قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة، وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة، ولا الحج (السورة رقم ٢٢) قبل الكهف (رقم ١٨)! ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها للذي سألها: لا يضرّك أيَّة سورة قرأت قبلُ، وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها»[(٢)]. وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف، وفي الركعة الثانية بيوسف[(٣)]. ويضيف أبو الحسن

---

(١) راجع القرطبي (١ ٦١).

(٢) القرطبي (١ ٦١).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي، ص٥٤، دار المعرفة بدمشق. ورقم سورة الكهف في المصحف ١٨، ورقم سورة يوسف ١٢.

قائلاً: «وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر: أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسًا، وقالا: ذلك منكوس القلب! فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة ـ الواحدة ـ منكوسة، ويبتدئ من آخرها إلى أولها!! لأن ذلك حرام محظور.. وفيه: إفساد للسورة، ومخالفة لما قُصد بها»[(١)].

قال الإمام النووي: «وأما قراءة السورة من آخرها إلى أوّلها فممنوع منعًا متأكدًا، فإنه يُذهِب بعض ضروب الإعجاز، ويُزيل حكمة ترتيب القرآن، وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل، والإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك، وأن مالكًا كان يعيبه ويقول: هذا عظيم!!».

٢ ـ وقد فرّق **بعض العلماء** بين تلاوة القرآن في الصلاة، وتعليمه للطلاب والتلاميذ، **فكرهوا مخالفة ترتيب المصحف في الصلاة، وأجازوا مخالفة هذا الترتيب للإقراء والتعليم**، قال الإمام النووي: وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف، وروى ابن أبي داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف. حتى قال بعض علماء الشافعية: إن المصلِّي إذا قرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ فإن عليه أن يقرأ في الثانية ـ بعد الفاتحة ـ من سورة البقرة. قال النووي: «ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جعل هكذا لحكمة، فينبغي أن يحافظ عليها، إلا فيما ورد الشرع باستثنائه»! وقال الإمام النووي: «وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوّله فحسن.. فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة، مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم، والله تعالى أعلم»[(٢)].

---

(١) القرطبي (١/ ٦١).

(٢) التبيان للنووي، ص٥٥.

٣ ـ وأما **ترتيب سور القرآن بحسب النزول**، لا للتدوين في المصاحف، ولكن في كتب التفسير، أو **بغرض التفسير** فقد ذهب إلى جوازه بعض العلماء. وإن كنا نرى أنه غير مستساغ، لأن فيه خدشًا «لصورة» الإجماع الذي أشرنا إليه، وقد لا يكون ممكنًا كذلك بغير قدر من التجاوز، لأن السورة من القرآن لم تكن تنزل دائمًا مرة واحدة، أو لم تكن تنزل آيات من سورة ثانية إلا بعد أن يكتمل بناء السورة السابقة، فالترتيب بحسب النزول لا يمكن وصفه بالدقة.. أو بأنه صحيح من كل وجه، إلى جانب ما فيه من **تضخيم مرحليّة البناء، وتضييق ساحة النص القرآني** الذي أراد الله تعالى له أن يكون عامًا شاملاً، يعين تنجيمه وأسباب نزوله على مزيد من الفهم، لا على الانغلاق في حدود البيئة أو الزمان. ولهذا فإننا نكره العبارات القائلة: المكّي: ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدني: ما وقع خطابًا لأهل المدينة.. ونحو ذلك من العبارات والمواقف التي تتردد كثيرًا في كتب التفسير!! ولعل هذا أن يكون أحد الأسباب الحاسمة في ترجيح رأي من يقول: إن ترتيب السور جميعها كان بتوقيف. حيث تعاقبت السور المكية والمدنية في المصحف، بل الذي بُدئ فيه بأربع سور مدنية طوال تتألف من قرابة ثمانمئة آية.. لم يتقدمها من الآيات المكية سوى سورة الفاتحة، التي تمثل خلاصة العهد المكي، وتتألف من سبع آيات قصار، والله تعالى أعلم.

قال بعض العلماء[1]: «وفصل الخطاب ـ في آي القرآن ـ أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلاً؛ فالمصحف على وَفق ما في

(١) الشيخ ولي الدين الملَّوي (محمد بن أحمد) المعروف بابن المنفلوطي الملَّوي الشافعي، تفقّه وبرع في فنون العلم، ودرَّس التفسير بالمدرسة المنصورية في مصر. (ت٧٧٤).

اللوح المحفوظ، مُرتبةٌ سوره كلُّها وآياته بالتوقيف، كما أُنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين: أسلوبه ونظمُه الباهر. والذي ينبغي في كل آية: أن يُبحث أوّل كل شيء عن كونها مكمّلة لما قبلها أو مستقلَّة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جَمٌّ، **وهكذا في السور**، يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[(١)].

سابعًا ـ مناسبة الآيات والسور:

ويصل بنا هذا القول ـ وما ذكرناه قبل قليل في ختام الفقرة الخامسة ـ إلى الإشارة السريعة إلى علم المناسبات، الذي بحث فيه الزركشي تحت عنوان: (معرفة المناسبة بين الآيات) وعدّه النوع الثاني من أنواع علوم القرآن ـ لم يتقدم عليه عنده سوى (معرفة سبب النزول) ـ في حين أن السيوطي جمع الحديث عن (مناسبة الآيات والسور) في نوع واحد، هو النوع الثاني والستون. وقد تابع في كثير مما كتبه سلفه الإمام الزركشي رحمهما الله تعالى.

قال الزركشي: «والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلانًا: أي يقرب منه ويشاكله، ومنه: النسيب: القريب المتصل.. وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حالُه حالَ البناء المحكم، المتلائم الأجزاء»[(٢)].

قلت: والتناسب بين الآيات ركن من أركان النسيج القرآني، ولهذا وصف الله تعالى كتابه الكريم بقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾

(١) الإتقان للسيوطي، (٤ ٧)، تحقيق د. محمود أحمد القيسية، مؤسسة النداء، ٢٠٠٣م.

(٢) البرهان للزركشي (١ ٦١)، وانظر: السيوطي (٤ ٨).

[هود: ١]. وهـذا التناسب، أو الارتباط بين الآيات، قد يكون شديد الظهور، أو مما يدركه القارئ من الوهلة الأولى؛ نظرًا لتعلق «الكلم بعضه ببعض» وعدم تمام معنى الآية إلا مع التي تليها، أو لأن الآية الثانية ترتبط بالأولى «على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل»[(١)]، وقد يكون هـذا الارتباط بحاجة إلى شيء من التأمل من أجل الوقوف عليه، ومعرفة أسبابه[(٢)]، وغالبًا ما تكون هـذه الأسباب بلاغية[(٣)]، وقد تكون نحويّة، وكلها تؤكد (الإبانة) التي وصف الله تعالى بها (اللسان) الذي نزل به القرآن، والتي ارتقت فيه إلى درجة الإعجاز؛ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥] وسوف نتحدث في فصل قادم عن شروط المفسّر، التي حاولنا أن نقف عليها من خلال هـذه الآية الأخيرة. وبخاصة مسألة الإبانة هـذه، والتي تدل على أن المفسّر لا بد أن يكون متقنًا لعلوم البلاغة العربية.

وكل ما نودّ الحديث عنه في هـذه العجالة لا يعدو أن يكون تعقيبًا عـلى بعـض الآيات التي (أشكلت مناسبتها) بحسب عبارة السيوطي، والتي ذكـر منهـا هـاتين الآيتين:

١ ـ قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ (١٦) ـ ويعني

---

(١) السيوطي (٤ ٨).

(٢) يقول برهان الدين البقاعي في تفسيره: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١ ٢٤٦) ـ في ملاحظة لطيفة ـ: «وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها».

(٣) وعدّوا منها: التنظير والمضادّة والاستطراد، والتخلّص أو حسن التخلّص. راجع كلاً من الزركشي والسيوطي.

الآيات من ١٦ إلى ١٩ ـ قال: «فإن وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عَسِرٌ جدًا، فإن السورة كلَّها في أحوال القيامة، حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شيء...»

قلت: لم يسقط من السورة شيء كما زعم الرافضي، وليست مناسبة الآيات عسرة كما ظن السيوطي.. لأنها تتحدث عن القرآن النازل نفسه، أو الذي كان النبي ﷺ يردّده أو يسرع في قراءته مع جبريل. والمعنى: أن الآيات التي تتحدث عن القرآن: صفته أو حفظه أو التحدّي به أو قراءة النبي له.. يمكن لهـذه الآيات أن تأتي في سياق أي موضوع، في أي سورة.. لأن موضوعها، أو سياقها، هو القرآن نفسه، أو هـذا النازل منه. ونحو هـذه الآية التي أشار إليها السيوطي: قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فقد جاءت في سياق الحديث عن نوح عليه السلام: قبلها وبعدها. بل قد يُكتب في بلاغة هـذا (النظم) والترتيب كلام طويل، مع ربط هـذه الآية بالآية ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣] وبالآية ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] التي فصلت في الحديث عن نوح وقومه بين عهدين... إلخ.

ونحو الآية التي أشار إليها السيوطي كذلك، الآية ٨٢ والآية ١٠٥ من سورة النساء، والآية ٩ من سورة الحجر، والآية ٦ من سورة النمل، والآية ٢٣ من سورة الإنسان، وشواهد أخرى.

وقد حمل بعض العلماء المعاصرين[١] هـذه الآيات ـ أعني آيات سورة القيامة ـ على ما أسماه «التربية المعترضة» بوصفها استثناء من «ارتباط الجملة أو الجُمل القرآنية بسائر عناصر النص التي هي جزء منه» بحسب عبارته رحمه الله: قال: «إلا في نحو التربية المعترضة كتربية الله تعالى لرسوله بأن لا يعجل بالقرآن، فقد جاءت هـذه التربية معترضة في سورة القيامة، كما يربي المعلّمُ الطالبَ ـ **قلت**: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ـ ضمن درس من العلم فينهاه أو يأمره حول واجبٍ من واجبات المتعلم، أو طريقةٍ من طرق التعليم، ثم يستمر معه في متابعة درسه الذي يلقيه عليه...» ويضيف الأستاذ حبنكة رحمه الله: إن هـذه الجملة الاعتراضية التربوية بقيت قرآنًا يُتلى لتكون مثالاً للتربية المعترضة ضمن دروس العلم. وقد لاحظ أن آية سورة طه ـ وقد نزلت هـذه السورة بعد سورة القيامة بثلاث عشرة سورة ـ لم تأت معترضة، بل جاءت محكمة الارتباط بعناصر السورة، بعد أن امتثل الرسول ﷺ فالتزم بما أمره الله تعالى به في سورة القيامة. وقد قدم في الجمع بين الآيتين كلامًا حسنًا رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

٢ ـ قال السيوطي: «ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] فقد يقال: أي رابط بين أحكام الأهلّة وبين حكم إتيان البيوت؟» ثم أجاب رحمه الله ببعض الإجابات. **قلت**: والإجابة عندنا أتت مصادفة في أحد فصول الكتاب (فصل التفسير العلمي

(١) الأستاذ المفسّر الأديب العلاّمة الشيخ عبد الرحمـن حسن حبنّكة الميداني: قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عز وجل: ص١٦ ـ ١٧ الطبعة الثانية، دار القلم ـ بدمشق ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

لآيات الطبيعة والإنسان) ويمكن بالعودة إليها، إلى جانب ما قلناه في آية سورة القيامة: تأكيد أن عدم الظهور على وجه المناسبة لبعض الآيات، **قد يكون مردّه إلى بعض المفسّرين، أو إلى بعض العصور**. وغني عن البيان أنه لا يظهر كل مفسّر على كل ما في القرآن، وأنه ـ أي القرآن الكريم ـ لجميع العصور، ويخاطب به كافة الأقوام. والله تعالى أعلم.

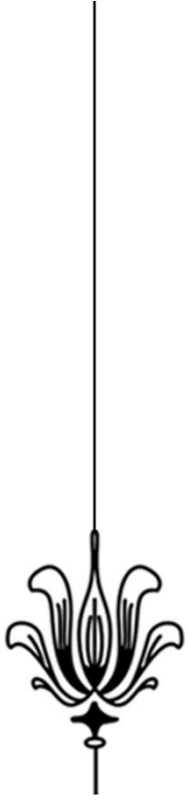

الفصل السادس

الأحــرف السَّــبْعَة

- تمهيد.
- أولاً: بعض الآثار الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف.
- ثانياً: حول دلالة هـذه الآثار.
- ثالثاً: ما هي هـذه الأحرف السبعة.
- رابعاً: الأحرف السبعة بين الرخصة والعزيمة.
- خامساً: من دلالة هـذه الأحرف.

الفصل السادس

الأحرف السَّبْعَة

تمهيد:

زادت أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف عن أربعين حديثًا، ما بين صحيح وحسن وضعيف، وأورد السيوطي أسماء واحد وعشرين صحابيًا رووا حديث ـ أو أحاديث ـ الأحرف السبعة. وقد زاد عليها بعض المدققين أسماء خمسة آخرين. ولا خلاف عند العلماء على صحة حديث الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، أو نُقل عن النبي ﷺ أنه قرأ ـ وأقرأ ـ بها، وإن لم يبلغ هذا الحديث في نظر جمهور العلماء مبلغ التواتر.

ويبدو الخلاف بين العلماء شديدًا، في تحديد هذه الحروف، أو بيان المراد بها، في الوقت الذي لم يختلف أحد في تعدد وجوه القراءة التي ضبطها العلماء (علماء القراءات) فيما بعد، معوّلين في ذلك على هذا الحديث، أو هذا المبدأ: مبدأ نزول القرآن على سبعة أحرف.

ونحاول فيما يلي تحديد (ماهية) هذه الحروف، أو المراد منها في هذه الأحاديث، مع ذكر أهم الاعتراضات التي يمكن إيرادها على أقوال العلماء أو آرائهم في هذا التحديد، مع ملاحظة أن من يروم الخروج برأي نهائي أو قاطع ـ إن

صح التعبير ـ لا بد له أن يقوم (بتأويل) بعض الروايات، أو عدد قليل منها قد لا يتجاوز روايتين أو ثلاثًا، في ضوء سائر الروايات، ويبقى الحديث في جملته حديثًا صحيحًا ومعمولاً به، من جهة، كما أن النص القرآني بوصفه نصًا متواترًا ـ لا خلاف في ذلك عند أحد من العقلاء ـ قد يسمح بالتشدد في قبول بعض الأحاديث المتصلة بهذا النصّ المتواتر، أو بتفسيره ـ مثل بعض روايات هذا الحديث ـ أو في القيام بتأويلها في ضوء سائر رواياته، كما أشرت قبل قليل.

أولاً ـ بعض الآثار الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف:

١ ـ روى البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعتُ هشامَ بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروفٍ كثيرة لم يُقْرِئْنِيها رسول الله ﷺ، فكدت أُساوره في الصلاة[(١)]، فانتظرته[(٢)] حتى سلَّم، فلبَّبْتُه[(٣)]، فقلت: مَن أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت له: كذبتَ، فوالله إن رسول الله ﷺ لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك! فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ أقوده، فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورةَ الفرقان على حروف لم تُقْرئنيها، وإنك أقرأتني سورة الفرقان! فقال رسول الله ﷺ: «**يا هشام اقرأها**»، فقرأها القراءة التي سمعتُه، فقال رسول الله ﷺ: «**هكذا أُنزلت**»، ثم قال:

---

(١) أي: أواثبه وأقاتله وهو في الصلاة.

(٢) وفي رواية: فتصبّرت.

(٣) أي: بردائه، والمعنى: أخذت بمجامع ردائه في عُنقه وجذبته به؛ مأخوذ من اللبَّة. أو: جمعت عليه ثوبه عند لبّته وجررته به لئلا يتفلّت.

«**اقرأ يا عمر**»، فقرأتها التي أقرأنيها، فقال رسول الله ﷺ: «**هكذا أُنزلت**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه**»[(١)].

٢ ـ وروى البخاري ومسلم أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرأني جبريل على حرفٍ فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف**»[(٢)].

٣ ـ وروى الترمذي عن أُبيّ بن كعب قال: لَقِيَ رسول الله ﷺ جبريلَ عند أحجار المِراء[(٣)]، قال: فقال رسول الله لجبريل: **إني بعثت إلى أمّة أميين، فيهم الغلام والخادم والشيخ العاسي والعجوز**، فقال جبريل: «فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف». وفي لفظ: «فمن قرأ بحرف منها فهو كما قرأ».

ثانيًا ـ حول دلالة هذه الآثار:

١ ـ وأول ما يطالعنا في هذه الآثار: أن المراد بالأحرف السبعة ـ عمومًا وقبل استعراض المذاهب الرئيسة في ذلك ـ **إنما هو وجوه في الألفاظ وحدها، أي القراءة أو القراءات**، لأن الخلاف الذي أشير إليه في الحديثين الأول والأخير ـ وفي أحاديث أخرى كثيرة ـ كان يدور حول قراءة الألفاظ لا تفسير المعاني أو أقسام المعاني! قال عمر رضي الله عنه: «إني سمعت هذا يقرأ القرآن على حروف لم

---

(١) صحيح البخاري (ح٥٠٤١)، ص١٠٠٠، و مسلم بشرح النووي (ح٨١٨)، ص٥٤٢.

(٢) صحيح البخاري (ح٤٩٩١)، ص١٩٣، و مسلم بشرح النووي (ح٨١٩)، ص٥٤٣.

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٥)، قال المحقق رحمه الله: إسناده حسن صحيح. وأحجار المراء: موضع بقباء خارج المدينة. و(عَسا الشيخ): إذا كَبُر وأسنَّ وضَعُف بصره ويَبِس جلده وصَلُب. وزاد في رواية: «والرجل العاسي الذي لم يقرأ شيئًا قط».

تقرئنيها!» ولأن هشامًا كان يقرأ في الصلاة! وليست الصلاة محل تفسير القرآن وإيضاح معانيه، فإنها لا تصلح بشيء من ذلك، ولهذا فقد أبعد عن الصواب مَن ظَنَّ أن المراد بالأحرف السبعة معاني الأحكام! «كالحلال والحرام والمحكم والمتشابه والأمثال والإنشاء والأخبار» أو «كالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمجمل والمبين والمفسر» أو معاني ـ أقسام ـ القرآن، قال: وهي الأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، والقصص، والمجادلة، والأمثال! أو غير ذلك من تقسيماتهم. **ولأن** الصحابة رضي الله عنهم لم يختلفوا في تفسير القرآن ولا أحكامه، ولكن اختلفوا في قراءة حروفه!

ولأن التوسعة بالقراءة بأي حرف لا يمكن أن تقع في تحليل حرام!! ومن المحال أن يكون الحرف حرامًا لا ما سواه، أو يكون حلالاً لا ما سواه، أو أن يكون محكمًا أو متشابهًا أو أمثالاً أو وعدًا أو وعيدًا! بل إن قراءة القرآن على أنه حلال كله، أو أمثالٌ كلُّه.. لا يمكن أن يقول به أحد، لأنه أبعد من المحال! علمًا بأن تفسير الأحرف السبعة على أنها أنواع من القرآن ـ كهذه التي ذكرنا طرفًا منها ـ تجاوزت العشرين من الأقوال والآراء! وكلها لا يُعتدّ به، ولا يُلتفت إليه!

موضوع هذه الأحرف إذن: **وجوه الألفاظ لا أقسام المعاني**. أي: أنها تدور حول قراءة القرآن وتلاوته، وليس حول تفسيره وأقسامه ومعانيه. ومن هنا قيل: حرفُ أُبيّ، أي قراءته وطريقته.

وقد تكفل الطبري ببيان هذه النقطة.. لا أقول بما لا مزيد عليه، بل بما يزيد في ذلك عن الحاجة! وقد أوجزها، أو عبّر عنها أبو العباس المهدوي المقرئ

بقوله في هـذا الحديث ـ حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ـ «فأكثرهم على أن معناه: في الألفاظ المسموعة، لا في المعاني المفهومة»[١].

٢ ـ كما تدل هـذه الآثار على أن تلك الحروف **معروفة بطريق السماع عن النبي** ﷺ، لقول هشام في الحديث الأول: «أقرأنيها رسول الله ﷺ» ولقول النبي ﷺ: «هـكذا أنزلت»، ويفهم من هـذا الحديث الثاني ـ **هـكذا أنزلت** ـ أن بعض هـذه الحروف نزل بها الوحي ابتداء، ولهـذا توصف بأنها من (إقراء) الوحي، في حين قد توصف الحروف الأخرى بأنها من (إقرار) النبي ﷺ. **وكل ما ينطبق عليه مُسمَّى التبديل هو من إقراء الوحي**[٢]، علمًا بأن الاقتصار على محل السماع واجب في حالتي الإقرار والإقراء.

حكم قراءة القرآن بالمعنى:

أخرج الإمام أحمد والطبراني من حديث أبي بكرة «أن جبريل قـال: يـا محمـد اقرأ القرآن على حرف، قال ميكائيل: استزده!.. حتى بلغ سبعة أحـرف. قـال: كـلٌّ شافٍ وكافٍ، ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، نحو قولـك: تعـال، وأقبل، وهلَّم، واذهب، وأسرع، وعجّل».

قال السيوطي: هـذا اللفظ رواية أحمد، وإسناده جيـد. وعنـد أبـي داود، عـن أبـيّ: «**قلت**: سميعًا عليمًا، عزيزًا حكيمًا، ما لم تخلط آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب»[٣].

---

(١) انظر رسالته بعنوان: «بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات» ص٢ من الرسالة (ص٢٤٠ من كتاب: نصوص محققة في علوم القرآن للدكتور حاتم صالح الضامن).

(٢) انظر: الآية ١٥ من سورة يونس. وسوف نستشهد بها ونعلق عليها بعد قليل.

(٣) الإتقان للسيوطي (١ ٢١٦ ـ ٢١٧) تحقيق د. قيسية. دار النداء.

قلت: معنى هذا الحديث: التأكيد على اتفاق هذه الحروف في المعنى والمفهوم وإن اختلفت في المبنى واللفظ، وليس معناه جواز التبديل والتغيير، قال الحافظ ابن عبد البر في شرح الحديث: «إنما أراد بهذه ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنها معانٍ متفقٌ مفهومُها، مختلفٌ مسموعها، لا يكون في شيء منها معنًى وضدُّه، ولا وجهٌ يخالفُ معنًى خلافًا ينفيه ويُضادُّه، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده!»[(١)].

ونشير هنا إلى نقطتين: **الأولى**: أن رواية الإمام أحمد التي قال السيوطي: إن إسنادها جيد، قال فيها محققو كتاب المسند إن الحديث صحيح لغيره، دون قوله في آخره «نحو قولك: تعال وأقبل.. إلخ» بمعنى أن هذه الزيادة لا تصح، ويبدو أنها أضيفت من باب الشرح والتفسير، وهو لا ريب شرح فاسد، وتفسير غير سديد.

أما **النقطة الثانية**: فهي أن بعض العلماء الآخرين ضعّف هذا الحديث بجملته ـ سندًا ومتنًا ـ ويبدو لنا أن القدر الصحيح من هذه الرواية لا يتعدى قول النبي ﷺ: «**كل شافٍ كافٍ**» أو «**كلها شاف كاف**» كما لا يتعدى في الروايات الأخرى قوله ﷺ: «**قلت: سميعًا عليمًا، عزيزًا حكيمًا**». أما مسألة ألا يختم ـ أو يخلط ـ آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، فهي مسألة أخرى **منقولة عن الصحابة** في باب التلاوة أو قراءة القرآن، أو في مسألة (**الوقف والابتداء**)، ولا صلة لها بمسألة نزول القرآن!! روي عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم قالوا: «يجب ألا يخلط القارئ آية رحمة بآية عذاب، على ما يقتضيه حكم الله تعالى»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكامل في القراءات الخمسين لأبي القاسم الهذلي (ت٤٦٥هـ)، (١ ٤٧١)، مؤسسة الفرقان، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

قال ابن عطية: «ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: فاقرؤوا ما تيسر منه، بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدِّل اللفظة من بعض هذه اللغات، جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضًا أن يُبدِّل، حتى يكون غيرَ الذي نزل من عند الله!! وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي عليه السلام ليوسع بها على أمّته، فقرأ مرة لأُبيّ بما عارضه به جبريل صلوات الله عليهما، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضًا».

قال: «وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] قرأها: «وأصوب قيلاً»، فقيل له: إنما تقرأ «وأقوم» فقال أنس: «أقوم وأصوب وأهيأ واحد»، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي ﷺ، وإلا فلو كان لأحدٍ من الناس أن يصنعه لبطل معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [(١)] [الحجر: ٩].

القراءة بالمعنى إذن باطلة ومرفوضة، وليست هي المرادة بالحروف السبعة، أو أحد وجوهها على كل حال، ولا تعدو أن تكون قراءة تفسيرية، أو تفسيرًا من التفسير.

قال الحافظ الدمشقي المشهور بابن الجزري: «وأما من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه! إنما قال: نظرت القراءة فوجدتهم متقاربين فاقرؤوا كما عُلِّمتم» [(٢)].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١ ٤٥ ـ ٤٦)، طبع قطر.

(٢) روي عن عبد الله بن مسعود قال: «إني سمعت القَرأَة فوجدتهم متقاربين، فاقرؤوا كما عُلِّمتم، وإياكم والتنطّعَ والاختلافَ، فإنما هو كقول أحدكم: هَلُمَّ وتعالَ» أخرجه ابن جرير الطبري:

=

ثم إن التغيير والتبديل، بمرادف أو بغير مرادف، مرفوض بقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، فإذا كان هذا ليس من حق النبي نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فكيف يسوغ ذلك في حق أحدٍ من الناس!

٣ ـ وتدل الأحاديث السابقة ـ وبخاصة الحديث الثالث ـ على أن الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف هو **التيسير على الأمة الإسلامية جميعًا** وأوّلهم العرب الذين شرفوا بهذا الكتاب الكريم، فقد كان فيهم من الاختلاف في اللهجات ونبرات الأصوات وطريقة الأداء، ما يشق معه الأداء الواحد، أو القراءة الواحدة في جميع هذه الأمور.. فكان نزول القرآن على سبعة أحرف لونًا من ألوان التيسير والتسهيل ورفع الحرج.

فإذا ذكرنا بلاغة القرآن التي بلغت حد الإعجاز، وذكرنا من ألوان هذا الإعجاز وصوره: النظمَ القرآني الذي شمل أدق الاحتمالات التركيبية للألفاظ العربية، وما يتصلَ بذلك من نظام القرآن الصوتي ـ بحيث يستقيم لقارئ القرآن ومتلقيه أن يقرأ سائر نصوص العربية ولا عكس ـ أدركنا معنى كلام النبي ﷺ عن الغلام والجارية، والخادم والشيخ العاسي، والعجوز، وأدركنا من ثم طرفًا من حكمة التيسير والتسهيل.

=

جامع البيان (١ ٥٠)، حديث ٤٨، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠ ٤٨٨)، وأخرجه الإمام أحمد في حديث طويل.

٤ ـ ويمكننا أن نستدل من هـذه الأحاديث أيضًا على أن هـذه الأحـرف يبعـد أن يراد بها اللغات، فقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بها ـ أي الأحرف ـ سـبع لغات من لغات العرب: بمعنى أن هـذه الأحرف جمعت بين لغات القبائل العربية، وهـذا بعيد كما قلنا، لأن النبي ﷺ قال: «منهم الغلام والخادم والشيخ العاسـي»، ولم يقل: فيهم الهذلي والقرشي والثقفي والكناني.. إلخ.

٥ ـ ويدل الحديث الثالث (عند أحجار المـراء بالمدينـة) أن **الحـروف التـي كانت من إقرار النبي ليس فيها تبديل لفظ بآخر**، لأن هـذا من الحروف التـي نـزل بها الوحي أو كانت خاصّة به: «هـكذا أنزلت». كما أشرنا قبل قليل، والإقرار كـان رخصة من النبي الكريم لأصـحاب الأعـذار الـذين سـبقت الإشـارة إلـيهم، أمـا **(الإقراء)** الذي كان منه ابتداء، فهو من القرآن المنزل.

وقد روى الإمام مسلم بسنده عن أُبي بن كعب (أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار[(١)] قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمَّتُك القرآن على حرف، فقال: «**أسأل الله معافاتَه ومغفرتَه، وإن أمتي لا تطيق ذلك**» ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين. فقال: «**أسأل الله معافاتَه ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك**» ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآنَ على ثلاثة أحرف، فقال: «**أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك!**» ثم جاءه الرابعة فقال: «**إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآنَ على سبعة أحرف، فأيُّما حَرفٍ قرؤوا عليه فقد أصابوا**»[(٢)].

---

(١) الأضاة ـ بفتح الهمزة ـ مستنقع الماء كالغدير، ونسب إلى بني غفار لأنهم نزلوا بالمدينة عنده.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (ح رقم ٨٢١)، ص٥٤٤، بيت الأفكار الدولية. قال الشريف المرتضى (أبو القاسم علي بن الحسين ت٤٣٦هـ) في سياق حديثه عن تنزيه النبي صلى الله عليه =

وقد وقع ذلك في المدينة المنوّرة، فأحجار المراء وأضاة بني غفار كلاهما بالمدينة. وهـذا المجتمع المدني غير متجانس بحكم تكوينه، وبسبب كثرة الوافدين إليه من الراغبين في الإسلام من أنحاء الجزيرة وخارجها[1] أي أن

=

وآله: «**فإن قيل**: فما الوجه فيما روي من أن الله تعالى لما أمر نبيه أن يقرأ القرآن على حرف واحد، قال له جبريل عليه السلام: استزده يا محمد، فسأل الله تعالى حتى أذن له أن يقرأه على سبعة أحرف؟.

الجواب: قلنا إن الكلام في هـذا الخبر يجري مجرى ما ذكرناه في المراجعة عند فرض الصلاة، وليس يمتنع أن تكون المصلحة تختلف بالمراجعة والسؤال، وإنما التمس الزيادة في الحروف للتسهيل والتخفيف؛ فإن في الناس من يسهل عليه التفخيم، وبعضهم لا يسهل عليه إلا الإمالة. وكذلك القول في الهمز وترك الهمز. فإن كان هـذا الخبر صحيحًا، فوجه المراجعة فيه هو طلب التخفيف ورفع المشقة». تنزيه الأنبياء ص١٦٧، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩١ ـ ١٤١٢هـ، ط١.

قلت: هـذا الخبر أو الحديث رواه من محدّثي الإمامية: الشيخ الصدوق ـ صاحب كتاب من لا يحضره الفقيه الكتاب الثاني من كتب (الحديث) الأربعة عندهم ـ فقد أخرج بسنده أن رسول الله ﷺ قال: أتاني آتٍ من الله، فقال: إن الله عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: يا رب وسّع على أمتي، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: يا رب وسع على أمتي، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: يا رب وسع على أمتي، فقال إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف». الخصال لابن بابويه (الصدوق)، ص٣٨٢.

ونذكر بهذه المناسبة: أن الكليني ـ محدثهم الأول ـ روى في كتابه الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام (جعفر الصادق): إن الناس يقولون: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، فقال: «كذبوا! أعداء الله، ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد» أصول الكافي (٢ ٨٢٤). قلت: وسند الحديث هو: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن الفضيل بن يسار، وقد أشرنا في الكتاب إلى أن علي بن إبراهيم هو رائد القول بتحريف القرآن. ونحن لا نصدق شيئًا مما يقوله، ولا نثق بشيء مما يرويه!

(١) تاريخ القرآن للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، ص٤٢.

الحاجة إلى التوسعة والتسهيل برزت في المدينة، ولم تكن في مكة حين كان القرآن ينزل على قوم يتفقون كذلك في اللهجة، وليس في اللغة فحسب.

٦ ـ وذهب كثير من العلماء إلى أن هـذا الحديث والحديث الثاني السابق، يدلان على أن **المراد بالسبعة العدد الحقيقي**، وليس مجرد التوسعة والتسهيل، لأن النبي ﷺ كان يستزيد الملك حرفًا وراء حرف حتى بلغ سبعة أحرف[(١)].

أما الذين قالوا: إن المراد بهـذا العدد مطلق السعة والتيسير، فقد استدلوا على ذلك بأن العرب يطلقون لفظ السبعة والسبعين والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٨٠]، أي أن العدد «سبعة» كناية عن الكثرة في الآحاد، والسبعين كناية عن الكثرة في العشرات، كما يستعمل السبعمائة للكثرة في المئات.

ثالثًا ـ ما هي هـذه الأحرف السبعة؟

١ ـ من الواضح، بعد ما قدمناه، أنه لا يراد بهـذه الأحرف: «سبع لغات أو لهجات من لغات العرب أو لهجاتهم ـ أو من لغات غيرهم[(٢)] ـ أحصاها بعضهم أو اختلفوا في عدها وإحصائها.. لأن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم اللذين اختلفا ـ في الحديث الأول ـ كلاهما من قريش ولغتهما ولهجتهما واحدة!!.

وربما أمكن القول: إن سبب هـذا الاختلاف يعود إلى سابقة عمر رضي الله عنه ورسوخ قدمه في الإسلام، بخلاف هشام الذي كان من مسلمة الفتح، وقد

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن ص٣٦، ومقدمة كتاب المباني ص٢١٨.

حفظ سيدنا عمر سورة الفرقان قديمًا، بوصفها سورة مكية، ثم لم يسمع ما قرئت به بخلاف ما قرأه وحفظه رضي الله عنه، ولا يبعد أن يكون سماعه بحديث الأحرف السبعة إنما كان في هـذه الواقعة، ولهـذا بادر بالإنكار على هشام، خشية أي خطأ أو حيف يلحق بكتاب الله تعالى[1].

قال الحافظ أبو عمرو الداني: «معنى الأحرف التي أشار إليها النبي ﷺ هاهنـا يتوجه إلى وجهين:

أحدهما أن يعني أن القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات، لأن الأحرف جمع حرف في القليل (أي: من جموع القِلّة) ـ كفلس وأفلس ـ والحرف قد يراد به الوجه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: ١١] فالمراد هنا الوجه، أي على النعمة والخير وإجابة السؤال والعافية، فإذا استقامت له هـذه الأحوال اطمأن وعَبَد الله، وإذا تغير عليه وامتحنه بالشدة والضرّ ترك العبادة وكفر، فهـذا عَبَد الله على وجه واحد! قال الداني: «**فلهـذا سمَّى النبي ﷺ هـذه الأوجه المختلفة من القراءات والمتغايرة من اللغات أحرفًا، على معنى أن كل شيء منها وجه**».

٢ ـ وذهب بعض العلماء من القدامى والمعاصرين إلى أن «كل حرف من الأحـرف السبعة المنزلة جنس ذو نوع من الاختلاف» على حد تعبير الإمام المقـرئ أبـي الفضـل عبد الرحمـن بن أحمـد الـرازي (٣٧١ ـ ٤٥٤هـ) أي أن الأحـرف السـبعة تمثـل أنـواع الاختلاف أو التعدد في كلام العرب، والتي لا تخرج عنها القراءات أيًّا كان عددها.

وقد جرى التعبير عن وجوه التعدد أو الاختلاف هـذه ـ في كلام العرب ـ على

---

(١) راجع: فتح الباري لابن حجر، (٩ ٢٦)، المطبعة السلفية، إشراف محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب رحمهما الله تعالى.

أنحاء متقاربة أو متطابقة. وقد أشار إليها أولاً ابن قتيبة (ت٢٧٦)، ومكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ)، وأبو العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت٤٤٠هـ)[1] ثم الرازي المشار إليه وتابعهم في ذلك فيما بعد الحافظ الدمشقي المشهور بابن الجزري (ت٨٣٣).

ونعرض فيما يلي لهـذه الوجوه على النحو الذي ذكره الرازي، سواء أذهب هو إلى ترجيحه والقول به، كما اشتهر عنه، أم إنه اكتفى بعرضه في سياق تعداده للآراء التي قيلت في تفسير الأحرف السبعة، أو «التأويلات التي يحتملها الخبر» على حد قوله. ونضيف نحن إلى هذه الوجوه: التمثيل لها ببعض الشواهد القرآنية الموضحة، والتي استشهد بنحوها بعض العلماء إلى جانب الشروح.

قال الرازي في هـذه الوجوه:

« **أحدها**: اختلاف أوزان الأسماء من الواحد والتثنية والجموع، والتذكير والمبالغة، وغيرها [ومثاله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨، والمعارج: ٣٢]، قرئ هكذا بالجمع «لأماناتهم» وقرئ بالإفراد «لأمانتهم».]

والثاني: اختلاف تصريف الأفعال وما يسند إليه، نحو الماضي والمضارع والأمر.. وأن يسند إلى المذكر والمؤنث والمتكلم والمخاطب والفاعل والمفعول به [نحو قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] قرئت «ربُّنا باعَدَ»، فالقراءة الأولى بنصب لفظ «ربنا» على أنه منادى، و«باعد» فعل دعاء. والثانية «ربنا» مبتدأ، و«باعد» فعل ماض خبر].

---

(١) ذكر الصفدي والسيوطي أنه توفي في حدود هذا العام (٤٤٠هـ) وأشارت المصادر الأخرى إلى أن وفاته كانت بعد سنة ٤٣٠. راجع: الدكتور الضامن في مقدمة التحقيق.

والثالث: اختلاف وجوه الإعراب [كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧] على أن الفعل لآدم، وقرئ بنصب «آدم» ورفع «كلمات» على أن الكلمات هي التي تلقته.

ولا فرق في هـذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب في اسم، كما رأيت، أو فعل، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ من آية المداينة: [البقرة: ٢٨٢]، قرئ بفتح الراء وضمها، فالفتح على أن «لا» ناهية والفعل مجزوم، والفتحة في الراء هي فتحة إدغام المثلين، أما الضم فعلى أن «لا» نافية ـ والمعنى على الإخبار ـ والفعل بعدها مرفوع.

وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]، قرئ: «وهل يُجازَى إلا الكفورُ»].

والرابع: الزيادة والنقصان، [نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۖ﴾ [يس: ٣٥]، قرئ: «وما عملت أيديهم» وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤]، قرئ: «بالبينات وبالزبر» بإعادة الباء في «الزبر». وقرئ كذلك «بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير» بإعادة الباء كذلك في «الكتاب».]

والخامس: التقديم والتأخير [نحو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ﴾ [ق: ١٩]، قرئ أيضًا: «وجاءت سكرة الحق بالموت»، ونحو قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١]، بالتبادل بين البناء للمعلوم والمجهول.][(١)]

---

(١) وجه القراءة في تقديم المبني للمجهول (فيُقتَلون) ـ بضم الياء وفتح التاء ـ أن القتل الذي يقع في صفوفهم لا يوهن من عزائمهم، أو عزائم من يبقى منهم، فهـؤلاء يتابعون الجهاد ويقتلون الأعداء، أو يوقعون القتل في صفوفهم. ولا يفهم من الآية أصلاً ـ على أي وجهٍ قُرئت ـ أن القتل

=

والسادس: القلب والإبدال في كلمة بأخرى، أو أحرف بأُخر، [كقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، قرئت «فتثبتوا» وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩ و٥٣]، قرئت «إن كانت إلا ذِقْيةً» وقوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ [الواقعة: ٢٩]، قرئ: «وطلع» بالعين، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ [التكوير: ٢٤]، و«بظنين» فلا فرق هنا أيضًا بين الاسم والفعل].

والسابع: اختلاف اللغات ـ [يريد اللهجات أو هيئة النطق باللفظ ـ من فتح وإمالة وتفخيم وترقيق وتحقيق وتسهيل وإدغام وإظهار ونحو ذلك؛ فلا فرق في هـذا الوجه بين الفعل والاسم والحرف]، قرئ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ [النازعات: ١٥][(١)] بالفتح والإمالة في «أتى» و«موسى»، وقرئ بهما أيضًا في لفظ «بلى» في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: ٤]][(٢)].

=

يأتي عليهم جميعًا، أو أنه يَسْتَأصِلُ الفَرِيقَيْنِ.. والمعنى أنهم يوقعون في عدوهم، ويوقع عدّوهم فيهم.. لـكن القراءة التي نتحدث عنها ـ قراءة تقديم المبني للمجهول ـ ربما دلّت كذلك على أن اندفاع الكثرة المادية للعدو بعدده وسلاحه «تصدم» المسلمين وتسبق ـ غالبًا ـ إلى وقوع القتل في صفوفهم.. ويكون هـذا في أول القتال.. ولـكن اعتصام المسلمين بإيمانهم أو بقوتهم الروحية والمعنوية، وإصرارهم على طلب إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.. يكتب لهم الغلبة بعد ذلك. وهـذا ما دل عليه واقع الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون في غالب الأحوال. وصدق الله العظيم: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.. وَيُقْتَلون وَيَقْتُلونَ.. وقد قرأ بقراءة ما لم يسمّ فاعله: حمزة والكسائي. وسمّاها بعض المفسرين: قراءة تقديم فعل المفعولين على فعل الفاعلين.

(١) ورد اسم موسى عليه السلام في القرآن الكريم ستًّا وثلاثين ومئة مرة، وفي سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩﴾ بزيادة الواو.

(٢) ذهب إلى هـذا الرأي في تفسير الأحرف السبعة من المعاصرين: الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، والدكتور موسى شاهين لاشين، والدكتور صبحي الصالح بعد أن قام بدمج الوجهين الثاني والثالث، لأن تصريف الأفعال داخل في الاختلاف في وجوه الإعراب. وأضاف وجهًا سابعًا

=

٣ ـ تصنيف آخر للأحرف السبعة: وفي وسعنا، في ضوء الأوجه السبعة التي عددها أبو الفضل الرازي وابن الجزري، والتي لا تخرج عنها القراءات «صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها» أن نردّ هذه الأحرف إلى اختلاف الحركات، واختلاف الحروف، إلى جانب بعض الوجوه الأخرى، وذلك على النحو الآتي:

أ ـ اختلاف الحركات، وتحته وجهان:

١) اختلاف الحركات بدون تغيير في المعنى والصورة. نحو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] قرأ الكوفيون: «تساءلون» بفتح السين وتخفيفها وبألف قبل الهمزة. وقرأ الباقون بتشديد السين[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧] قرأ حمزة والكسائي: «بالبَخَل» بفتح الباء والخاء، وقرأ الباقون بضم الباء وإسكان الخاء. والبُخل والبَخَل لغتان[(٢)].

٢) اختلاف الحركات مع تغيير المعنى فقط (دون الصورة) نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة: ١١٩]، قرأ نافع ويعقوب: «ولا تَسأَلْ» مفتوحة التاء، مجزومة اللام. وقرأ الباقون: «ولا تُسألُ» مضمومة التاء واللام[(٣)].

=

هو الاختلاف في الحروف مثل: «يعملون وتعملون، والصراط والسراط» وقد أفاد الدكتور صبحي هذا من جملة ما ذكره ابن الجزري رحمهما الله تعالى.

راجع: مناهل العرفان للزرقاني ١ ١٥٥ ـ ١٥٧، و مباحث في علوم القرآن للدكتور الصالح ص١٠٩ ـ ١١٦، و اللآلئ الحسان للدكتور لاشين، ص١٢١ ـ ١٢٣، وانظر كتاب: النشر في القراءات العشر لابن الجزري، (١/ ٢٦).

(١) الكتاب الموضح لابن أبي مريم، (١/ ٤٠١).

(٢) المصدر السابق، (١/ ٤١٦).

(٣) نفس المصدر، (١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر (المؤمن): ٣٧]، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: «وصَدّ» بفتح الصاد، وقرأ الكوفيون ويعقوب: «وصُدّ» بضم الصاد[(١)].

ب ـ اختلاف (أو تغيير) الحروف. وتحته ثلاثة وجوه:

١) تغيير الصورة والمعنى. نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب «بظنين» بالظاء. (أي ما هو على الغيب بمتهم، بل هو الثقة فيما يخبره عن الله تعالى). وقرأ الباقون: «بضنين» بالضاد، أي ليس ببخيل، والمعنى أنه يخبر بالغيب ولا يكتمه، كما يكتم الكاهن ما يسأل عنه حتى يأخذ أجرًا أو حلوانًا![(٢)].

ونحو قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «أو نَنسأها» بفتح النون الأولى وبالهمزة، أي نؤخرها. وقرأ الباقون: «نُنْسِها» بضم النون الأولى وكسر السين غير مهموز. ومعناه: نُنسكم إياها[(٣)].

٢) تغيير الصورة فقط (دون المعنى) نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: «ويبسط» بالسين. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب: «ويبصط» بالصاد[(٤)].

٣) تغيير المعنى فقط (دون الصورة)، نحو قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ

---

(١) المصدر السابق، (٣/ ١١٢٦).

(٢) الكتاب الموضح لابن أبي مريم، (٣ ١٣٤٤).

(٣) نفس المصدر، (١/ ٢٩٥).

(٤) نفس المصدر، (١/ ٢٣٤).

نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ [يونس: ٣٠]، قرأ حمزة والكسائي: «هنالك تتلو» بتائين؛ من التلاوة وهي القراءة. وقرأ الباقون: «تبلوا» بالباء؛ من البلاء، وهو الاختبار[(١)].

قلت: فهـذه خمسة حروف أو أوجه، يضاف إليها وجهان أو حرفان آخران، هما:

١) **الزيادة والنقصان،** نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ [البقرة: ١١٦]، قرأ ابن عامر وحده: «قالوا» بغير واو عطف. وقرأ الباقون: «وقالوا»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢]، قرأ نافع وابن عامر: «وأوصى» بالألف، وقرأ الباقون: «ووصّى» بالتشديد.

٢) **التقديم والتأخير،** نحو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: ١٩]، قرأ ابن مسعود: «وجاءت سكرة الحق بالموت». وقوله تعالى: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١]، قرأ حمزة والكسائي: «فَيُقْتَلون» بضم الياء وفتح التاء «ويَقتُلون» بفتح الياء وضم التاء، وقرأ الباقون: «فَيَقتلُون» بفتح الياء وضم التاء. «ويُقتَلون» بضم الياء وفتح التاء، على تقديم فعل الفاعلين على فعل المفعولين[(٣)].

فهـذه **سبعة أوجه،** يضاف إليها «نحو اختلاف الإظهار والإدغام والرَّوم، والإشمام، والتخفيف، والتسهيل، والنقل، والإبدال..» على حد قول المقرئ ابن الجزري؛ قال: «وهـذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى، لأن

---

(١) نفس المصدر، (٢/ ٦٢٢).

(٢) الكتاب الموضح (١/ ٢٩٦).

(٣) نفس المصدر، (٢/ ٦٠٩).

هـذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظًا واحدًا. ولئن فرض، فيكون من الوجه الأول، وهو الذي لا تتغير فيه الصورة والمعنى»[(١)].

ومعنى ذلك أن ابن الجزري يلحق هـذا الوجه ـ الـذي ينطـوي تحتـه كـذلك اختلاف اللهجات ـ ببعض الوجوه السابقة. وسواء تابعناه في ذلك أم قلنا: إنه وجه ثامن يضاف إلى الوجوه السابقة، فإن ما نرجحـه في تفسـير الأحـرف السـبعة التـي وردت فيها الأحاديث والآثار؛ في ضوء هـذا التقسيم أو التبويـب الـذي أشـار إلى معالمه ابن قتيبة وابن الجزري، وذاك الذي ذكـره الـرازي وغيـره.. وفي ضـوء مـا أشرنا إليه من أنه لا يخلو تفسير من تفاسير هـذه الأحرف، أو رأي من الآراء، مـن نقد أو تعقيب، أو عدم اتساق مع بعض روايات الحديث، هو ما يلي:

٤ ـ الرأي الراجح أو المختار: عندما يلحظ المرء أن كـلا هـذين التقسـيمين للأحرف السبعة أو لوجوه اختلاف الكلام التي اتسعت حتى للحروف الشـاذة أو المخالفة لخط المصحف؛ فإنه يجد أثر الأحـرف السـبعة في التوسـعة والتسـهيل حقيقة، أو أن هـذه الأحرف قد أدّت هـذه المهمة على أحسن وجوه الأداء. ويبقى علينا أن نعلم أو ندرك أن هـذه التوسعة إنما هي على معناها العـام، أو عـلى أوسـع معانيها لذلك، وليس على معنى تقييدها أو حصرها في هـذا العـدد، ويؤيـد ذلـك: الإشارة إلى الغلام والعجوز والشيخ العاسي. كما يؤيده أن هـذا كـان في المدينـة وليس في مكة.

---

(١) النشر في القراءات العشر (١ ٢٦).

ويصعب علينا الالتزام بحقيقة هذا الرقم (٧) دون دلالته العربية ـ أو في استعمال العرب ـ على مجرد التوسعة والتيسير والتسهيل، لأن هذا الالتزام غير ممكن مع قول النبي ﷺ: «**إن أمتي لا تطيق ذلك**»، أي لا تطيق القراءة على حرف واحد أو على حرفين أو ثلاثة حروف، حتى إذا بلغت هذه الحروف سبعًا، أي **بلغت حد التوسعة الكامل أو التام، والذي يشمل اختلاف القبائل، ومستويات السّن، ودرجة الدُّربة أو الثقافة**.. إلخ. قال جبريل: «فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا» أي: أيَّ وجهٍ من وجوه الاختلاف هذه.

فإن قيل: إن صيغة الحديث تدل على أن المراد بالسبعة: العدد أو الرقم الحقيقي، الذي هو بين الرقم ٦ والرقم ٨، لأن الاستزادة من الأحرف وقفت عنده!

قلنا: لا بدَّ لنا أن نحمل الأمر على ما حملناه عليه من جميع وجوه التوسعة والتيسير.. دون الالتزام بهذا الرقم، وذلك عملاً بسائر الروايات. وقد يؤيده: أن الانتقال ـ في حديث أضاة بني غفار ـ كان من الثلاثة إلى السبعة مباشرة، أي دون النص أو المرور على سائر الأرقام حتى يصل إلى هذا الرقم، فقد يومئ هذا الانتقال إلى مجرَّد التوسعة أو يدُلُّ عليها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا ندري كيف يمكن القراءة بأحد هذه الوجوه السبعة أيًّا كان؟ وهل معنى قراءتهم بحرف واحد، قبل أن يرتقي المَلَك في عدد الأحرف إلى السبعة، أن لهم أن يقرؤوا أولاً باختلاف أوزان الأسماء، ثم باختلاف تصريف الأفعال.. حتى ينتهوا إلى سائر هذه الوجوه!!

ولهذا، فإننا نرجح أن يكون المراد بهذه الأحرف السبعة: **مجرد التوسعة أو**

مطلق التوسعة والتيسير والتسهيل، ولا يراد حقيقة العدد. وهو الرأي الذي قال به القاضي عياض ومن تبعه وكان على رأيه من العلماء.[١]

وقد لحظ الرافعي معنىً آخر قريبًا في الرقم (٧) قال رحمه الله: «إنما جعلها سبعة رمزًا إلى ما ألفوه من معنى الكمال في هـذا العدد... وهـذا الرمز من ألطف المعاني وأدقّها؛ إذ يجعل القرآن في لغته وتركيبه كأنه حدودٌ وأبواب لكلام العرب كله، على أنه مع ذلك لا يبلغ منه شيء في المعارضة والخلاف..»[٢] والله تعالى أعلم.

رابعًا ـ الأحرف السبعة بين الرخصة والعزيمة:

والسؤال الذي لا غنى لنا عن ذكر أجوبة العلماء عنه، هـو: هـل كانـت هـذه الأحرف رخصة موقوتة بأجلها انتهت يوم جمع عثمان المصـاحف المشـهورة، أو يوم نسخها وبعث بها إلى الأمصار، أم هي عزيمة وأمر مقـرر لـيس في وسـع أحـد منعه أو إلغاؤه.. أو ـ بعبارة أخرى ـ إن في وسع من شاء أن يقرأ بها قرأ في أي زمان، ومكان، وبشروطها المقررة والمعروفة بالطبع؟!

قال ابن الجزري: «وأما كون المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحـرف السبعة، فإن هـذه مسألة كبيرة اختلف العلمـاء فيهـا، فـذهب جماعـة مـن الفقهـاء

---

(١) انظر الإتقان للسيوطي (١/ ٢١١) تحقيق د. قيسية. والقاضي عياض هو عياض بن موسى اليحصبي البستي، أبو الفضل، عالم المغرب، الحافظ وإمام أهل الحديث في وقته. وأعلم الناس بعلوم الحديث والنحو والأصول واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. من مؤلفاته: الشفا، و طبقات المالكية، و شرح صحيح مسلم. توفي بمراكش سنة ٥٤٤هـ. انظر: الديباج المذهب (٢/ ٤٦)، و إنباه الرواة (٢/ ٣٦٣)، و وفيات الأعيان (٣/ ١٥٢).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص٥٩، بعناية درويش الجويدي: المكتبة العصرية ـ لبنان، ١٤٢٤هـ.

والقرّاء والمتكلمين إلى أنها مشتملة على جميع الأحرف السبعة، بناءً على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن.

«وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وإرسال كل مصحف منها إلى مصر من الأمصار، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك. قالوا: ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن».

وقال أيضًا: «ذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام، متضمنة لها، ولم تترك حرفًا منها[(١)]».

ويكون الصحابة قد أسقطوا من هذه الأحرف ما كان إقرارًا من الرسول ﷺ لأصحاب الأعذار من الشيوخ والعجائز والغلمان؛ بوصف ذلك رخصة مؤقتة زالت بزوال مقتضياتها، حين قدروا على الأداء الأمثل بالتعليم والمران، ونظرًا لاستحالة ضم اللهجات في رمزٍ خطيّ[(٢)]. ومعلوم أن التسهيل لأصحاب الأعذار كان في الوجه السابع أو الأخير من الأوجه السابقة (اختلاف اللهجات).

---

(١) النشر (٢ / ٣١). قال ابن الجزري: «وهذا القول هو الذي يظهر صوابه، لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له».

(٢) راجع: تاريخ القرآن للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، ص٥٤ ـ ٥٥، و مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح، ص١٠٨.

وذهب الطبري إلى أن القرآن دوّن على حرف واحد، هو حرف قريش، ومن ثَمَّ فإن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلاَّ على حرف واحد من الحروف السبعة، وقال: إن هذه الحروف السبعة كانت في صدر الإسلام أيام رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان، ثم رأى عثمان أن تقتصر على حرف واحد من السبعة، جمعًا لكلمة المسلمين، فنسخ المصاحف بهذا الحرف، وهو حرف قريش!

وقد أطال رحمه الله ـ مرة أخرى ـ في الدفاع عن هذا الرأي، وبيان أن الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة فتعصي بتركها أو إهمالها، وإنما كان ذلك جائزًا أو مرخصًا لهم فيه.

قلت: وهذا الذي ذهب إليه أبو جعفر رحمه الله لا يستقيم؛ كما سيتضح بعد قليل، وفي مبحث القراءات القادم، ولأن الأحرف ـ والقراءات ـ الأصل فيها: النقل مشافهة عن النبي ﷺ، وليس في وسع (الرسم) أو المكتوب المدوّن أن يلغيه بحال!

قال صاحب مناهل العرفان: «والتحقيق أن القول باشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها أو بعضها، يتوقف على أمرين:

أحدهما: تحديد المراد من الأحرف السبعة.

وثانيها: الرجوع إلى ما هو مكتوب وماثل بتلك المصاحف في الواقع ونفس الأمر»[1].

قلت: وإذا رجعنا إلى المراد من الأحرف السبعة ـ في ضوء الأحاديث المتقدمة

---

(١) مناهل العرفان (١/ ١٦٩).

ـ وأنها «الأوجه التي رجع إليها كل اختلاف في القراءات، سواءٌ منها ما كان صحيحًا وشاذًا ومنكرًا»، بغض النظر عن حقيقة العدد (سبعة) وكنايته أو مجازه! في الوقت الذي يتعذر علينا الرجوع إلى ما هو مخطوط في هـذه المصاحف في الواقع ونفس الأمر كما يقال ـ وإن كانت كتب التفسير والقراءات تسعفنا بقراءات منسوبة إلى هـذه المصاحف لا يحتملها الرسم الواحد، أو موزعة في الوقت نفسه على هـذه المصاحف ـ فإن في وسعنا أن نذهب إلى الرأي القائل **بمبدأ بقاء الأحرف السبعة بوصفها عزيمة وليست برخصة**. وسوف نزيد هـذه النقطة بيانًا في مبحث القراءات القادم إن شاء الله[(١)]، مع الإشارة إلى أن هـذه القراءات التي لا يحتملها الرسم الواحد نادرة على كل حال. والله تعالى أعلم.

خامسًا ـ من دلالة هـذه الأحرف:

وأخيرًا، فإن لهـذه الأحرف، وما نجم عنها من اختلاف القراءات، دلالتها بما أضافته من المعاني، وأغنت أو أحيت من لغة أو لهجة[(٢)].

ولـكن دلالتها الرئيسة فيما نقدّر ـ وهـذا ما يؤكد مبـدأ بقائهـا في المصـاحف واستمرار العمل بها ـ أنها واحد من أدلة الإعجاز في النظم القـرآني.. هـذا الـنظم الذي يجري عليه كل هـذه الأوجه السابقة، ويبقى حيث هو في الموضـع الـذي لا يعتلّ بأفواه قارئيه، ولا يختل بآذان سامعيه!! ويظهر ذلك من أدنى مقارنـة سـريعة

---

(١) ص٣٩١.

(٢) راجع مقدمة كتاب المباني ص٢٣٠ فما بعدها. وانظر كتاب: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبد الصبور شاهين.

بين قراءة نقلت عن النبي ﷺ بطريق التواتر، وبين أي كلمة أو عبارة يقحمها إنسان على النص القرآني!!

ثم هل تجد فيما تعلم كاتبًا يمكن أن يجري على كلامه مثل هـذا الذي عرفت خبره في الأحرف السبعة، ثم يبقى الأسلوب بحيث تركه صاحبه، أو أراد له أن يكون.. ناهيك عن المعجز!.. سبحان ربي الذي أنزل في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

❁❁❁

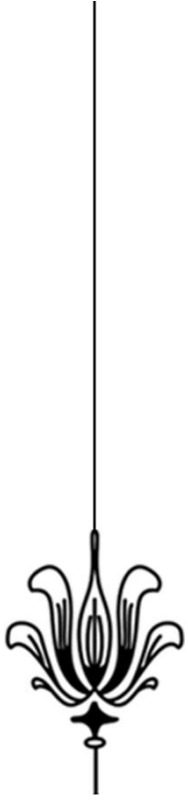

الباب الثالث

علـــوم القـــرآن

- تمهيد: هـذا المصطلح.
- الفصل الأول: أسباب نزول القرآن.
- الفصل الثاني: المكي والمدني.
- الفصل الثالث: فواتح السور.
- الفصل الرابع: المحكم والمتشابه.
- الفصل الخامس: القراءات القرآنية.
- الفصل السادس: الناسخ والمنسوخ.

تمهيد ـ حول مُصْطلح «علوم القُرآن»

(١)

القرآن الكريم هو المصدر الأول للثقافة والتشريع. ولا يخفى أثره المباشر أو البيّن في فروع الثقافة الإسلامية ومكوّناتها، وفي علوم الفقه والتشريع.

فضلاً عن أثره غير المباشر في «العلوم التجريبية» التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية؛ وذلك من خلال «المنهج العلمي» الذي جاء به، والمناخ العقلي الذي أشاعه، والشروط النفسية والاجتماعية التي وفّرها أو حققها للمجتمعات الإسلامية.

ولكن ذلك لا يعني أن نعدّ أنواع هذه العلوم، وفروع تلك الثقافة، أو نسلكها في قائمة ما أسماه العلماء «علوم القرآن» أو أطلقوا عليه هذا المصطلح.

وإنما أطلق هذا المصطلح أو الاصطلاح وبلفظ الجمع (علوم) كما يقول بعض العلماء[(١)] ـ ليشمل «كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه» قال:

«وينتظم في ذلك علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الرسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلوم الدين واللغة، إلى غير ذلك».

---

(١) الأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه: مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٢٣)، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثالثة.

ولـكننا إذا أردنا الدقّة فإن أكثر هـذه العلوم، التي شملها العنـوان السـابق، أو التي جـرت العـادة بدراسـتها والتعـرض لهـا في الكتـب التـي تبحـث في «علـوم القرآن».. يدور أكثرها حول تفسير بعض جوانب القرآن الكريم أو يمهد لشـرحها وتفسيرها، فهي «علوم التفسير» أو علوم تفسير القرآن، إن صح هـذا الإطـلاق أو التعبير، ولهـذا فإن «عدّ» التفسير من هـذه العلـوم أو مـن علـوم القـرآن، وجعلـه قسيمًا أو نوعًا كسائر الأنواع مسألة فيها نظر، لأن أغلب تلك العلوم، كمـا قـدمنا، أريد بها تيسير سبيل شرحه وتفسيره وفهمه.

ولهـذا فقد جرت العـادة بـأن تُصـدّر المصـنفات الكبيـرة في تفسـير القـرآن بمقدمة أو مقدمات تشتمل على أهم تلك العلـوم، عـلى نحـو مـا فعـل أبـو جعفـر الطبري، والراغب الأصفهاني، وابن عطيّة، والقرطبي، وصاحب كتاب المبـاني[1] وغيرهم.

بل إننا نؤكد هـذه الملاحظة بالمقارنة بين الغاية الأساسية أو الـدور الـرئيس لعلوم القرآن وبين الغاية الأساسية أو الغرض الـرئيس مـن «المصـطلح» وعلـوم الحديث.. فإن هـذه الأخيرة تدور حول التحقق من صحة «الحديث» والتأكد من نسبته إلى النبي ﷺ. أما علوم القرآن فتدور حول تفسير القرآن وتسهيل سبيل فهمه وشرح معانيه.

وغني عن البيان أن من يطالع مثل هـذه المؤلفات ـ فضلاً عـن الكتـب التـي

(١) ذكر بعض الباحثين أن صاحب هـذا التفسير هو: حامد بن أحمد بن جعفر بن بسطام، من علماء القرن الخامس الهجري. وكنا قد بحثنا عن مؤلف هـذا الكتاب في وقت سابق ـ منذ عقود ـ ولـكننا لم نهتد إليه.

صنفت في كل واحد من هذه العلوم، كالمكّي والمدني، وفواتح السور، وتشبيهات القرآن، وقصصه وأمثاله، وإعجازه،.. ونحو ذلك ـ يكون قد قطع شوطًا حسنًا في التفسير وفهم القرآن، أو تذوّق بيانه والعقل عنه.. نظرًا لوقوفه على جملة من المعاني الجامعة التي تدور حول القرآن بجملته، أو حول طوائف من الآيات التي انتظمت في سلك هذه العلوم.

(٢)

وأيًّا ما كان الأمر، فإن بدء الكتابة والتأليف في كل علم من علوم القرآن كان سابقًا لجمع أطراف هذه العلوم في كتب خاصة جامعة، على نحو ما نراه في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، المتوفى عام (٧٩٤هـ) والذي بحث في سبع وأربعين نوعًا أو علمًا من هذه العلوم، في أربعة مجلدات.

وكتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المتوفى عام (٩١١هـ) والذي بحث في ثمانين علمًا من هذه العلوم، مقتفيًا في منهجه بصورة عامة أثر الزركشي وناظرًا في كتابه، وقد أثنى عليه ونقل خطبته ـ مقدمة كتابه ـ كاملة، في مقدمة كتابه هو. ووصفه بأنه كتاب حافل، وأنه حين وقف عليه ازداد به سرورًا، وحمد الله تعالى كثيرًا. ويوجد قبل هذين الكتابين الجامعين ـ المطبوعين ـ كتب أخرى سابقة لم يكن من همنا استقصاؤها والوقوف عندها لتحقيق من هو السابق من العلماء لاستعمال مصطلح «علوم القرآن» بالمعنى المشار إليه. ولكننا نشير إلى أن استعراض فهارس الكتب المخطوطة للوقوف على اسم المؤلف الأول أو الثاني الذي وضع على كتابه ذلك العنوان ـ علوم القرآن ـ لا يكفي، بل هو إلى الخطأ ومجانبة الصواب أقرب! لأن كثيرين من

القدماء استعملوا اللفظ السابق بمعنى «علوم التفسير» على نحو ما أشرنا أو قريبًا منه، إلا أن كتبهم هي في تفسير القرآن، ولـكنهم عرضوا تفسير الآية، أو رتّبوا القول في شرح الآية أو الآيات على فقرات تشتمل على «القراءة، واللغة، والإعراب والمعنى، والنظم، والأحكام، ونحو ذلك» كما فعل أبو الحسن: علي بن إبراهيم الحوفي (ت٤٣٠) في كتابه الموسوم البرهان في علوم القرآن، والذي عرّفنا به مع تفاسير القرن الخامس الهجري في كتابنا الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن. وكما فعل ذلك قبله: ابن المرزبان (محمد بن خلف المتوفى ٣٠٩هـ) في كتابه: الحاوي في علوم القرآن، فهو كذلك تفسير مطوّل[١]. مع الإشارة إلى أن السيوطي حين عدَّد ـ في مقدمة كتابه ـ الكتب التي ألّفت قبله، مهّد لها بقوله: «إنها في الحقيقة ليست مثله، ولا قريبة منه، وإنما هي طائفة يسيرة، ونبذ قصيرة»[٢].

كما أننا نبعد أن يكون هـذا الاصطلاح قد حاك في الصدور ونطقت به

(١) انظر كتاب: مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص١٢٣، ط ـ بيروت ١٩٨٣م.

(٢) الإتقان (١/ ٢٣) وقد عدّ الكتب الآتية: فنون الأفنان في علوم القرآن لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) و جمال القرّاء للشيخ علم الدين السخاوي (ت٦٤٣هـ) و المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة (المقدسي ت٦٦٥) و البرهان في مشكلات القرآن لأبي المعالي عزيزي بن عبد الملك، المعروف بشيذلة (ت٤٩٤هـ).

ثم عقب عليها ـ كذلك ـ بقوله: «وكلها بالنسبة إلى نوع من هذا الكتاب، كحبّة رمل في جنب رملٍ عالج، ونقطة قطْرٍ في حيال بحرٍ زاخر» وقد أشار بعض الباحثين إلى كتاب آخر هو كتاب أبي بكر بن الأنباري (محمد بن القاسم ت٣٢٨هـ): عجائب علوم القرآن! الذي تحدث فيه عن طرف من هذه العلوم، مثل فضائل القرآن، وكتابة المصاحف والأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن.... انظر: مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص١٢٢.

الألسنة!ـ على النحو المشار إليه ـ في القرن الثاني للهجرة، وذلك أن بعض العلماء يجعل الإمام الشافعي أول من فعل ذلك حين سيق مرة إلى الخليفة هارون الرشيد بتهمة تزعم حركة للشيعة في اليمن!! فبادره الرشيد بهذا السؤال: كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل فإنه أولى الأشياء أن يبتدأ به؟ قالوا: فقال الشافعي: عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتبًا كثيرة! قال الرشيد: قد أحسنت، ولكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد ﷺ، فقال الشافعي: إن علوم القرآن كثيرة، فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه، أو عن تقديمه وتأخيره، أو عن ناسخه ومنسوخه[1].. إلخ.

قلت: وسياق القصة والعلوم التي عدّدها الإمام الشافعي، تومئ إلى طابع التلفيق المتأخر على هذه الحادثة، فالسؤال عن العلم بكتاب الله عز وجل لا يجاب عنه بمثل هذه الحذلقة الباردة التي لا يفعلها الإمام رضي الله عنه حتى في مثل هذا الموقف، والسؤالُ في كل عرف وقياس إنما هو عن القرآن الكريم!! كما أن سائر «عناصر» هذه القصة من استحسان الرشيد لجواب الشافعي، والإشارة إلى النبي الكريم ﷺ بابن عم هارون!! إلخ.. كل ذلك يشير إلى أن هذه التركيبات لا تليق بالرشيد والإمام الشافعي جميعًا..

ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن من البعيد حقًّا أن تكون «علوم القرآن مجموعة في صدور المبرّزين من العلماء» في القرن الثاني، ثم لا ينتبه أحد إلى «الكتابة» فيها مجموعة على هذا النحو الواسع قبل أواخر المائة الرابعة من الهجرة، على مذهب

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني، (١/ ٣٣).

من يظن أن كتاب ابن المرزبان وكتاب الحوفي في هـذه العلوم وليسا في تفسير القرآن[١].

(٣)

وأخيرًا، فإن هـذه العلوم قد أفردت بالتصنيف، كلٌّ في مؤلفات خاصة، ونال بعضها من العناية وتتابع القول في جميع العصور ما يجعل التأريخ له ـ وحده ـ ألزم وأكثر ضرورة، وأجدى للقارئ من السير وراء هـذه العلوم مجتمعة. وحسبنا في هـذا المجال ما أشرنا إليه من كتابي البرهان و الإتقان[٢] اللذين نُشرا بعناية الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم رحمه الله. على أننا سنحاول عند الكلام على كل علم من هـذه العلوم، الإشارة إلى أهم المصنفات الموضوعة فيه، مع شيء من مراعاة الأهمية الموضوعية والترتيب الزماني إن شاء الله تعالى.

❁❁❁

(١) راجع: مناهل العرفان للزرقاني، (١/ ٣٤ ـ ٣٥).

(٢) بالإضافة إلى بعض مقدمات كتب التفسير، كمقدمة كتاب المباني، ومقدمة كتاب ابن عطية، اللتين نشرهما «آرثر جيفري» تحت عنوان مقدمتان في علوم القرآن، ومقدمة تفسير الراغب الأصفهاني المطبوعة مع كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار. ومقدمة تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. إلى جانب مقدمة تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

الفصل الأول

أسباب النزول

- مقدمة وتمهيد.
- أولاً: تعريف سبب النزول.
- ثانياً: فوائد معرفته.
- ثالثًا: طريق معرفة سبب النزول.
- رابعًا: أسباب النزول والواقع وعموم القرآن.
- خامسًا أسباب النزول: نقد وتعقيب.

الفصل الأول

أسباب النزول

مقدمة وتمهيد

كان نزول القرآن الكريم حدثًا ضخمًا وواقعة من أعظم وقائع التاريخ الإنساني، بل أعظم وقائعه على الإطلاق منذ آدم ونوح وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول في الاتجاه الذي أخذه التاريخ الإنساني بعد هذا النزول، أو بعد بعثة محمد ﷺ خاتم النبيين الذي نزل هذا القرآن على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، أو الأحداث الكبرى التي شهدها هذا التاريخ حتى انتهى بالعالم كله اليوم إلى الصورة التي هو عليها، والتي ما كان لها أن تكون كذلك لولا هذا النزول الكريم والبعثة الشريفة.

وتكفينا الإشارة إلى أن لحظة النزول قسمت التاريخ الإنساني إلى فترتين أو مرحلتين: ما قبل النزول، وما بعد النزول. وقد أشير إلى هاتين المرحلتين بقوله تعالى في وصف القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢] والمراد بالذي بين يديه: ما تقدمه وسبقه أو كان قبل نزوله. والمراد بالذي خلفه: ما يكون أو يقع وراءه أو بعد نزوله. وينطوي تحته بطبيعة الحال ما

أشرنا إليه في التمهيد من أصول الثقافة والأحكام التي «نُص» عليها في القرآن بوصفها أحكامًا عامة وممتدة إلى يوم القيامة. فهـذه الأصول والأحكام الثوابت لن يلحقها نقص أو خلل أو باطل، بل سوف تثبت الأحداث والتجارب الإنسانية طال الزمان أم قصر أن ما ناقضها وخالفها هو الباطل، وأنها الحق الذي سيعود الناس إليه أو يبحثون عنه في يوم من الأيام.

والذي نود الوقوف عنده في هـذا السياق: أن النـزول نفسـه لم يحصـل مـرة واحدة، كما كانت عليه الحال في الكتـب السـماوية السـابقة، ولـكنه امتـد لفتـرة تقرب من ربع قرن، وإذا سمينا المرحلة السـابقة عـلى النـزول بالبُعـد التـاريخي، والمرحلة التي تلي عصـر التنزيـل بالبعـد المسـتقبلي ـ وإن كانـت التسـمية الأولى صالحة للمرحلتين ـ فإن زمن النزول الممتد نفسه، أو المشار إليه يمكـن تسـميته **بالبعد الزماني للنزول** أو التنزيل. علمًا بأن هـذا البعـد أو الفتـرة الزمنيـة الممتـدة للنزول عبّر عنها بالنزول المنجَّم، أي على نجوم بمعنى دفعـات ومـرات متعـددة. وقد عرضنا في فصل سابق لجملة من حِكَم هـذا التنجيم، ولاحظنـا ـ لأول مـرة ـ أهمية وخطورة هـذا التنجيم في توثيق وقائع السيرة المحمدية الشريفة، وفي الدلالة على أن النبي الكريم خاتم النبيين صلى الله عليه وعليهم أجمعين. كمـا لاحظنـا دور هـذا التنجيم في تصويب حركة التطبيق والتنفيـذ، أو الدلالـة عـلى مـواطن الخطـأ ووجوه التقصير في تنفيذ الأحكام والتشريعات.

والذي نضيفه هنا: أن هـذا النزول المنجّم اتّسع لأسباب النزول التي نتحدث عنها في هـذا الفصل، كما اتسع للنسخ عند مـن يـرى وقوعـه في القـرآن الكـريم، والذي سنتحدث عنه في فصل قادم إن شاء الله.

ونبدأ أولاً بتعريف سبب النزول:

أولاً ـ تعريف سبب النزول:

يراد بسبب النزول «ما نزلت الآية أو الآيات مبيِّنة لحكمه أيام وقوعه» كأن تقع حادثة أو يوجَّه إلى النبي ﷺ سؤال، فتنزل الآيات فيما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب ذلك السؤال: فيقال بعد ذلك: «سبب نزولها كذا»، مثاله: ما أخرجه البخاري والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وُجّه النبي ﷺ إلى الكعبة، قالوا: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومعلوم أن النبي ﷺ لما قدم المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحب أن يُوجّه إلى الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فَوُجِّه نحو الكعبة[(١)].

أ ـ والقيد المذكور « أيام وقوعه » للاحتراز عن الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب. قال السيوطي: «والذي يتحرر في سبب النزول أنه: ما نزلت الآية أيام

---

(١) أخرج البخاري من حديث البراء: أن رسول الله ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قِبلته قِبَل البيت.. الحديث. وفيه: كان الذي مات على القبلة قبل أن تُحول قِبَل البيت رجال قتلوا، لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

صحيح البخاري، الحديث رقم ٤٠ (باب الصلاة من الإيمان)، رقم ٤٤٨٦، (باب: سيقول السفهاء من الناس..)، طبع بيت الأفكار الدولية للنشر، ص٣١، وص٨٤٨.

وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من بـاب الإخبـار عـن الوقائع الماضية، كذكر قصة نوح وعاد وثمود، وبناء البيت، ونحـو ذلـك». أي أن عصر ما قبل النزول أو ما أسميناه «البعد التاريخي» كوقائع وأحداث لا علاقـة لـه بسبب النزول.

ب ـ ولا نقصد بهـذا القيد أو لا نعني به أن يكون نزول الآية عقب الحادثة أو السؤال مباشرة، بل تكفينا الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثًا عن ذلك السبب، سواء أوقع النزول على الفور أم على التراخي؛ فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعُقبة ابن أبي مُعَيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاثة، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، سلوه عن: فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم فإنه كان لهم أمر عجيب؟ وسلوه عن: رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن: الروح، ما هو؟ فأقبلا حتى قدما على قريش، فقالا: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فجاؤوا رسول الله ﷺ فسألوه، فقال: «أخبركم غدًا بما سألتم عنه»، ولم يستثن (أي لم يقل: إن شاء الله)، فانصرفوا، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحْدِثُ الله في ذلك إليه وحيًا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف، وفيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية

والرجل الطواف، وفيها يرشده الله تعالى إلى أدب الاستثناء بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤] (١).

ج ـ ويستوي في ذلك أن يكون السؤال ـ الذي نزلت الآيات بسببه ـ متصلاً بأمر مضى كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ﴾ [الكهف: ٨٣] ـ في الحادثة السابقة.

أو بأمر حاضر كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [النساء: ١٥٣] نزلت في اليهود قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبيًا فائتنا بكتابٍ جملةً من السماء كما أُتي به موسى.

أو بأمر مستقبل نحو قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢].

ثانيًا ـ فوائد معرفته:

يمكن تلخيص هـذه الفوائد بما يلي:

أ ـ تعد معرفة سبب النزول أحد العناصر المعينة على فهم الآية أو النص القرآني، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمُسَبَّبِ كما يقول ابن تيمية رحمه الله (٢).

وبعبارة أدق: إن هـذه المعرفة تعين على فهم أدق وأحكم لهـذا النص في الأعم

---

(١) لُباب النقول للسيوطي، ص١٥٥. وقد أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق، وفي سنده راوٍ مبهم، والحديث ضعيف.

(٢) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، بتحقيق المؤلف، وقال أبو الفتح القشيري: سبب النزول طريق قوي في فهم معاني كتاب الله العزيز. راجع: البرهان للزركشي، (١/ ٢٢).

الأغلب. ويظهر هـذا جليًا في تفسير سورة المزمّل أو المدثر أو سورة عبس وبعض السور والآيات الأخرى، ومن هـذه الآيات ـ على سبيل المثال ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أخرج البخاري من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، قال: نزلت في النفقة، أي: في ترك النفقة في سبيل الله. أخرج الترمذي ـ وأبو داود ـ من حديث أسلم أبي عمران رحمه الله قال: كنّا بمدينة الروم (غزو القسطنطينية)[(١)] فأخرجوا لنا صفًا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر: عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام: فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله! يُلقي بيديه إلى التهلكة! فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم لتؤولون هـذه الآية هـذا التأويل، وإنما نزلت هـذه الآية فينا معشر الأنصار: لما أعزّ الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًا ـ دون رسول الله ﷺ ـ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزّ الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها؛ فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه، يردّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها، وترْكَنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم[(٢)]. وفي رواية أبي داود: قال أبو

---

(١) كانت هـذه الغزوة عام ٥١هـ في عهد معاوية رضي الله عنه. راجع: البداية والنهاية لابن كثير، (٨ / ١٦٠).

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري، (٢ / ٣١ ـ ٣٢)، يقال: شَخَص الرجل من بلد إلى بلد: إذا انتقل إليه، والمراد بـ: لم يزل شاخصًا: أي مسافرًا.

عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية رضي الله عنه وأرضاه.

ب ـ معرفة سبب النزول تعصم المفسر من الوقوع في الخطأ أو اللبس في بعض الأحيان أو في أحيان قليلة؛ فقد أخرج الشيخان البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم بعث إلى ابن عباس يسأله عن قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨] قال: لئن كان كل امرئ فرح بما أُوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل، معذبًا لنعذبن أجمعون! فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية! إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه فيما سألهم، وفرحوا بما أَتوا من كتمانهم (١).

وقد أُشكل على عروة بن الزبير رضي الله عنهما الحكم بفرضيَة السعي بين الصفا والمروة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فالآية تنفي الجُناح ـ الإثم ـ ونفي الجناح لا يتفق مع الفرضيّة، فضلاً عن أن يستلزمها، حتى سأل خالته عائشة أم المؤمنين، كما جاء في البخاري، فقال لها: أرأيتِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ (الآية) فوالله ما على أحدٍ جُناح أن لا يطّوّف بالصفا والمروة! قالت: بئسما قلت يا ابن أختي، إن هذه الآية لو كانت على ما أوّلتها، كانت: لا جناح عليه أن لا يطَّوَّف بهما، ولكنها أُنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يُسلموا يُهلّون

(١) ثم تلا ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [١٨٧].. إلى قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ الآية. صحيح البخاري (٤٥٦٨)، و صحيح مسلم (٢٧٧٨).

لمناةَ الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُشلَّل، وكان مَن أهَلّ لها يتحرج أن يَطَّوَّف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا النبي ﷺ عن ذلك، فقالوا: يا رسول الله إنا كنّا نتحرّج أن نطّوّف بين الصفا والمروة! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قالت عائشة: وقد سَنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما.

قال الحافظ ابن حجر تعليقًا على قوله: «فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما..» محصّله: أن عروة احتج للإباحة باقتصار الآية على رفع الجناح، فلو كان واجبًا لما اكتفى بذلك، لأن رفع الإثم علامة المباح، ويزداد المستحب بإثبات الأجر، ويزداد الوجوب عليهما بعقاب التارك. ومحصل جواب السيدة عائشة أم المؤمنين: أن الآية ساكتة عن الوجوب وعدمه، مصرّحة برفع الإثم عن الفاعل، وأما المباح فيحتاج إلى رفع الإثم عن التارك. والحكمة في التعبير بذلك: مطابقة جواب السائلين، لأنهم توهموا من كونهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية أنه لا يستمر في الإسلام، فخرج الجواب مطابقًا لسؤالهم، وأما الوجوب فيستفاد من دليل آخر..»[1].

قلت: فنزول الآية إذًا كان ينفي ما وقر في أذهانهم من المنع من الطواف بينهما، بينما قررت السنّة فرضية السعي بين الصفا والمروة فليس لأحد تركه.

وقد يُفهم من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:

---

(١) راجع: جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري، (٢/ ١٥ ـ ١٦)، مع تعليق المحقق الأستاذ الشيخ عبد القادر الأرناؤوط. ط١، عام ١٩٦٩، دمشق. و(مناة): صنم لهذيل. و(الإهلال): رفع الصوت بالتلبية. والمشلل: اسم موضع.

١١٥] أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرًا ولا حضرًا، وهو خلاف الإجماع.

قال الزركشي: فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها، وذلك أنها نزلت لما صلى النبي ﷺ على راحلته وهو مستقبل من مكة إلى المدينة حيث توجهت به، فعلم أن هـذا هو المراد[(١)].

ويقرب من هذا، مما يعين على التفسير، أو يحدد بعض وجوهه على الأقل: بعضُ الأحاديث التي تشير إلى ظروف التنزيل أو ملابساته بوجه عام؛ أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسَّائي والإمام أحمد وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]. قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه متوارٍ بمكة (يعني في أول الإسلام) فكان إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (ولا تَجهْر بصلاتك) أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبّوا القرآن، (ولا تُخافِت بها) عن أصحابك فلا تُسمعهم (وابتغ بين ذلك سبيلا) أسْمِعهم- ولا تجهر- حتى يأخذوا عنك القرآن. وفي رواية (وابتغ بين ذلك سبيلا) يقول: بين الجهر والمخافتة[(٢)].

المخافتة: المساررة. والتخافت: السِّرار.

---

(١) البرهان (١/ ٢٩).

(٢) البخاري (٧٤٩٠ و٤٧٢٢) ومسلم (٤٤٦) وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٢/ ٢١٨-٢١٩. قال: أخرجه الجماعة إلا الموطأ وأبو داود.

ج ـ وقد يبين سبب النزول وجه النظم الذي قد يخفى أو يشكل على القارئ في بعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] «فقد تخفى الملازمة بين الشرط وجزائه»[(١)] فبيَّنها الحديث الذي رواه البخاري من حديث عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن هـذه الآية، فقالت: يا ابن أختي هـذه اليتيمة تكون في حجر وليِّها، تَشْرَكُه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صَداقها، فيعطيَها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنَّتِهن في الصداق، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن»[(٢)].

د ـ ومن فوائده: بيان الساحة التي تشملها الآية أو النص القرآني؛ لأن صيغته قد تشتبه على بعض المفسّرين، فيظن ـ مثلاً ـ أن العموم فيه على إطلاقه، علمًا بأن المراد به بعض أفراده أو حالة من الحالات الخاصة في بعض الأحيان، مثاله قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣]، فقد حُكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معدي كرب أنهما توهما عدم تحريم الخمر، قالوا: «كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم وقد أخبر الله أنها رجس؟!» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾... الآية. أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما[(٣)].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للعلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، (١ ٥٠).

(٢) صحيح البخاري (ح ٤٥٧٤)، ص٨٦٨.

(٣) الإتقان للسيوطي، (١/ ١٣٠)، تحقيق: د. محمود أحمد القيسية ومحمد أشرف الأتاسي، دار النداء. وانظر تخريجهما لهـذه الرواية: المسند (٢٠٨٨)، والترمذي (٣٠٥٢)، والنسائي (٥٢٧٠).

هـ «وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول» كما قال العلامة الشيخ ابن عاشور، وهي «أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث، دلالةً على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادَّعوا أنه أساطير الأولين»[(١)].

ثالثًا ـ طريق معرفة سبب النزول[(٢)]:

* سبب النزول: واقعة تاريخية أو أمر وقع في عصر التنزيل، ولهذا فإن سبيل معرفته والوقوف عليه لا يكون بغير الرواية والنقل الصحيح، فلا مجال فيه للاجتهاد وإعمال الرأي!! قال الواحدي: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطِّلاَب»، وقال الرسول ﷺ: «**اتقوا الحديث عني إلا ما عُلِّمْتُم، فإنه من كذب عليّ متعمدًا فليتبوّأ مقعده من النار، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار**» أخرجه أحمد والترمذي. ويدخل في هذا الشق الثاني من الحديث ـ الكذب على القرآن ـ تفسيره بالباطل، أو وضع الروايات والحكايات في أسباب نزوله! وصولاً إلى تفسيره بالباطل أو بالباطن.. وسائر وجوه الفساد.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠).

(٢) من كتبه المشهورة والمتداولة: كتاب أسباب النزول للواحدي علي بن أحمد النيسابوري (ت٤٦٨). وكتاب لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١). والأول أجلّ وأوفى، كما يقول محقق الكتاب الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله. وقد نشره تحت عنوان: أسباب نزول القرآن.

ولهـذا كان السلف ـ كما يقول الواحدي ـ «في أبعد الغاية احترازًا عن القول في نزول الآية»، عن محمد بن سيرين قال: سألت عَبيدة بن عمر السلماني عن آية من القرآن فقال: «اتق الله وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن»[(١)]. يعني بهـؤلاء: الصحابة الذين شاهدوا التنزيل.

* وعلى ذلك، فلا خلاف في قبول الحديث أو **الخبر المرفوع** إلى النبي ﷺ، لأنه الأصل، وكذا الموقوف على الصحابة وإن لم يعتضد برواية أخرى؛ لأن سبب النزول، كما قدمنا، مما لا مجال فيه للرأي، بل سبيله: المشاهدة والرؤية، أو السماع والنقل[(٢)]. قال الحاكم النيسابوري: «إن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل إذا أخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا فإنه حديث مسند»[(٣)] أي: إن له حكم المرفوع.

* إلا أن هـذا القول، أو تلك الرواية، قد يكون نصًا صريحًا في سبب النزول، وقد يحتمل أن يكون من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، أي أن الآية تدل على هـذا الحكم، **فالأول** كقول الراوي: «سبب نزول الآية كذا» أو قوله: سئل رسول الله عن كذا فنزل قوله تعالى، أو حدث على عهده كذا فنزلت الآية.. وأما **النص المحتمل** فكقولهم الذي يتردد في مناسبات شتى: « **نزلت هـذه الآية في كذا..**» فهـذا القول يحتمل سبب النزول، كما يحتمل أن يكون المراد به: في حكم كذا،

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي، ص٣، وعبيدة ـ بفتح العين ـ من أعلام التابعين، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين، ولم يلقه. وكان ابن سيرين من أروى الناس عنه. التهذيب رقم: (٥١٨٢).

(٢) راجع: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية.

(٣) معرفة علوم الحديث ص٢٠. وانظر: تعليقنا في المصدر السابق.

فيكون بمعنى بيان موضوع الآية أو الحكم الذي تناولته، أو «من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع» كما يقول صاحب البرهان[١].

رابعًا ـ أسباب النزول والواقع وعموم القرآن:

إذا لاحظنا ضرورة تحرير أو تحديد مفهوم سبب النزول حتى لا نُدخل فيه ما ليس منه ـ وحتى لا نسحبه على التاريخ، ونخلطه بآراء المفسّرين ـ إلى جانب لزوم التأكد من صحة الروايات ـ بوصف سبب النزول واقعة تاريخية لا مجال فيها للرأي أو الاجتهاد كما قدمنا ـ فإن في وسعنا أن نقرر أن «وقائع» أسباب النزول قليلة، ولا تعدو رواياتها المقبولة ـ في أحسن الأحوال ـ مئتي آية من مجموع آيات القرآن التي تزيد على ستة آلاف آية.

ومع ذلك فقد وُجد من أصحاب الأهواء مَن زعم أن: **(الوحي) أو القرآن كان استجابة للواقع، أي نزل تبعًا لمتطلباته**، اعتمادًا على أن هذا الواقع مثّل هذه الأسباب، أو كان وراءها. على الرغم من ندرة أسباب النزول كما قلنا، وعلى الرغم من القاعدة الأصولية المشهورة: « **العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**».

ونوجز فيما يلي الرد على هذا الزعم:

١ ـ إن أسباب النزول كما أشرنا لم تستوعب الكتاب الكريم حتى نقول: إن الواقع الذي كان في المجتمع المكي أو المدني في القرن السابع الميلادي هو الذي تحكم في نزول القرآن، وأن القرآن ـ لذلك ـ لم ينزل لكل زمان ومكان، أو أن في وسعنا أن نتجاوز أحكامه أو نعفّي عليها! وهي النتيجة التي يريد أن يصل إليها أصحاب هذا الرأي والمنهج الفاسد!

---

(١) الزركشي (١/ ٣٢).

إن معظم آيات القرآن الكريم نزلت ابتداءً، أي بدون سبب نزول خاص أو معين، أو بلا أسباب أو مقتضيات من الواقع، ويدخل في ذلك: الجانب الاعتقادي كله، أو آيات الإيمان والاعتقاد، وسائر ما يلحق بها من آيات الكون والطبيعة، والآيات التي تناولت قصص الأنبياء وتاريخ الأمم والأقوام.

لقد نزلت آيات العقيدة والتوحيد ـ على سبيل المثال ـ لتهدم (الواقع) القائم وتبنى على أنقاضه بناءً جديدًا شامخًا صالحًا للإنسان في جميع العصور، ولم يحمل القرآن، فقط، على الوثنية وعقائد الشرك التي كانت في مكة أو في جزيرة العرب، والتي كانت تمثل (**الواقع**) العقائدي في ذلك الحين.. بل تعدى ذلك إلى مجادلة أهل الكتاب من اليهود، الذين كان لهم بعض الوجود في المدينة، والنصارى الذين لم يكن لهم وجود يذكر.. بل عرض لبعض عقائد هؤلاء وهؤلاء التاريخية! أي التي كانت موجودة في وقت سابق قبل عصر التنزيل، ولا وجود لها الآن! لا في جزيرة العرب ولا في غيرها على حد سواء. بل إن ما عرضه من عقائد اليهود وما ارتكبوه في تاريخهم من أخطاء وجرائم، بدأ به في مكة قبل هجرة المسلمين إلى المدينة [راجع سورة الأعراف]. كما عرض القرآن لعقائد الملاحدة والدهرية ونحوهم من أصحاب العقائد والديانات.. إلخ.

يضاف إلى ذلك أن سائر الآيات (أسّست) معارف جديدة ليست مرتبطة بواقع معيّن! سواء أكان واقع عصر النزول أم غيره. **وإن من سوء الفهم والقصد معًا** أن يقال: إن الحديث عن خلق الطبيعة وتسخير السنن، وخلق الإنسان وحياة الأنبياء وتاريخ الأمم والحضارات، جاء في القرآن حسب متطلبات الواقع! أيّ واقع؟ وأية متطلبات؟ **إن القرآن الكريم موجِّه للواقع ـ أيّ واقع أو كلِّ واقع ـ ومؤثر فيه، وحاكم عليه.**

٢ ـ الآيات التي كان لها سبب نزول خاص يتصل بعضها بحياة النبي ﷺ ومغازيه وسيرته الشريفة، كما يتصل بعضها الآخر بالجانب التشريعي في القرآن الكريم. وهذا القدر من الجانب التشريعي يمكن عدّه شاهدًا على مدى صلة الإسلام بالحياة، ومدى (واقعية) أحكامه وتشريعاته، بمعنى نفي (المثالية) التي ليست أكثر من رؤيا في عالم الخيال، أو رسمًا على الورق أو في الفراغ! كما فعل بعض الفلاسفة في تصوّرهم للمدينة الفاضلة على سبيل المثال!

٣ ـ وحين يتأمل المرء هذا القدر يجد أنه قام على بيان أحوال نابعة من طبيعة الإنسان أو «مفصّلة» عليه، إن صح التعبير، بغضّ النظر عن ملابسات الزمان والمكان والأشخاص، أي أنه قدم حالات أو (نماذج إنسانية) وصورة ما يجب أن تكون عليه هذه النماذج إلى يوم الدين. ولهذا طوى القرآن الكريم (النَّصَّ) أو مجرد الإشارة إلى هذه الملابسات[1] ومن هنا جاءت عبارة الأصوليين التي أشرنا إليها: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

٤ ـ وغني عن البيان أن موضوع (أسباب النزول) فرع عن مسألة تنجيم القرآن، أي نزوله مفرقًا خلال ثلاث وعشرين عامًا. وكذلك موضوع (الناسخ والمنسوخ) ـ الذي سنتحدث عنه فيما بعد ـ وهما الموضوعان اللذان يحاول بعض المعاصرين جعلهما منطلقه في تفسير القرآن، بل الحكم عليه وعلى الإسلام عقيدة وشريعة، أو دينًا ودولة ونظام حياة!!

---

(١) حتى إن كثيرًا من المفسرين والمصنفين في علوم القرآن سمّوا هذا الذي لم يسجله القرآن، أو لم يلتفت إليه (مبهمات القرآن)! ولا نعتقد أن هذه تسمية موفقة، أو تعبر عن منهج سديد! كما سنشرح ذلك فيما بعد.

ولا أدري ماذا كان سيقول هـؤلاء لو أن القرآن الكريم أُوحي به أو نـزل جملـة واحدة؟ وما مصير (الواقع) الذي يتحدثون عنه؟ بل عـن أي (واقـع) يتحـدثون؟ واقع مكة أم المدينة أم سائر الجزيرة العربية، أم الواقع (الإنساني) بوجه عام؟

والانطلاق عندنا، سواء أنزل القرآن منجمًـا أم نـزل جملـة واحـدة؛ يجـب أن يكون من **القرآن الكريم نفسه، ومن المخاطبين به، ومن طبيعة هـذا الخطاب**.

ونعتقد أن الناظر في القرآن، أيًّا كانت درجة ثقافته(!) سوف يلحظ أن خطـاب القرآن لم يكن (يا قوم) ولـكن (يا بني آدم، ويا أيها الناس، ويا أيها الـذين آمنـوا..) وأن العقيدة التـي تضـمنها هـــذا الخطـاب، وكـذلك الشـريعة والأحكـام كانـت (إنسانية عامة)، وأنه لا اعتبار فيها لأي لون بيئي أو زماني أو محلّـي أو عـارض أو موقوت... إلخ، والحديث في هـذا طويل، وقد أفردناه بالبحث.

٥ ـ وفي وسعنا أن نفهم سبب النزول ـ في ضوء هـذه الملاحظات ـ على أنه المناسبة التي استدعت ظهور الحكم ووضعه موضع التطبيق في القرآن المنجّم، **أي بداية توقيت العمل بهـذا الحكم**، في نسق هدم أوضاع الجاهلية، وبناء أحكام الإسلام في النفس والمجتمع، يومًا بعد يوم، أو طيلة عصر التنزيل. بمعنى أن الإسلام ارتقى بالجماعة الإسلامية الأولى ـ بوصفها النموذج الإنساني ـ إلى الحد الذي كان يستدعي نزول أحكام جديدة.. ولهـذا فإن جزءًا كبيرًا من هـذه الأحكام نزل مُصدَّرًا بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، أي أن الأمر ارتقى إلى أن صار حديث الناس وموضع سؤالهم.. أي أن (المجتمع) بات يطلب تغيير (الواقع) وليس الاستجابة له! وذلك على الضد والنقيض مما زعم الزاعم في الوحي والواقع، أو في التنجيم وأسباب النزول[1].

(١) راجع فيما سبق فقرة: بين الوحي والواقع، ص ١٤٤ ـ ١٤٧.

٦ ـ علمًا بأن هـذا الحديث أو هـذا السؤال، وجُد في العهد المكي أيضًا، أي قبل الهجرة، حيث كانت الآيات في معظمها تتناول موضوعات العقيدة ـ كما سنفصل ذلك في الفصل القادم ـ ولهـذا فإن الأسئلة في هـذا العهد كانت عن الساعة أو عن يوم القيامة على وجه الخصوص، أي عن (النبأ العظيم) الذي كان موضع تساؤلهم، وأبرز موضوعات العقيدة لديهم، بالإضافة إلى سؤالهم عن (الروح) نظرًا لتشوّفهم في أواخر العهد المشار إليه إلى معرفة طبيعتها أو الوقوف على كنهها، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. في حين أنهم سألوا في العهد المدني ـ الذي دارت آياته حول الشريعة ـ عما أُحلّ لهم، وعن الخمر والميسر، وعن إنفاق المال، وعن اليتامى، وعن الأنفال، وعن القتال في الشهر الحرام، وعن بعض قضايا المرأة والأُسرة، بالإضافة إلى تكرار سؤال الناس عن الساعة، أو بعبارة أدق: كان سؤالهم هـذه المرة عن موعدها! قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

خامسًا ـ أسباب النزول: نقد وتعقيب:

وأخيرًا، فإن الناظر في أسباب النزول لا يصعب عليه أن يلحظ أن فوائدها المذكورة ـ ونحوها مما تكفلت ببيانه كتب التفسير وعلوم القرآن ـ ثانوية وهامشية، وأن تفسير القرآن أو فهم الآيات على وجهها، ليس موقوفًا على معرفة هـذه الأسباب، حتى في الشواهد القليلة التي ذكرناها قبل قليل، والتي تكاد تكون شواهد مكرورة لا يجد المفسّر أو الكاتب في علوم القرآن غيرها ليقدمها دليلاً في هـذا الباب! علمًا بأن السياق الذي وردت فيه هـذه الآيات ربما كان وحده كافيًا لبيان معناها المراد، أو على الأقل: لعصمة المفسّر من الزلل في تفسيرها على

وجهها الصحيح ـ سواء أعلم سبب نزولها أم لم يعلم ـ، وغني عن البيان أن المفسر له فوق ذلك من الأدلة و(الأدوات) التي يستعين بها على الفهم الصائب والتفسير الصحيح.. الشيءُ الكثير.

وعلى سبيل المثال، فإن الفائدة الرابعة (د) التي ذكرناها قبل قليل من فوائد أسباب النزول، واستشهدنا عليها بالآية ٩٣ من سورة المائدة؛ قال الإمام ابن القيم: «ولو تأمل ـ ابن مظعون ـ سياق الآية لفهم المراد منها، فإنه إنما رفع الجُناح عنهم فيما طعموه متّقين لله فيه، وذلك إنما يكون باجتناب ما حرمه من المطاعم، فالآية لا تتناول المحرّم بوجه عام»[1].

وعلى أية حال، فإن السؤال الذي نود طرحه يتعلق بدرجة توثيق روايات أسباب النزول، أو بعبارة أدق: بالشروط اللازم توافرها في هذه الروايات والأخبار حتى تكون مقبولة أو يعتدّ بها، بغضّ النظر عن مدى أهميتها ولزومها في التفسير والتأويل!

نحن نميل في هذا الباب إلى أقصى درجات التشدد! **وقد لا يكون في وسعنا أن نقبل بأقل من الشروط التي اشترطها الشيخان في قبول الأحاديث!** بل لقد يخطر لنا في بعض الأحيان أن نشترط (التواتر)؛ لأن النص القرآني نُقل إلينا بطريق التواتر؛ والتسليمُ بسبب النزول ينطوي على تحديد معنى الآية، أو وجوب تفسيرها على نحوٍ لا انفكاك منه ولا تحوّل عنه.. حتى كأن هذا المعنى ـ أو هذا التفسير ـ نزل مع الآية. وما كان هذا شأنه لا غرابة أن يُشترط فيه التواتر، أسوة بالنص القرآني

(١) أعلام الموقعين لابن القيم، ص٢٦٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

ذاته أو قياسًا عليه. وليس سبب النزول في هذه الحالة، ـ أو من هذا المنطلق ـ بأقل أهمية وخطورة من القراءات التي اشترط العلماء فيها التواتر، حتى (استجهلوا) من يرويها من طريق الآحاد!

لقد حفلت كتب التفسير بأسباب نزول كثيرة.. وتكفي الإشارة إلى أن الطبري ذكر في تفسيره خمسمئة سبب نزول ـ غير مكررة ـ وقد يذكر للآية الواحدة أكثر من سبب، وقد بلغ أسباب نزول بعض الآيات عنده خمسة أسباب! كما تكفي الإشارة إلى مئات الروايات التي جمعها كل من الواحدي والسيوطي.. حتى إن السيوطي الذي كان يجتهد دائمًا في (الزيادة) على من سبقه، أو في الإضافة على ما نقله عنه أو أخذه منه، بلغت زياداته على الواحدي (٣٧٠) سبعين وثلاثمئة رواية![1]، وقد بلغ عدد روايات أسباب النزول التي أوردها في كتابه لباب النقول (١٣٧٦) ستًا وسبعين وثلاثمائة وألف رواية![2]، هذا، فضلاً عن (الأسباب) التي تتردد كثيرًا في تفاسير الفرق والطوائف، وفي سائر كتبهم، كالإمامية وغيرهم، ومن الملاحظ أن (أودية) **الأحاديث الموضوعة** ـ بحسب عبارة ابن حجر ـ لا تقتصر على أحاديث الفضائل، بل تتعداها ـ أو يمكن أن تعد من أبرز جوانبها ـ أحاديثُ أسباب النزول. وهذا بيِّنٌ من مناقضتها للسياق أو النظم القرآني ذاته بوجه خاص، ومن مدى خروجها على الموازين العلمية في نقد المتون والأسانيد بوجه عام!

ولا حاجة بنا إلى التذكير بأن الإمام أبا جعفر الطبري (ت٣١٠هـ) لم يلتزم ذكر

---

(١) عصام عبد المحسن: أسباب النزول وأثرها في كتب التفسير (رسالة جامعية) نقلاً عن الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٢).

(٢) انظر الكتاب بتحقيق (وترقيم) الدكتور نادي الأزهري، ١٤٢٩هـ، القاهرة.

الروايات الصحيحة، تعويلاً منه على إيراد الأخبار والروايات بأسانيدها ـ على المعهود من منهجه في التفسير والتاريخ ـ، ولكن الذي ينبغي الإشارة إليه أن معظم ما صح من هذه الروايات **موقوف على الصحابة** ـ بل هذا هو الأصل أو الغالب في أسباب النزول ـ أو التابعين، **وإما منقطع**. علمًا بأن أوسع كتب الصحاح عنايةً بأسباب النزول: صحيح الإمام البخاري، ثم مستدرك الحاكم، ومسند الإمام أحمد. وما رواه الإمام البخاري رحمه الله لا يزيد عن واحد وثمانين رواية! وقد تكرر كثير منها في مسند الإمام أحمد رحمه الله. وقد لا تزيد أسباب النزول التي يُعتدّ بها عند المحدّثين ـ في دواوين السنة النبوية ـ عن ثلاث مئة رواية، وقد لا تزيد الآيات أو الوقائع التي رويت فيها هذه الأسباب عن مائتي آية أو موطن، علمًا بأن آيات القرآن الكريم تبلغ (٦٢٣٦) ستًّا وثلاثين ومئتين وستة آلاف آية[(١)].

نحن نقبل من روايات أسباب النزول ما أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم، **وقد نقبل** روايات أخرى كثيرة ـ مرفوعة أو موقوفة على الصحابة ـ ولكننا نرفض أي روايةٍ أو سببٍ يُخلُّ بنظم القرآن، أو بنسق الآيات ـ السابقة واللاحقة ـ التي ذُكر لها سبب نزول؛ بحيث يبدو هذا السبب مخلاً بالمعنى أو بموضوع الآيات أو مقحمًا يأباه النظم.. حتى كأنه طريق لصرف القرآن عن معناه! أو الآيات عن دلالتها الواحدة والمتسقة.

---

(١) وفقًا للمصاحف المتداولة منذ مئات السنين، وقد اتبع في هذه المصاحف طريقة الكوفيين في عدّ آيات القرآن الكريم. وهو المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. على حسب ما ورد في كتاب ناظمة الزُّهر للإمام الشاطبي وغيرها من الكتب المدونة في علم الفواصل. ومعلوم أن حفصًا راوي عاصم: كوفيّ.

وأخيرًا، فإن أسباب النزول الكبرى أو الأهم هي التي تحدث عنها القرآن الكريم نفسه، أو سجّلتها الآيات الكريمة ذاتها، وأعني بها تلك التي صُدِّرت بكلمة (يسألونك) والتي أشرنا إليها قبل قليل. والله أعلم.

الفصل الثاني

المَكيّ والمَدَنيّ

- أولاً: الأساس المعتمد في التفريق بين المكي والمدني.
- ثانياً: ضوابط المكي والمدني.
- ثالثاً: شبهات حول هذه الفروق.

الفصل الثاني

المَكيّ والمَدَنيّ

لقد نزل القرآن الكريم بمكة والمدينة، أو قبل الهجرة النبوية وبعدها في طورين واضحين، ومرحلتين متعاقبتين. ولا بد من وضع عنوان واضح لكل مرحلة، والتماس سماتها الخاصة وميزاتها الرئيسة بما يعين دارس القرآن الكريم على فهم المواقف والأحوال، والوقوف على خطوات التربية والبناء، ويمهد لمعرفة الخصائص البيانية والأسلوبية للمكي والمدني بوجه خاص، ومزايا الأداء القرآني بوجه عام..

ولهذا منع العلماء من أن يتصدى للتفسير من لم يكن ملمًا بهذا النوع من علوم القرآن، قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري: «من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما أنزل بمكة ابتداءً ووسطًا وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، ثم ما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، ثم ما نزل ليلاً، وما نزل نهارًا، وما نزل مشيَّعًا، وما نزل مفردًا. ثم الآيات المدنيات في

السور المكية، والآيات المكيات في السور المدنية، ثم ما حُمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما أنزل مجملاً، وما نزل مفسّرًا، وما نزل مرموزًا، ثم ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مكي، وقال بعضهم: مدني. هـذه خمسة وعشرون وجهًا، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى»[(١)].

ويطول بنا الوقوف إن حاولنا ذكر طرف من شواهد هـذه الأنواع جميعًا، وقد تكفّلت ببيانها كتب علوم القرآن، ولـكن من الملاحظ أولاً أن أكثر القرآن الكريم نزل نهارًا وفي الحضر كذلك، وأن ما نزل منه بالمدينة سبع وعشرون سورة، وسائرها بمكة، كما نقل ابن عباس عن أُبي بن كعب[(٢)]، كما تمكن ملاحظة أن ما نزل من القرآن في السفر ـ في الحج أو الغزو أو غيرهما ـ قد وقع من الناحية «المكانية» خارج مكة والمدينة، بحيث يمكن لبعض الآيات القرآنية أن تكون شواهد لأكثر من وجه من الوجوه، أو نوع من الأنواع التي أشار إليها ابن حبيب رحمه الله.

أولاً ـ الأساس المعتمد في التفريق بين المكي والمدني:

الأساس الأشهر ـ والذي عليه أكثر العلماء ـ أن المكي ما نزل قبـل الهجـرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أو بالمدينة، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار..

---

(١) البرهان للزركشي (١/ ١٩٢).

(٢) في روايات أخرى: أن ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة، وما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة. انظر: البرهان (١/ ١٩٤).

وقد لوحظ في هذا التقسيم: « **زمن النزول** »، كما هو واضح. ويوجد إلى جانب هذا الأساس في التفريق بين المكي والمدني اصطلاحان آخران قال بهما بعض العلماء، ويقوم الأول منهما على « **مكان النزول** » ويعتمد الثاني على «**أشخاص المخاطبين** ».

فالمكي، في الاصطلاح الثاني ـ مكان النزول ـ: ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني: ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزَّل بمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في المدينة أيضًا ضواحيها ـ ضرورة! ـ كالمنزل ببدر وأُحد وسَلْع.

أما الاصطلاح الأخير ـ الشخصي ـ فيقوم على أن المكي: ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدني: ما وقع خطابًا لأهل المدينة. وحملوا عليه قول من قال: إن ما صُدِّر في القرآن بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو مدني، وما صُدِّر بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي؛ لأن الغالب على أهل مكة الكفر، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم! وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان ـ فخوطبوا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ـ وإن كان غيرهم داخلاً فيهم!

وإذا كان الرأي الأول هو الرأي الأشهر والأرجح؛ لأنه ضابط حاصر مطرد لا يفتقر إلى تقييد أو استثناء، بخلاف هذين الرأيين.. فإن الحق أن هذه الأسس الثلاثة جميعًا «الزمان والمكان والأشخاص» تكاد تلتقي في معظم آيات القرآن الكريم.. والقليل الذي يجري عليه الخلاف بعد ذلك هو ما أشار إليه العلماء وخصّوه بالحديث تحت العناوين الكثيرة التي ذكرها ابن حبيب النيسابوري في القول المتقدم.

ثانيًا ـ ضوابط المكي والمدني:

ومما يؤكد التعريف أو التفريق الزماني المشار إليه: ما تحدث عنه العلماء من الضوابط المطردة التي تكاد لا تتخلف في الآيات التي نزلت قبل الهجرة والآيات التي نزلت بعدها، حتى قال بعضهم: إن لمعرفة المكي والمدني طريقين: سماعي وقياسي[(١)] **فالسماعي** يُرجع فيه لحفظ الصحابة وتابعيهم، وأما **القياسي** فقد جعلوا من ضوابط المكي:

١ ـ كل سورة فيها لفظ «كلا».

٢ ـ كل سورة فيها سجدة.

٣ ـ كل سورة فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأن هـذه من ضوابط المدني، ولعل هـذا الضابط غير مطرد، بل هو من الأعم الأغلب؛ فإن سورة البقرة مدنية وفيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[(٢)] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: ١٦٨] وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

---

(١) الأصل في معرفة المكي والمدني: الرواية أو المأثور عن الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وعلموا مكان الوحي وزمانه، وقد علل الباقلاني حرص الصحابة على هـذه المعرفة ونقلها لمن بعدهم ـ مع العلم بأن النبي ﷺ لم يرد عنه أنه قال: اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا، وبالمدينة كذا ـ بأنه «كما لا بد في العادة من معظِّمي العالم والخطيب، وأهل الحرص على كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولاً وآخرًا.. فإن حال القرآن في ذلك أمثل، والحرص عليه أشد» البرهان (١/ ١٩١).

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١] وهي أول خطاب في القرآن، على ترتيب السور في المصحف. أما الخطاب الثاني في هـذه السورة فكان ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤].

٤ ـ كل سورة في أولها حروف التهجي، أي التي استهلت ببعض الحروف المقطعة: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿صٓ﴾ ﴿قٓ﴾ ﴿الٓر﴾.. سوى الزهراوين، أي البقرة / وآل عمران فإنهما مدنيتان. وقد استهلّتا بـ ﴿الٓمٓ﴾.

٥ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس، سوى البقرة.

٦ ـ وأخيرًا فإن كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فرضية أو حدّ فهي مدنية.

فروق موضوعية أو أسلوبية:

والواقع أن الضوابط والفروق التي يذكرها أكثر العلماء في هذا المقام تحتاج إلى أن تُصنّف إلى فروق من الناحية الموضوعية، وأخرى من الناحية الأسلوبية والبيانية.

ونشير هنا قبل استعراض هذه الفروق وتصنيفها على هذا النحو، إلى أنها ليست فروقًا قاطعة أو حادة، ولكنها تمثل الطابع الرئيس والملامح العامة والخواص الغالبة لكل من الآيات المكية والمدنية.

أ ـ الفروق بين المكي والمدني من ناحية الموضوع:

إذا أمكن تلخيص الموضوعات التي دارت حولها كل من الآيات المكية والمدنية، بكلمة واحدة، لقلنا: إن الأولى كان موضوعها **العقيدة**، والثانية كان موضوعها الشريعة. والإسلام والقرآن: عقيدة، ونظام وتشريع وأحكام.

ولما كانت العقيدة التي تَعاقَب عليها الأنبياء جميعًا واحدة، وكان الإنسان الذي خوطب بهذه العقيدة، على اختلاف الأمم والأقوام، واحدًا.. في أصله ونشأته، وفي عواطفه وغرائزه، وفي ضروراته وأشواقه، فقد أسهبت الآيات المكية في الحديث عن الموضوعات الآتية:

١ ـ الإيمان بالله واليوم الآخر، وسائر عناصر الإيمان ومستلزماته من الدعوة إلى الوحدانية، والحملة على الشرك والوثنية وعبادة الأصنام، والرد على الدهريين وأصناف الملاحدة.. وتصوير الجنة والنار، ومشاهد النعيم وصور العذاب، كما صورت آيات كثيرة ـ وبألوان متنوعة ومواقف شتى ـ يوم القيامة وأدلته وأحداثه، ودعت إلى أخذ الأهبة والاستعداد ليوم العرض على الله ﷻ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

٢ ـ ويتبع هذا الموضوع ويتصل به: ما عرضت له الآيات المكية كذلك، من الحديث عن **الكون المخلوق**، وبنائه وقوانينه وسننه المطردة، ودعت الإنسان إلى الانتفاع به وتسخيره من وجه، وإلى الاستدلال به على الخالق جلَّ وعلا، من وجه آخر.

٣ ـ النشأة الأولى للإنسان وأطوار خلقه ـ أو خلق آدم ـ ومراحل تكوينه، وعن غرائزه وصفاته النفسية. كما تحدثت عن الأحياء الأخرى من نبات وحيوان.

٤ ـ تاريخ الإنسان، والحضارة، والسنن الإلهية في النفس والمجتمع، وقصص الأنبياء والأمم السابقة، بالإضافة إلى تصوير مآل الضالّين وعاقبة المكذبين، ومصارع الجبابرة والأقوام المفسدين.

أما الآيات المدنية التي دارت، في الغالب، حول الشريعة، أي حول الأحكام العملية التفصيلية التي كانت تختلف باختلاف الأقوام، فقد عالجت إلى جانب ذلك: الأوضاعَ الخاصة بالمجتمع بعد أن أضحت قيادته السياسية والاجتماعية بيد المسلمين، أو بعد أن قامت للمسلمين دولة في المدينة المنوّرة.

ولهذا فقد عالجت هذه الآيات علاقة هذا المجتمع والدولة بالمجتمعات والدول الأخرى في السلم والحرب.

ويمكن إجمال الموضوعات المدنية فيما يلي:

١ ـ الحديث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام، وأنواع القوانين أو التشريعات السياسية والمدنية والجنائية ـ الحدود ـ والدولية «الجهاد والسلم والحرب» وقضايا الميراث والحقوق الشخصية.. وسائر ضروب المعاملات، **وكذلك العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي، أو المرتبطة بالنظام العام كالصوم والزكاة والحج**، فقد فرض صوم رمضان في شهر شعبان من العام الثاني للهجرة، وفرضت معه زكاة الفطر وصلاة العيد، وفرض الحج في العام الخامس، أما الزكاة فقد فرضت قبل هذا العام، وتم توزيع العمال لجبايتها في العام التاسع.

٢ ـ ذكر المنافقين، وبيان أخلاقهم وفضح ما يمكرون أو يبيّتون، ومعلوم أن النفاق قد نجم في المدينة، لحاجةِ مَن في نفسه مرض لمصانعة الإسلام والمسلمين بعد أن قويت شوكة المسلمين وأقاموا دولتهم. ولم يسلك هذا السبيل أحد في مكة لعدم حاجته إلى ذلك، والمسلمون قلّة لا سلطان لهم، بل كانوا يحاربون جهارًا نهارًا على رؤوس الأشهاد[(١)].

٣ ـ مجادلة أهل الكتاب ومناقشتهم في عقائدهم، ودعوتهم إلى عدم الغلو في دينهم. وقد جاء هذا في أعقاب المرحلة المكية التي تكفّلت ببيان معالم العقيدة الإسلامية التي تمّ الاعتماد عليها أو الانطلاق منها في هذه الدعوة والمجادلة.

---

(١) راجع نوعًا من الحرب الخفية والمكر الخبيث في المدينة في السورة المسماة باسم المنافقين (السورة رقم ٦٣). وراجع كذلك سورة التوبة.

ب ـ الفروق الأسلوبية والبيانية:

يغلب على القسم المكي:

١ ـ قِصَرُ الآيات والسور وحرارة تعبيرها، وتجانسها الصوتي البارز، أو الذي يظهر للسامع من الوهلة الأولى[(١)].

٢ ـ كثرة السجع والفواصل القرآنية، وكذلك قِصَرُ هذه الفواصل وتنوعها (حتى في السورة الواحدة) بما يتناسب مع الموضوع أو الصور التي تعرض لها الآيات والمواقف في كل سورة من السور (انظر سورة البلد على سبيل المثال).

٣ ـ كثرة القَسَم والتشبيه والأمثال، وكذلك تكرار بعض الكلمات والجُمل وأسلوب التأكيد بصفة عامة.

٤ ـ الآيات المكية غنية بالتصوير والتجسيم، وخلع الحركة والحياة والحوار على الأشياء، وبخاصة حين تتحدث عن يوم القيامة وأحداثه، وما يتبع ذلك من

---

(١) الخطاب بالآيات المكية لجميع الناس، كما قدمنا، لأنها تتضمن دعوتهم إلى الإيمان.. ولهذا جاءت فيها عناصر الإعجاز التي تتصل بالجانب الصوتي، أو النظم الموسيقي، شديدة الوضوح، سريعة النفاذ والتأثير. وإذا كانت هذه العناصر، أو الجوانب من جوانب الإعجاز لم تنقطع في الآيات المدنية على التحقيق، فإنها فيها كانت ذات طبيعة وملامح أخرى، وقد يحتاج إدراكها هنا إلى شيء ـ قليل أو كثير ـ من التأمل يقوم به «المؤمن» الذي خوطب بهذه الآيات.. وهو يملك مثل هذه الفسحة الزمانية للتأمل والنظر. ومعلوم أن آيات سورة العنكبوت أشارت إلى أن الحجة قائمة على الكافرين والمبطلين والظالمين بمجرد تلاوة القرآن عليهم ـ انظر الآيات ٤٧ ـ ٥٢ من السورة ٢٩ ـ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ حيث نصت الآية أو اكتفت بمجرد سماعهم لكلام الله. ومن هنا جاء قولهم ـ والله أعلم ـ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

أوصاف الجنة والنار، وما يجري من حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب السعير.

أما الآيات المدنية **فيغلب** عليها طول أكثر السور والآيات، وأسلوبها التشريعي الهادئ. ويختلف نظام الفواصل فيها عن الآيات المكية، فهذه الفواصل في الآيات المدنية: رخيَّة مسترسلة، ولا تتنوّع تنوعها في الآيات المكية.

ثالثًا ـ شبهات حول هذه الفروق:

وربما زيَّنت هذه الفروق الأسلوبية للبعض، أو دفعته إلى الظن بأن القرآن الكريم قد خضع في «تأليفه» لظروف البيئة التي اختلفت بين مكة والمدينة، والتي انعكس أثرها على النبي ﷺ، فاختلف «أسلوبه» تبعًا لذلك!! وهذه هي النتيجة التي يريد أن يصل إليها هذا المتوهم أو الملبّس على الناس.

والواقع أن هاهنا شبهتين تدوران حول **اختلاف البيئة**، وحول اختلاف أسلوب النبي تبعًا **لاختلاف السن والتجربة**.

ولكن يمكن الرد عليهما في سياق واحد، وبنقاط شديدة الوضوح؛ لأن اختلاف البيئة وانتقال النبي ﷺ من البيئة الجبلية القاسية في مكة إلى البيئة الزراعية الوادعة في المدينة، صاحبه في الوقت نفسه اختلاف السن والتجربة وتطور المعلومات أو زيادة المعارف؛ فقد أوحي إليه على رأس الأربعين من عمره الشريف، وهاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين عليه الصلاة والسلام.

والذي نراه في نقض هذا الزعم الاستشراقي ـ على الرغم من حديثنا السابق عن الوحي «ومصدر» القرآن الكريم ـ ما يلي:

١ ـ إن اختلاف الخصائص الأسلوبية والبيانية لكل من الآيات المكية والمدنية نابع في الحقيقة **من اختلاف الموضوعات** التي تضمّنها كل نوع أو قسم من هذه الآيات. ومعلومٌ أن لكل موضوع حِليته اللفظية التي تناسبه والتي لا

تناسب سواه، ولم يقل أحد: إن الحماسة والوصف والغزل والرثاء والهجاء والمديح تؤدي كلها في قالب واحد، وأن ما يصلح من الألفاظ والتراكيب للأول يصلح للثاني أو الثالث... إلخ.

وقد دارت الآيات المكية، كما أشرنا، حول الدعوة إلى الوحدانية والحملة على جميع ألوان الشرك والوثنية وعبادة الأصنام، والرد على الدهريين وأصناف الملاحدة، ودعت إلى الاعتبار بمصارع الأقوام الجبابرة والمترفين والمفسدين، وبعاقبة الضالين المكذبين، فجاء أسلوب هذه الآيات يحمل في الغالب السمات التي أشرنا إليها في القوة والتصوير، وسرعة الإيقاع وحرارة التعبير..

هذه آيات من سورة القمر أسوقها هنا كمثال أو شاهد حول هذه النقطة وحول مضامين الآيات المكية وحليتها المناسبة بصورة عامة. يقول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾... إلخ السورة.

وإذا وقفنا هنا وقفة عارضة أمام ظاهرة (**السجع**) في الآيات المكية ـ على سبيل المثال ـ لوجدنا أن بعضهم أنكر وقوعه في القرآن.. بناء على قواعد وحدود وضعها له، أو بناء على مفهومه هو عن السجع[1]، بينما أقرّ بوقوعه آخرون، منهم

---

(١) قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «والذي يقدّرونه أنه سجع فهو وهم! لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعًا، لأن ما يكون به الكلام سجعًا يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعًا للمعنى..» إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله، ص٨٨.

وغني عن البيان أن السجع من الكلام «الذي يتبع المعنى فيه اللفظ» لا وجود له في القرآن ألبتّة، بل السجع الموجود فيه يكمل المعنى، ويؤديه على أدق وجوه الأداء، وعلى أجملها وقعًا في النفس، وأعذبها جرسًا في الأذن. ومعلوم أن السجع الجاهلي لم يكن حجرًا محجورًا على الكهنة، حتى يلحق به كل سجع يقال، وحتى نقول ما قاله الباقلاني، أو نقرّ معه بهذا (الحدّ) الذي وضعه للسجع! علمًا بأنه ـ أي السجع ـ لا يعدو أن يكون حروفًا متماثلة في مقاطع الفواصل. وعرّفه أهل

=

ابن سنان الخفاجي الذي ردّ على من قال: «إذا كان السجع عندكم محمودًا، فهلاّ ورد القرآن كله مسجوعًا؟» ردّ بقوله: «إن القرآن أنزل بلغة العرب، وعلى عرفهم وعادتهم! وكان الفصيح منهم لا يكون كلامه كله مسجوعًا لما في ذلك من أمارات التكلّف والاستكراه والتصنّع، **ولاسيّما فيما يطول من الكلام. فلم يرد كله مسجوعًا**؛ جريًا منه على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم، ولم يخل من السجع لأنه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها[(١)].

ويعنينا، في هذه العجالة، قول ابن سنان: «**ولاسيّما فيما يطول من الكلام**» الذي أشار فيه إلى أن السجع ليس زينة لفظية يؤتى بها في كل موضع! لأن الطويل من الكلام إذا كان يصلح لأداء الأحكام التشريعية الدقيقة المتضمنة للشروط والأحوال، والأعداد والأرقام، أو يصلح للحديث عن تاريخ الأنبياء والأمم، والشعوب والمجتمعات.. فإن السجع هنا ليس هو الحِلية المناسبة والبيانَ الملائم، بمقدار ما يؤدي هذا الدور في الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وذكر الجنة والنار، والزراية بالأصنام والأوثان.. وفي تصوير الجدل، ومواقف المناقشة والحوار.. إلخ.

الربط إذن بـ(**الموضوعات**) المكية، وليس بالمكي ـ أو بالمكي والمدني ـ بهذا الإطلاق!

= اللغة بأنه: موالاة الكلام على حد واحدٍ. قال ابن دريد: سجعت الحمامة: معناه: ردّدت صوتها. انظر: الإتقان للسيوطي، (٢/ ٢٧٣).

(١) سر الفصاحة ص١٦٧.

٢ ـ ومما يؤكد ذلك، وينضاف إليه: تقارب الأسلوبين أو تطابقهما حين عرضت الآيات المدنية لبعض الموضوعات المكية، أو العكس.

ولهذا استعملنا فيما سبق عند الكلام على الفوارق بين الأسلوبين تعبير (**ويغلب**) فقلنا: ويغلب على الآيات المكية كذا، وعلى المدنية كذا.. فهي إذن ليست فوارق قاطعة أو حادّة كما أشرنا إلى ذلك، لأنها فوارق نابعة من طبيعة الموضوعات لا من أي شيء آخر.. اقرأ سورة الحج، وهي من أواسط أو أواخر ما نزل بالمدينة (السورة ١٨ من السور الثمانية والعشرين التي نزلت في المدينة) تجد أنها قد استُهلت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الآيات: ١ ـ ٤]، ثم اقرأ فيها أدلة البعث يوم القيامة، وقف عند هذه الصورة من صور العذاب: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [الآيات: ١٩ ـ ٢٢].

ثم عَارِضْ هذه الآيات بالآيات التالية من مطلع سورة الأنعام، وهي من أواسط ما نزل قبل الهجرة، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤﴾ [الآيات: ١ ـ ٤].

بل إن الطابع العام للآيات المكية يقترب أو يتوافق مع الآيات المدنية، كلما

عدَّدتْ هـذه الآيات نعم الله تعالى على الإنسان أو حضته على مكارم الأخلاق، حيث يعرض ذلك بأسلوب هادئ ثابت القرار، عميق التأثير.. عُد إن شئت إلى آيات الوصايا في سورة الإسراء ـ وهي كذلك من أواسط ما نزل في مكة ـ وتأكد مما نقول، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [٢٣ ـ ٢٨]... إلخ الآيات، واقرأ إن شئت سورة إبراهيم.

٣ ـ إن القرآن الكريم لو لم يكن وحيًا يوحى، أي لو كان شأنه للنبي ﷺ لما اختلف أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث أصلاً! لأن أحدًا لا يستطيع الكتابة بأسلوبين مختلفين تمام الاختلاف. خصوصًا وأن أسلوب النبي ﷺ في كلامه أو أحاديثه الشريفة يمكن تقليده والنسج على منواله ـ ولهذا وجدت أحاديث موضوعة كثيرة ـ بخلاف القرآن الكريم المعجز الذي لا يقبل المحاكاة أو التقليد كما هو معلوم.

٤ ـ بل لو كان الأمر كما زعموا لما تنوع أسلوب القرآن نفسه هذا التنوع بين المكي والمدني، أي أن **شبهاتهم تحمل في نفسها دليل بطلانها**؛ لأن أحاديث النبي ﷺ سِماتُها البيانية واحدة لا أثر فيها لهذا التنوع أو الأسلوب المتعدد الذي نجده في الآيات المكية والمدنية، ولا أثر فيها يذكر للتاريخ أو للتطور والانتقال من مكة إلى المدينة، بل إننا نجهل تاريخ هذه الأحاديث في معظم الأحيان، وقد جُمعت أحاديث الموضوع الواحد في باب واحد، في كتب السنة النبوية، وليس في وسعنا الآن ترتيب

هـذه الأحاديث أو تقسيمها بين المكي والمدني![1] ونذكر بهـذه المناسبة **أن تعدد أساليب القرآن الكريم من أوضح الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد.**

٥ ـ يضاف إلى ذلك أن اختلاف أسلوب الكاتب بين الحماسة والاسترسال، أو بين الثورة والركون ـ كما زعم الزاعم في القرآن والنبي ـ لا يكون بين سن الأربعين والخمسين، أو الأربعين والثالثة والخمسين، وهما سنّ النبي حين نزل الوحي عليه ويوم هاجر إلى المدينة، لأنهما سنّ الكهولة، والتجربةُ فيه ناضجة، والثورة هادئة، والحماسة تميل نحو الغروب.. وإنما يكون ذلك بين الشباب والكهولة، أو بين العشرين والأربعين..

٦ ـ ولو صح مثلُ ذلك أيضًا لكان من الواجب أن نلحظ التطور الزمني في المكيّ نفسه حتى يسلم إلى المدني، بحيث يشبه أو يتساوى آخر المكي مع أوائل المدني، لأن الفروق لا تعرف في أسلوب الكاتب بين سن الثلاثة والخمسين إلا بضعة أشهر، وبينها كاملة أو مضافًا إليها عددًا من الأيام والشهور!!

بل إن الذي نجده في القرآن الكريم ينقض هـذا تمامًا ويعارضه وينفيه، كما لحظنا ذلك في الشواهد القليلة السابقة، وكما نشاهده في سورة الصف وهي من أواخر ما نزل من القرآن بالمدينة (السورة رقم ١١١ نزولاً من القرآن) والتي يقول الله تعالى فيها: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) ولهـذا عدّ ناسخ الحديث ومنسوخه من أصعب علومه! قال ابن خلدون: «ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهري: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه» المقدمة ص٤٠٥، ويضيف ابن خلدون أن الإمام الشافعي كان له في هـذا العلم قدم راسخة. قلت: وهـذا يدل على أن الإمام رضي الله عنه كان من المقدرة بحيث يعوّل على قرائن وأدلة تسعفه في معرفة تاريخ الحديث أو تغني غناءه. قال الإمام أحمد بن حنبل: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي. وفيات الأعيان.

ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [١ ـ ٩].. إلخ السورة.

هـذا كلام نزل على رسول الله ﷺ وقد جاوز الستين من العمر!! وهو يحمل معالم الآيات المكية على وجه العموم.. أين هـذا من السنّ والتجربة واختلاف البيئة، أو اختلاف الزمان والمكان!! كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴾ [الكهف: ٥].

وصدق الله العظيم الذي أنزل في محكم التنزيل: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ١ ـ ٤] وتنزه رسول الله ﷺ الذي لم يكن يكذب على الناس، عن أن يكذب على الله، وصلى الله عليه وآله وسلم[1].

(١) لم نعرض في هـذا الرد لمحاولات التمييز في الحقبة المكية بين ثلاث فترات أو مراحل، والتي أشاعها كثير من المستشرقين، وبعضهم في ذلك يأخذ عن بعض! وقد عوّلوا في ذلك تارة على (الأسلوب) وأخرى على (المضمون) ولم يستقم لهم الأمر في كلا الحالتين.. وما قدمناه في الرد كافٍ في نقض ما ذهبوا إليه. وراجع كتاب: الدفاع عن القرآن ضد منتقديه للأستاذ الدكتور عبد الرحمـن بدوي رحمه الله، ص١١٤ ـ ١٢٤، مكتبة مدبولي الصغير، ط١، عام ١٩٩٨، القاهرة.

الفصل الثالث

فــواتِح السّــوَر

- أولاً: أنواع استفتاح السور القرآنية.
- ثانياً: صيغ الاستفتاح بالحروف المُقطعة.
- ثالثًا: أشهر ما قيل في تفسير هذه الحروف.
- رابعًا: خاتمة وتعقيب.

الفصل الثالث

فواتِح السّوَر

افتتح الله عز وجل كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من سور القرآن ـ وعددها مئة وأربع عشرة سورة ـ عنها[(١)]، ونشير هنا إلى أنواع الاستفتاح هـذه قبل أن نقف عند موضوعنا، وهو «الاستفتاح بحروف التهجّي»:

أولاً ـ أنواع استفتاح السور القرآنية:

١ ـ الاستفتاح **بالثناء على الله تعالى**. والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه عن صفات النقص. والإثبات نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿تَبَارَكَ﴾، والتنزيه نحو: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

وقد ورد الاستفتاح بالثناء في أربع عشرة سورة، نصفها لإثبات صفات الكمال، ونصفها لسلب صفات النقص. وقد ورد الإثبات بالتحميد في خمس سور، وبـ ﴿تَبَارَكَ﴾ في سورتين هما: الفرقان، والملك. أما السور التي استهلت بالتحميد، فهي: الفاتحة:

---

(١) انظر: البرهان (١/ ١٦٤) فما بعدها. و الإتقان (٣/ ٤٥٣)، ط مؤسسة النداء. قال السيوطي: «أفرده بالتصنيف ابن أبي الإصبع في كتاب سماه: الخواطر السوانح في أسرار الفواتح وقد طبعه بالقاهرة د. حفني محمد شرف، عام ١٩٦٠.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾، والكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ۝١﴾، وسبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾، وفاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

أما التنزيه فقد ورد بصيغة التسبيح في السبع سور الأخرى، وهي: الإسراء ـ السورة ١٧ ـ قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾، والحديد ـ ٥٧ ـ قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، والحشر ـ ٥٩ ـ قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، والصف ـ ٦١ ـ قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾، والجمعة ـ ٦٢ ـ قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾، والتغابن ـ ٦٤ ـ قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، والأعلى ـ ٨٧ ـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾. وتسمى هذه السور السبع بالمسبحات، وتدعى كذلك: عرائس القرآن.

قال أبو القاسم محمود بن حمزة الكرماني (ت٥٠٢) والملقب بتاج القرّاء: «التسبيح كلمة استأثر الله تعالى بها، فبدأ بالمصدر في سورة بني إسرائيل (الإسراء)؛ لأنه الأصل، ثم بالفعل الماضي في الحديد والحشر والصف؛ لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى؛ استيعابًا لهذه الكلمة من جميع جهاتها»[1].

(١) الإتقان للسيوطي، (٢/ ٢٩٢). وفي وسعنا أن نستأنس بهذا، أو نعدّه شاهدًا تطبيقيًا على أن ترتيب السور كان توقيفيًا، على نحو ما ذهبنا إليه ورجحناه.

٢ ـ الاستفتاح **بالنداء**، وذلك في عشر سور، خمس في نداء النبي ﷺ، وخمس في خطاب الناس. ثلاث من الأولى بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في الأحزاب، والطلاق، والتحريم. والنداءان الآخران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، وفي خطاب المكلّفين ثلاث بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في المائدة، والحجرات، والممتحنة. واثنان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في النساء والحج. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾. وقال تعالى في مطلع سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

وآية سورة النساء التي وردت في النصف الأول من القرآن الكريم اشتملت على شرح (المبدأ) أما آية سورة الحج التي جاءت في النصف الثاني من القرآن الكريم فقد اشتملت على شرح (المعاد)[1].

٣ ـ الاستفتاح **بالجملة الخبرية** في ثلاث وعشرين سورة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ـ الأنبياء ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ ـ النور ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ الزمر ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ـ محمد ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾، ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ ـ المعارج ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ـ البينة ـ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾.

---

(١) الإتقان للسيوطي، (٤/ ٣٢)، ط مؤسسة النداء.

٤ ـ الاستهلال **بالقَسَم** في خمس عشرة سورة، وهي: الصافات، والذاريات، والطور، والنجم، والمرسلات، والنازعات، والبروج، والطارق، والفجر، والشمس، والليل، والضحى، والتين..، والعاديات، والعصر.

٥ ـ الافتتاح **بالشرط** في سبع سور: الواقعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾، والمنافقون: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، والتكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، والانفطار: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾، والانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾، والزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾، والنصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾.

٦ ـ و**بالأمر** في ست سور: الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، والمعوذتين.

٧ ـ و **بالاستفهام** في ست سور، وهي: الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، والنبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾، والغاشية، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾، والشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾، والفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، والماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾.

٨ ـ والاستفتاح **بالدعاء** في ثلاث سور، وهي سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، والهُمَزَة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، والمسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

٩ ـ و **بالتعليل** في سورة واحدة هي سورة قريش، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[1].

١٠ ـ الاستفتاح **بالحروف المقطّعة**، أو بحروف التهجي في تسع وعشرين سورة. وهي التي قصدنا إليها من فصل «فواتح السور) هذا.

---

(١) راجع البرهان للزركشي، (١ / ١٧٨ ـ ١٨١)، و الإتقان للسيوطي، (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

ثانياً ـ صيغ الاستفتاح بالحروف المقطعة:

جاءت هـذه الفواتح على صيغ مختلفة، فمنها ما هو مؤلف من **حرف واحد** وذلك في ثلاث سُوَر: صاد وقاف والقلم، فالأولى مفتتحة بحرف ﴿صَ﴾ والثانية بحرف ﴿قَ﴾ والثالثة بحرف ﴿نَ﴾. ومنها ما هو مؤلف من **حرفين**، وذلك في عشر سُور: سبع منها مفتتحة بهـذين الحرفين ﴿حمٓ﴾ وتسمى الحواميم، وهي: غافر أو (المؤمن) وفُصّلت والشورى والزخرُف والدخان والجاثية والأحقاف؛ بهـذا الترتيب في المصحف. أما الثلاث الباقية فهي سورة ﴿طه﴾ المفتتحة بهـذين الحرفين، والنمل المفتتحة بـ ﴿طسٓ﴾، وسورة ﴿يسٓ﴾ المسماة بهـذين الحرفين[(١)].

أما الفواتح المؤلفة من **ثلاثة أحرف** فتتوزعها ثلاث عشرة سورة: ست منها بلفظ ﴿الٓمٓ﴾ وهي في سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة، وخمس منها بلفظ ﴿الٓرٰ﴾ في سورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر، واثنتان بلفظ﴿ طسٓمٓ﴾ في سورتي الشعراء والقصص[(٢)]. وهنالك فوق هـذا سورتان مفتتحتان **بأربعة أحرف**، هما سورة الأعراف، وفي مستهلّها ﴿الٓمٓصٓ﴾، وسورة الرعد، وفي مستهلها ﴿الٓمٓرٰ﴾.

بقيت صيغة واحدة مؤلفة من **خمسة أحرف** هي ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في أول سورة

---

(١) قال ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢هـ): «ولم يجيء في حديث صحيح»، ولا أثر عن الصحابة، تسميته ﷺ بـ﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ والله أعلم، وإنما مجراها في القرآن كـ ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓرٰ﴾ و﴿حمٓ﴾ ونحوها. جامع الآثار: ٣/ ١٢٩ طبع قطر.

(٢) تدعى السور الثلاث: الشعراء والنمل والقصص بالطواسيم والطواسين.

مريم، مع الإشارة إلى أن سورة الشورى السابقة ـ إحدى الحواميم ـ افتتحت كذلك بعد ﴿حمٓ﴾ بآية أخرى مؤلفة من ثلاثة أحرف هي ﴿عٓسٓقٓ﴾.

يتبين من هـذا أن مجموع الفواتح تسع وعشـرون، وعـدد الحـروف الـواردة فيها من غير تكرار أربعة عشر حرفًا.

وهاهنا ملاحظتان:

الأولى: أن هـذه الفواتح التي كتبت في المصاحف على **صورة الحروف أنفسها لا على صورة أساميها**، على طريقة العرب إذا قالت للكاتب: اكتب: سينًا، فإنه يرسم الحرف «س» ولا يكتب اسم الحرف: (سِيْن)؛ إنما تقرأ حروفًا مقطّعة، وهـذا لا يتأتى غيره ـ كما هو واضح ـ فيما افتتح بحرف واحد مثل ﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾، ولـكن ما استهلّ بأكثر من حرف مِثْلُه كذلك نحو: ﴿عٓسٓقٓ﴾ فإنها تقرأ هـكذا: عَيْن، سِينْ، قافْ، وهـكذا: كافْ، ها، يا، عينْ، صاد.. إلخ[1].

أما الملاحظة الثانية: فهي أن الصيغة المؤلفة من حرف واحد تعد جزءًا من الآية الأولى في السور الثلاث: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

وتعد كذلك ﴿طسٓ﴾ جزءًا من الآية الأولى من سورة النمل. في حين أن كلاً من ﴿طه﴾ و ﴿يسٓ﴾ آية مفردة.

وكذلك: ﴿حمٓ﴾ في الحواميم السبع، كل واحدة منها آية منفردة.

وكذلك: ﴿الٓمٓ﴾ آية مفردة في السور الست المشار إليها.

---

(١) انظر حول هـذه النقطة: الكشاف للزمخشري، (١/ ١٢).

بخلاف: ﴿الٓر﴾ فهي جزء من الآية الأولى في السور الخمس التي استهلت بها.

أما ﴿طسم﴾ في الشعراء والقصص، فآية مفردة.

وكذلك ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ في سورة الأعراف.

وليس كذلك ﴿الٓمٓرٰۚ﴾ في سورة الرعد، فهي جزء من الآية الأولى. وقد جاء ترتيبها في المصحف مع سور ﴿الر﴾ الخمس المشار إليها (السورة رقم ١٣ بين هـذه السور: ١٠ ـ ١٥). ولا نعلم السبب ـ أو الخصوصية ـ في حرف الراء.

وربما جاء في عُرض هـذا الفصل ما يفسر طرفًا من هـذا؛ علمًا بأن (الآية) إنما تُعرف توقيفًا كما أسلفنا في مبحث الآيات والسور.

ثالثًا ـ أشهر ما قيل في تفسير هذه الحروف:

للعلماء والدارسين آراء كثيرة في تفسير هـذه الحروف المقطعة أو تأويلها، وليس من همّنا هنا استعراض كل ما قيل بغثّه وسمينه، ثم عدم الخروج بشيء في نهاية المطاف، كما فعل بعض الباحثين. ولكننا نعرض هنا لأشهر الآراء التي قال بها طائفة من العلماء والمفسرين، محاولين التماس أدلة الترجيح لبعض هـذه الآراء.

والذي نقوله ابتداءً: إن هنالك اتجاهين، يرى أضعفهما دليلاً عدم الخوض في تفسير هـذه الحروف أصلاً؛ لأنها ـ فيما قيل ـ مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يُطلِع عليه أحداً من خلقه لحكمة يعلمها الله! ولكن نؤمن بها وتُمرّ كما جاءت. وقد قالوا ذلك في المتشابه، أو عدّوها منه. وذهب إلى هـذا الاتجاه أو الرأي: سفيان الثوري والشعبي وجماعة من المحدّثين[1]. لكن هـذا الرأي أو الاتجاه قد يتعارض مع الأمر بتدبّر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، (١ / ١٣٨). وراجع: الإتقان للسيوطي، (٢ / ٥١٠)، مؤسسة النداء.

أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه أنزله تبيانًا لكل شيء، فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ومَنّ علينا بأن جعله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وكل ذلك يدل على ضرورة تدبره والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع معرفة معناه، أو محاولة الإحاطة بمعناه. ثم إنه لا خلاف على أن الغرض من الخطاب: الإفهام! وعلى أن الصحابة والتابعين والعلماء تكلّموا في معنى هـذه الحروف.

أما أصحاب الاتجاه الآخر، فقد اختلفوا في تفسير هـذه الحروف كما قـدمنا. ويمكن إجمال أشهر آرائهم فيما يلي:

الرأي الأول: إن هـذه الحروف أسماء من أسماء الربّ جل جلاله فُرِّقت في القرآن كما قال السدّي[1]، أو هي دلالة على اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته، روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الم﴾: أنا الله أعلم، أي أن الألف من «أنا» واللام من «الله» والميم من «عليم» ـ وروي أن الألف من «الله» واللام من «لطيف» والميم من «مجيد» ـ، وفي قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾: أنا الله أفصِل، وفي قوله: ﴿الر﴾: أنا الله أرى.

أو هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذف بقيتها، كقوله في ﴿الم ﴾: إن الألف من «الله»، واللام من «جبريل»، والميم من «محمد». في إشارة إلى أن القرآن كلام الله تعالى، نزل به جبريل على محمد ﷺ.

---

(١) الإتقان للسيوطي، (٢/ ٥١٤).

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الحروف المقطعة في القرآن هي اسم الله الأعظم، إلا أَنَّا لا نعرف تأليفه منها[١].

ويرى بعض العلماء، في إطار هـذا الرأي، أن هـذه الحروف لو وصلت صارت اسمًا من أسماء الله تعالى، كقولك: (الرحمـن) فهو: «الر» «حم» «ن». وروي هـذا عن ابن عباس قال: إنها حروف الرحمـن[٢] مفرّقة. ولـكن هـذا إنما يتأتى في بعض الحروف دون جميعها[٣]. وقد اختار الزجاج الرأي الأول المشار إليه وقال: «إن العرب تكلمت بالحروف المقطعة للدلالة على بعض الكلمات المتضمنة لهـذه الحروف، كقوله:

«فقلت لها قفي فقالت (ق)»

فعبّر عن قولها «وقفت» بحرف «قاف»[٤].

ولـكن الذي يؤخذ على هـذا التفسير بوجه عام: التحكم والافتقار إلى قاعدة مطّردة أو منضبطة، فقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ ـ مثلاً ـ ليس هناك ما يؤكد حمله على تفسير ابن عباس السابق، دون أن تقول مثلاً: أنا الله أصور.. والميم من ﴿الم﴾ ربما كانت من المجيد أو الماجد..

الرأي الثاني: قال زيد بن أسلم: هـذه الحروف هي أسماء للسور التي استهلت بها، بدليل قوله ﷺ: «**يس قلبُ القرآن**»[٥]، قالوا: وهـذا جائز لأن أسماء

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٣٨).

(٢) الإتقان للسيوطي، (٢ / ٥١١).

(٣) راجع كتاب: الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن، للمؤلف.

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص٣٠٨.

(٥) رواه أبو عيسى الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن لكل شيء قلبًا، وقلب القرآن يس..**» ثم قال: هـذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمـن.

=

الأعلام منقولة للتفرقة بين المسميات، فمتى لم يُرَد بها معنى الأصل فهي على جهة النقل ـ وقد جاء في أسمائهم: أوس بن لام ـ ولا خلاف بين النحويين في أن كل كلمة لم تكن على معنى الأصل فهي منقولة، كقولك: «زيد»، إذا لم تُرِد به الزيادة، كان منقولاً إلى العَلَم.

فإن قيل: لقد وجدنا ﴿الم﴾ افتتح بها عدة سور، فلو أراد بهذه الحروف التسمية لم يسم بها سورًا كثيرة! فالجواب أن هذا موجود كذلك في أسماء الألقاب، فيسمى خلق «زيدًا» ثم يتميز بشيء آخر يتصل به، فيقال: زيد الفقيه، وزيد النحوي، كذلك هنا إذا قرأ القارئ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]، فقد ميّزها عن: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢].

قال الحسن البصري: سمعت السلف يقولون: **إنها أسماء السُّوَر ومفاتيحها**.

ولا يخلو هذا الرأي من بعض الاعتبار، كما سنشير إلى ذلك في آخر هذا الفصل، لأنه لا يوجد ما يمنع من اعتباره، ولكن يمكن أن ينضاف إلى وجه آخر من وجوه البيان والتفسير.

الرأي الثالث: قال قطرب والفرّاء وأبو مسلم الأصفهاني: هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنه يقول للعرب: إنما تحدّيتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم[1]. أي أن هذه الحروف المقطّعة **للتحدي والإعجاز**، وبيان أن القرآن الكريم الذي أعياهم أمره حتى وصفه كبيرهم الوليد بن المغيرة بأنه سحر!!ـ وكان بالطبع سبيل أصحاب الرشد منهم إلى الإيمان والإسلام ـ هذا القرآن إنما هو

=

وذكر أن في إسناده مجهولاً. انظر: تفسير ابن كثير (٣ ٥٦٢) وانظر فيه روايات أخرى كثيرة. وانظر: الكشاف للزمخشري، (١/ ٨٣)، دار الفكر، ١٩٧٧.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية، (١/ ١٣٩).

مؤلف من هـذه الحروف! وأنه مع ذلك مباينٌ لمعهودهم في الفصاحة والبيان، خارج عن هـذا القدر الذي يستطيعه أو يقدر عليه المقدَّمون منهم في هـذا الباب.. فمن زعم أو ظن أن في وسعه أن يأتي بسورة من مثله ـ في أي باب من الأبواب شاء ـ فليفعل، أو فليحاول ودونه «مادة» هـذا الكتاب المعجز.. هـذه الحروف: الألف، واللام، والميم، والنون.. وهي حروفهم ومادة كلامهم، لا حروف أو مادة جديدة لم تطرق سمعهم من قبل، أو لا عهد لهم بها في السابق!

ولعل هـذا التحدي يظهر واضحًا جليًا، إذا ذكرنا النقـاط الآتيـة التـي يمكـن إيرادها هنا لدعم هـذا الرأي أو هـذا الشرح والتفسير:

١ ـ إن هـذه الأحرف قد استهلت بها السور المكية، حتى كانت من ضـوابطها أو من علاماتها، لا يستثنى من ذلك سوى سورتي «البقرة» و«آل عمران» وهما مـن أول ما نزل بالمدينة بعد الهجرة: (البقرة ـ الأنفال ـ آل عمران..).

٢ ـ إن مجموع هـذه الفواتح يبلغ تسعًا وعشرين، وهو عدد الحروف الهجائية ـ إذا عدت فيها اللام ألف أو الهمزة والألف[1] ـ وإن حروفها مؤلفة من أربعة عشر حرفًا نصف حروف التهجي، وأن هـذه الحروف جاءت فوق ذلك مشتملة على أجناس الحروف جميعًا، بمقدار النصف لكل جنس، ففيها مثلاً من

(١) يقول الهذلي: «واعلم أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفًا في قول البصريين. وقال غيرهم: ثمانية وعشرون. ولا خلاف في اللام ألف أنه مركب. والخلاف في الهمزة والألف. فقال الكوفيون: الهمزة والألف واحد، لاتفاقهما في الصورة. وقال غيرهم: بل هما حرفان، إذ الهمزة تكون ساكنة ومتحركة، ومخرجها متحقق، والألف لا يكون إلا ساكنًا، إذ هو والواو الساكنة والياء الساكنة جوفيان هوائيان؛ لقبت بذلك لامتداد الصوت بها وخروجها من جوّ الفم، وقيل: لأنها تخرج من جميع الفم، فلم يتخصص بمخرج، والألف لا يكون إلا حرف مدٍ ولين معتلّ». كتاب: التجويد من كتاب الكامل في القراءات الخمسين للهذلي (ت٤٦٥هـ)، (١/ ٢٨٨).

الحروف المهموسة العشرة التي يجمعها قولك: (فحثه شخص سكت): السين والحاء والكاف والصاد والهاء. ومن حروف الحلق الستة وهي: (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء): الحاء والعين والهاء.

ومن حروف القلقلة (قطب جد): القاف والطاء، ومن الحرفين الشفويين (الميم والباء): حرف الميم[١].. ومن حروف الإطباق (وهي الطاء والظاء والصاد والضاد): الطاء والصاد. ومن الحروف الشديدة (المجموعة في قولك: أجدت طبقك): الهمزة والطاء والقاف والكاف.

ومن الحروف المجهورة (وهي ما عدا المهموسة): الهمزة ـ أو الألف ـ واللام والميم والعين والراء والطاء والقاف والياء والنون.

ومن حروف الصفير الثلاثة (الزاي والسين والصاد): الصاد والسين.. إلخ هذه الأنواع، مع الإشارة ـ بهذه المناسبة ـ إلى أن بعض الحروف ربما اجتمع له صفتان أو أكثر. قال مكي بن أبي طالب: «فالحروف تشترك في بعض الصفات، وتفترق في بعض؛ والمخرج واحد. وتتفق في الصفات والمخرج مختلف. ولا نجد أحرفًا اتفقت في الصفات والمخرج واحد؛ لأن ذلك يوجب اشتراكها في السمع، فتصير بلفظ واحد! فلا يفهم الخطاب منها»[٢].

---

(١) راجع: البرهان (١/ ٢١٤)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ. والزمخشري في الكشاف، قال الزمخشري: «ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكنوزة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته». انظر: فتح القدير للشوكاني، (١/ ٣٠).

(٢) الرعاية لتجويد القرآن وتحقيق لفظ التلاوة تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، ص١١٥، دار عمار، ١٤١٧هـ.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «إنما جاءت على نصف حروف المعجم، كأنه قيل: من زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقي، ويركب عليه لفظًا معارضة للقرآن»[(١)].

ويؤكد الزركشي هـذه النقطة، **أو هـذه الظاهرة اللغوية في فواتح السُّور**، بأن أكثر هـذه الفواتح تكرارًا هي «الم» الألف واللام والميم، ويعلل ذلك بأنها «معالم» المدرج الصوتي أو جهاز النطق، أو رموزه على أقل تقدير، «فالهمزة من الرئة، فهي أعمق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من الفم، فصوتها يملأ ما وراءها من هواء الفم والميم مُطبَقة، لأن مخرجها من الشفتين إذا أطبقا»، قال: «ويُرمز بهن إلى باقي الحروف، كما رَمز بقوله: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله**» إلى الإتيان بالشهادتين وغيرهما مما هو من لوازمهما»[(٢)].

وبعبارة أخرى: إن هـذه الحروف تعتمد المخـارج الرئيسـة الثلاثـة «**الحلـق واللسان والشفتين**»، التـي يتفـرع عنهـا سـتة عشـر مخرجًـا ـ ليصـير منهـا تسـعة وعشرون حرفًا هي حـروف الهجاء ـ أو تمثـل جهـاز النطـق الإنسـاني في أقصـاه ووسطه وطرفه، فرمز بهـذه الثلاثة إلى جميع الحروف.

٣ ـ ويمكن أن يُستدل لأصحاب هـذا الـرأي، بمـا نلاحظـه مـن أن هـذه الحروف ـ في السورة التي افتتحت بها ـ أعقبها مباشرة حديث عن القـرآن الكـريم وأنه تنزيل من حكيم حميد، أو جاء هـذا الحديث في ثنايا السورة في أحيان قليلة:

---

(١) البرهان للزركشي، (١ / ٢١٥).

(٢) المصدر السابق، (١/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

وفي آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣].

وفي سورة طه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ [طه: ١ ـ ٤].

وفي سورة النمل: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ [النمل: ١].

وفي سورة القصص: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ [القصص: ١ ـ ٢].

وكذلك الحواميم: ابتداءً من سورة غافر إلى سورة الأحقاف، ففي السورة الأربعين «غافر»: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ١ ـ ٢]، وفي السورة التي تليها «فصلت»: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: ١ ـ ٣]، وسورة الشورى ـ ٤٢ ـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى: ١ ـ ٣]. وبعدها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

وهكذا في باقي «الحواميم» تأتي الآيات عقب هذه الفواتح مباشرة متحدثة عن هذا «الكتاب المبين» وعن جعله «قرآنًا عربيًا»، قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [١ ـ ٣]. وأن الله تعالى أنزله ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾راجع هذه السور.

وفي سورة العنكبوت التي صدرت بـ«الم» يرد في السورة عدة آيات حول هذا الكتاب المعجز، يقول الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ

فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [٤٧ ـ ٥١] وكذلك في أواخر سورة الروم[1]: [٥٨].

الرأي الرابع: يمكن عدّ هذا الرأي استدراكًا على الرأي الثالث وتعقيبًا عليه. كما أنه يمثل في الوقت نفسه إضافية علمية **جديرة بالتنويه**. كتب الدكتور حسن هويدي يقول: إن هذه الأحرف الكريمة الواردة في أوائل السور الشريفة تمثل **جميع أحرف التهجي**، وذلك بالصورة التالية إذا قسمنا أحرف التهجية إلى مجموعات، يضم كل مجموعة منها إطار في التشابه في الرسم:

مجموعة (ا ب ت ث) فكل من «ب، ت، ث» عبارة عن ألف أفقية بدلاً من أن تكون شاقولية، والنقاط علامات لتفريق اللفظ، فهي مجموعة واحدة، وقد أخذ منها حرف (ا) كأنه يمثلها.

مجموعة (ج ح خ) وقد أخذ منها حرف (ح) يمثلها.

مجموعة (د ذ ر ز) ويمثلها حرف (ر) والنقاط طارئة كما أشرنا.

مجموعة (س ش) ويمثلها حرف (س) والنقاط طارئة.

---

(١) قال الزركشي: «واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم، فيسأل عن حكمة ذلك»، البرهان (١ / ١٧٠).

مجموعة (ص ض) ويمثلها حرف (ص) والنقاط طارئة.

مجموعة (ط ظ) ويمثلها حرف (ط) والنقاط طارئة.

مجموعة (ع غ) ويمثلها حرف (ع) والنقاط طارئة.

مجموعة (ف ق) ويمثلها حرف (ق) والنقاط طارئة.

ثم هناك حروف مفردات لكل حرف كيانه المستقل وهي: (ك ل م ن هـ) وقد وردت جميعها.

أما مجموعة (و ي) ويمثلها حرف (ي) لأن كليهما حرف علّة ويجري عليهما الإبدال في كثير من الألفاظ، فكأنهما حرف واحد، وأن واحدًا منها يغني عن الآخر.

أما حرف (لا) فهو مؤلف من حرفي: اللام والألف».

قال: «وبهذا نستطيع القول: إن تلك السور الكريمة بُدئت بجميع حروف التهجي لا بنصفها؛ إذ أن كل حرف من الحروف المذكورة أصل لحروف المجموعة أو (أبٌ لها) ويتضمن خصائصها».

وأضاف رحمه الله: «كما يلوح لي ـ والله أعلم ـ أن كل حرف لما وجد بتقدير إلهي، يقتضي أن يكون له خصائص في العلم والمعرفة، والسورةُ التي تبدأ ببعض هذه الحروف ترجع في معانيها ومبانيها إلى تلك الأحرف، وهذا يدعو إلى اعتبارها من الآيات المتشابهات لتكون ميدانًا في المعرفة للراسخين في العلم، والمتدبرين من أولي الألباب»[1].

---

(١) قلت: انظر رأي الدكتور الفاضل في الحكمة من ورود المتشابه في القرآن في موضع آخر من هذا الكتاب. علمًا بأن كلا الرأيين ـ في الفواتح والمتشابه ـ جاءا في رسالة بعث بها الدكتور هويدي إلى المؤلف.

«ذلك أننا إذا اقتصرنا على اعتبارها أحرفًا للتهجي فحسب، دون اعتبارها أوعية للعلم، لا نجد ذلك متناسبًا مع عظمة التنزيل، ولا وافيًا بالغرض من قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] شريطة ألا تكون تلك المعرفة خيالية ظنية، ولا ضربًا من التنجيم والحساب ـ كما ذكرتم ـ وأن نفرق بين وصولنا إلى هـذا القول وإدراكنا لتلك المعرفة، فقد نقول بالقول ولمّا نقطف تلك الثمرة من أعالي الشجرة».

وأخيرًا يقول الدكتور هويدي: «وبهـذا تجد أن هـذا الوجه يجمع وجوهًا عدّة مما نقلتم عن العلماء دون تعارض ولا تناقض، والله سبحانه أعلم» اهـ.

الرأي الخامس: أما الرأي الخامس فقد أشار إليه الزركشي بقوله: «إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لَغوا فيه، وقال بعضهم: لا تسمعوا لهـذا القرآن والغوا فيه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦] فأنزل الله هـذا النظم البديع ليعجبوا به، ويكون تعجبهم سببًا لاستماعهم، واستماعهم له سببًا لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة».

ومعنى ذلك أن هـذه الحروف أسقطت من أيديهم آخر سلاح حاولوا أن يقاوموا به انقياد الناس بالقرآن، وتأثرهم لسماعه، والدخول به في دين الله.. وذلك السلاح هو سلاح الشغب تعبيرًا عن سقوط كل حجة بأيديهم: لا تسمعوا لهـذا القرآن!!.. آخر ما يطلقه منهزم في مناظرة أو نقاش.. لا تسمعوا لمحدّثي ولا تلتفتوا إليه.. ثم ماذا؟ ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ طريقة في الغَلَب والسبق طريفة وسابقة!! إذن فَلْيُحدِث لهم القرآنُ ما لا عهد لهم بسماعه: الم ـ ن ـ كهيعص، فأثار بذلك دهشتهم واستغرابهم فقالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد!! فإذا انطلق النبي صلوات الله عليه يقرأ سكن اللغو، وسكت الشغب، وسلك

القرآن سبيله إلى النفوس والعقول، فكان ذلك ـ كما يقول قطرب والرازي ـ سببًا لاستماعهم وطريقًا إلى انتفاعهم[١].

ولهـذا فإن بعض المفسرين الذين اعتمدوا هـذا الرأي قالوا: إنـه لا غرابـة في أن يُحدِث القرآن الكريم هـذا الأسلوب من أساليب التنبيه، ليدل المخاطب عـلى مهمات كلامه ويحيطه علمًا بما يريده منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضـل منازلها.. على نحو ما تواضع عليه العرب من هاء التنبيه وأداة الاستفتاح!.

قال السيد محمد رشيد رضا رحمه الله: «من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير: أن ينبه المتكلمُ المخاطبَ إلى مهمات كلامه والمقاصد الأولى بها، ويحرص على أن يحيط علمَه بما يريده هو منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها. ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها. وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح، فأي غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان، ويجب أن يكون الإمامَ المقتدى، كما أنه هو الإمام في الصلاح والهدى؟ ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكييفه بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر، أو غنة الاسترحام والعطف، أو رنة النعي وإثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع، أو صخب التهويش وقت الجدل. ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني بالحركات. ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة، أو وضع خط فوقها أو تحتها..»[٢].

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٦)، وكتاب الحاكم الجشمي للمؤلف.

(٢) تفسير المنار (٨/ ٢٩٩).

والذي يبدو لنا أن مثل هـذا الفهم أو التفسير قد يخدش هـذا الرأي، ويبعـده عن وضعه في ساحته القريبـة وإطـاره الصـحيح[١]، لأن سـكون اللغـو وسـكوت الشغب، أو ـ إذا نظرنا إلى الأمر من الوجهة المقابلة ـ إن إقبالهم على سماع القـرآن بعد هـذه الحروف يكمن في الإيحاء الذي أحدثته، والأجواء التي أطلقتهـا، حتـى كان نظمًا بديعًا كما عبر الزركشي، أي أنه يأسر القلوب، ويلفت الأنظار. أو بعبارة أخرى: إن إقبالهم على سماع القرآن لم يكن لمجرد أن هـذه السور افتتحـت بتلـك الحروف، ولـكن لأن هـذه الحروف ساهمت في البناء الفني للسورة، وتوّجَتْـهُ، أو أبرزت فيه ـ بمجرد السماع ـ قوة التلاحم، وبراعـة السـبك. بـل تفـرد الأسـلوب القرآني وإعجازه، ويبدو ذلك من خلال ملاحظة النقاط الآتية:

١ ـ العلاقة الموسيقية بين هـذه الحروف وفواصل الآيات التي تليها:

فإننـا إذا نظرنـا في هـــذه العلاقـة لرأينـا كيـف تقـوم هـــذه الفـواتح مقـام الافتتاحيات التمهيدية في المقطوعات الموسيقية:

أ ـ فهناك تمهيد بتماثل الروي، نحو قوله تعالى في سورة آل عمران[٢]:

﴿ألِف، لام، ميم ۞
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.

ب ـ وهناك تمهيد بالتقارب، نحو قوله تعالى في سورة البقرة[٣]:

---

(١) ينطوي هـذا التفسير على الزعم بأن القرآن الكريم أضاف إلى أدوات التنبيه.. أو أساليبه، وهـذا شيء لا يعرف عن القرآن الكريم في هـذا الباب، ولا في سائر أبواب النحو، والله أعلم.

(٢) وفي: سورة النمل والروم ولقمان والمؤمن وفصلت والجاثية والأحقاف والقلم وطه.

(٣) وكذا في: سورة العنكبوت والشعراء والقصص والسجدة ويس والزخرف والدخان.

﴿ألف، لام، ميم*
ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ج ـ وهناك أيضًا التمهيد الموسيقي الناشئ عن التناغم في المدود المردفة، يقول الله تعالى في سورة «ص»:

﴿صاد،
وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾
﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

٢ ـ دلالة هذه الحروف على معانيها اللغوية من جهة، وكثرة دورانها في السور التي صُدّرت بها من جهة أخرى، بالإضافة إلى ملاحظة الفواصل بوجه عام.

يقول الزركشي: «وتأمل السور التي اجتمعت على الحروف المفردة: كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ فإن السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، ومن ذكر الخَلْق، وتكرار القول ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقِّي المَلَكين، وقول العَتيد، وذِكر الرقيب، وذكر السابق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب، والقَرْن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبُسوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وخوف الوعيد، وغير ذلك»[1].

وقد عدّ بعضهم «القافات» التي وردت في سورة «ق» فوجدها سبعًا وخمسين، مع أن آيات السورة خمس وأربعون.

---

(١) البرهان (١/ ٢١٨).

بالإضافة إلى أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف «القاف» من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح[١].

وفي **سورة «ن»** تكرر هذا الحرف أربع عشرة ومئة مرة، وآياتها اثنتان وخمسون، وجميع فواصل هذه السورة تنتهي بهذا الحرف ـ ن ـ إلا عشرَ آيات تنتهي بالحرف «ميم»، وهذان الحرفان متقاربان موسيقيًا، إذ هما يخرجان من الغُنّة التي تخرج من الخَيشوم.

ويضيف الزركشي: «وإذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشتملت عليه **سورة «ص»** من الخصومات المتعددة: فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ، وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥] إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم.. ثم تخاصم إبليس مع آدم واعتراضه على ربه، وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانيًا في شأن بنيه وحَلفِه لَيُغوينَّهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم».

وينبني على هذا، ويؤكد ـ بدوره ـ أن هذه الحروف أسهمت في البناء الفني للسورة التي صُدِّرت بها: أن هذه الحروف لا يغني واحد منها عن الآخر، ولا يمكن أن ينقل أحدها من سورة إلى أخرى دون أن يختل نظام السورة! كما لو أن سورة «ص» ـ التي استهلت بهذا الحرف، صُدِّرت بحرف «ن» الذي صدرت به سورة القلم.

وقد يشير هذا إلى تقارب نظام السور التي افتتحت جميعها بـ ﴿الٓمٓ﴾ أو ﴿حمٓ﴾ على سبيل المثال، أو يدل على أن قدرًا مشتركًا من هذا النظام يجمع بينها،

---

(١) المصدر السابق.

ثم تنفرد كل واحدة منها بفاصلة أو إيقاع أو لون بلاغي مميز. ولعل هـذا هو السبب في أن سورة الشورى ـ ثالث الحواميم السبع ـ انفردت بإضافة ﴿عٓسٓقٓ﴾ إلى ﴿حمٓ﴾ والله أعلم.

٣ ـ ولعل هـذه الدلالة وذلك التمهيد الموسيقي هما مصدر الإيحاء الفني أو الشعوري الذي يُحسّه ويشعر به القارئ لهـذه الحروف في السور القرآنية، وربما كان هـذا الإيحاء لا يستند إلى تلك الدلالة الموسيقية فحسب، ولـكننا نخشى إن أضفنا إليها عامل الرمز أن نخرج بالنص القرآني إلى ساحة الأسرار والألغاز، وهي ساحة غير مأمونة العواقب، لأن بعضهم قد خاض في هـذه الفواتح أصلاً على مبدأ «حساب الجُمّل»[1]، وهو لون من ألوان الرجم بالغيب استنبط منه زمان وقوع

(١) حساب الجُمَّل: ضرب من الحساب يُجعل فيه لكل حرف من الحروف الأبجدية عدد من الواحد إلى الألف على ترتيب خاص، قلت: وعلى نحو غير ثابت أو متفق عليه بين المشارقة والمغاربة أو في كثير من الأحيان. وقد استنبط منه أو خَرَّجَ منه أو خَرَّجَ عليه الإمامية ـ على سبيل المثال ـ إسلام أبي طالب، قالوا: «أسلم أبو طالب بحساب الجمل بكل لسان»، كما خرجوا عليه زمن سقوط دولة بني أمية، ووقت قيام من قام من بني هاشم، قالوا: «وليس من حروف مقطعة تنقضي أيامه إلا وقيام قائم من بني هاشم عند انقضائه» بالإضافة إلى بعثة محمد ﷺ، قالوا: «إن الله تبارك وتعالى أنزل ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ فقام محمد ﷺ حتى ظهر نوره وثبتت كلمته، وولد يوم ولد وقد مضى من الألف السابع مئة سنة وثلاث سنين...».

انظر: مصابيح الأنوار للحجة السيد عبد الله شبر: (١ / ٣٧٦ ـ ٣٨٠ و٣٠٥ ـ ٣١٠) شرح (الحديث) الثاني والستين و(الحديث) السابع والأربعين. وانظر: الإتقان للسيوطي، (٢/ ٢٦ ـ ٢٨).

قال الفقيه العلاّمة ابن خلدون: «إن دلالة هـذه الحروف على الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية، وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمّونه حساب الجمل. نعم إنه قديم مشهور، وقدم الاصطلاح لا يصيّره حجة..» المقدمة ص٢٩٩، طبع دار الشعب.

بعض الحوادث، أو الدلالة على كرامة رجل بعينه وطائفة بعينها؛ مما لا تدل عليه هـذه الحروف بأصل الوضع اللغوي، وربما كان ما استنبط منها أو حُمل عليها يخالف العقل والواقع، ويتعارض مع أوضح مبادئ القرآن.

رابعًا ـ خاتمة وتعقيب:

وأخيرًا، ولسنا نقدم هنا رأيًا آخر، فإنه ليس هناك ما يمنع من أن يراد بهـذه الفواتح أكثر من معنى، وأنها جاءت لتؤدي أكثر من غرض في الكتاب الكريم، وقد نقل الزركشي أن ابن فارس جعل هـذه التأويلات التي ذكرناها، وتأويلات أخرى غيرها تأويلاً واحدًا، وذهب إلى عدم إحالة الجمع بينها[(١)].

والذي يترجح عندنا أنه أريد بها المعنيان الرئيسان السابقان: التحدي والإعجاز من ناحية، والدلالة الموسيقية والتمهيد النفسي والشعوري من جهة أخرى. وهـذا لا يتعارض مطلقًا مع ما ذهب إليه بعض السلف من اعتبارها أسماء للسور القرآنية، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، بل إن فيما ذهب إليه السلف ما يشير إلى هـذا الرأي الخامس الأخير؛ لأنهم قالوا في هـذه الفواتح: إنها أسماء السّور ومفاتيحها. بل إن حديثنا عن الدلالة الموسيقية والبناء الفني والتمهيد النفسي لا يعدو أن يكون شرحًا لهـذه (المفاتيح).

ويمكن تلخيص المعنيين المشار إليهما بأن الغرض في أولهما وهو التحدي، يتعلق بالمخاطبين. وأما الغرض في الثاني فيتعلق بدور هـذه الفواتح في بناء النص أو السورة القرآنية ذاتها. علمًا بأن الصلة بين هـذين الغرضين أو المعنيين ليست بخافية، والله تعالى أعلم.

---

(١) البرهان (١/ ٢٢٥). وانظر رأيًا آخر لنا ذكرناه في فقرة: رسم المصحف ص ٢٢٤.

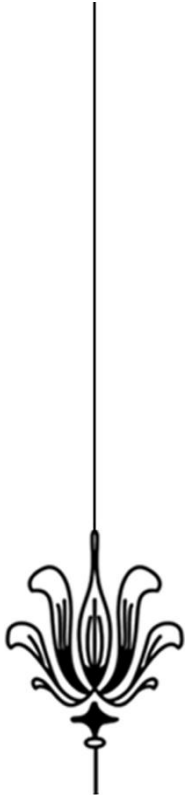

الفصل الرابع

المُحكَم والمُتشَابِه

- تمهيد: الإحكام والتشابه.
- أولاً: المتشابه اللفظي.
- ثانياً: متشابه المعنى والدلالة.

الفصل الرابع

المُحكَم والمُتشابِه

تمهيد: الإحكام والتشابه

يطلق الإحكام والتشابه باعتبارين أو بمعنيين: الأول، وصفٌ عامٌّ لجميع آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى في مطلع سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [١]، وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [٣].

ومعنى «**الإحكام**» هنا: أن القرآن الكريم لا يلحقه دَخَلٌ أو خلل أو باطل، فلا تفاوت فيه في النسق والإعجاز، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما وصفه الله تعالى في آية أخرى، والعرب تقول في البناء الوثيق والعهد الوثيق الذي لا يمكن نقضه: إنه محكم. قال الطبري في تفسير آية سورة هود المشار إليها: «أحكم الله آياته من الدَّخَل والخلل والباطل، ثم فصّلها بالأمر والنهي، وذلك أن إحكام الشيء: إصلاحه وإتقانه، وإحكام آيات القرآن: إحكامها من خلل يكون فيها، أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قِبَله»، قال: «وأما تفصيل آياته فإنه تمييز بعضها من بعض، بالبيان عما فيها من حلال وحرام، وأمر نهي»[(١)]. ويدل كلام

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١ / ١٨٠).

الطبري على أن الإحكام وصفٌ للبناء أو لبناء الألفاظ، أما التفصيل فهو للمعاني والموضوعات.

أما «**التشابه**» فهو في الأصل بمعنى التماثل، قال في اللسان: «والشِّبْه والشَّبَه: المثل.. وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله»، وقد يراد بآية سورة الزمر أن آيات القرآن الكريم يماثل بعضها بعضًا في البلاغة والهداية، ويصدّق بعضها بعضًا فلا خلاف ولا تناقض..ـ وهـذا يعطفنا على معنى الإحكام السابق، أي أنه يشبه بعضها بعضًا في «الإحكام» ـ ولـكننا إذا لحظنا أن كلمة «مثاني» في الآية الكريمة يجوز أن تكون بيانًا لكونه متشابهًا، فإننا نفهم من معنى التشابه في هـذه الآية: ليس التماثل الذي ينشأ عن الإحكام، **بل التماثل الذي ينشأ عن الإعادة والتكرار**، لأن «مثاني» جمع مَثنى، بمعنى مُردَّد ومُكَرَّر، وقد ثَنّى الله عز وجل من قصصه وأنبائه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده ومواعظه..[1] هـذه التثنية وهـذا التكرار ـ الذي جاء كأسلوب من أساليب التربية والإعداد ـ جعل التماثل والتشابه سمة من سمات القرآن الكريم بوجه عام، وبخاصة إذا أضفنا إليها: التماثل والتشابه المطلق في الخصائص الأسلوبية والبيانية، ومزايا الأداء القرآني، ونظام القرآن الصوتي، ونحو ذلك.

وهـذا ـ فيما يبدو ـ هو السبب في خروج بعض القُرّاء الحَفَظَة من موضع إلى موضع، ومن سورة إلى سورة لأقل سهو أو أدنى خطأ. ولعل هـذا هو السبب الذي أمر النبي ﷺ من أجله بتجديد العهد وملازمة التلاوة يومًا بعد يوم حتى لا يتطرق

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٩٥).

إلى الحافظ النسيانُ السريع، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعاهدوا هـذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلّتًا من الإبل في عُقُلِها**»، وفي رواية أخرى: «.. **استذكروا القرآن، فلهو أشد تفصيًّا من صُدور الرجال من النَّعَم بعُقُلها**»[(١)]، وزاد في رواية ـ لمسلم أيضًا ـ: «**وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نَسِيَه**»[(٢)].

هـذا هو الإحكام والتشابه بالاعتبار الأول، أو بالمعنى الأول، أما **الاعتبار الثاني** في هـذا الباب فقد أشارت إليه الآية السابعة في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فالإحكام والتشابه هنا قوبل أحدهما بالآخر، وجُعلا وصفًا لبعض الآيات دون بعض[(٣)] **ويراد بالمتشابه هنا**: ما التبس فهم المراد منه، أو ما غمضَ ودقّ وأشكلَ تفسيره، وكان بحاجةٍ إلى وجه من وجوه التأويل ليُحمَل ـ في بابه الخاص ـ على الآيات المحكمة التي تدل على معناها بوجه قاطع لا يحتمل خلافًا أو مجازًا، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري (ح٥٠٣٢ و٥٠٣٣)، و صحيح مسلم (ح٧٩١)، ص٥٣٢، بيت الأفكار الدولية. والتفصي: الانفصال، ويراد بالنعم هنا الإبل، كما جاء في رواية مسلم الأولى. والعُقُل: جمع عقال، وهو للإبل معروف. والمراد بـ«في» و«الباء» في الروايتين: من.

(٢) (ح ٧٨٩).

(٣) انظر: متشابه القرآن للمؤلف، ص٦ فما بعدها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ومثال المتشابه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

وسوف نعطي في هـذا الفصل إلماعة سريعة عن المحكم والمتشابه بهـذين الاعتبارين، ونشير هنا إلى أن المصنِّفين في «علوم القرآن» أشاروا إلى هـذا التفريق وتنبهوا إليه، وجعلوا كل واحدٍ من هـذين البابين «موضوعًا» لعلم خاص مفرد من علوم القرآن. وإن كانت اصطلاحاتهم في التسمية ـ في سبيل التمييز والتفريق ـ غير متفقة. وقد سمى الزركشي النوع الأول: «علم المتشابه»، وبحث في النوع الثاني تحت عنوان «معرفة المحكم من المتشابه». ويبدو لنا أن اصطلاح «متشابه القرآن» إذا أُطلق يراد به ـ على الأرجح ـ النوع الثاني[(١)]، وفي هـذه الحالة فإن من الممكن إطلاق تسمية «الآيات المتشابهات» على النوع الأول. ولـكننا رأينا، زيادة في الإيضاح، أن نبحث في النوع الأول تحت عنوان «المتشابه اللفظي» وفي النوع الثاني تحت عنوان: «متشابه المعنى والدلالة».

أولاً ـ المتشابه اللفظي:

موضوع هـذا العلم من علوم القرآن ـ كما اتضح لنا بعد هـذا التمهيد ـ هو الآيات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، لـكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف،.. أو غير ذلك مما يورث

(١) هـذا النوع أفردناه بالتصنيف في حوالي مئتي صفحة في كتابنا: متشابه القرآن: دراسة موضوعية طبع مكتبة دار الفتح بدمشق، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

اختلافًا بين الآيتين أو الآيات. كما يدخل في موضوعه بالطبع: الآيات التي تكررت بعينها من غير زيادة أو نقصان أو نحو ذلك[(١)].

ويمكننا القول: يراد بهذا العلم: **الآيات التي يشبه بعضها بعضًا** من حيث **الألفاظ، وصياغة الجمل والتراكيب**. وكذلك الآيات التي تكررت فيها بعض الكلمات.

وأكثر ما يرد هذا النوع في قصص القرآن، نظرًا لتكرار معظمها في أكثر من موضع ـ تبعًا لأغراض مختلفة ـ حتى كاد السيوطي، مقتفيًا أثر الزركشي، وهو بسبيل أن يضع له تعريفًا أو ما يشبه التعريف، أن يقصره على القصة وحدها، حيث قال: «والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتّى وفواصل مختلفة، فتأتي في موضع مقدمًا وفي آخر مؤخرًا، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [٥٨]، وفي الأعراف: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [١٦١]، وفي البقرة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [١٧٣]، وسائر القرآن: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣، والنحل: ١١٥][(٢)]، أو في موضع بزيادة وفي آخر بدونها.. أو في موضع معرّفًا وفي آخر منكرًا»[(٣)].

ولكن من الواضح أنه لا يقتصر على القصص وحدها، وإن كان يكثر فيها كما يلاحظ ذلك الزركشي، قال: « **وحكمته**: التصرفُ في الكلام وإتيانه على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، مُبتدءًا به ومتكررًا»[(٤)]؛ لأن هذا أصعب

---

(١) انظر: البرهان في متشابه القرآن ـ مخطوطة دار الكتب المصرية (رقم ٣٥٨) مجاميع.

(٢) وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

(٣) الإتقان (٢ ٩٤).

(٤) البرهان (١ / ١١٢)، وأظهر ما يكون معنى التحدي والإعجاز هنا من خلال التفسير الذي قدمه الرافعي لإعجاز القرآن.

على الكاتب، وأسهل على الناقل أو المقلد، وكذلك على المتحَدَّى بطبيعة الحال. قال القاضي الباقلاني في حديثه عن (القصة): «وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك. ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤] ليكون أبلغ في تعجيزهم، وأظهر للحجة عليهم»[(١)].

أما الآيات التي تكررت بعينها أو تكرر بعض أطرافها دون زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير، فتظهر فيها مثل هذه الحكمة التي أشار إليها الزركشي بالقياس إلى موضعها من سياق الآيات ومكانها من نظم القرآن، في حين أن الآيات التي جرى عليها التصرف السابق يتسع فيها ـ فوق ذلك ـ مجال المقارنة بعضها مع بعض. وقد قدم بعض العلماء في هذين المجالين، وفي هذا المجال الأخير بصفة خاصة، دراسات غنية وعميقة إلى حدٍّ ما، وتنوعت في ذلك ملاحظاتهم وتعددت تعليلاتهم وتعقيباتهم. ويطول بنا الوقوف إن حاولنا الوقوف على طرف من هذه الملاحظات في كل نوع من أنواع التشابه على حدة! ونكتفي هنا بذكر بعض الشواهد المقتضبة على هذه الأنواع مجردة من الدراسة والتعليل. ثم نقدم بعد ذلك بعض الأمثلة الجامعة التي تضم بعض الأغراض المختلفة، والتي تظهر رحابة الموضوع واتساع الجال فيه، ودلالته الواضحة على طرف من أسرار الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

---

(١) إعجاز القرآن ص١٨٩، بتحقيق السيد أحمد صقر رحمه الله تعالى، ط دار المعارف. وقال ابن فارس: «إن الله جل ثناؤه أوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع؛ إعلامًا لهم أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء، وبأي عبارة عُبّر». الصاحبي في فقه اللغة العربية.. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

فالأول، الذي عبر عنه السيوطي بالتقديم والتأخير، ومثّل له، عبر عنه الزركشي بقوله: أن يكون في موضع على نظم، وفي آخر على عكسه، وهو يشبه رد العَجُز على الصدر. قال: ووقع في القرآن منه كثير[1]. ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي المائدة: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

وفي الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي الإسراء: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

ومثال ما يشتبه بالزيادة والنقصان ـ بحسب تعبير الزركشي ـ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [الآية: ١٧٤]، وفي آل عمران: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [الآية: ٧٧].

وفي الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الآية: ١١٧]، وفي القلم: ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الآية: ٧] بزيادة الباء ولفظ الماضي.

ومثال التعريف والتنكير: قوله تعالى في البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية: ٦١]، وفي آل عمران: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١].

ومثال الجمع والإفراد: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ﴾ [البقرة: ٨٠]، وفي آل عمران: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [الآية: ٢٤]

ومثال إبدال حرف بغيره وكلمة بأخرى: قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَمَنْ

---

(١) انظر: البرهان (١ / ١١٣) فما بعدها. وقد جعل الزركشي «التقديم والتأخير» وجهًا آخر مستقلاً من وجوه التشابه، وأورده بعد الوجه الثاني القادم، وقال فيه هناك: إنه قريب من الأول، وقدم في تعليل بعض الشواهد كلامًا لطيفًا (ص١٢١).

أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الآية: ٥٧]. وفي السجدة: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [الآية: ٢٢]

وفي البقرة: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الآية: ٨٦]، وفي غيرها: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢، وآل عمران: ٨٨، والنحل: ٨٥].

وفي طه: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الآية: ٥٣]، وفي الزخرف: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الآية: ١٠]، وفي الكهف: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الآية: ٣٦]، وفي فصلت: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ [الآية: ٥٠][1].

شواهد وتطبيقات:

ونورد فيما يلي ثلاثة شواهد تطبيقية مقتضبة، يقتصر محل الشاهد فيها على لون واحد من ألوان التشابه السابقة، مع الإشارة إلى أن مراجعة الكتب الخاصة بهذا الموضوع تشير إلى ألوان كثيرة من التشابه، وربما اختلف في تعليلها والتماس وجه الحكمة فيها العلماءُ والمفسرون، كما نشير إلى أن هؤلاء العلماء عُنوا بالاختلاف والتشابه الحاصل بين الفواصل القرآنية، مما سنقف عليه عند الكلام على الفاصلة القرآنية إن شاء الله تعالى:

١ ـ قال تعالى في سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الآيتان: ٢٠ ـ ٢١]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ [الآية: ٢٠].

---

(١) راجع: الزركشي الذي أورد في كتابه (١/ ١١٢ ـ ١٣٢) شواهد كثيرة، وإن لم يعلل منها إلا القليل النادر.

والمسألة هنا: تقديم قوله: ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ على الفاعل ـ رجل ـ في سورة يس، وتأخيره في السورة التي قبلها، وهي سورة القصص[١] أما موضوع الآيتين: فهو في سورة القصص رجل يسرع إلى موسى يبلغه تآمر القوم عليه بعد أن ظهر أمر الرجل الذي قُتل على يده بالأمس، والذي كان عدوًا للذي من شيعته[٢]. أما موضوع سورة يس فرجل مؤمن مجهول يسعى لدى قومه في ناديهم يحثهم على قبول دعوة الرسل الذين دعوهم إلى الهداية والإيمان[٣]. وقد قيل في تعليل هـذا التقديم والتأخير: إن موضع الاعتبار في سورة يس سعي هـذا الرجل المجهول من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية، حيث مكان القصة الذي لم يشهده ولا صلة له به.. «فقدّم ما تبكيت القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر، فقال: وجاء من أقصى المدينة رجل ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم، مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشهد من كلام الأنبياء ما يشهدونه، فبعَثَهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم»[٤] فكأن حضوره «من أقصى المدينة» هنا هو الأمر الجدير بالنظر والتنويه والاعتبار، فقدّمه على «الفاعل».

وأما الآية من سورة القصص فالمراد بها أن رجلاً لا يعرفه موسى جاء من مكان غير مجاور لمكانه.. «فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به، فاستوى حكم

---

(١) رقم سورة القصص في القرآن الكريم: ٢٨، ورقم سورة يس ٣٦.

(٢) انظر: الآيات من ١٤ إلى ٢١ من السورة المذكورة.

(٣) انظر: الآيات من ١٣ ـ ٢٥ من سورة يس.

(٤) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، ص٣٠٧.

الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم، وهو الفاعل، إذ لم يكن هنا تبكيت للقوم بكونه من أقصى المدينة»[(١)].

ولا مانع من أن يقال كذلك: إن هذا التركيز على الرجل ـ الفاعل ـ يشير إلى لون من ألوان الثناء على عمله، والحض على مثله.. لأنه كان سببًا في نجاة موسى من المتآمرين عليه.

ونضيف إلى ذلك: أن هذا السعي هنا فيه إنقاذ حياة فرد، ـ على عظم مكانته بوصفه نبيًا من أولي العزم ـ وأعني حياته الفانية في الدنيا، في حين أن سعي الرجل المجهول في سورة (يس) فيه إنقاذ الحياة الدائمة أو الباقية لقوم (أمة أو جماعة) بدعوتهم إلى الإيمان، فاقتضى التنويه ببعد المكان الذي انطلق منه، والثناء على من فعله أو قام به؛ علمًا بأن مثل هذا العمل قائم ومستمر إلى يوم الدين، وليس كذلك وجود الأنبياء الذي انقطع بوفاة خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. أي أن ما فعله هو موضع أسوةٍ وقدوةٍ حسنة إلى يوم الدين.

٢ ـ وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الآية: ٧ ـ ٨]، وفي سورة لقمان: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [الآية: ٧].

وفي الآيتين أكثر من نقطة يمكن الوقوف عندها، ولكننا نكتفي بتعليل الزيادة التي جاءت في آية لقمان، وهي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ والتي تطوي في

---

(١) المصدر السابق.

تعليلها نقطة مهمة أخرى. في سورة لقمان أخبر الله تعالى عن الكافر بأنه إذا سمع القرآن أعرض عنه غير منتفع به حتى كأنه لم يسمعه!! وتستمر به هـذه الحال كما تستمر بمن به صمم! في حين أن قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ يدل على ما دل عليه قوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ؛ لأن «الإصرار» عزم لا يهمّ معه بإقلاع!! فإذا أصر على التصامّ فهو كمن في أذنيه وقر «فصار أحد اللفظين يغني عن الآخر ويقوم مقامه، فلذلك لم يجمع بينهما»، وكان الموضع الذي ذكر فيه ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أحق بقوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ والموضع الذي ذكر فيه «الإصرار» على ترك الاستماع أغنى عن ذكر الجملة السابقة[(١)].

٣ ـ وأخيرًا فإن النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر ـ بأي وسيلة كانت من وسائل القتل!ـ ورد في سورة الأنعام، وفي سورة الإسراء، جاء في الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الآية: ١٥١]، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الآية: ٣١].

قال الخطيب: «للسائل أن يسأل فيقول: قوله عز وجل: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ هو ما عليه الاختيار في كلام العرب من تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب، بناء على قولك: أعطيتكه، والآية في سورة بني إسرائيل ـ الإسراء ـ قدم فيها ضمير الغائب على المخاطب، كقولك: أعطيتهوك! وهـذا ليس بمختار، فما الذي أوجب اختصاص الأول بتقديم ضمير المخاطب، وأوجب اختصاص الثاني بتقديم ضمير الغائب»[(٢)].

---

(١) درة التنزيل ص٣٣٩.

(٢) المصدر السابق.

والجواب: أولاً: إن المختار الذي أشار إليه الخطيب الإسكافي، إنما هو في حال اتصال الضميرين بالفعل لا في حال انفصال أحدهما وعطفه على الآخر، لأن قولهم: أكرمته وإياك، مثل قولهم: أكرمتك وإياه، «في أن كل واحد منهما مختار في مكانه الذي يوجب تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، بخلاف ما يختار إذا اتصلا بالفعل في مثل: أعطيتكه» كما يقول الخطيب نفسه.

ثانيًا: ولهذا وجب التماس الوجه في هذا التقديم والتأخير في الآيتين السابقتَين، ويتلخص في أن آية الأنعام تنهى عن قتل الأولاد بدافع التخلص من الفقر الواقع بالآباء «من إملاق»، أي من فقر قائم تعانون منه وتعيشون تحت وطأته، فيحملكم ذلك على التخلص من الأولاد؛ لأنهم عبء زائد وهمّ ثقيل!! فقدّمت الآية هنا ذكر الآباء ـ الذين هم محلّ الفقر ـ ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾ ثم عطف عليهم بالأولاد، فقال: ونرزقهم هم كذلك. وأما آية الإسراء فتتحدث عن قتل الأولاد «خشية» الفقر، وخوفًا من وقوعه إذا جاؤوا.. فإذا كان الخوف من أن يقع الفقر في المستقبل ـ وهو غير واقع الآن ـ بسبب مجيء الأولاد فقد ضمن الله سبحانه وتعالى رزقهم أولاً أو قدمه على رزق الآباء ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ﴾ ثم عطف عليهم بالآباء، فقال: وإياكم؛ أي لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر، أو لما تخشون على أنفسكم بسببهم، فإن الله يرزقهم.. وإياكم. سبحانه وتعالى[1].

---

(١) لم نورد شاهدًا على التكرار لبعض الآيات والكلمات القرآنية. اكتفاءً بما سنشير إليه في بحث الفاصلة القرآنية القادم. ولكننا نذكر هنا شاهدًا على تكرار معنى (الرحمة) في البسملة. قال المفسرون: إن﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على طريقة المبالغة. قالوا: و(رحمن) أشد مبالغة من (الرحيم).. ولهم بعد ذلك آراء أخرى ليس من بينها ما نقله الدكتور

=

مصادر البحث في المتشابه اللفظي

وأشهر الكتب التي خصّها مؤلفوها بهـذا الفن أو العلم من علوم القرآن:

١ ـ كتاب درة التنزيل وغرة التأويل، في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز لأبي عبد الله محمد المعروف بالخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٣١[(١)].

٢ ـ كتاب البرهان في متشابه القرآن، لأبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني. الذي أفاد فيه من كتاب الخطيب إلى حد كبير. ومنه نسخ خطية كثيرة بدار الكتب المصرية[(٢)].

٣ ـ كتاب ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه

=

تقي الدين الهلالي عن المستشرق الكبير الأستاذ ب. موريس، في حوار له معه في شهر نيسان (أبريل) عام ١٩٣٩، فقد ذكر هـذا المستشرق أن معنى (الرحيم): المحبّ من (رحم) بمعنى أحبَّ. قال: و(رحم) في السريانية لها معنيان: أحدهما ـ مثل العربية ـ من الرحمة، والثاني: المحبّة. والسريانية والعربية في الأصل لغة واحدة، و(رحم) تدل فيهما على الرحمة والمحبة، إلا أن المعنى الأخير تُرك استعماله في العربية بأخرة حين دوّنت المعاجم فنُسي، وكانت العربية تعرفه وتستعمله. قال د. الهلالي: فقلت: وما الدليل على ذلك؟ قال: فأخرج لي صحيفة بالفارسية ـ وكان الدكتور الهلالي يجيدها ـ وقال: هـذه ترجمة للبسملة وسورة من القرآن بالفارسية كتبت في القرن الأول للهجرة، وقد ترجم فيها (الرحيم) بمعنى (المحب). قال: فلا شك أن العرب في ذلك الزمان الذي كتبت فيه هـذه الترجمة كانوا يفهمون من معنى: الرحيم (المحب). وبذلك تكون الآية دالة ـ بهـذا (التكرار) ـ على اتصاف الله تعالى بالرحمة والمحبّة. مجلة (الفتح) القاهرية، العدد ٦٥٤، في ٢٨ ربيع الأول ١٣٥٨هـ، عام المجلة الرابع عشر، ص١٠٢.

(١) طبع الكتاب بمصر سنة ١٩٠٩، ويقع في نحو أربع مئة صفحة.

(٢) انظر كتابنا: متشابه القرآن ص٨ حيث أشرنا لبعض هـذه النسخ، وقد طبع الكتاب أخيرًا تحت عنوان آخر رآه الناشر أكثر رواجًا! وهو أسرار التكرار في القرآن الكريم.

اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، أبي جعفر أحمد بن إبراهيم. وهو أجمع الكتب في هـذا الباب[١].

ثانياً ـ متشابه المعنى والدلالة:

نؤكد مرة أخرى أن ميـدان التشـابه هنـا: المعـاني والـدلالات، وفي المتشـابه اللفظي السابق: الألفاظ، أو المفردات والتراكيب.

١ ـ المتشابه لغة:

قال ابن قتيبة: «وأصل التشابه: أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان. قال الله جل وعز في وصف ثمر الجنة: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي متفق الظاهر، مختلف الطعوم، وقال في شأن الكافرين: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] أي يشبه بعضها بعضًا في الكفر والقسوة»[٢]. قال: «ومنه يقال: اشتبه عليَّ الأمر، إذا أشبه غيره فلم تكد تَفْرُق بينهما، وشبّهت عليّ: إذا لبّستَ الحق بالباطل».

وقال في اللسان: «والمشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات». وقال في أساس البلاغة: «وتشابه الشيئان واشتبها.. واشتبهت الأمور وتشابهت: التبست لإشباه بعضها بعضًا».

---

(١) قمنا بتحقيق هـذا الكتاب عن عدة نسخ خطية بتكليف من لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر. وقد ذكر ابن الزبير في مقدمة كتابه أنه قد وصل إليهم من المشرق كتاب الخطيب فأعجبوا به، وأنه ألّف كتابه على طريقته، وعني فيه بالتنبيه على ما أغفله صاحبه، (وهـذا الكتاب ضاع فيما ضاع من أعمالنا، عند خروجنا من سورية ـ في شهر آب (أغسطس) ١٩٨٠ ـ حررها الله).

(٢) تأويل مشكل القرآن، بشرح وتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله، ص ٧٤.

يتضح من هـذا أن «المتشابه» يطلق في اللغة على ما لـه أفـراد أو أجـزاء يشـبه بعضها بعضًا، وعلى ما يشتبه من الأمور، أي: يلتبس.

وهـذا يدل على أن التشابه في الأصل بمعنى التماثل ـ وأنه يكون بين الأشياء ـ ثم توسعوا في هـذا المعنى، فربطوا التشابه بالالتباس والشـك، وإن لم يكـن هـذا حاصلاً في الأمر أو الشيء لشبهه بغيره، فقالوا في « **كـل مـا غمـض ودَقّ: متشـابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره** »!!

قال ابن قتيبة: «ومثل المتشابه: **المشكل**، وسمي مشكلاً لأنه أَشْكَل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله». قال: «ثم يقال لكل ما غمض، وإن لم يكن غموضه من هـذه الجهة: مشكل».

ويبدو لنا أن هـذا التوسع في تعريف المتشابه بحيث يشمل كل ما غمض ودق، وهـذا الربط بين المتشابه والمشكل ليس بصحيح، لأن التشابه وصف للنصِّ، وسببه: الآيات نفسها، أو موضوعها و(تأليفها) أو نظمها وتركيبها، كما سنوضح، ومن ثم فهو متشابه عند كل قارئ للقرآن، أما المشكل ـ أو ما غَمَض ودَقَّ ـ فسببه القارئ أو المفسِّر، ومن ثم فهو نسبي. وربما أمكننا القول: إن كل متشابه مشكل، ولا عكس[1].

وينبني على هذه النسبية أن مساحة أو (حجـم) المشـكل ليسـت واحـدة عنـد

(١) وهـذا الربط من ابن قتيبة، إلى جانب ما ذكره ابن تيمية في رسالته الإكليل في المتشابه والتأويل قد يعوقان الباحث عن بلوغ الدرجة الضرورية أو المؤهّلة لتفسير المتشابه، والوقوف على معاني التأويل! لأن إضافة (كل ما غمض ودق) إلى تعريف المتشابه! ودخول ابن تيمية إلى تعريف (التأويل) من باب تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء هما سببا الخطأ أو الذهاب بعيدًا في تعريف المتشابه والتأويل، أو في تعريف المتشابه على أقل تقدير.

جميع المفسّرين، من جهة، وأن هذه المساحة قد تتقلص مع زيادة النظر في آيات الكتاب العزيز، أو في ضوء إمعان هذا النظر، مع صواب المنهج في التعامل مع القرآن الكريم وزيادة المعارف الإنسانية عبر العصور، بحيث لا يبقى المشكل مشكلاً.. حتى يمكننا القول: إن تفسير هذه الآية- أو الآيات- لم يعد مشكلاً.. وليس كذلك حال المتشابه، الذي يبقى متشابهاً، ولكن تختلف الآراء في فهمه وتفسيره، وفي طريقة حمله على المحكم.. كما سنشرح بعد قليل.

٢ ـ المتشابه في الاصطلاح (أو في الاستعمال القرآني):

وبناء على ذلك، فقد قالوا في تفسير الآيات المتشابهات التي أشارت إليها الآية السابعة من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ قالوا في تفسير هذه المتشابهات: إنها ما التبس فهم المراد منها، أو اشتبهت دلالتها على القارئ أو على كثير من الناس. بالإضافة إلى ما غمض ودق (وأشكل) تفسيره «وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره» كما قلنا قبل قليل. وقالوا في **المحكمات**: إنها البينات واضحات الدلالة، التي لا التباس فيها على أحد.

إلا أن منشأ هذا الالتباس في فهم المراد يعود أولاً إلى اللغة، وترددها بين الحقيقة والمجاز، والوضوح والإبهام.. ونحو ذلك، كما يعود إلى العقل والسمع وكل ما من شأنه أن يقطع بأن المراد من هذا المتشابه أمرٌ غير ظاهره[(١)].

(١) قال القاضي عبد الجبار: «المحكم: ما أحكم المراد بظاهره، والمتشابه: ما لم يحكم المراد بظاهره بل يحتاج في ذلك إلى قرينة» ثم فصّل القول في هذه القرينة التي نعرف بها المراد بالمتشابه ونحمله على المحكم، فقال: إنها إما أن تكون عقلية أو سمعية، وقال في القرينة السمعية: إنها تكون في =

ولهـذا فإن المراد من المتشابهات يجب أن يُرجع فيه إلى المحكمات التي جعلها الله بمنزلة «الأم»، أي الأصل الواحد الجامع الذي تُرد إليه المتشابهات، فقولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] يرجع في فهمه وتفسيره إلى قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: ١٦] يُرجع فيه إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وآية آل عمران ـ الآية السابعة ـ يمكن عدّها واضحة الدلالة في وجـوب حمـل المتشابه على المحكم ليطابقه، وحتى لا يضل أحد في تفسيره، بعيدًا عن المحكم، فضلاً عن تأويله بالباطل من قبل من في قلوبهم زيغ.

وسبيل الرجوع هـذه إلى المحكم ـ أو الحمل عليه ـ يكون بالتأويل أو بالفهم المجازي أو التفسير المجازي الذي تعرفه أو تتسع له لغة العرب؛ لأن التأويل عبارة عن «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عُدِّدت ـ أو تعورفت ـ في أصناف الكلام المجازي» كما يقول ابن رشد[1]، وكما ذهب إليه المتكلمون وجمهور الأصوليين.

=

الآية إما في أولها أو آخرها، أو في آية أخرى من السورة، أو من سورة أخرى.. إلخ. انظر كتابنا: متشابه القرآن ص٢٨.

(١) فصل المقال فيما بين الشريعة والحقيقة من الاتصال» ص٩٧، طبع مركز دراسات الوحدة العربية. وقد عرّف الإمام الغزالي التأويل بأنه عبارة عن «احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر» ثم قال: « **ويشبه أن يكون كل تأويل صرفًا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز** » المستصفى ١/ ١٥٧، وانظر كتابنا: متشابه القرآن ص١٥١ ـ ١٦٠.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]:

تأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغَفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه. وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: ٣١] يفهم منه أن الله تعالى قصد إليهما بعد طول الترك والإمهال، لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن.

قال قتادة في هذه الآية: قد دَنا من الله فراغ لخلقه؛ يريد أن الساعة قد أزفت وجاء أشراطها[1].

وهذا المعنى المجازي هو ما يسبق إلى فهم العرب الذين خوطبوا بهذا الكتاب الكريم، وهكذا جاء في القرآن الكريم المجاز والحقيقة، على نحو معهود العرب في الكلام، حتى إن ابن قتيبة سخر من الذين زعموا أن المجاز كذب، وطعنوا من أجل ذلك على القرآن.. سخر منهم واستجهلهم، ورماهم بسوء الظن وقلّة الفهم. قال: «ولو كان المجاز كذبًا، وكلّ فعل يُنسب إلى غير الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسدًا، لأنا نقول: نبتَ البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل. وتقول: كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن وإنما كُوّن!

والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]، وإنما يُعزم عليه.

ويقول: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، وإنما يُربح فيها.

ويقول: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] وإنما كُذّب به!»اهـ[2].

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص٩٩.

(٢) انظر «باب القول في المجاز» من كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص٧٦ ـ ٢٢٩.

وقد عقب كل من الزركشي والسيوطي على منع وقوع المجاز في القرآن، أو على من ظن أن المجاز أخو الكذب، والقرآن منزّه عنه، وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وذلك محال على الله تعالى؛ عقّبا بالقول: «إن هـذا باطل، وإن المجاز لو سقط من القرآن لسقط منه شطر الحسن؛ فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة «ولو وجب خلوّ القرآن من المجاز، لوجب خلوّه من التوكيد والحذف وتثنية القصص وغيره..»[(١)].

ونذكر أخيرًا أن العلماء الذين لا يقولون بتفسير المتشابه ـ بغض النظر عن سبب هـذا الموقف، وعن تعريفهم للمتشابه ـ يرون ضرورة الوقف على قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في آية المتشابه، وهي الآية السابعة من سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. وقد جعل هـؤلاء العلماء معرفة تأويل المتشابه لله وحده. أما (الراسخون في العلم) الذين ورد ذكرهم في الآية فينحصر دورهم في القول: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي

---

(١) البرهان: (٢/ ٢٥٥)، و الإتقان (٢ / ٩٩). وانظر تعليقًا لنا على ما ذهب إليه ابن تيمية من إنكار وقوع المجاز في القرآن في كتابنا: متشابه القرآن.. ونعتقد الآن ـ بعد هـذه السنوات الطوال التي مرت على نشرنا لهـذا الكتاب عام ١٩٦٩ ـ أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى تعليق.. ولا أدري كيف يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: ١٠] أو قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣] أو قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] والآيات القرآنية في هـذا الباب كثيرة جدًا كما هو معلوم.

المحكم الذي علمنا معناه، والمتشابه الذي لا سبيل لنا إلى معرفة معناه. وقد جعل هـؤلاء من المتشابه فواتح السور التي مرت بك في فصل سابق.

٣ ـ ابن تيمية وتأويله المتشابه:

لقد ذهب ابن تيمية في تعريف المتشابه مذهبًا بعيدًا لا يخلو من الغرابة! فهو لم ينطلق في هـذا التعريف من المعنى اللغوي للتشابه ـ وكذلك من المعنـى اللغـوي للإحكام ـ ولـكنه انطلق في هـذا التعريف من تعريف (التأويل)! أو دخل إلى بيـان المحكم والمتشابه اللذين نصّت عليهما آية آل عمران السابقة، من بـاب التأويـل! وكان طريقه إلى هـذا الباب، أو نقطة انطلاقـه: تقسـيم الكـلام في العربيـة إلى خبـر وإنشاء! الآيـةُ القرآنيـةُ الكريمـة تتحـدث عـن تقسـيم بعـض الآيـات إلى محكـم ومتشابه، وابن تيمية يفاجؤنا بحديثه عن تقسيم الكـلام إلى خبـر وإنشـاء! تمهيـدًا للحديث عن (تأويل) الأخبار كيف يكون، و(تأويل) الإنشـاء كيـف يكـون!! ولا يدري المرء ـ ابتداء أو مع هـذا التقسيم ـ كيف يكون تعريف (المحكم) أو كيـف تفسّر (المحكمات) التي نصّت الآية الكريمة على أنها (أم الكتاب) وكيـف تُقابَـل بالمتشابهات، أو تقابلُ بهـا المتشـابهات! علمًـا بـأن هنالـك ضـربين آخـرين مـن ضروب (التأويل) ـ كما سنتحدث في مبحث التأويل ـ **أحـدهما**: تأويـل الأعمـال، كما في قصة موسى عليه السلام مع الرجـل الصـالح في سـورة الكهـف، **والثـاني**: تأويل الرؤى كما في قصة يوسف عليه السلام. ونورد فيما يلي نقدنا لما ذهب إليـه ابن تيمية رحمه الله بعد عرض تقسيمه الذي دخل منه إلى الحـديث عـن المتشـابه، ولا أقول: الذي دخل منه إلى تعريف المحكم والمتشابه!

قال ابن تيمية رحمه الله: **إن الكلام نوعان: خبر وإنشاء**. وتأويل الخبر: وقوع

المخبَر عنه، وتأويل الإنشاء أو الطلب: فِعْلُ المأمور به، مثاله: قول السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللَّهم وبحمدك، اللَّهم اغفر لي**»، يتأوّل القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣].

أما تأويل الأخبار فقد أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣]، فإذا وقع ما أخبر به القرآن الكريم من أمور تقع في المستقبل، وبخاصة ما يتعلق منها بالساعة وأشراطها، كالدّابة ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها..، فذلك تأويله. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧].

وعلى ذلك، فقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف المتشابه! ـ أو في الإشارة إليه ـ إلى أنه هو هـذا الذي تحدث القرآن الكريم عن وقوعه في المستقبل. وتأويلُه: وقوعُه فعلاً[1]، وليس تأويله فهم معناه أو تفسيره بطريق الحمل على المحكم كما قدمنا! أو بأي طريق من الطرق.

وإذا كان زمن وقوع ما أخبر القرآن بوقوعه لا يعلمه إلا الله؛ فمعنى ذلك أن

(١) راجع رسالة ابن تيمية: الإكليل في المتشابه والتأويل.

المتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى، وصار الوقف في آية آل عمران على قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لازمًا لا شك في ذلك.

ويبدو ـ على هـذا التفسير ـ أن المتشابه لا صلة لـه بالقسـم الثـاني مـن نـوعي الكلام، وهو الإنشاء!!

٤ ـ المناقشة والرد: (شروط تعريف المتشابه):

لا ينازع أحدٌ في أن هـذه الأخبار لا يعلم زمن وقوعها أحد، وإن كانت الآيات التي تحدثت عنها مفهومة المعنى، أو بيِّنة الدلالة، أو واضحة العبارة، ولـكن الذي ننازع فيه أن تكون هـذه هي «المتشابهات» التي ورد الحديث عنها في الآية الكريمة أو هي المرادة منها؛ وذلك للأسباب الآتية[(١)]:

١ ـ إن هـذا التفسير للمتشابه مقطوع الصلة بالمعنى اللغوي للتشابه؛ ومعلوم أن المصطلحات القرآنية تأتي وفق المعاني اللغوية. ولهـذا فإن من الغريب أن تعـد الأخبار المتعلقة بالساعة أو فواتح السور من المتشابه. إن تأويل ما أخبر الله تعـالى

(١) هذه الأسباب التي أوردناها تمثل عندنا (الشروط) التي يجب توافرها في (حد) المتشابه أو تعريفه، حتى يكون هـذا التعريف مقبولاً، أو في دائرة الخلاف وتعدد وجهات النظر. ولهـذا ضربنا صفحًا عن عشرات التعريفات التي قيلت في تفسير المتشابه، لأنها في نظرنا خارجة عن نطاق البحث! كما أن هـذا الذي قلناه، يؤيده ما وقفنا عليه من كلام العلاّمة ابن خلدون؛ قال رحمه الله: «وأما ما يرجع منها ـ أي أصناف المتشابهات ـ على ما ذكروه: إلى الساعة وأشراطها، وأوقات الإنذارات، وعدد الزبانية، وأمثال ذلك، فليس هـذا والله أعلم من المتشابه، لأنه لم يرد فيه لفظ محتمل ولا غيره، وإنما هي أزمنة لحادثات استأثر الله بعلمها، بنصّه في كتابه وعلى لسان نبيّه، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والعجب ممن عدّها من المتشابه» المقدمة ص٤٣٢، ط دار الشعب بالقاهرة. قلت: تأمل عجبه، وكذلك قوله: لم يرد فيه لفظ محتمل.

به: وقوعُه، أو تأويل الأخبار: وقوعها، كما يقول ابن تيمية بحق، ولـكن هـذا لا يعني أن هـذا المصطلح ـ التأويل ـ **ليس له إلا هـذا المعنى المقترن بالأخبار**، وأن هـذا المعنى هو الذي يتحكم في تعريف المتشابه، أو يسمح لنا بتعريفه على خلاف المعنى اللغوي أو الدلالة اللغوية للتشابه؛ بل على خلاف المعنى اللغوي للتأويل، **وأعني تأويل الكلام لا تأويل الأخبار أو تأويل الأعمال**؛ لأن هـذا خروج عن الدلالات! علمًا بأن أحدًا لم يقل حتى في باب تفسير الألفاظ أو تأويل الكلام، إن اللفظ القرآني ليس له سوى معنىً واحد أو دلالة واحدة حيثما ورد.

يؤكد هـذا ويدل عليه، أننا لا نعلم أحدًا من الذين في قلوبهم زيغ (أوّل) الدابّة، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها! بمعنى أنه زعم أنه يعلم وقت وقوعها!!

صحيح أن الشيعة الإمامية قالوا في الدابة إنها سيدنا علي رضي الله عنه، لكن رواياتهم في هـذا الباب لا صلة لها بالتأويل الذي نتحدث عنه، أو الذي تحدث عنه ابن تيمية[1]! مما تعرفه اللغة ويسيغه العقل من ضروب التأويل! ومن ثم فإن

---

(١) روى علي بن إبراهيم القمي عن أبيه عن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) قال: «انتهى رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله، ثم قال: **قم يا دابّة!** فقال الرجل من أصحابه: يا رسول الله أيسمّي بعضنا بعضًا بهـذا الاسم؟ فقال: لا، والله ما هو إلا له خاصّة، وهو الدابة التي ذكرها الله في كتابه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]..» إلخ هـذه الرواية كتاب الوافي للفيض الكاشاني (٢/ ٤٦١)، مكتبة أمير المؤمنين: أصفهان، ١٤١٢هـ، و تفسير القمي (٢ /١٠٦)، منشورات الأعلمي، بيروت، ١٤١٢هـ، وفيه: «قم يا دابة الله». مع الإشارة إلى أننا لا نعتَد بشيء مما يرويه علي بن إبراهيم، ولا =

المتشابه الذي يتحدث عنه ابن تيمية لا صلة له بآية المتشابه؛ لأنها نصّت على أن الذين في قلوبهم زيغ يتبعونه ابتغاء الفتنة وابتغاء (تأويله) فإننا لم نجد أحدًا من هـؤلاء تحدث عن (وقت) طلوع الشمس من مغربها! وتأويلُ الأخبار: وقوعها أو وقوع المخبر عنه كما يقول ابن تيمية.. إن حديث ابن تيمية في باب، وآية آل عمران في باب آخر!

٢ ـ لقد قابلت آية آل عمران المتشابهات بالمحكمات، وجَعلت المحكمـات «أمّ الكتاب» أي أصله الجامع الذي تُردّ إليه المتشابهات وتُفسّر في ضوئه.

ولا ندري كيف تُقابل المتشابهات بالمحكمات عـلى هــذا الحـدّ والتفسـير، وتُجعل قسيمًا لها؟! وما علاقة تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء بهـذا؟

٣ ـ وأخيرًا: فإن هـذا التفسير لا يتفق مع أسباب نزول الآية، لأنها نزلت في سياق بضع وثمانين آية من صدر سورة آل عمران ردًا على وفد نصارى نجران[(١)] حين تعلقوا ببعض الآيات المتشابهة التي وصفت عيسى ابن مريم عليه السلام بأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه. فأعلمهم الله تعالى بأن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، وأن العبارات التي وردت بحق المسيح عليه السلام يجب أن تفهم في

=

بما يفسّر به القرآن، لأنه رائد القول بتحريف كتاب الله (نصًا وتفسيرًا أو لفظًا ومعنى)! ولا ريب في أن الذي يكذب على الله، بل يكذّبه في تكفّله بحفظ كتابه، سوف يكذب على النبي والأئمة وسائر الناس!

(١) أخرج الطبري من رواية مطولة عن محمد بن جعفر بن الزبير أنها نزلت في طائفة من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ من نجران فحاجّوه في عيسى عليه السلام، وألحدوا في الله عز وجل.. راجع: تفسير الطبري (٣/ ١٦١ ـ ١٦٢)، وانظر: متشابه القرآن للمؤلف.

ضوء الآيات المحكمات التي دلّت على معانيها بطريقة قاطعة لا تحتمل أي صرف عن معناها أو تأويل بالباطل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص]. وفحوى ذلك أن ميدان المتشابه بعض مسائل الاعتقاد، ولهـذا فإن آيات الأحكام ليس فيها متشابه، كما قرر ذلك بحق: علماء الأصول[1].

وعلى الرغم من القاعدة الأصولية التي أشرنا إليها في مبحث أسباب النـزول، وهي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السـبب؛ فـإن التفسـير الـذي لا يشـمل سبب النزول، أو يكون مقطوع الصلة به لا يعتدّ به عند أحد من العلماء.

ثم إننا لا ندري ـ إن نحن أخذنا بما قال شيخ الإسلام ـ كيف يكـون في هـذه

---

(١) قال بعض علماء الشيعة الإمامية: « **إن كلام الأئمة كالقرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه**» انظر: السيد عبد الله شبّر ـ الملقب بالحجة ـ كتاب مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار ج١، ص١١، مؤسسة النور للمطبوعات، ١٩٨٧، بيروت. وقال أيضًا: «وروينا بطرق عديدة عنهم عليهم السلام أنهم يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن، ويعلمون ما في السماوات وما في الأرضين» نفس المصدر ج٢، ص٣٩٧!! ويبدو لنا أن هـؤلاء العلماء وهم يقولون بهـذا ربما لحظوا أن المتشابه يكون في الكلام الإلـهي. ولما كان الأئمة ـ عندهم ـ ليسوا بعيدين عن الصفات الإلـهية؛ فقد جاء في كلامهم محكم ومتشابه؛ قال السيد شبّر (١٣٤٢هـ): «**إن الأئمة لهم حالة روحانية برزخية أوّلية تجري عليهم فيها صفات الربوبية**» وأضاف: «وإليه أشير في الدعاء: لا فرق بينك وبينهم إلا أنهم عبادك المخلصون»! وقال أيضًا: «إن قياس الأئمة على أشخاصنا قياس مع الفارق، فإن عليهم مسحة من الصفات الإلـهية» ج٢، ص١٧٣.

قلت: ولو كان هنالك شيء أبعد من المحال، لكان هـذا؛ لأن العبودية لله تعالى إذا لم تكن تمثل فرقًا بين العابد والمعبود، أو بين الله تعالى والإنسان، فما تعريف الفرق إذن في اللغة أو العقل؟ والسؤال الآن: لماذا هـذا التمويه والنفاق والتدليس؟

الآيات رد على وفد نصارى نجران وإبطال لزعمهم، أو لما تعلقوا بـه مـن متشـابه القرآن؟

٥ ـ الراسخون في العلم وتأويل المتشابه:

يتضح من شروط تفسير المتشابه هـذه أن ما ذهب إليه ابـن تيميـة بعيـد، وأن هـذه الأمور التي سـوف تقـع في المسـتقبل لا علاقـة لهـا بالمتشـابه، ولا يمكـن إقحامها فيه أو تفسيره بها.

ومن ثم فإن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيه نظر، بل إن العطف بالراس خين في العلم على لفظ الجلالة هو الأولى؛ لأنه لو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ لم يكن لهم فضل على المتعلمين، بل على عوامّ المسلمين! لأنهم جميعًا يقولون: آمنا به كل من عند ربنا![1]

قال ابن قتيبة: «ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهـذا غلط من متأوّليه على اللغة والمعنى، ولم يُنزل الله شيئًا من القـرآن إلا لينفع به عباده، ويدلّ به على معنى أراده».

ثم قال: «وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟! وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، فقد علّم عليًّا التفسير، ودعا لابن عباس فقال: «**اللَّهم علمه التأويل وفقِّهْه في الدين**».

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله، ص٧٣، وانظر: متشابه القرآن للمؤلف.

وذكر بعد ذلك أنه لم ير المفسرين توقّفوا عن شيء من القرآن وقالوا: هـذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمرُّوه على التفسير حتى فسّروا الحروف المقطعة في أوائل السور[(١)].

فالراسخون في العلم، إذن، معطوفون على اسم الله عز وجل، وداخلون في علم المتشابه[(٢)] ـ على نحو ما ذهبنا في حدّه وتعريفه ـ وأنهم مع علمهم به يقولون: آمنا به، وقولُه تعالى بعد ذلك: ﴿يَقُولُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من الراسخين. وقد مدحتهم الآية بالرسوخ في العلم، فلا يُمدحون وهم جُهّال! قال ابن عباس: أنا ممن يعلم تأويله[(٣)].

ولهـذا فإننا نرى أن من حق العلماء الراسخين ـ بل من واجبهم ـ أن يقوموا بتفسير المتشابه أو تأويله على نحو يطابق المحكم أو يردّه إليه. أما من كان في قلبه زيغ فإنه لا يكون راسخًا بحال! لأن الرسوخ في العلم وفسادَ الطوّية أو الاعتقاد ضدّان لا يجتمعان. ومن ثَم فإنهم إذا اتبعوا المتشابه ـ وكأنهم لا يلتفتون إلى غيره ولا يتبعون سواه ـ فإنهم إنما يتبعونه لأحد أمرين: إما ابتغاء الفتنة، أي لإثارة الشكوك والشبهات. وإما ابتغاء تأويله! وليس لهم في تأويله حق لأنه لن يؤوّل على أيديهم إلا بباطل.. وهـذا من معدن الفتنة أو مساوٍ لها. ولهـذا فيما يبدو أُمر

---

(١) ابن قتيبة: المصدر السابق.

(٢) قال القرطبي: «ما حكاه الخطابي من أن قراءة العطف لم يقل بها غير مجاهد لا يصح، فقد روي عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون: آمنا به؛ قاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد وغيرهم». الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٧).

(٣) متشابه القرآن للمؤلف، وابن قتيبة: المصدر السابق.

الراسخون بأن يدعو الله تعالى بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وهي الآية التالية ـ رقم ٨ ـ لآية المتشابه السابقة.

هـذا، وسوف نبحث في صفحات قادمة في (التأويل) وحـدوده، مكتفـين هنـا بالإشارة إلى كذب مَن زعم أن القرآن كلَّه يدخله التأويل، أو مَـن جعـل (تفسـيره) بحسب قواعد اللغة ودلالات الألفاظ من أعمال العامّة أو العوامّ، وجعل (تأويله) على النحو الذي يشاء أو بالمعنى الذي يريد، من خصائص الطبقة العليا أو الإمام، كما ذهب إلى ذلك الإسماعيلية وسائر الباطنية الطَّغام.

٦ ـ المتشابه من سمات الكلام الإلـهي:

على الرغم من أننا سنتحدث بعد قليل عـن الحكمـة مـن وجـود المتشـابه في القرآن الكريم، كما تحدث عنها العلماء، وكما حاولنا صياغتها والإضافة عليها في وقت سابق، فإننا نود أن نقرر هنا بوضـوح مـا لحظنـاه أو مـا انتهينـا إليـه مـن أن المتشابه هو من **سمات الكلام الإلـهي، أو من خصـائص هـذا الكـلام**. ونضـيف هـذا إلى ما أشرنا إليه قبل قليل من أن المتشابه موضوعه: بعـض آيـات الاعتقـاد، وأنه لا وجود له في آيات الأحكام، أو في الأحكام التكليفية، كما قرر علماء أصول الفقه، وكما أشرنا قبل قليل.

أما السبب في كونه من خصـائص الكـلام الإلـهي، فـلأن موضـوعه: بعـض الأمور الغيبية الخارجة من نطاق الأسباب الإنسانية، أو من نطاق السنن والقوانين التي تحكم عالم الشهادة! لأن هـذه الأمور الغيبية حين يُعبَّر عنهـا بهـذه اللغـة، أو بكلماتٍ ومفرداتٍ لها دلالات ومواضعات من عالم الشهادة، فسوف يكون التعبير عنها على هـذا النحو الإشاري أو المجازي (أو الـذي يقـرِّبُ المعنـى الغيبـي، أو يقربُ منه إن صح التعبير).

لم تحمل السيدة مريم العذراء بعيسى عليه السلام بالطريقة المعهودة في عالم الشهادة، أو وفقًا للقوانين التي قدرها الله تعالى لهذا العالم، ولكن تمّ هذا الحمل بالقدرة الإلهية المباشرة، أو تمّ الخلق بالكلمة التي خُلق بها آدم من قبل، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩] ومن هنا جاء التعبير عن خلق عيسى عليه السلام على هذا النحو الذي لا ندري كنهه، لأنه لا مثيل له في عالم الشهادة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾ [النساء: ١٧١].

ويمكن أن نلحظ هنا ـ بهذه المناسبة ـ أن الله تعالى قال في شأن خلق عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾ وفي شأن خلق آدم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، ربما لأن المسيح ولد من أم دون أب، أي أن طرفًا أو شطرًا من عالم الشهادة كان قائمًا في خلقه عليه السلام. وهذا التعبير ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾ لا يتضمن الإضافة على نحو ما جاءت في خلق آدم ﴿مِن رُّوحِى﴾، وكلُّها في نهاية المطاف أمور غيبية، وأمور خارجة من نطاق الأسباب الإنسانية.

ولا ريب في أن التعبير عن المسيح بأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، يمكن أن يُصرف إلى الباطل: من بنوَّته لله تعالى، أو نحو ذلك مما يتعارض مع التوحيد المطلق الذي لا تشوبه شائبة، والذي عبّرت عنه سورة الإخلاص على نحو محكم لا يحتمل تأويلاً بالباطل، أو صرفًا عن معناه أو دلالته بأي وجه من الوجوه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

بل إن مزاعم النصارى في عيسى عليه السلام، هي سبب نزول آية المتشابه، في سياق الآيات الأولى من سورة آل عمران، كما أشرنا في هامش صفحة سابقة. بل إن هذه المقولة التي احتج بها هؤلاء، هي السبب في نزول هذه الآية ـ مع إمكان

الجمع بين الروايتين بطبيعة الحال ـ أخرج الطبري من حديث الربيع، قال: «عمدوا ـ يعني وفد نصارى نجران الذين قدموا على النبي ﷺ ـ فخاصموا النبي ﷺ وقالوا: ألست تزعم أن المسيح كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، فقالوا: حسبنا! فأنزل الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [(١)].

ونؤكد هنا ـ مرة أخرى ـ أن آيات الأحكام ليس فيها متشابه؛ **لأنها خطاب تكليف في عالم الشهادة، بلغة عالم الشهادة**. وهـذا لا متشابه فيه [(٢)]، ولـكن قد تتعدد فيه الدلالة، كما سنوضح في الفقرة التالية.

ولـكننا قبل ذلك نؤكد مفهومنا أو تعريفنا ـ الاصطلاحي ـ للمتشابه، والـذي ربطناه بالتعبير عن بعض مسائل أو عقائد عالم الغيب بلغة عالم الشهادة. أو قلنا: إن هـذا هو حدّ المتشابه وتعريفه.

فإن قيل: أليس هـذا التعريف مقطوع الصلة بالمعنى اللغوي أو الدلالة اللغوية للتشابه ـ وهي التماثل ـ أو لأصل معناه كما حكاه ابن قتيبة؟

قلنا: لا، لأن هـذا قائم وحاصل فيما ذهبنا إليه؛ لأن التشابه أو التماثل هنا بين دلالات عالم الغيب وعالم الشهادة، أو بين هـذين العالمين. بل إن هـذا يؤيد أو يؤكد صحة ما ذهبنا إليه، والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع: تفسير الطبري (٣/ ١٧٧). و فتح الباري لابن حجر، (٨/ ١٦٩). والبغوي بهامش ابن كثير (٣/ ٩٧ ـ ٩٨). وانظر كتابنا: متشابه القرآن.

(٢) ويقرب من هذا، أو يضاف إليه، أن كلام البشر ليس فيه متشابه، على الحدّ الذي في القرآن، لأن لغاتهم منتزعة من عالم الشهادة، أو هي محكومة بقوانين هذا العالم التي أشرنا إليها، فكما أنهم في (ذواتهم) يخضعون لقوانين عالم الشهادة، فكذلك الحال في لغاتهم وألسنتهم، والله تعالى أعلم.

٧ ـ المتشابه وتقسيم آيات القرآن الكريم:

ونشير هنا، إلى أن قدر المتشابه، أو المساحة التي شغلها في القرآن الكريم ـ إن صح التعبير ـ قليلة؛ لأنه قد عُبر عنه بقوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[1]. ولا بد من أجل تفسير هـذا التعبير القرآني من العودة مرة أخرى إلى آية المتشابه، لبيان المعنى الذي وُصِفَتْ به كذلك المحكمات.. ومن ثم لبيان الوصف الذي يمكن أن توصف به سائر أو باقي آيات الكتاب العزيز، أي فيما وراء كلٍّ من (المحكمات) و(المتشابهات).

وُصفت المحكمات بأنها (أمّ الكتاب) ولفظ (الأم) يطلق في اللغة على أصل الشيء، وقالوا: (أم الطريق) للطريق الأعظم الذي يكون بجانبه طرق أخرى. و(أم الدماغ) للجلدة الرقيقة التي تجمعه. وأم القرآن: فاتحته. وقد أطلق في القرآن الكريم (أم الكتاب) على اللوح المحفوظ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٤] وغني عن البيان أن هـذا اللوح من الأمور الغيبية، وقد قال تعالى في هـذه الآية: ﴿لَدَيْنَا﴾.

وعلى هـذا، فإن المعنى الجامع للأم هو (الأصل) أو أصل الشيء، فإذا لحظنا مع هـذا المعنى: معنى (أم الطريق) (وأم الدماغ) أمكننا القول: إن أساس القرآن وقاعدته ونسيجه العام: محكم، أو من الآيات المحكمات، (وفي وسعنا أن نطلق على هـذا الإحكام: **الإحكام العام**) في حين تشكل المتشابهات أقلّه، أو عددًا قليلاً

---

(١) ورد لفظ (أخَر) في القرآن في هـذا الموضع، وفي قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [١٨٤، ١٨٥ سورة البقرة] في قضاء صوم رمضان للمريض والمسافر. كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [٤٣، ٤٦ سورة يوسف] في رؤيا الملك التي أوّلها يوسف عليه السلام.

من آياته، ولهـذا فقد عُبّر عنها بكلمة (أُخر). ولـكن قد يفهم من التعبير عن المحكمات بقوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أن عدد الآيات المحكمات قليل أيضًا، على الرغم من أن الإحكام هو (الأصل) في بناء القرآن كله، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿الٓرۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ﴾ وينبني على هاتين الآيتين، أو على هـذا وذاك: أن المحكمات تُحمَل عليها وتُردَّ إليها المتشابهات، من جهة. كما تفهم وتفسّر في ضوئها سائر آيات القرآن من جهة أخرى.

وعلى هـذا، فنحن أمام قسمين يمكن أن تقسم إليهما آيـات الكتـاب العزيـز: **القسم الأول: المحكمات والمتشابهات.. وكلاهما عدده قليل. والقسم الثاني: سائر آيات القرآن الكريم**. والآيات المحكمات تُحمَل عليها الآيات المتشابهات، وتـردّ إليها. والأمر هنـا شـديد الوضـوح أو قطعـي الدلالـة كمـا يقـال. كمـا أن هـــذه المحكمات ـ بوصفها الأصل ـ لا بد أن تُفسَّر سائر آيات القرآن (أو القســم الثـاني المشار إليه من هـذه الآيات) في ضوئها، ولا تخرج عنها بحال.

وإذا عبرنا عـن هـــذا كلـه مـن خـلال دلالات الألفـاظ التـي تحـدث عنهـا الأصوليون، أو قياسًا عليها، أمكننا أن نصوغ هـذا التقسيم لآيات الكتـاب العزيـز على النحو الآتي:

القسم الأول: محكم المعنى أو قطعي الدلالة.

والقسم الثـاني: متشـابه المعنـى، أو الـذي يمكـن أن يصـرف إلى مـا ينـاقض المحكم، أو ما هو قطعي الدلالة في باب الإيمان وأصول الاعتقاد.

وهـذا لا بد من حمله على الوجه الصحيح المطابق للمحكـم، ويعـدّ الخـروج عن هـذا الوجه من باب الزيغ، أو لا يفعله إلا من كان في قلبه زيغ.

أما **القسم الثالث** (والذي يشمل معظم آيات القرآن الكريم): ويغلب على هـذا القسم أنه ظني الدلالة[(١)]، ويحتمل من ثم وجوهًا عدّة. وتختلف هـذه الوجوه باختلاف المفسّرين عبر الزمان والمكان، مع تعدد المناهج وطرق الفهم والتفسير. والصحيحُ المقبول من هـذه الوجوه كثير. أما الفاسد منها فهو الذي يعارض المحكمات أو يكذّب (أم الكتاب) فِعل الباطنية والزنادقة على سبيل المثال. أو الذي يخلّ بالإحكام العام، أو يهدم النظم والسياق ويجعل القرآن عضين، فِعْلَ بعض (المفسرين) أو من يزعمون أنهم مفسرون، أو مؤولون! والله تعالى أعلم.

٨ ـ حكمة ورود المتشابه:

وربما قيل: هلاّ جُعل القرآن كله على نمط المحكم حتى يُكفى الإنسان مؤونة النظر والبحث والترجيح والاحتمال! يقول الراغب الأصفهاني: إن هـذه المسـألة يذكرونها أيضًا في الأحكام، فربما قالوا: هلا بُيّنت كلهـا حتـى يسـتغنى عـن جهـد الرأي الذي لا يؤمَن خطؤه! بل ربما أوردوها كذلك في أصل التكليـف فيقولـون: هلاّ خوّلنا الله إنعامه بلا مشقة ولا مؤونة حتى يكون عطاؤه أهنأ منالاً؟!!

١ ـ والجواب عن جميع ذلك: أن هـذا ضـرب مـن التعطيـل للفكـر والرويـة والتمييز التي اختُص بها الإنسـان، وصـار لأجلهـا موصـوفًا بـالعلم والحكمـة.. ويكفي المتشابه أنه طريق لإعمال الفكر والرويـة والاسـتزادة مـن طلـب العلـم، طمعًا في معرفة المزيد من غوامض التنزيل. قال ابن قتيبة: «ولو كـان القـرآن كلـه

(١) وفيه ما هو قطعي الدلالة، أي ما هو محكم بالمعنى السابق. وهو الذي لم يختلف فيه المفسّرون، أو لم تتعدد فيه ـ لذلك ـ أقوالهم.

ظاهرًا مكشوفًا، حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة وماتت الخواطر.. ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة»!

٢ ـ وأهم من هذا ما أشار إليه ابن قتيبة نفسه عندما قال: «إن القرآن الكريم نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والحقيقة والمجاز، وإغماض بعض المعاني وإظهار بعضها.. إلى ما هنالك مما عرف من مذاهب العرب في الكلام»[(١)].

ومعنى ذلك أنه لا مجال للسؤال عن الحكمة من إنزال المتشابه، وقد نزل القرآن على أ سلوب العرب في الخطاب، فكان الأصل أن يرد على هذا النحو حاويًا لمذاهب العرب تلك. ولا يعدو المتشابه أن يكون مما يغمض على العامة فلا يظهر عليه إلا الراسخون في العلم، أو من مجاز القول الذي تتسع له لغة القوم ولسان العرب!

٣ ـ ولا يفوتنا أخيرًا أن نذكر أن الأنبياء جميعًا عليهم السلام وقد بُعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم، جاهلهم وصاحب الثقافة فيهم، وكان في رسالاتهم من المعاني العالية الدقيقة ما يجيء التعبير عنه بالمجاز أو الكناية، أو بأية صورة أو عبارة ليست في متناول فهم كل مخاطب، عاميًا كان أو راسخًا؛ **لأنها خارجة من نطاق الأسباب الإنسانية ـ مثل خلق عيسى عليه السلام كما رأينا ـ أو لأنها تتصل بأمور عالم الغيب، بوجه عام**، فلا غرابة أن يوجد المتشابه الذي يعلمه

(١) تأويل مشكل القرآن ص٦٤، وانظر الشواهد الكثيرة التي أوردها من كلام العرب على دقيق المعاني وخفيّها مما لا يظهر عليه إلا اللَّقِنُ السريع الفهم، ص٦٣ فما بعدها.

الراسخون في العلم بطريق حمله على المحكم، علمًا بأن الإمعان في آيات المتشابه قد يهدينا إلى حكم أخرى كثيرة أو إضافية، بل ربما كان في وسعنا أن نلتمس لكل آية أو مجموعة من الآيات الواردة في موضوع واحد.. حكمةً أو حكمًا خاصة، مثاله: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] (١) الذي قلنا: إنه يُحمَل على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] أو يفسّر في ضوئه، فقد نصت هـذه الآية على سنّة من سنن هلاك المجتمعات الإنسانية: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾، وقد أشارت آيات قرآنية أخرى إلى هـذه السنّة بآيات محكمة، غير أن التعبير عنها في هـذه الآية، أو ربطها فيها بالإرادة والأمر الإلـهي، عَلّمَنا أن هـذه السنّة لا تعمل منفردة أو بعيدة عن الإرادة الإلـهية العامة أو التي يخضع لها الكون (٢). قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]. إنها سنّة مجتمعية أو من سنن الاجتماع

---

(١) هـذا على رأي من فسّر الآية بأنهم أُمروا بالفسق! وليس هـذا هو التفسير المرضي عند معظم المفسرين، لأن المأمور به في الآية أمر غير الفسق ـ نحو الأمر بالطاعة ـ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضدّ المأمور به. وقال بعض المفسرين: معنى﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا فُسّاقها، والآية على بعض وجوه القراءة أبعد ما تكون عن المتشابه عند المفسرين كافّة. فقد قرأ يعقوب وبعض القراء: «آمرنا مترفيها» أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها. وقرئت أيضًا «أمّرنا» بتشديد الميم، أي جعلناهم أمراء مسلّطين.

(٢) انظر الآيات: ١١ ـ ١٥ من سورة الأنبياء، والآيتين ٥٨ ـ ٥٩ من سورة القصص. وراجع الفصل الخاص بالقصة القرآنية في الصفحات التالية من هـذا الكتاب (٩١١ ـ ٩٦٢).

الإنساني: ﴿وَأَهْلُهَا﴾.. وليس: وحكامها أو قادتها وزعماؤها! و(مصلحون) أي لغيرهم، أو من دعاة الإصلاح وممن ينهض به ويقوم عليه، لا (صالحون) فقط، أي في أنفسهم، أو أن رسالة الإصلاح لا تعنيهم! لأن (سنة) قيام المجتمعات ـ لا الأفراد ـ منوطة بإصلاح الآخرين.. أي بالمصلحين وليس بالصالحين. والله تعالى أعلم.

٩ ـ المتشابه وآيات الصفات:

لا نستغني في نهاية هـذا الفصل عن الحديث الموجز عن صلة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ـ أو ما عرف بآيات الصفات ـ بالمتشابه، وذلك على الرغم من فكرتنا التي عرضناها في هـذه الصفحات عن متشابه القرآن، والتي استبعدنا فيها ـ كما أشرنا في الهامش ـ عشرات التعريفات والآراء. لأن ما ذهبنا إليه في (حدِّ) المتشابه **لا ينفي صلته بآيات الصفات، وإن كان لا يقرنه بها، أو يجعله وقفًا عليها**.. كما ذهب إلى ذلك كثير من العلماء الذين قالوا: إن الآيات المتشابهات هي الآيات المتعلقة بالصفات والأفعال المضافة إليه سبحانه[(١)].

إن ما قلناه في النقطة السادسة قبل قليل يفسح المجال لهـذا الحديث الإضافي عن الصفات والأفعال الإلـهية بوصفها من أمور عالم الغيـب التـي جـرى التعبيـر عنها بـ(لغة إنسانية) أو بكلمات لها دلالات ومواضعات من عالم الشـهادة. الأمـر الذي يمكن ـ من حيث المبدأ، أو من الوجهة النظرية ـ أن تتعدد معـه التفسـيرات من جهة، كما يمكن معه الاتباع ابتغاء الفتنة وابتغـاء التأويـل عـلى وجـهٍ لا يطـابق المحكم، أو ينكره الراسخون في العلم، من جهة أخرى.

---

(١) انظر كتاب: ابن تيمية لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، ص٢٧٩، ط١، دار الفكر العربي بمصر.

أقول: إن آيات الصفات ليست بعيدة عن المتشابه، بل هي في الحقيقة من جنسه! لأنها تصف الذات الإلـهية التي يعجز الإنسان عن إدراكها أو الإحاطة بها علمًا، وهو في عالم الشهادة، ويعجز ـ من ثم ـ عن إدراك ما يليق بها من صفات، لأن معرفة الصفات فرع عن إدراك الذات. وهـكذا جاء التعبير عن هـذه الصفات، أو تعريف الإنسان بها، بوصفها تمثل فحوى العقيدة الإسلامية، وحقيقتها الفاعلة في الحياة والسلوك أو في ساحة العمل والابتلاء، جاء التعبير عنها بكلماتٍ وعباراتٍ لها دلالاتٌ ومواضعاتٌ مُحدَثة أو من عالم الشهادة.. في الوقت الذي تناولت أخطر مسائل عالم الغيب، وهي الإيمان بالله تعالى، وبأسمائه الحسنى وصفاته العُلى.. لا غرو إذن أن تعد من المتشابه، على ما ذهب إليه كثير من العلماء ـ بل جمهورهم خلال العصور ـ بغض النظر عن الأسباب التي دعتهم إلى ذلك، وبغض النظر كذلك عن حملة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على هـذا الاتجاه. وكما أن وفد النصارى لم يفهموا آية المتشابه التي وردت بشأن عيسى في ضوء محكم قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. بل حاولوا التعلق بها لإثبات بنوّة عيسى وألوهيته؛ فإن كلاّ من المشبّهة أو المجسّمة، والمعطّلة أو نُفاة الصفات، لم يفهموا آيات الصفات في ضوء محكم قوله عزّ من قائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾.

أ ـ مذهب السلف:

ولـكن آراء العلماء ومذاهبهم في محاولة تفسير هـذه المتشابهات، أو حملها على المحكم و(فهمها) في ضوئه، شهدت اتجاهين مشهورين، عُرفا بمذهب السلف ومذهب الخلف.. وجرى قولهم: (إن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أحكم) مجرى القواعد والأمثال! وقد عبر ابن تيمية ـ على وجه

الخصوص ـ عن مذهب السلف، في مواضع كثيرة من كتبه ورسائله، وبصيغ متعددة **قد يحتاج بعضها إلى مراجعة وتدقيق**. قال رحمه الله: «ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه. ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله؛ فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العلى، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسماء الله وآياته»[(١)] وقال أيضًا: إن مذهب السلف في «هـذه الآيات والأخبار هو إثباتها **وإجراؤها على ظواهرها**، ونفي الكيفية والتشبيه عنها».

وقد تعرضنا لهـذه المسألة، وأعني مسألة الجمع بين إجراء هـذه الآيات على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، **وأن هـذا الجمع لا يستقيم، في مناسبات سابقة**[(٢)].

ونكتفي من ذلك ـ في هـذا السياق ـ بقول ابن الجوزي: «فوا عجبا! ما لا يعلمه إلا الله تعالى: أي (ظاهر) له؟ وهل ظاهر الاستواء إلا القعود؟ وظاهر النزول إلا الانتقال؟»[(٣)] وقوله رحمه الله: «إنهم حملوا الأحاديث على مقتضى الحس! فقالوا: ينزل بذاته، ثم قالوا: لا كما نعقل! فغالطوا من يسمع، وكابروا الحسّ والعقل»[(٤)].

---

(١) مجموع الرسائل الكبرى (١ / ٤٠٨).

(٢) راجع كتابنا: متشابه القرآن وانظر بحثنا: (التأويل عند ابن تيمية في سياقه التاريخي) مجلة مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر، العدد الخامس ١٩٩١.

(٣) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي، ص٨.

(٤) المصدر السابق، ص٩. ويقول ابن تيمية رحمه الله: لم يقل أحد من سلف الأمة قط «إن الله تعالى ليس في السماء، ولا أنه ليس على العرش، ولا أنه في كل مكان، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه =

قلت: ونضيف نحن على هـذا القول: إن التسليم بأن الله تعالى استواء ليس هـو من جنس الجلوس والاستقرار، و(يـدًا) ليسـت مـن جـنس اليـد المعهـودة عنـد الإنسان، و(عينًا) ليست من جنس جوارح المخاطبين أو المكلفين.. هـذا التسليم أو الاعتقاد مقبول مـن حيـث المبـدأ؛ **لأنـه يقـر بـأن صـيغة الخطـاب القـرآني أو (مفرداته) التي جاءت بلغة عالم الشهادة، لا تفهم أو تفسـر في ضـوء دلالات هـذا العالم حين يُعبَّر بها عن (القـديم) أو الأول سـبحانه وتعـالى، أو عـن عـالم الغيـب،** ولـكن يجب فهم هـذه المفردات في ضوء (دلالات) هـذا العالم إن صح التعبير!! وهي دلالات خاصة لسنا مأمورين بالبحث عنها، بل لا نملك ذلـك ولا نسـتطيعه ولا نقدر عليه.. وربما كان هـذا المعنى هو الذي حمل ابـن تيميـة عـلى القـول: إن ذلك من باب التعطيل والتحريف والإلحاد!

ب ـ مذهب المتكلمين:

أما مذهب الخلف أو جمهور المتكلمين فإنه لم يخرج في فحواه عن موقف السلف في تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين وصفات المُحْدَثين، وإن شئت قلت: عن (موصوفات) عالم الشهادة؛ لأن هـذا المذهب فهم أو فسّر آيات الصفات ـ بدوره ـ في ضوء الآية المحكمة السابقة؛ بغض النظر عن اختلاف مدارس المتكلمين في (عدّ) الصفات الإلـهية (الواجبة لله تعالى) وإحصائها، وفي طريقة تقسيمها وحدود (تأويلها). ونعني بهـذا التأويل: الصرف عن (الظاهر)

=

سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، **ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسيّة إليه بالأصابع ونحوها!!**». مجموع الرسائل الكبرى الرسالة الحموية (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

والحمل على (المجاز) الذي قاموا به لطائفه من آيات الصفات ـ وليس لها جميعًا ـ كما سنشرح بعد قليل. وبغض النظر عن الجانب السلبي الذي وقع فيه معظم المتكلمين حين راحوا يتحدثون ـ في جدلٍ عقيم ـ عن علاقة ذات الله تعالى بصفاته ـ وكلا الأمرين غيب من الغيب ـ بدل البحث عن علاقة (المكلّف) بالأسماء والصفات. كما أوضحنا ذلك في مناسبات سابقة[(١)].

ج ـ رأْيُنا في الموضوع: نقدٌ وترجيح:

والذي نراه في التعقيب على هـذين المذهبين، أن تصنيف آيات الصفات مع متشابه القرآن صحيح من حيث المبدأ، كما أشرنا قبل قليل، ولـكن الأمر ليس على إطلاقه، بل يجب قصره ـ فيما نرى ـ على آيات الصفات أو (الأعراض) النفسانية، كالغضب والرضا والمكر والنسيان ونحو ذلك. وعلى آيات (الجوارح) والأعضاء إن صح التعبير، أي الآيات التي أضافت إلى الله تعالى (اليد) و(العين) و(الجنب) ونحو ذلك[(٢)].. لأن هـذا وذاك في أصل الوضع اللغوي من أوصاف العباد أو صفات المُحدَثين. وهـذا هو الذي حمل المتكلمين ـ أو جمهور العلماء ـ على حمل هـذه المتشابهات على المحكمات بطريق التأويل أو التفسير المجازي، فقالوا: إن المراد بوجه الله تعالى: ذاتُه، وبيده: قدرته، وبعينه: رعايته، وبجنبه:

---

(١) راجع كتابنا: في الفكر والثقافة الإسلامية: المدخل والأساس العقائدي.

(٢) تبلغ نسبة هـذا (الوجوب) عندنا في آيات الجوارح والأعضاء ٩٩٪ في حين لا تتجاوز هـذه النسبة في آيات الأعراض النفسانية ٥١٪ لأن هـذه يمكن عدّها من (الصفات)، أو إلحاقها بها، لأنها أمور معنوية قد يقبل أن يقال: إنها خاصة بالله تعالى، وإنها حين يوصف بها سبحانه تطلق عليه بالمعنى الذي يليق بكماله جلّ وعلا، والله تعالى أعلم.

حقه. وبنفس الله: ذاته أو سرّه، وبقربه: علمه وقدرته، وبفوقيته: علّوه المعنوي، وبمجيئه: مجيء أمره أو جنده.. إلخ.

أما سائر آيات الصفات، نحو تلك التي سماها المتكلمون **صفات المعاني** كالقدرة والإرادة، والسمع والبصر ـ فليست داخلة في المتشابه، وكذلك **صفات الأفعال** كالإحياء والإماتة والرزق.. وإن كان قد عُبّر عن جميع صفات الله تعالى **بخطاب من عالم الشهادة** كما قلنا: لأن هذه الصفات والأفعال لا مجال لفهمها وتفسيرها من خلال المواضعات والدلالات اللغوية (المنتزعة) من عالم الشهادة، والخاصة بالمخلوقين والمحدثين! وما زال الفلاسفة والمتكلمون وسائر العلماء و(العقلاء) يفرقون بين الكمال الإلهي والنقص الإنساني.. وإن شئت قلت: بين الكمال الإلهي المقصود في هذه الصفات والأفعال، والنقص الإنساني المعهود في هذه الصفات والأفعال وفي غيرها على حد سواء! ولا ريب في أن بعض الفِرَق أو بعض المتكلمين الذين حاولوا (تأويل) هذه الصفات ـ لأي سبب من الأسباب أو فهمٍ من الفهوم ـ جانبوا الحق والصواب.

ولكن هل يبقى علينا ونحن نعدّ شطرًا من آيات الصفات مع المتشابه، حتى احتاجت في نظرنا إلى أن تفهم بطريق المجاز.. أن نذكر بعض الأسباب التي حملتنا على ذلك؟ نقول في الإجابة: نعم، وهذه هي الأسباب.

١٠ ـ لماذا هذا الشطر أو التفريق بين آيات الصفات:

١ ـ تمثل الأسماء والصفات فحوى العقيدة الإسلامية، وحقيقتها الفاعلة أو المؤثرة، لأنه لا توجد حالة من حالات المكلّف أو (المؤمن) إلا وينتظمها اسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته العلى. وتنطوي هذه الأسماء والصفات على جميع معاني (الربوبية) المُتمثلة في الخلق والرزق والعافية وسائر ما أعطاه الله

تعالى للإنسان. كما تنطوي على جميع معاني (الألوهية) المتمثلة في عبادة الإنسان لله تعالى وحده لا شريك له، وإفراده بالتوكل والطاعة والسؤال ونحو ذلك. ويرتقي المؤمن من درجة المعرفة عن الإيمان إلى درجة ـ أو مقام ـ معرفة الإيمان[1] حين يطوِّع سلوكَه في ساحة العمل والابتلاء، وفي حركة الحياة اليومية لمقتضيات هذه الأسماء والصفات.. أو ما يوجبه عليه الإيمان بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت العليم الخبير الرقيب الغفور العزيز المجيب السميع البصير.. إلخ هذه الأسماء الحسنى، ومن هنا قلنا: إنه لا متشابه ولا تأويل في الصفات الإلهية التي دلّت عليها هذه الأسماء، أو التي اشتُقَّت منها، لأن بعض هذه الصفات والأسماء لا تطلق على غير الله تعالى ـ وبخاصة بغير طريق الإضافة ـ وبعضها الآخر الذي يُسمَّى به الإنسان تُطلق عليه بغير المعنى الذي يطلق على الله تعالى.. كما أشرنا قبل قليل حين قابلنا بين الكمال الإلهي والنقص الإنساني؛ فعلم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء يقابله العلم الإنساني المحدود في إطار الزمان والمكان، وعلمه ـ تعالى ـ الذي هو السبب في وقوع الأشياء، يقابله العلم الإنساني المتسبب عن وقوعها! فالذي يقع في الكون يقع لأنه في علم الله، ونحن نعلمه لأنه وقع.. وعلم الله تعالى قديم، وعلم الإنسان حادث.. إلخ.

ولكن ما الذي نضيفه إلى الإيمان والاعتقاد؟ أو ما هي الآثار المترتبة على الإيمان حين نسلّم بأن لله تعالى يدًا لا كيدنا، وعينًا لا كعيننا.. أو ما الذي يوجبه على (المؤمن): الاعتقاد بأن الله تعالى ذو يد أو ذو عين!.. إلخ. ما علاقة هذا

(١) لعل هذه هي التي عبر عنها في الحديث الشريف بـ(حلاوة الإيمان).

بصلة الإنسان بربّه وخالقه سبحانه؟ هـذه الصلة التي عبّـرت الصـفات الإلــهية ـ المشار إليها ـ عن معناها ومضمونها أوسع تعبير وأروعه، وأعظمه غَناءً وتـأثيرًا في النفس والمجتمع والتاريخ. حتى كانت هـذه العقيدة على أوفى ما يُطلب منها تأثيرًا وفاعلية.. وحتى استحال عليها أن تعيش على هامش الحياة، لا يزيـد حـظ المـرء منها على غير الحفظ والتكريـر (أي لأركـان الإيمـان)، أو عـلى الجـدل في النفـي والإثبات (لبعض العقائد أو الأركان، مثل القضـاء والقـدر)، أو في وجـه الدلالـة والتفسير!

إن الاعتقاد بأن لله تعالى يدًا لا كيد الإنسان، ولـكنها اليد التي تليق بجلاله سبحانه.. ـ كما يقول أصحاب هـذا الرأي ـ لا نقول فيه إلا أنه تنزيه[1]، بل لعله يبدو للوهلة الأولى أقرب إلى الاعتقاد السابق بالسمع والبصر والعلم والعزّة والقدرة، أو أنه من جنس هـذا الاعتقاد الذي يميز بين الله تعالى والإنسان؛ ولـكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك، لأن الاعتقاد الذي هو من جنس الاعتقاد السابق، هو الذي يرتقي إلى فاعليته وتأثيره وصلته بسلوك المكلف، أو هو الذي يساوي هـذا الاعتقاد في هـذه الفاعلية والتأثير. ولا ريب عندنا في أن هـذا الاعتقاد هو الذي ذهب إليه المتكلمون وجمهور الأمة عندما فسّروا اليد بالقدرة، والعين بالرعاية، والجنب بالحق..[2] إلخ. وإن شئت قلت: **إن هـذا الاعتقاد أو هـذا**

---

(١) يمكن وصف هـذا التنزيه بأنه تنزيه سلبي، في مقابل التنزيه الإيجابي أو الفاعل والمؤثر الذي ذهب إليه الجمهور، والله تعالى أعلم.

(٢) قال ابن عطية: قال جمهور الأمة: «إن هـذه الأمور تفسر على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب، فقالوا في العين والأعين: إنها عبارة عن العلم والإدراك.. وقالوا في اليد واليمين والأيدي: إنها تأتي مرة بمعنى القدرة، كما تقول العرب: لا يد لي بكذا، ومرة بمعنى =

(التأويل) هو الذي يجعل (الجوارح) صفات، أو يرتقي في الصلة بها و(التعامل) معها إلى هـذه الدرجة أو هـذا المقام. بل لعل ما ذهب إليه ابن تيمية، وأضافه إلى السلف ـ أو قال إنه «مذهبهم»[(١)] ـ يكاد يقطع هـذه (الصفات) عن الصفات السابقة ـ التي قلنا إنها ليست من المتشابه، ولا يدخلها التأويل ـ ويجعلها في عالم خاص أو باب مفرد! لأن هـذه الصفات لا تؤدي وظيفتها لدى المكلّفين في عالم الشهادة إلا حين تفهم بدلالتها المعنوية لا بدلالتها الغيبية ـ إن صح التعبير ـ علمًا بأن التسوية بين مدلولات الخطاب الإلـهي في هـذا الباب ـ بالنسبة لنا نحن المكلَّفين أو المخاطَبين ـ هو المنهج الأدق والأحكم. ولا أتحدث هنا عن أن هـذه الدلالة المعنوية ـ **وليست الحسية ولا الغيبية** ـ هي التي يدل عليها الاستعمال العربي أو معهود العرب في الخطاب؛ لأن هـذا ليس هو مجال التعقيب والترجيح، على أهمية الإشارة إليه أو التنويه به في هـذا السياق.

٢ ـ إن الآيات القرآنية التي أضافت الجوارح والأعضاء إلى الله تعالى، أضافتها على غير النحو الذي وصفته سبحانه بالسمع والبصر والعلم والحلم والعزة والقدرة في مئات الآيات في الكتاب العزيز. فقد جاء وصفه تعالى بهـذه الصفات

=

النعمة، كما يقال: لفلان عند فلان يد، وتكون بمعنى الملك، كما تقول: يد فلان على أرضه. وهـذه المعاني إذا وردت عن الله تبارك وتعالى عُبّر عنها باليد أو الأيدي أو اليدين؛ استعمالاً لفصاحة العرب، ولما في ذلك من الإيجاز». المحرر الوجيز (٤/ ٥١١).

(١) ما أُثر عن السلف من العبارات حول آيات الصفات موقف وليس بمذهب. ولهـذا جرى تفسير هـذا الموقف على أنحاء متعددة. وقد عبّر عنه كل من الغزالي وابن حزم والرازي وابن الجوزي ـ على سبيل المثال ـ على غير ما قاله أو ذهب إليه ابن تيمية. راجع كتابنا: متشابه القرآن ص٨٧ ـ ١٢٨.

على نحو مباشر؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧] وقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [٩٩]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ۝١٣٠﴾ [١٣٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۝١٣١﴾ [١٣١]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ [١٣٤]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩﴾ [١٤٩].

ولـكن التعبير أو الحديث عن الجوارح والأعضاء جاء في سياق تقرير أمر آخر، ولم يرد في القرآن كله آية واحدة أضافت هـذه (الصفات) ـ كما دعوها ـ! إلى الله تعالى على نحو مباشر؛ فليس في القرآن آية واحدة ـ ونستغفر الله من هـذا الشرح والتمثيل ـ تقول: إن لله يدًا، أو كان لله يدٌ، أو اعلموا أن لربكم يدًا وعينًا.. إلخ، ونحن لا نرتاب هنا في أن التحول في تفسير الآيات القرآنية من الأمور المقصودة في السياق، إلى الاستشهاد بها على إثبات هـذه (الصفات)! لله تعالى، وعلى نحو يليق بجلاله بكل تأكيد.. أقرب إلى الخروج عن سياق الآيات. قال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤] ليس الأمر كما زعموا في وصف الله تعالى، بل هو جواد كريم، ويبعد أن يكون لذكر اليد في هـذا السياق معنىً آخر غير إفادة معنى الجود! وإنما قال (يداه) على التثنية، مبالغةً في معنى الجُود والإنعام، جريًا على عادة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلتا يديه[1] وقد يراد بهما نعم الدنيا والآخرة، أو النعم

(١) راجع: ابن عطية، المصدر السابق، (٤/ ٥١٢). قال رحمه الله: «ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام: قرينة الإنفاق».

الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] **ولهذا جاء التعبير مرة باليد، وأخرى باليدين، وثالثة بالأيدي**، نظرًا لاختلاف الأمر الذي يراد تقريره في السياق القرآني، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس: ٧١]. وقل مثل ذلك في سائر هذه الآيات، نحو قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] وقوله عزّ من قائل: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي ولا أعلم ما عندك..

٣ ـ أما الآيات التي تحدثت عن الصفات أو الأعراض النفسانية ـ كالرضا والغضب والفرح ـ فإن سبيلها إلى التفسير والتأويل على مذهب جمهور المتكلمين والمفسرين شديد الوضوح، وربما لم يكن ذلك من خلال قاعدة واحدة، ونشير فيما يلي إلى أبرز وجهين أو قاعدتين من قواعد هذا التفسير والتأويل، تاركين التفصيلات الواسعة إلى مناسبة أخرى إن شاء الله.

القاعدة الأولى: ما دلّت عليه هذه التسمية التي جاءت على لسان كثير من العلماء، وأعني تسمية هذه الصفات بـ(الأَعراض) لأن معنى هذه التسمية، أن هذه الصفات يجب حملها على أغراضها لا على أعراضها! أو كما قال أبو القاسم النيسابوري: إنها تحمل على أغراضها الانتهائية لا على أعراضها الابتدائية[1]!

---

(١) وضح البيان في مشكلات القرآن.. مخطوطة دار الكتب المصرية ص٨ ـ ٩، انظر كتابنا: متشابه القرآن ص١٨٠، وقال الإمام الرازي: «إن كل صفة تثبت للعبد ما يختص بالأجسام؛ فإذا وصف الله تعالى بذلك، فهو محمول على نهايات الأغراض، لا على بدايات الأعراض». أساس التقديس ص١٨٠.

فالغضب الذي تبدو أعراضه على الإنسان باحتقان وجهه، وحمرة عينيه وتقلص جبهته.. إلخ، الغرض منه إرادة الانتقام، فإذا أُطلق في حق الله تعالى حُمل على الغَرَض (الانتهائي) منه، وهو إنزال العقوبة، أو الحرمان من الثواب، أو الطرد من الرحمة.. أما الأعراض فهي من صفات المحدَثين وأمور عالم الشهادة.

أما **القاعدة الثانية**: فهي أن كثيرًا من هذه الصفات جاءت على سبيل (المشاكلة) كما يقول علماء اللغة والبلاغة، ويراد بالمشاكلة: ذكر الشيء بغير لفظه لموافقة القرائن ومماثلتها، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] والمعنى: وأخذهم الله، أو عاقبهم على مكرهم، أو أحبط هذا المكر وعاقبهم عليه. ونحوه ما جاء في بعض أحاديث وأخبار الصفات: «فإن الله لا يملّ حتى تملّوا» أي أن الله تعالى لا يقطع عنكم فضله حتى تملّوا من مسألته، فوضع (لا يملّ) موضع (لا يقطع) مشاكلةً، أو لأجل المماثلة. قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

بل إن عالِم البلاغة القديم ـ أو المؤسس ـ وأعني أبا الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ) تحدث عن هذا الذي سمّاه علماءُ البلاغة من بعده **(مشاكلة)**، وسمّاه هو **(تجانس البلاغة)** وقال في تعريفه: «هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة» وقال: إنه على وجهين: مزاوجة ومناسبة. والوجه الأول الذي سمّاه: مزاوجة، هو الذي دُعي فيما بعد بالمشاكلة، وقد قال في شرحه وضرب الأمثلة عليه كلامًا نفيسًا هو الذي يعنينا في هذا الباب، أو في هذه القاعدة.

قال: « **فالمزاوجة** تقع في الجزاء، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي جازوه بما يستحق على طريق العدل، إلا

أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء، لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان.

ومن ذلك: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٥] أي يجازيهم على استهزائهم.

ومنه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ أي جازاهم على مكرهم، فاستعير للجزاء على المكر اسمُ المكر، لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم.

ومنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢] أي مجازيهم على خديعتهم، ووبال الخديعة راجع عليهم. والعرب تقول: **الجزاء بالجزاء**، والأول ليس بجزاء، وإنما هو على مزاوجة الكلام»[(١)].

وفي وسعنا أن نذكر هنا ما قلناه في النقطة الثانية، وهو أن السياق الذي جاءت فيه هـذه الصفات أو الأعراض، يدل على صحة ما ذهب إليه العلماء في تفسيرها وتأويلها، سواء أكان ذلك على سبيل المشاكلة أم غيره. فآية آل عمران السابقة ـ على

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ص٩٩. أما **المناسبة**- وهي الوجه الثاني للتجانس – فقد قال فيها: «وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد» قال: «فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]، فجونس بالانصراف عن الذكر صرفَ القلب عن الخير، والأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فذهبوا عن الذكر، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير.

«ومنه: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧] فجونس بالقلوب التقلّب، والأصل واحد، فالقلوب تتقلبُ بالخواطر، والأبصار تتقلب في المناظر، والأصل: التصرف.

«ومنه: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦] فجونس بإرباء الصدقة ربا الجاهلية، **والأصل واحد وهو الزيادة**، إلا أنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة، زيادة محمودة» ص١٠٠.

سبيل المثال ـ ختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ فقد دلت كلمة ﴿خَيۡرُ﴾ على أن المراد بها: إحباط المكر السيئ. لأنه لا يقال في الإخبار عن رجلين ماكرين: إن أحدهما خير الماكِرَين، ولـكن يقال: إن مكره أقوى أو أشد! ولهـذا فإننا لا نعتقد أن من صواب التفسير في هـذه الصفات أن نقرها بحروفها، حتى مع قولنا: إنها على الوجه المفارق للإنسان، أو الذي يليق بالله تعالى.. كأن نقول: إن لله تعالى مكرًا ليس من جنس مكر الإنسان، وغضبًا لا كغضبه، وفرحًا لا كفرحه.. إذا كان في وسعنا أن نفهمها على النحو المشار إليه، والذي يؤيده السياق من جهة، ويلحقها بسائر الصفات الإلـهية في الفاعلية والتأثير كما أوضحنا قبل قليل، من جهة أخرى.

ويمكننا أن نستحضر هنا- بعد هاتين القاعدتين- مسألة المجاز التي ليست بعيدة عن هذه القاعدة الثانية، والتي عبّر عنها بعض المفسّرين بالتخفيف والاختصار، قال البارزي: «ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ: الرحمة والغضب والرضا والحب والمقت في أوصاف الله تعالى، مع أنه لا يوصف بها حقيقةً، لأنه لو عُبِّر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام، كأن يقال: يعامله معاملة المُحبّ والمعاقب. فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة لخفّته واختصاره، وابتنائه على التشبيه البليغ، فإن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥] أحسن من: «فلما عاملونا معاملة المُغْضِب» أو «فلما أتوا إلينا ما يأتيه المُغْضِب»[(١)].

(١) الإتقان للسيوطي ٤/ ٧٥ ط مؤسسة النداء. والبارزي هو عبد الرحيم بن إبراهيم، نجم الدين (ت ٦٨٣هـ) وربما كان المقصود ابنه هبة الله، أبو القاسم، شرف الدين، المعروف بابن البارزي (ت =

٤ ـ وعلينا الإشارة بعد هـذا، إلى وجوب التفريـق في الحـديث عـن الأسـماء والصفات بـين (**الصـفات**) و(**الجـوارح والأعضـاء**) لأن اليـد والعـين والجنـب والوجه حواس وأعضاء. وليست صـفات! ولهـذا اختلفـت طريقـة إضـافتها إلى الحق سبحانه، كما أوضحنا في النقطة الثانية قبل قليل. أو لعل هـذا هو السـبب في هـذا الاختلاف فيما يبدو ـ والله تعـالى أعلـم ـ، **ونعتقـد أن طريقـة المتكلمـين في الحقيقة هي التي تَسْـلكها في سـلك الصـفات**. وغنـي عـن البيـان أن صـفات الله سبحانه ليست مرتبطة بالحواس، كما هي الحال عند الإنسان؛ فالتنزيه في حـق الله تعالى حاصل في تأويل الحواس حين تضاف إليه سبحانه.

وليس إثبات الجوارح ونحوها شرطًا في التنزيه، إن التنزيه حاصل بهـذا الإثبات عند القائلين به من غير تكييف ولا تشبيه أو تمثيل. ولـكننا نقول: إن الإثبات على هـذا الوجه ليس شرطًا فيه، بمعنى أن القول بالتنزيه يمكن أن يتم على طريقة جمهور الأمة أو جمهور المتكلمين؛ وبخاصة إذا **لحظنا افتراق الصفات عن الجوارح أو الحواس في عالم الشهادة** أو في عالم التكليف الذي تمّ فيه الخطاب بلغته كما أسلفنا؛ فقد توجد عندهم الحاسّة وتغيب الصفة، بأي وجه من وجوه الغيبة أو عدم الحضور. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ولهـذا جاءت الآية التالية لهـذه الآية مباشرة تضيف إلى الله تعالى (الأسماء

=

٧٣٨هـ). انظر تعليق المحققين. وقد نقلنا عن ابن البارزي بعض أقواله في موضوع الناسخ والمنسوخ، الذي كتب فيه رسالة أشرنا إليها.

الحسنى) **أو تصفه بها وحدها سبحانه،** قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الآية: ١٨٠] وربما كان المراد بهؤلاء الذين يلحدون في أسمائه: المشبّهة والمجسّمة الذين يفهمون هذه الأسماء في ضوء الحواس الإنسانية أو يقرنون بينهما! **ومعلوم أن أسماء الله الحسنى مشتقة من الصفات والأفعال، وليس من الحواس!!** قال ابن عطية رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «والأسماء هنا بمعنى التسميات إجماعًا من المتأوّلين لا يمكن غيره»[(١)].

قلت: ولهذا أمرتنا الآية الكريمة أن ندعوه سبحانه بأسمائه الحسنى ـ فنقول: ياحيّ يا قيّوم، ياعليم، يا حليم، يا غفور، يا رحيم.. ولانعلم أحدًا يدعو الله تعالى بجارحة من الجوارح المضافة إليه سبحانه! بل إننا لا نرتاب ـ في ضوء آية سورة الأعراف ـ أن هذا غير جائز! وقد يكون غير ممكن إذا كانت الآيات الكريمة التي أشرنا إليها أضافت إلى الله اليد، واليدين، والأيدي، والعين، والأعين ـ فقط دون العينين ـ كلاً في سياقه الخاص.

بل إن بعض الأخبار أو الأحاديث الشريفة «وصفت» «يد الله»، أو نسبت إليها ما يصعب تفسيره بغير المجاز الذي تحدثنا عنه، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل **يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**» (حديث رقم ٢٧٥٩) قال الإمام النووي: «فبسط اليد استعارة في قبول التوبة، قال الإمام المازري: المراد به قبول

(١) المحرر الوجيز (٦ / ١٥٣).

التوبة، وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضي أحدهم الشيء بسط يده لقبوله، وإذا كرهه قبضها عنه..»[(١)]. وقل نحو ذلك في آيات (العين) و(الأعين) ـ ولم تأت آية واحدة تضيف إلى الله تعالى (العينين) كما أشرنا ـ لأن سياق هـذه الآيات يقطع بأن المراد بها: الإدراك والرعاية والحفظ؛ ورد لفظ (عيني) مرة واحدة، في قوله تعالى عن موسى عليه السلام، أو في خطابه والمنِّ عليه، وقد أنقذه سبحانه من فرعون: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩] وورد لفظ (بأعيننا) أربع مرات، ثلاث منها في نوح وفلكه، وواحدة في خاتم النبيين عليه وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين: الصلاة والسلام إلى يوم الدين. قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٤]. وقال تعالى ـ مخاطبًا نبيّه الذي نزل عليه القرآن ـ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: ٤٨]. قال العلامة ابن عطية رحمة الله عليه: «ومعناه: بإدراكنا وأعين حفظنا لك وحيطتنا، كما تقول فلان يرعاه الملك بعين..» (١٤/ ٧٦)

قلت: وربما كان ذكر (اليدين) دون (العينين) إشارة إلى الإمعان في تنزيه الخالق جلَّ وعَلا عن مشابهة المخلوقين، وصفات المحدَثين، وأن هـذه الجوارح إنما يراد بها صفات.. على النحو الذي تحدثنا عنه، وذهبنا إليه، وأشار إليه ابن

(١) مسلم بشرح النووي ص١٦١٤ ـ ١٦١٥

عطية وغيره من العلماء والمفسرين. وإن كان معظم ما ذكرناه من النقاط أو الأفكار يعد جديدًا في هـذا الموضوع القديم.

مرة أخرى نقول: إن أسماء الله تعالى التي ندعوه بها مشتقة من الصفات والأفعال، وليس من الجوارح والحواس. وإن شئت قلت: أين هي أسماؤه الحسنى ـ جل ثناؤه ـ المتصلة بالجوارح أو المشتقة منها، حتى ندعوه بها سبحانه؟!! قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

١١ ـ التنزيه وأساليب التعبير:

ونودّ هنا أن نزيد مسألة الإمعان في التنزيه ـ التي أشرنا إليها قبل سطور ـ بيانًا وتأكيدًا، بالقول: إن التعبير عن هـذه الصفات ورد في القرآن الكريم بمختلف الصيغ والعبارات الدالة على نحو قاطع أن قوانين عالم الشهادة ـ التي دعاها بعض الفلاسفة (قوانين العقل الفطرية) ـ وأعني قانون الزمان والمكان والعليّة أو السببية، ـ لا تنطبق على الخالق سبحانه وتعالى؛ ومن ثم فلا يمكن أن تفهم الصفات الإلهية في ضوء الصفات الإنسانية، أو صفات المخلوقين، أو قياسًا عليها. ولقد أخطأ من قاس من المتكلمين (الغائب على الشاهد) كما عبر عن هذا كثير من العلماء والباحثين.

وانظر ـ على سبيل المثال ـ إلى صيغة المصدر، وصيغ الماضي والحاضر والمستقبل واسم الفاعل، في الآيات الكريمة الآتية، لتعلم أن (الزمان) لا ينطبق عليه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]. والآيات في هـذا كثيرة جدًا كما هو معلوم. وبهـذه المناسبة، فإننا لسنا مضطرين لتفسير صيغة الماضي ـ وكان ـ أو تأويلها على معنى: لا يزال أو لم يزل[1]، لأن هـذا لا ضرورة له، أو هو من باب تحصيل الحاصل.

وانظر كذلك في مسألة نفي (**المكان**) قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]، وقوله تعالى في موسى الكليم: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠ وانظر الآية: ٢٩].

فهـذه الآيات تنفي عن الله تعالى (المكان) لأن الله تعالى خاطب موسى بقوله:

---

(١) هـذا مذهب سيبويه والخليل، وقال بعض المفسّرين: «كان» من الله تعالى بمنزلة «كائن». وجمهور المفسرين على رأي ـ أو تأويل ـ سيبويه والخليل. ولا مانع عندنا من تفسيرها على نفي الزمان عن الله تعالى، بمعنى قدم الصفات الإلـهية.

﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ونحن لا نعلم معنى تجلّي الله تعالى للجبل، أما الحجاب ـ في آية الشورى ـ الشجرة أو سواها، فإنه يحجب المخاطب ـ وليس المتكلم ـ وفقًا لقوانين عالم الشهادة الذي جرى الخطاب بلغته، كما أشرنا في تعريف المتشابه، وفي شرحنا لقوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وهـذا يصل بنا إلى الإشارة إلى نفي قانون السببية أو العلية عن الله سبحانه لأنه هو خالق الأسباب والمسببات، وقد جاءت الآية المحكمة في هـذا النفي في سورة الإخلاص، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فالله تعالى لم يلد (غيره) ولم يولد (من غيره) ومن ثم، فإن قانون السببيّة هـذا في عالم الشهادة إنما وضع للأنام، ولا ينطبق أو ينسحب على الخالق المليك العلاّم. قال الإمام الغزالي: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: دليل على أن وجوده المستمر ليس مثل وجود الإنسان الذي يبقى نوعه بالتوالد والتناسل، بل هو وجود مستمر أزلي وأبدي. ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ دليل على أن وجوده ليس مثل وجود الإنسان الذي يحصل بعد العدم... ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ دليل على أن الوجود الحقيقي الذي له تبارك وتعالى، وهو الوجود الذي يفيد وجود غيره، ولا يستفيد الوجود من غيره؛ ليس إلا له تبارك وتعالى..»[(١)].

أما الآية المحكمة التي تتصدر الآيات المحكمات التي تُردُّ إليها المتشابهات بوجه عام، والمتعلقة بالذات العليّة بوجه خاص، والتي تنفي عن الله تعالى مشابهة الحوادث، أو مشابهة الذوات الإنسانية الخاضعة للقوانين الثلاثة المشار إليها،

(١) مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٢/ ١٣٠) رسالة المضنون به على غير أهله دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

فهي قوله ـ عزّ من قائل ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. كما تحدثنا عن ذلك في موضع سابق.

ولـكن علينا أن نلحظ في هـذه الآية الكريمة أنها بدأت من الخالق جل وعلا أو قاست عليه ـ إن صح التعبير ـ المخلوقات، ونصّت على أن هـذه المخلوقات لا تماثله، وفحوى ذلك أن (قوانينها) لا تلزمه ولا تسري عليه. ولهـذا، أو في المقابل، أسست آية أخرى لأصل ـ أو قاعدة ـ أن المخلوق لا يحيط علمًا بالخالق، لأن القوانين التي تحكم هـذا المخلوق، أو هو يخضع لها، ـ والتي هي من وضع الخالق جلّ وعلا ـ تحول بينه وبين هـذه الإحاطة؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠] وصدق الله العظيم.

١٢ ـ تأويل بعض الآيات:

وأخيرًا، فإننا في الوقت الذي استبعدنا تصنيف الصفات الإلـهية، كالسمع والبصر والقدرة والكلام مع المتشابه الذي يحتاج إلى تأويل؛ لأن دلالة هـذه الصفات على ما دلت عليه في حق الباري سبحانه دلالة محكمة؛ فإن بعض الآيات أو التعبيرات القرآنية المتصلة بهـذه الصفات أو المستندة إليها، قد يجوز إلحاقها بالمتشابه أو قياسها عليه؛ نظرًا لحاجتها إلى التأويل حتى تتوافق مع **الخصائص الإلـهية لهـذه الصفات**. نحو قوله تعالى:ـ في باب العلم الإلـهي ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

[العنكبوت: ٣] وقوله عزّ من قائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢] فقد فسّرت هـذه الآيات ونحوها من قبل جميع المفسرين والمتكلمين، أو أُوِّلت بعبارة أدق، على نحو يتوافق مع العلم الإلـهي الذي هو صفة أزلية للباري سبحانه وتعالى، والذي هو السبب في حدوث الأشياء وليس متسبّبًا عنها، كما قلنا قبل قليل. أو كما قال المفسرون: إن القرينة التي حملتهم على هـذا التأويل: هي استحالة حدوث العلم الإلـهي. وفي وسعنا أن نفهم هـذه الآيات ونحوها من خلال الصيغ التي أشرنا إليها عند الحديث عن تنزيه الله تعالى عن قانون الزمان من قوانين العقل الفطرية التي لا تنطبق على الذات العلية، وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] والله أعلم.

❁❁❁

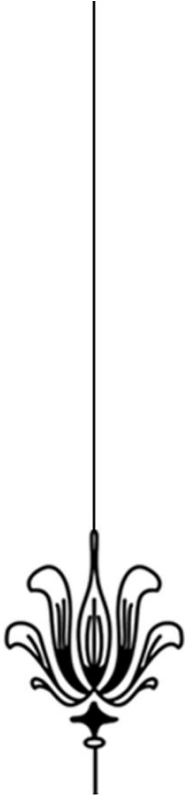

الفصل الخامس

القراءات القرآنية

- أولاً: نشأة علم القراءات.
- ثانياً: تعريف القراءات وأعدادها.
- ثالثًا: ضابط قبول القراءات القرآنية.
- رابعًا: القراءات الشاذة.
- خامساً: مكانة علم القراءات.

الفصل الخامس

القراءات القرآنية

أولاً ـ نشأة علم القراءات:

سبقت الإشارة إلى أن المبدأ الأساس في نقل القرآن هو المشافهة والتلقي، والأخذ ثقة عن ثقة.. خلفٌ عن سلف، حتى ينتهي إلى النبي ﷺ، وأن «المصاحف» ليست هي العمدة في هـذا الباب إلا في حدود ما تتسع له وتدل عليه من وجوه الاختلاف في أداء النص القرآني ـ كما مرّ بك في مبحث الأحرف السبعة ـ لأن دورها الأساس أنها ضُمّت على القرآن وانطوت عليه، ولـكنها لم تنطو ـ ويستحيل ذلك ـ على وجوه في أدائه لا تُعلم إلا من طريق التلقي والمشافهة، ولعل هـذا ما عناه الزركشي، حين قال: «القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز. والقراءات: اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما»[(١)].

---

(١) البرهان (١ /٣١٨)، وربما قصد الزركشي إلى التعبير عن مذهب الأشاعرة الذي أوجزه عبد القاهر البغدادي كبير متكلميهم في النصف الأول من القرن الخامس في الفصل الذي عقده تحت عنوان: (في بيان وجوه كلام الله تعالى) قال رحمه الله: «.. والقراءة غير المقروء، لأن المقروء كلام =

وربما كان التعبير بوصف القرآن بأنه نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥] أي وليس بـ«لغة عربية مبينة» ما يشير إلى هـذا ويدل عليه؛ لأن التعبير باللسان يشمل كذلك الجانب الصوتي، أو وجوه النطق التي لا يتسع لها التدوين. وغني عن البيان أن الجمع الذي تمّ للقرآن في عهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يتجاوز الكتابة والتدوين إلى (الجمع الصوتي) إن صح التعبير، لأن هـذا لم تتيسر وسائله إلا بعد بضعة عشر قرنًا من نزول القرآن؛ وقد تمّ ذلك استنادًا إلى وجوه الأداء التي نُقلت بعناية تامة عن طريق المشافهة والتلقي التي ما زال العلماء يؤكدون عليها، وأنها هي الوسيلة الأساسية لنقل القرآن خلال العصور.

ومن المعلوم أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة، وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءة المختلفة، وأنها إذا لم تحتملها كتبت بأحد الوجوه في مصحف، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر.. كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الرسم العثماني ثم الأحرف السبعة[1]، وهـذا يؤكد مرة أخرى ضرورة الاعتماد في هـذا الباب على الرواية والتلقي، خصوصًا إذا ذكرنا، أو تذكرنا، أن الكلمة القرآنية التي كتبت مجردة من النقط والشكل، أو التي لم تكن

=

الله، وليست القراءة كلامه، ولأن القراءات سبع والمقروء واحد! ويقال: قراءة أبي عمرو وقراءة عاصم، ولا يقال: قرآن أبي عمرو وغيره. ونقول: كلام الله في المصحف مكتوب، وفي القلب محفوظ، وباللسان متلوّ. ولا نقول: إنه في المصاحف مطلقًا، ولا نقول على الإطلاق: إن كلام الله سبحانه في محل! ولـكن نقول على التقييد: إنه مكتوب في المصاحف». أصول الدين، طبعة مدرسة الإلـهيات بدار الفنون باستانبول، ١٩٢٨، ص١٠٨.

(١) ينظر ص١٧٩ فما بعدها، وص٢٤٠ فما بعدها.

معجمة لا تجوز قراءتها بجميع احتمالاتها ـ الرياضية ـ ولـكن فقط بالوجوه المسموعة من النبي ﷺ والتي تلقاها عنه الصحابة رضوان الله عليهم[١].

ولـكن الصحابة ـ وهـذا ما يتمم الصورة هنا ـ اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ كما رأينا، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هـذه الحال، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابع التابعين.. وهـكذا حتى وصل الأمر إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصّصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وبنشرها كما سنرى. هـذا هو منشأ علم القراءات واختلافها[٢]، وهو منشأ يعود في الأصل إلى: **مبدأ نزول القرآن على سبعة أحرف، ثم إلى ما وقع عليه اختيار وقراءة كل واحد من أئمة القرّاء.**

ونشير هنا إلى أن هـذا الاختيار واضح الدلالة على أن كل قارئ من القراء كان مطلعًا على سائر القراءات أو الحروف. بل إن طريقة إقرائهم أو تعليمهم لمن أخـذ عنهم، يدل كذلك على وقـوف القـارئ عـلى اختيـارات القـراء الآخـرين، أو عـلى حروفهم وقراءاتهم، ولم يكن عند أحدهم مانع من أن يقرئ من يتلقـى عنـه بهـذه القراءات إلى جانب قراءته هو.

قال أبو دحية: «خرجت بكتاب الليث بن سعد إلى نافع، فوجدته يُقرئ بجميع القراءات، فقلت: سبحان الله! يا نافع أتُقرئ النـاس بجميـع القـراءات؟ فقـال: أوَ

---

(١) ونذكر هنا بما ختمنا به فصل: (القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة) من اسمي (الكتاب) و(القرآن) وأن التسمية بالقرآن روعي فيها كون كتاب الله متلوًا بالألسنة؛ لأن الرواية والنقل في باب القراءات، أو تعدد وجوه القراءة في الكلمة الواحدة.. آكد منها في القراءة الواحدة المجمع عليها، أو التي يقرأ بها الجميع.

(٢) مناهل العرفان للزرقاني، (١ / ٤٠٤).

أحرم نفسي الثواب؟ أنا أقرئ الناس بجميع القراءات، حتى إذا جاء من يطلب حَرْفي، أقرأتُه به».

«قال الأعمش وورش: كان نافع يسهل القراءة لمن قرأ عليه، إلا أن يقول له رجل: أريد قراءتك، أخذه بالنبر في مواضعه وإتمام الميمات. يعني: الضم».

قال أبو القاسم الهذلي (ت٤٦٥هـ): «وهذا يومئ إلى أن اختياره ذلك، **ويومئ إلى أن أحدًا من القرّاء لم يختر إلا بعد تتبع جميع القراءات**»[(١)].

جولدتسيهر وتعدد وجوه القراءة (أو: ونشأة علم القراءات):

وقد حاول المستشرق «جولدتسيهر» عكس الموضوع، فصوَّر أن نشأة الكثير من القراءات المختلفة يعود إلى رسم المصحف! قال: «وترجع **نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات** ـ أي في القراءات ـ إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعًا لاختلاف النقط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط. بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها. وإذًا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحّد القالب من الحروف الصامتة كانا هما **السبب الأول** في نشأة حركة اختلاف القراءات في نصٍّ لم يكن منقوطًا أصلاً، أو لم

(١) الكامل في القراءات للإمام أبي القاسم الهذلي. تحقيق د. عمر يوسف عبد الغني (١ / ١٥٠ ـ ١٥٢)، مؤسسة الفرقان، طبعة تجريبية، ١٤٢٩، لندن. وأبو دحية هو معلَّى بن دحية بن قيس المصري. راوٍ مشهور، ممن قرأ عَرْضًا على نافع.

تُتَحرّ الدقة في نَقْطِه أو **تحريكه** »[(١)]. أي تشكيله أو تحليته بالحركات.

ونحن لا نشك في أن هـذه الدقة في الصـياغة، تنطـوي عـلى مخالفـة صـريحة للتاريخ والواقع.. وربما أومأت هـذه المخالفـة كـذلك إلى اسـتخفافٍ بالقـارئ، وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ إن المعروف المدوَّن من القـراءات التـي ضـبطها العلمـاء، وتثبتـوا مـن سندها لا تقاس إلى ما يمكن أن ينشأ من قراءات كثيرة يحتملهـا الرسـم!! بـل لـو وجدت مثل هـذه القراءات لراعتنا في كثرتها الكاثرة!!

٢ ـ وقد أشار «جولدتسيهر» نفسه إلى قراءات يسمح بها الخط (أو الرسم)، لـكنها عُدّت عند العلماء منكرة، مثل قراءة من قرأ: «تستكثرون» بدل «تستكبرون» في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الآية: ٤٨]، ومثل قراءة حمّاد الرّاوية: «أباه» بدل «إيّاه» في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [الآية: ١١٤]، «ولو كان مجرد الخط كافيًا لاعتمدت.. وحسبك هـذا دليلاً على أن الخط لم يكن هو العمدة في صحة القراءة»[(٢)]. وعلمًا بأن هـذه القراءات قد يمهد لها السياق أو لا يأباها على أقل تقدير!

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ص٨. والصوامت: حروف الهجاء سوى الحركات. وقول جولدتسهير: «لم يكن منقوطًا» صحيح، أما قوله: «لم تتحر الدقة في نقطه وتحريكه» فهو كلام فاسد، ولا يخلو من إيهام وتدليس، لأن التحلية بالنقاط لتمييز الحروف، وبالحركات لمعرفة موقع الإعراب، لم يكن قد وجد بعد!! مع الإشارة إلى أن جولدتسهير في صياغته هـذه كان يشرح لمن لا يعرف خصوصية حروف الهجاء العربية فيما يبدو.

(٢) من تعليق الأستاذ الدكتور عبد الحليم النجار رحمه الله على كلام المستشرق جولدتسيهر، ص٩.

٣ ـ يضاف إلى ذلك ما ذكرناه في وقت سابق من أن عثمان رضي الله عنه عندما بعث بالمصاحف إلى الأمصار، أرسل مع كل مصحف مقرئًا يقرئ الناس، حتى يتلقوا القراءة من أفواه الأئمة، لأن القرآن لا بد فيه من المشافهة والتلقي، كما أشرنا قبل قليل؛ فقد أمر زيد بن ثابت بأن يقرئ بالمدينة، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن أبي شهاب إلى الشام، وعامر بن عبد الله بن عبد قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمي (عبد الله بن حبيب) إلى الكوفة[1].

وفي هذا دلالة بيّنة على أن الرسم أو الخط ليس هو السبب في نشأة القراءات. وعلينا أن نلحظ في هذا السياق أن عثمان رضي الله عنه لم يترك حتى المدينة نفسها ـ موطن الخلافة ـ فقد سمّى زيد بن ثابت مقرئًا لمصحفها. وغني عن البيان أنه لا يوجد أحد أحق منه بذلك، وهو الذي جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وكان أحد أعضاء اللجنة الرباعية التي نسخت القرآن في عهد عثمان ـ وكان ذلك كله في المدينة ـ وكان هو الأنصاري (المدني) الوحيد في هذه اللجنة الكريمة المباركة رضي الله عنه.

ونشير هنا إلى أن هؤلاء الذين بعث بهم عثمان رضي الله عنه مع المصاحف ليقرؤوا الناس، كانت لهم اختياراتهم أو طرقهم في القراءة، أي هم قراء، حتى لا يحمل الناس على قراءة واحدة، أو حتى تتفرق القراءات في الأمصار، وتجد جميع القراءات المسموعة طريقها إلى الألسنة والصدور. وقد أضيف إلى هؤلاء: القراء من الصحابة الذين أقاموا في هذه الأمصار. وهكذا تضبط قراءات المصاحف! وهو الأمر المهم في هذا السياق.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٠٤).

٤ ـ في القرآن الكريم كلمات كثيرة رسمها واحد، ولم يختلف القراء في قراءتها جميعًا، ولـكن في بعضها فقط! أو بعبارة أخرى: إن قراءة القرّاء لهـذه الكلمات لم تتعدّد فيها جميعًا، ولـكن في بعضها فقط على الرغم من رسمها الواحد. فلو كان الأمر أمر رسم، فلماذا الاختلاف في موضع، والاتفاق فيما سواه؟ فقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ الذي ورد في عدة مواضع في سورة البقرة، [الآيات: ٧٤ و٨٥ و١٤١ و١٤٩]. وفي سورة آل عمران [الآية: ٩٩]، اختلف القراء في قراءة (يعملون) في آيات البقرة، فقرأها بعضهم بالتاء وبعضهم بالياء. ولـكنهم اتفقوا جميعًا على قراءتها في آل عمران بالتاء: (تعملون)[(١)].

وكلمة (فعميت) وردت في القرآن في موضعين: الأول في سورة هود: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [الآية: ٢٨]. والثاني في سورة القصص: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ [الآية: ٦٦].

وقد اختلف القراء في قراءتها في سورة هود، فقرأها بعضهم بضم العين وتشديد الميم المكسورة، وقرأها بعضهم بفتح العين وتخفيف الميم المكسورة. أما في سورة القصص فقد اتفق القراء على قراءتها بفتح العين وتخفيف الميم. «ترى لو كان اختلاف القراءات ناشئًا عن التنقيط أكانوا يختلفون في موضع واحد، ويتفقون على ما سواه؟!»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ [النساء:

---

(١) الكتاب الموضح لابن أبي مريم، (١ / ٢٨٣).

(٢) الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس: شبهات حول القراءات القرآنية.

١٩]. قرأ حمزة والكسائي: (كُرهًا) بضم الكاف، وكذلك في سورة التوبة: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [٥٣]، وفي سورة الأحقاف: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [١٥]، وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب في النساء والتوبة: (كَرهًا) بالفتح، وفي الأحقاف بالضم. وقرأ الباقون بالفتح في الثلاثة[(١)]. وانظر نحو ذلك في قراءتهم بالسين أو الصاد في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩][(٢)]. والشواهد في هذا كثيرة.

٥ ـ وأخيرًا فإن الروايات التاريخية الكثيرة لم تختلف على أن تَجَرُّد المصاحف العثمانية من الشكل والنقط هو الذي فسح المجال لاستيعاب القراءات أو الحروف المروية عن رسول الله ﷺ، لا أن ذلك التَّجَرُّد هو الذي «أنشأ» هذه القراءات!! والأخبارُ الصحيحة التي مرت في السابق كافية في هذا المجال، وفي الفقرات التالية من هذا البحث مزيد من البيان.

ثانيًا ـ تعريف القراءات وأعدادها:

القراءات: جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر سماعي لـ(قرأ).

وفي الاصطلاح: «مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفًا غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في

---

(١) الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم، (١/ ٤٠٩)، و تقريب النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ص١٠٥.

(٢) الكتاب الموضح (١/ ٣٣٤).

نطق الحروف أم في نطق هيئاتها»[١] وأوجز ابن الجزري التعريف بقوله: «**القراءات: علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بِعَزْوِ الناقلة**»[٢]، قال: «والمقرئ: العالم بها رواها مُشافهةً، فلو حفظ التيسير ـ من أشهر كتب القراءات ـ ليس له أن يقرئ بما فيه إن لم يشافهه من شُوفِه به مسلسلاً، لأن في القراءات أشياء لا تُحْكَم إلا بالسماع والمشافهة»[٣].

وقد بدأت المشافهة والتلقي ـ كما ذكرنا ـ عن الصحابة الذين تلقوا القرآن من في الرسول ﷺ، ثم قرأ كل أهل مصر بما في مصحفهم، ـ في الأمصار التي وجّه عثمان إليها المصاحف ـ وتلقوا ما فيه عن الصحابة، ثم قاموا بذلك هم مقام الصحابة، فممن كان بالمدينة: ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان وعطاء ابنا يسار.. **وبمكة**: عبيد بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس، ومجاهد.. **وبالكوفة**: علقمة، والأسود، ومسروق، وعمرو بن شُرَحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي، وإبراهيم النَّخَعي.. **وبالبصرة**: عامر بن عبد الله ابن عبد قيس، وأبو العالية، ونصر بن عاصم، ويحيى بن معمر، والحسن، وابن سيرين، وقتادة. **وبالشام**: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، وخليد بن سعد[٤].

---

(١) مناهل العرفان (١ / ٤٠٥)، وانظر منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزري، ص٦١. والرواية: ما تُنسب إلى الآخذ عن هذا الإمام ولو بواسطة. والطريق: ما ينسب إلى الآخذ عن الراوي ولو سفل (نزل). ولكل إمام صاحب قراءة: رواة كثيرون رووا عنه. ولكل راوٍ: عدة طرق.

(٢) منجد المقرئين ص٣، طبع مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

(٣) المصدر السابق: قال: «والقارئ المبتدئ: من شرع في الإفراد إلى أن يفرد ثلاثًا من القراءات، والمنتهي: من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها».

(٤) انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ص٨، وانظر فيه أعلامًا آخرين كثيرين من التابعين اشتهروا بالأخذ عنهم. وانظر: الإتقان للسيوطي، (١ / ٣٤٢ ـ ٣٤٣) طبعة مؤسسة النداء.

قال ابن الجزري: «ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ، واعتنوا بضبط القراءة أتمّ عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم ويؤخذ عنهم، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف فيها اثنان. **ولتصدّيهم للقراءة نسبت إليهم** ».

فكان بالمدينة: **أبو جعفر** يزيد بن القعقاع. ثم شيبة بن نِصَاح، ثم **نافع** بن عبد الرحمن بن أبي نعيم.

وكان بمكة: عبد الله بن **كثير**، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن مُحَيْصِن.

وكان بالكوفة: يحيى بن وَثَّاب، **وعاصم** بن أبي النَّجُود الأسدي، وسليمان بن مهران الأعمش، ثم حمزة بن حبيب الزيات، ثم علي بن حمزة **الكسائي**.

«وكان بالبصرة: عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، **وأبو عمرو بن العلاء**، ثم عاصم بن أبي الصباح الجَحْدَري[(١)]، ثم **يعقوب** بن إسحاق الحضرمي.

وكان بالشام: **عبد الله بن عامر اليحصبي**، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شُرَيْح بن يزيد الحضرمي»[(٢)].

وعلى الرغم من اشتهار قراءة سبع من هؤلاء على رأس المئتين من الهجرة في الأمصار الإسلامية، كما ينقل بعض الرواة[(٣)]، فإن هذه القراءات لم تأخذ مكانها

---

(١) قرأ عاصم على أبي العالية الرياحي، وقرأ أبو العالية على عمر رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق، ص٨ ـ ٩.

(٣) كان الناس بالبصرة على قراءة يعقوب وأبي عمرو بن العلاء، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع. راجع: الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم (١ / ١٠٧ ـ ١٢٦).

من التدوين ولم تتميز عن غيرها إلا في مستهل القرن الرابع حين نهض لجمعها الإمام ابن مجاهد (أحمد بن موسى بن العباس) المتوفى سنة ٣٢٤هـ، غير أنه أثبت اسم الكسائي وحذف يعقوب.

القراءات السبع

واشتهرت هذه القراءات من ثم باسم **القراءات السبع**، وهي قراءة: ابن كثير (إمام حرم الله تعالى: وهو أبو معبد عبد الله بن كثير الداري الكناني توفي بمكة عام ١٢٠هـ). **ونافع** (إمام حرم رسول الله ﷺ: وهو أبو عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن ابن أبي نُعيم، مولى جَعْونة بن شعوب الليثي، توفي عام ١٦٩هـ). **وابن عامر** (أبي عمران عبد الله بن عامر اليَحصُبي من حِمْيَر، قاضي دمشق وإمام أهل الشام، توفي بدمشق عام ١١٨هـ، **وهو أقدم القراء موتًا**، وكان من التابعين). **وأبي عمرو بن العلاء** (التميمي المازني البصري، توفي بالكوفة عام ١٥٤هـ). **وعاصم** (أبي عاصم بن أبي النَّجُود الأسدي الكوفي، أبو بكر. ويقال له: ابن بهدلة. وكان من كبار التابعين توفي في طريق الشام عام ١٢٧هـ). **وحمزة** (أبي عُمارة حمزة بن حبيب الزيات التميمي، توفي بالكوفة عام ١٥٦ أو ١٥٨هـ). **والكسائي** (أبي الحسن علي بن حمزة، أعلم أهل الكوفة في زمانه بعلم العربية، ـ ومنه نشأ علم الكوفيين ـ وقرأ على حمزة، ومات بقرية من أعمال الري عام ١٨٩هـ).

وأضاف علماء القراءات إلى هؤلاء السبعة: **يعقوب** بن إسحاق الحضرمي (أبا محمد الذي توفي بالبصرة عام خمسين ومائتين). وصاروا يعرفون بأئمة القراء الثمانية[1].

---

(١) انظر: البرهان للزركشي، (١/ ٣٢٧ ـ ٣٣٠). وانظر الفصل الأول بعنوان: «في ذكر أئمة القراء الثمانية وأسمائهم وكناهم وأنسابهم وأمصارهم وأسانيدهم» من الكتاب الموضح لابن أبي مريم:

=

ولـكن ذلك لا يعني ـ بداهة ـ أن عدد الرواة الموثوق بهم محصور في سبعة، أو ثمانية، فأئمة القراءة لا يحصون كثرة، وربما كان فيهم من هو أجلّ قدرًا وأعظم شأنًا[1]. ولـكن ابن مجاهد رأي ألا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة، مع اتفاق الآراء على الأخذ منه والتلقي عنه، فتم له ذلك في القراءات السبع، فحظيت بالشهرة ونباهة الشأن. ونعتقد ـ بعد الاطلاع على تراجم هؤلاء وأولئك ـ الذين قيل إن بعضهم أجلّ قدرًا، وإن بعضهم الآخر أوثق وأشهر.. ـ إن مكانتهم جميعًا متكافئة أو متقاربة، وإن اختيارات ابن مجاهد كانت على درجة عالية من المهارة والتدقيق والتوفيق.

القراءات العشر:

وقد اشتهر أيضًا زيادة ثلاث قراءات أخرى إلى السبع المتقدمة، أو قراءتين أخريين إذا أخذنا بعين الاعتبار أن إضافة قراءة يعقوب حصل في وقت سابق على يد كثير من العلماء. وهما قراءة **أبي جعفر المدني المخزومي يزيد بن القعقاع** (ت١٣٠ وقيل غير ذلك) **وأبي محمد خَلَف بن هشام البزّار البغدادي** (ت٢٢٩) وصارت تعرف جميعًا بالقراءات العشر.

وأخيرًا: فإن الذي يقرر قبول القراءة أو رفضها، ويحل المشكلات التي

=

ت٥٦٥هـ) ص١٠٧ ـ ١٢٦، ـ مع حواشي المحقق الدكتور عمر حمدان الكبيسي ـ وكذلك الفصل الذي يليه: «في ذكر الرواة، وذكر الراوين عنهم، والعلامات الدالة على أساميهم» ص١٢٧ ـ ٥٥١. فهما من الفصول المهمة في تاريخ القراء والقراءات.

(١) انظر: ما نقله ابن الجزري عن مكي بن أبي طالب: النشر (١/ ٣٧). وراجع رسالة أبي العباس المهدوي ـ التي سنشير إليها ـ بعد قليل. (كتاب نصوص محققة ص ٢٥٠).

نجمت في هـذا الباب: الضابط العلمي الذي سنذكره بعد قليل، والذي اتفق عليه علماء القراءات.

رواة القراء العشرة

عاش القراء الأئمة العشرة المذكورون في القرنين الأول والثاني، أو كان بروزهم واشتهارهم في هذين القرنين. وقد روى عنهم خلق كثير، ولدى تدوين قراءاتهم، تم اختيار أشهر راويين لكل واحد منهم، وكان هؤلاء الرواة ـ بدورهم ـ من أئمة القراءة الأعلام الذين حظوا بالشهرة ونباهة الذكر، في القرنين الثاني والثالث. ونورد فيما يلي أسماء هؤلاء الرواة:

١ ـ ابن كثير المكي: راوياه: **البزي**: أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي مزه: أبو الحسن (١٧٠هـ ٢٥٠هـ). و **قُنبُل**: محمد بن عبد الرحمن المخزومي: أبو عمرو. **وقنبل** لقب له ويقال: إن القنابل أو القنابلة أهل بيت بمكة (ت٢٩١هـ).

٢ ـ نافع المدني: راوياه: **قالون**: عيسى بن مينا المدني أبو موسى (١٢٠هـ ٢٢٠هـ). وقالون لقب لقَّبه به نافع، وقالوا: إنها كلمة رومية معناها الجيد. **وورش**: عثمان بن سعيد المصري: أبو سعيد، وورش لقب، قيل: لُقب به لشدة بياضه (ت١٩٧هـ).

٣ ـ ابن عامر الشامي: راوياه: **هشام** بن عمار القاضي: أبو الوليد (ت٢٤٥). **وابن ذكوان**: عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان، القرشي الدمشقي: أبو عمرو (١٧٣هـ ٢٤٢هـ).

٤ ـ أبو عمرو بن العلاء البصري: راوياه: **الدوري**: حفص بن عمر النحوي منسوب إلى «الدور» وهو اسم موضع ببغداد (ت٢٤٦هـ). **والسوسي**: صالح بن زياد بن عبد الله السوسي: أبو شعيب (ت٢٦١هـ).

٥ ـ عاصم بن أبي النجود الكوفي: راوياه: **شعبة** بن عياش الكوفي (ت١٩٣هـ)، و **حفص** بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفي أبو عمرو (ت١٨٠هـ).

٦ ـ حمزة بن حبيب الكوفي: راوياه: **خلف** بن هشام البزّار: أبو محمد (ت٢٢٩هـ)، و **خلاد** بن خالد، ويقال: ابن خُليد: أبو عيسى (ت٢٢٠هـ).

٧ ـ علي بن حمزة الكسائي: راوياه: **أبو الحارث**: الليث بن خالد البغدادي (ت٢٤٠هـ)، و **حفص** الدوري (أحد راويي أبي عمرو).

٨ ـ يعقوب بن إسحاق الحضرمي: راوياه: **رُويس** محمد بن المتوكل البصري، أبو عبد الله، ورُويس لقب له (ت٢٣٨هـ). **وَرَوح** بن عبد المؤمن النحوي أبو الحسن (ت٢٣٤هـ).

٩ ـ أبو جعفر المدني: راوياه: **ابن وردان**: عيسى بن وردان (ت١٦٠هـ)، وابن حجّاز: سليمان بن مسلم بن حجاز (ت بعيد عام ١٧٠هـ).

١٠ ـ خلف بن هشام البغدادي: راوياه: **إسحاق** بن إبراهيم الورّاق أبو يعقوب (ت٢٨٦هـ)، و **إدريس** بن عبد الكريم الحدّاد: أبو الحسن (ت٢٩٢هـ).

مع الإشارة إلى أن راويي أبي عمرو بن العلاء البصري رويا القراءة عن أبي محمد يحيى بن المبارك العدوي، المعروف باليزيدي، عنه. وأن راويي حمزة الكوفي رويا القراءة عن أبي عيسى سليم بن عيسى الحنفي الكوفي، عنه. أما ابن كثير فقد «روى البزي وقنبل عن أصحابهما عنه» على حد قول الحافظ ابن الجزري، أي رويا عنه ـ كذلك ـ بإسناد.

قال ابن الجزري: «ولكل واحد من هؤلاء الرواة طريقان، كل طريق من

طريقين إن تأتّى ذلك، أو أربعة عن الراوي نفسه، يتم ثمانون طريقًا»[(١)].

تاريخ علم القراءات:

وقد لخّص الأستاذ المحقق سعيد الأفغاني رحمه الله تاريخ هـذه القضية، أعني مسألة أعداد القراءات حتى انتهت إلى ما انتهت إليه، فقال:

«تناقل التابعون قراءات الصحابة بالتواتر، وذهبت قراءات كثيرة صحيحة بسبب أخذ الناس باتباع المصاحف العثمانية. وأخذ عن أعلام التابعين خلق كثير لا يحصون، فذهب بذلك أيضًا قراءات صحيحة لسبب يسير هو عدم بلوغها بالتواتر إلى التابعي مع صحتها في نفسها[(٢)]، وهـكذا دواليك.. حتى ساغ لابن الجزري وهو يؤرخ لحركة التدوين في هـذا الفن أن يقول:

«القراءات المشهورة اليوم (يعني في الثلث الأول من المئة التاسـعة للهجـرة) عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر، قياسًا إلى ما كان مشهورًا في الأعصر الأُوَل: قُلٌّ من كُثُر، ونزر من بحر، فإن من له اطلاع عـلى ذلـك يعـرف علمـه العلـم اليقـين، وذلك أن القراء الذين أخذوا عن أولـئك الأئمة المتقدمين مـن السـبعة وغيـرهم كانوا أممًا لا تحصى وطوائف لا تُستقصى. والـذين أخـذوا عـنهم أكثـر.. وهلـمّ جرًا.

---

(١) تقريب النشر في القراءات العشر لابن الجزري (ت٨٣٣هـ) ص ٢. ت إبراهيم عطوه إبراهيم. دار الحديث ـ القاهرة ط٢: ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

(٢) التعبير بذهاب هـذه القراءات موهم أو ليس بدقيق؛ لأن قسمًا كبيرًا من هـذه القراءات ـ وربما معظمها ـ حُفظ، ولـكن نزل إلى مرتبة الشاذ بسبب شرط التواتر الذي أشار إليه الأستاذ الأفغاني رحمه الله. والقراءات ـ والشاذ منها على وجه الخصوص ـ حفظت «تاريخ» هـذه اللغة.

فلما كانت المئة الثالثة واتّسع الخَرق وقلّ الضبط، وكان **علم الكتاب والسنة أوفر ما كان في ذلك العصر**، تصدّى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات، فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب: أبو عبيد القاسم بن سلام، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئًا مع هؤلاء السبعة، وتوفي سنة ٢٢٤هـ..».

ثم بعد أن يشير الأستاذ الأفغاني إلى أن عددًا من العلماء أَلَّف في القراءات قبل أبي عبيد ـ منهم ابن جبير المكي ـ يقول: «يعنينا من كل أولئك المؤلفين أبعدهم أثرًا وأوسعهم شهرة: **أبا بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤هـ** بعد أبي عبيد بمئة عام؛ إذ كان أول من اختار سبعة من أئمة القراء الكثيرين، فأَلّف في قراءتهم، واختار لكل منهم اثنين ممن روى عنه.. واشتهر اختياره هذا حتى صارت (القراءات السبع) التي اختارها علمًا في فن القراءة، وعناوين لكتب عدة ومنظومات شتى مشهورة هي، إلى الآن، المراجع التي تُستظهر وتُشرح وتدرّس في حلقات الإقراء»[(١)].

بين القراءات السبع والأحرف السبعة:

ولكن الاقتصار على هذا العدد أوهم بعض الناس أن هذه القراءات هي المرادة بقول النبي ﷺ: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف**» ولو كان ذلك كذلك لكان تفسير الحديث وتطبيقه «وتنفيذه» متوقفًا على مجيء ابن مجاهد ليحدده للناس!

---

(١) مقدمة التحقيق التي صدّر بها الأستاذ سعيد الأفغاني كتاب حجة القراءات لأبي زرعة الدمشقي، ص١٤ ـ ١٥.

قال ابن الجزري: «وينبغي ألا يتوهم متوهم أن الحديث منصرف إلى قراءة سبعة من القراء الذين ولدوا بعد التابعين، لأنه **يؤدي** إلى أن يكون الخبر متعريًا عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء الأئمة السبعة فيؤخذ عنهم القراءة، ويؤدي أيضًا إلى أن لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به»!!

ولهذا فقد قال الإمام أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي: «لقد فعل مسبِّع هذه السبعة ما لا ينبغي له أن يفعله، وأشكل على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله، وأوهم كل من قلّ نظره أنها هي المذكورة في الخبر النبوي لا غير.. وليته إذ اقتصر نقص أو زاد ليزيل هذه الشبهة»[1].

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ص٣٦. وانظر: الكامل في القراءات الخمسين لأبي القاسم الهذلي، (١/ ٢١٩)، و البرهان للزركشي، (١ / ٤٠٧ ـ ٤٠٨) الطبعة اللبنانية.

ونورد فيما يلي نص كلام أحمد بن عمار المهدوي (المتوفى نحو عام٤٤٠هـ) كاملاً، كما وقفنا عليه في كتابه أو رسالته بعنوان: «بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات» والتي حققها ونشرها الدكتور حاتم صالح الضامن ـ ضمن رسائل أخرى ـ عام ١٤١١هـ. والمهدوي نسبة إلى (المهدية) بالقيروان بإفريقية (تونس). وهو مفسّر، نحوي، عالم بالقراءات والعربية؛ قال رحمه الله:

«ولقد فعل مسبّع هؤلاء السبعة ما لم يكن ينبغي أن يفعله، وأشكل على العامّة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله! وذلك أنه قد اشتهر عند الكافّة قول النبي ﷺ: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف**»، ثم عمد هذا المسبِّع إلى قوم اختار **كل رجل منهم لنفسه قراءة من جملة القراءات التي رواها، وكانوا ـ لعمري ـ أهلاً للاختيار؛ لثقتهم وأمانتهم، ولعلمهم وفصاحتهم، فأطلق عليهم التسمية بالقراءات،** فأوهمَ بذلك كلَّ من قلَّ نظره وضَعُفَت عنايتُه أن هذه القراءات السبع هي التي قال فيها النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وأكَّد وهمَه: ما يراه من اجتماع أهل الأمصار عليها، واطِّراح ما سواها، وذلك لعمري موضع إشكال على الجُهّال. وليتَه إذ ذهب إلى الاقتصار على بعض قرّاء

=

قال ابن تيمية: «لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة.. ليست قراءات القراء السبعة المشهورة، بل أول من جمع ذلك ابن مجاهد، ليكون ذلك موافقًا لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده واعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبع هي الحروف السبعة، أو أن هـؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم، ولهـذا قال بعض العلماء: لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى «حمزة» لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة وإمام قُرّاء البصرة في زمانه في رأس المئتين»[(١)].

وقد ترك جماعة من العلماء في كتبهم في القراءات ذكر بعض هـؤلاء السبعة، وزاد نحو عشرين من الأئمة ممن هم فوق السبعة[(٢)].

ثالثًا ـ ضابط قبول القراءات القرآنية:

قال أبو العباس المهدوي: «فالقراءة المستعملة التي لا يجوز ردها: ما اجتمع

=

الأمصار، واجتهد في الاختيار؛ **جعلهم أقلَّ من سبعة أو أكثر**، فكان يزيل بذلك بعض الشبهة الداخلة على الأغمار، نرغب إلى الله عز وجل التجاوز عن فعله الذي اعتمده، وحُسْنَ المجازاة على ما قصده؛ فإنه لم يرد إلا الخير والفضل، لـكن خفي عليه ما يدخلُ بذلك على أهل الضعف والجهل. والله المستعان». ص٢٥٠ ـ ٢٥١ من كتاب أو مجموع نصوص محققة في علوم القرآن جمع وتحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن. طبع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد: ١٤١١هـ ١٩٩١م.

وتقع هذه الرسالة في الصفحات ٢٢٩ ـ ٢٥٢ ومع مقدمة التحقيق وفهرس المصادر والمراجع في الصفحات ٢٢٣ ـ ٢٥٩.

(١) ابن الجزري: المصدر السابق، ص٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٧.

فيها ثلاثة أشياء: أحدها: موافقة خط المصحف. والآخر: كونها غير خارجة عن لسان العرب. والثالث: ثبوتها بالنقل الصحيح. فما ورد من القرآن على هـذا الترتيب وجب قبوله، ولم يسع أحدًا من المسلمين ردّه، وما عدم أحد الأشياء الثلاثة لم يجز استعماله»[(١)].

وقال الحافظ ابن الجزري: «كل قراءة وافقت العربيـة ولـو بوجـه، ووافقـت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عـن العشـرة، أم عـن غيرهم من الأئمة المقبولين».

ثم ذكر أن هـذا موضع إجماع فقال: «هـذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»[(٢)].

١ ـ والمراد بقوله: « **ولو بوجه** » وجهًا من وجوه النحو، سواء أكان أفصح أم فصيحًا، مجمعًا عليه أم مختلفًا فيه اختلافًا لا يضر مثله ـ إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح ـ قال: «وهـذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية»[(٣)]. ولهـذا لا معتبر بإنكار من أنكر من أهل النحو لبعض القراءات.

---

(١) نصوص محققة (مصدر سابق)، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٩).

(٣) المصدر السابق، ص١٠؛ ولهـذا عرّف ابن الجزري القراءات بقوله: «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة».

حكى الإمام أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري (ت٥١٤هـ) في تفسيره عند قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[1] [النساء: ١]، كلام إبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) في تضعيف قراءة الخفض ـ والأرحامِ

(٣) قرأ حمزة وحده (والإرحامِ) بجر الميم، قال القفال رحمه الله: وقد رويت هذه القراءة عن غير القراء السبعة، عن مجاهد وغيره، وأما الباقون من القراء فكلهم قرأوا بنصب الميم. اما قراءة حمزة فقد ذهب الأكثر من النحويين إلى أنها فاسدة، قالوا: لأن هذا يقتضي عطف المظهر على المضمر المجرور. وقد ذكر الرازي رحمه الله الوجوه، أو سائر الوجوه التي احتجوا بها لذلك، ثم قال: «واعلم أن هذه الوجوه ليست وجوهًا قوية في دفع **الروايات الواردة في اللغات**، لأن حمزة أحد القراء السبعة، والظاهر أنه لم يأت بهذه القراءة من عند نفسه، بل رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، **وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة**، والقياس يتضاءل عند السماع، لا سيما بمثل هذه الأقيسة التي هي أوهن من بيت العنكبوت. وأيضاً فلهذه القراءة وجهان: أحدهما أنها على تقدير تكرير الجارّ، كأنه قيل: تساءلون به وبالأرحام، وثانيها: أنه ورد ذلك في الشعر، وأنشد سيبويه في ذلك:

فاليوم قد بِتَّ تهجونا وتشتمنا ... فاذهب فما بك والأيام من عجب

تُعلَّق في مثل السواري سيوفُنا ... وما بينها والكعبِ غَوطٌ نفانِفُ

«والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين! ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد!».

قال الزجاج: قراءة حمزة مع ضعفها وقبحها في العربية خطأٌ عظيم في أصول الدين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تحلفوا بآبائكم) أي أن قراءة الخفص تقتضي جواز الحلف بالأرحام. قال الرازي: «ويمكن الجواب عنه بأن هذا حكاية عن فعلٍ كانوا يفعلونه في الجاهلية، لأنهم كانوا يقولون: أسألك بالله والرحم، وحكاية هذا الفعل عنهم في الماضي لا تنافي ورود النهي عنه في المستقبل. وأيضاً فالحديث نهي عن الحلف بالآباء فقط، وههنا ليس كذلك، بل هو حلف بالله أولاً، ثم يُقرن به بعده ذكر الرحم، فهذا ينافي ذلك الحديث» **قلت**: والحديث أخرجه البخاري (٦٦٤٧) ومسلم (١٦٤٦) بلفظ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم...» انظر القرطبي ٦/ ٩ (طبع قطر) والفخر الرازي: ٥/ ١٧٠ ويروى البيت الثاني: (بيوتنا) بدل (سيوفنا) و(الأرض) بدل (الكعب) والغَوط: المطمئن من الأرض أو المنخفض الواسع منها. والنفانف: ج نَفنف، وهو الهواء بين الشيئين. والبيت كناية عن طول قامتهم.

ـ ثم قال: ومثل هـذا الكلام مردود عند أئمة الدين، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القرّاء ثبتت عن النبي ﷺ، فمن ردّ ذلك فقد رد على النبي ﷺ واستقبح ما قرأ به!! قال: «**وهـذا مقام محظور لا يقلّد فيه أئمة اللغة والنحو**»![1].

«فإن العربية تتلقى من النبي ﷺ، ولا يشك أحد في فصاحته»[2].

فإن أرادوا أنه صحيح فصيح، ولـكن غيره أفصح منه، قال الشيرازي: فإننـا لا ندعي أن كل ما في القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة.

بل إن الفصاحة ـ في المقـام الأهـم ـ يحـددها الاسـتعمال القـرآني أو القـرآن الكريم بقراءاته المختلفة. وليس معنى ذهاب النحاة والبلاغيين إلى وضع القواعد أن قواعدهم هي الأفصح في الاستعمال.

قال الإمام الحافظ أبو عمرو الداني، عند ذكره إسكان «بارئْكم ويأمرْكم»[3] ـ لأبي عمرو بن العلاء ـ: «وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبتت عندهم لم يردها قياس عربية ولا فُشوّ لغة، لأن **القراءة سنّة متّبعة**، فلزم قبولُها والمصير إليها»[4].

يؤيد هـذا ويدل عليه: أن علماء النحو والبلاغة إنما استمدوا قواعد علـومهم من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب، فإذا ثبتت القراءة بالرواية المقبولة

---

(١) منجد المقرئين، ص٦٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ١٠.

(٣) انظر الآيتين: ٥٤ و٦٧ من سورة البقرة.

(٤) منجد المقرئين ص٦٥. وانظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري، (١/ ١٠).

كان القرآن هو الحكمَ على علماء النحو لا العكس ـ وسوف تتضح أهمية هذه النقطة في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل، ويبدو أن هذا الركن الأول ـ ركن موافقة العربية ـ قريب من قواعد نقد المتن عند المحدثين.

٢ ـ ويعنون بقولهم: « **ما وافق أحد المصاحف العثمانية** »: ما كان ثابتًا ولو في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ من سورة البقرة [الآية: ١١٦] بغير واو ـ قالوا[(١)] ـ وكقراءته: «وبالزبر وبالكتاب المنير»[(٢)] قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤] بزيادة الباء في الاسمين، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي. وكقراءة ابن كثير: «جناتٍ تجري من تحتها» في الموضع الأخير من سورة التوبة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] بزيادة كلمة «من» فإن ذلك ثابت في المصحف المكي[(٣)].

والمراد بقوله: « **ولو احتمالاً** » ـ أو تقديرًا ـ أنه يكفي في الرواية أن توافق رسم

---

(١) قرأها بغير واو (قالوا) ابن عامر وحده، وكذا في مصاحف أهل الشام. انظر: التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني، ص٧٦، و النشر (٢ / ٢٢٠).

(٢) قرأ بإعادة (الباء) ابن عامر، وقرأ الباقون بغير باء. انظر: التيسير ص٩٢، و النشر (٢ / ٢٤٥)، والكتاب الموضح لابن أبي مريم، (١ / ٣٩٧). وراجع الآية ٢٥.

(٣) في مصاحف أهل مكة: (من تحتها) وفي غيرها بدون (من). النشر (٢ / ٢٨٠). وانظر: الكتاب الموضح لابن أبي مريم، (٢/ ٦٠٣)، جدّة، ١٤١٤هـ.

المصحف، ولو موافقة غير صريحة، نحو: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنه رسم في جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة «مالك». فقراءة الحذف تحتمله تحقيقًا، كما كتب ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ وقراءة الألف تحتمله تقديرًا، كما كتب: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، فتكون الألف حذفت اختصارًا كما حذفت في حالات كثيرة معهودة في قواعد رسم المصحف[(١)].

أما الموافقة الصريحة فكثيرة نحو قوله سبحانه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] فإنها كتبت في المصحف بدون نقط. فوافقت قراءة «نُنشزها» بالزاي، وقراءة «نُنْشِرُها» بالراء، وروى أبان عن عاصم: «نَنْشُرُها» بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وضم الشين والراء[(٢)].

---

(١) نبّه أئمة القراءة على أن موافقة الرسم تقديرًا فيما صح نقله ـ أي نقلاً متواترًا ـ لا تعد مخالفة للرسم، بل هي موافقة له تقديرًا، مثل حذف الألف في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، و ﴿صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] والواو في ﴿دَاوُۥدُ﴾ [البقرة: ٢٥١] و ﴿تَلْوُۥنَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] والياء في ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ٦١] وإبدال الألف واوًا في نحو ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨] و ﴿الْحَيَاةِ﴾ [الحديد: ٢٠] وزيادة الألف في نحو: ﴿وَجِاْىٓءَ﴾ [الزمر: ٦٩] والياء في نحو: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾ [القلم: ٦] والواو في نحو: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البقرة: ٥]. قال أئمة القراءة: إن هـذه الأوجه تدل على أن الصحابة حين كتبوا المصاحف راعوا أن تكون الكتابة محتملة لأوجه القراءة المتعدد (كما أشرنا إلى ذلك في فقرة رسم المصحف من فصل «جمع القرآن وتدوينه»). أما ما لم يكن من الألفاظ صالحًا لذلك، فقد وزعوا ما فيه اختلاف بين المصاحف، كما قلنا من قبل. راجع: النشر لابن الجزري، (١ / ١٢ ـ ١٣).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بن العلاء ويعقوب وأبو جعفر بالراء، وقرأ الباقون بالزاي ومعنى القراءة بالزاي نرفعها، ومنه: النَّشْز: المرتفع من الأرض، أي: يرفع بعضها إلى بعض، ومعنى القراءة بالراء؛ من أنشر الله الموتى: أي أحياهم.

٣ ـ وأما قولهم: « **وصح سندها** » فمعناه: ـ كما قال ابن الجزري ـ «أن يروي تلك القراءةَ العَدْلُ الضابطُ عن مثله، وهـكذا حتى تنتهي إلى النبي ﷺ ». ولم يكتف علماء القراءات من صحة السند أو تصحيحه بهـذا، بل اشترطوا كذلك: «**أن تكون هـذه القراءة مشهورة عند أئمة هـذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذّ بها بعضهم** »[(١)].

ولـكنْ هل معنى ذلك: **اشتراط التواتر** حتى تكون القراءة مقبولة؟.

من المعلوم أن القرآن الكريم نقل بطريق التواتر، كما بيّنا ذلك فيما سبق؛ فهل يشترط ذلك لقبول وجوه الاختلاف ـ أو جميع وجوه الاختلاف ـ في قراءة اللفظ الواحد؟ ابن الجزري وغيره من المحققين يشترطون ذلك، ويذهبون إلى أن القراءات السبع كلها متواترة، فإن لم يكن التواتر فلا أقل من الاستفاضة والشهرة، ويعدّون أن ما اشتهر واستفاض ـ موافقًا بالطبع للعربية ورسم المصحف ـ في قوة المتواتر وإن لم يتفق التواتر في بعضها[(٢)]، كالقراءات الثلاث الأخرى[(٣)]، وإن كان بعضهم يصرح بتواترها كذلك، قال الإمام السبكي: «القراءات السبع التي اقتصر عليها الشاطبي، والثلاث التي هي قراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف متواترة معلومة من الدين بالضرورة، وكل حرفٍ انفرد به واحد من العشرة، معلوم من

---

(١) النشر (١/ ١٣).

(٢) النشر (١ / ١٣). المقدمة ص٤٠٢، طبعة دار الشعب بالقاهرة.

(٣) يمكننا تعليل هـذا الرأي المقبول بأن ما استفاض واشتهر من القراءات عند أئمة الشأن له قوة القرآن المتواتر عند عامة المسلمين، لأن القراءات تهم القرّاء أو هي شأنهم، في حين أن القرآن للمسلمين كافة.

الدين بالضرورة أنه منزّل على رسول الله ﷺ، لا يكابر في شيء من ذلك إلا جاهل»!![1] وقد يكون في هـذا بعض الغلوّ، مع التأكيد على أن هـذه القراءات الثلاث الموزعة فيما يبدو بين التواتر والشهرة قد تلقتها الأمة بالقبول.

وتحسن الإشارة – هنا – إلى أن تواتر القراءات السبع «قد خالف فيه بعض الناس» على حد قول ابن خلدون، قال رحمه الله: «وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها ـ القراءات السبع ـ لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط. وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن. وأباه الأكثر، وقالوا بتواترها. وقال آخرون: بتواتر غير الأداء منها، كالمدّ والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته إلا بالسمع، وهو الصحيح»[2].

قلت: وربما كان هذا الذي رجحه ابن خلدون، قد سبقه إليه، أو إلى نحوه ابـن الحاجب (جمال الدين عثمان بن عمر ت ٦٤٦هـ) قال العلاّمة ابن الحاجب:

إن القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء، كالمدّ والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه. وقد **ضعّف ابن الجزري** هذا القول، وذكر أنه لا يعلم أن أحداً تقدم ابن الحاجب إلى ذلك، وعقّب عليه بأنه قد نصّ على تواتر ذلك كله: أئمة الأصول كالقاضي أبي بكر (الباقلاني) وغيره، قال: **وهذا هو الصواب «لأنه إذا تواتر اللفظ ثبت تواتر أدائه، لأن اللفظ لا يقوم إلا به، ولا يصح إلا بوجوده»**. **قلت**: ويبدو أن الأمر متردد بين **الأصل والتقدير**، كما يدل عليه قول بعض العلماء: إن أصل المدّ

---

(١) الإتقان للسيوطي، (١ / ٢٢٨)، وانظر تفصيلات هـذه النقطة في: النشر لابن الجزري، (١ / ٤٤ ـ ٤٦).

(٢) المقدمة، ص ٤٠٢ طبقة دار الشعب بالقاهرة.

والإمالة متواتر، ولكن التقدير غير متواتر، للاختلاف أو لتعدد الآراء في كيفيته، قال: وأما أنواع تخفيف الهمزة فكلها متواترة[(١)].

قال السفاقسي رحمه الله: «ولا يقدح في ثبوت التواتر: اختلافُ القراء، فقد تتواتر القراءة عند قوم دون قوم، فكل واحد من القراء إنما لم يقرأ بقراءة غيره لأنها لم تبلغه على وجه التواتر، ولذا لم يعب أحد على غيره قراءته لثبوت شرط صحتها عنده، وإن كان هو لم يقرأ بها لفقد الشرط عنده»[(٢)].

قلت: لا ريب في أن اختلاف القراء لا يقدح في ثبوت التواتر، ولكن ليس لأن كل واحد من القراء لم تبلغه قراءة غيره على وجه التواتر، ولكن لأن كل واحد منهم كانت له **(اختياراته)** من هذه القراءات، وقد سبقت الإشارة إلى أن نافعًا كان يقرئ بجميع القراءات إلى جانب قراءته هو، كما ذكرنا قبل قليل.

ونذكّر هنا بمقالة «جولدتسيهر» السابقة في تعليل نشأة قسم كبير من القراءات برسم المصحف!! ويكفينا هذا الشرط من الشروط العلمية التي ينبغي توافرها في القراءة المقبولة.. في نقض ذلك الزعم الباطل، وفي الفقرة التالية مزيد من البيان.

رابعًا ـ القراءات الشاذة:

ذكر المحقق ابن الجزري أن هذه الشروط الثلاثة إذا اجتمعت في القراءة

---

(١) راجع البرهان للزركشي ١/ ٣٩٦-٣٩٧ طبعة بيضون بلبنان. وتقريب التهذيب لابن الجزري تحقيق إبراهيم عطوة من ٣٤-٤٣. والإتقان للسيوطي ١/ ٣٧٥-٣٧٦ تحقيق د. قيسية.

(٢) غيث النفع في القراءات السبع ص٧، وانظر: ص١٣ من مقدمة التحقيق التي صدّر بها الأستاذ سعيد الأفغاني كتاب حجة القراءات لأبي زرعة الدمشقي. والسفاقسي هو إبراهيم بن محمد القيسي (ت ٧٤٢هـ).

فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل يجب قبولها سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم.. كما قدمنا ذلك في أول الفقرة السابقة.

والحديث الآن عن القراءة التي يختل فيها واحد من هـذه الشروط أو الأركان الثلاثة، ما حكمها وبماذا توصف؟

إذا اختل من القراءة شرط موافقة الرسم العثماني ـ الشرط الثاني ـ سميت القراءة شاذة، نظرًا «لشذوذها» عن هـذا الرسم، أو «رسم المصحف المجمع عليه» بحسب عبارة ابن الجزري» قال: «إن هـذه القراءة لا يجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا غيرها». قال الإمام أبو عمر بن عبد البر في كتابه (التمهيد): «وقد قال مالك: إن من قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود، أو غيره من الصحابة، مما يخالف، لم يُصَلَّ وراءه. وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك، إلا قومًا شذوذًا لا يعرّج عليهم»[(١)].

وإذا اختل من هـذه القراءة الشرط الثالث ـ تواتر الإسـناد ـ فتسـمى ضـعيفة، وقد يطلق عليها شاذة من باب التوسع.

أما إذا عدم النقل فهي حينئذ مكذوبة، أو باطلة، سواء وافقت العربية ورسم المصحف أو أحدهما، لأن القراءات أساسها النقل والرواية كما ذكرنا أكثر من مرة. ولهـذا ذهب بعض العلماء إلى تكفير من يتعمد ذلك[(٢)]!

---

(١) تقريب النشر لابن الجزري ص٢٦ – ٢٧ تحقيق إبراهيم عطوة عوض. دار الحديث – القاهرة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

(٢) انظر: الإمام القسطلاني في لطائف الإشارات (١ / ٧٢)، قال: «وأما ما وافق المعنى والرسم، أو أحدهما، من غير نقل فلا يسمى شاذًا، بل مكذوب يكفر متعمده».

والمسألة المهمة الآن إطلاق وصف (الشاذ) على القراءة التي لم تبلغ مبلغ التواتر، أو وصف هـذه القراءة بالشذوذ، علمًا بأن هـذه القراءة إذا احتكمنا إلى قواعد نقد السند عند المحدّثين تسمى (آحادًا)، وحديث الآحاد من قسم الحديث المقبول كما هو معلوم، مع الإشارة كذلك إلى أن إطلاق وصف الشاذ على رواية الآحاد ـ في القراءات ـ تمّ في عصر مبكّر على يد أحد أئمة القرّاء السبعة (الإمام نافع المتوفى ١٦٩)، في الوقت الذي يؤكد بعض الباحثين أن هـذا الشرط أو هـذا المقياس ـ مقياس الإسناد ـ بقي المقياس الوحيد لصحة القراءة أو شذوذها مدة طويلة[١]، أو بعبارة أدق: لقبولها أو رفضها.

والذي نراه في الإجابة عن هـذه المسألة: أن اشتراط التواتر في القراءات، يقابله مجرّد اشتراط الصحة في الحديث النبوي، أي اشتراط الصحة فقط. ويتحقق هـذا الشرط في رواية الآحاد أو في حديث الآحاد بطبيعة الحال. وبعبارة أخرى: **إن التواتر هو شرط الصحة والقبول في القراءات، بينما الآحاد هو شرط الصحة والقبول في الحديث النبوي.**

وربما قصد المحقق ابن الجزري إلى شيء من هـذا حين قال، أو حين أجاب بقوله: إن القول في أمر القراءات الشاذة كالقول في الأحاديث الضعيفة؛ ردًا على من استشكل من العلماء وصف رواية الآحاد بالشذوذ! ويضيف ابن الجزري: نحن نعلم في الجملة أن النبي ﷺ قال شيئًا من هـذه الأحاديث وإن لم نعلم عينه، أي لم يكن في وسعنا تحديده بالعين. كذلك القراءات الشاذة **فقد «تواترت» قراءة رسول**

(١) الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن ص٢٠١.

الله ﷺ **بالشاذ وإن لم يتعين بالشخص**. وقد قاس ابن الجزري هـذا على شرط موافقة الرسم العثماني، وقال: «فنحن نقطع بأن كثيرًا من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يقرؤون بما خالف رسم المصحف العثماني **قبل الإجماع عليه**[(١)]. ونحن اليوم نمنع من يقرأ بها في الصلاة وغيرها منع تحريم لا منع كراهة، ولا إشكال في ذلك»[(٢)].

قلت: إنه التحرّي والدقة في قبول القراءة القرآنية، وتطبيق حاسم لجميع شروط أو أركان هـذا القبول. ولا ريب في أن الأمر لا إشكال فيه «لأن الإجماع حجة وأصل من أصول الشرع» كما يقول ـ أو يذكّر ـ أبو العباس المهدوي، الذي أضاف قائلاً: «ولأن النبي ﷺ لما ذكر الحروف التي نزل عليها القرآن قال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فأباح الاقتصار على بعضها، ولم يلزمنا القراءة بجميعها...»[(٣)].

وهـذا فيما نلاحظ مبني على ما دل عليه النظر العقلي والواقع التاريخي، وهـو أن الأصـل أو القاعـدة في نقـل القـرآن: التـواتر. وفي نقـل الحديث:ــ أو جمهـرة الأحاديث ـ الآحاد. نظرًا لأن القرآن الكريم حفظ في الصدور مـن قبـل الجمـوع، وللصلاة به من قبل جميع المسلمين. فضلاً عما عرف كذلك من حرص النبـي ﷺ

---

(١) كما جاء في بعض أخبار الآحاد الصحيحة، نحو: ﴿صراط من أنعمت عليهم﴾ و﴿جاءت سكرة الحق بالموت﴾ و﴿فطلقوهن لقبل عدتهن﴾ قال أبو العباس: «إلا أنها أخبار آحاد، والقرآن منقول بنقل الكافّة عن الكافة» (نصوص محققة ص٢٤٥).

(٢) منجد المقرئين ص٢١.

(٣) رسالة أبي العباس المهدوي من كتاب نصوص محققة ص٢٤٥، مرجع سابق.

على كتابته وتدوينه حال نزوله ـ مما فصّلنا فيه القول فيما سبق ـ وحضّ المسلمين على تلاوته ومدارسته. أما الأحاديث النبوية فربما لم يتلقها عن النبي ﷺ إلا نفر قليل، أو واحد في بعض الأحيان. وحتى عندما يتلقاها عدد من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد لا يرتقي الإسناد إلى مرتبة التواتر في جميع الطبقات، وربما في طبقة الصحابة ذاتها.. مع الإشارة إلى أن بعضهم لم يكن يحدّث بما سمع، اعتمادًا على أن بعضهم الآخر نهض بهذا التحديث.. إلخ.

حكم القراءة الشاذة:

لا تعد القراءة الشاذة قرآنًا، ـ لأن القرآن ثبت بالتواتر ـ ولهذا لا تجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا في غيرها، ولا يُصلَّى خلف من يقرأ بها[(١)]، ولكنها قد تفسر القراءة المشهورة وتبين معناها أو معانيها. وقد نزّلها بعض الفقهاء في الدلالة على الأحكام منزلة خبر الآحاد[(٢)]. **قلت**: وهذا موقف صائب في ضوء ما أشرنا إليه من كونها في سويّته أو رتبته بوجه عام. قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: وإنما نقلها مَن نقلها من العلماء لفوائد تتعلق بعلم العربية، لا للقراءة بها»[(٣)].

---

(١) نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك، لكن قال بعض العلماء بجواز القراءة بها في غير الصلاة، قياسًا على رواية الحديث بالمعنى. قلت: وهو قياس مع الفارق! انظر: البرهان للزركشي، (١/ ٤١٠)، طبعة لبنان.

(٢) انظر حول هذا الموضوع: النشر لابن الجزري، (١ / ٤٤)، و الإتقان للسيوطي، (١/ ٢٦٦ ـ ٢٢٧).

(٣) تقريب النشر ص ٢٧.

خامساً ـ مكانة علم القراءات:

يعدّ هـذا العلم أحد العلوم التي اختصت بهـا الثقافـة الإسـلامية، مثـل علـم الوقف والابتداء، وعلم التجويد، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أصول الفقه، وعلوم مصطلح الحديث؛ لأنه لا توجد أمة على وجه الأرض حفظت «كتابها» أصلاً كمـا حُفظ القرآن الكريم، فضلاً عن الوجوه المتعـددة في قراءتـه وتلاوتـه عـلى النحـو المعهود في علم القراءات عندنا معشر المسلمين.

ولهـذا فقد احتل هـذا العلم مكانًا بارزًا عند أسلافنا القدماء، وعرفوا لـه مـن الأهمية ما حملهم عـلى جمـع هـــذه القـراءات وتلقيهـا خـلال العصـور، إلى جانـب مصنفاتهم الغزيرة في هـذا الفن، وأشهرها كتاب: **التيسير في القراءات السبع** لأبـي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي الداني (٣٧١ ـ ٤٤٤)، وكتاب: **الشاطبية** ـ المسمّاة حرز الأماني ووجه التهاني لأبي محمد القاسم بـن فِيـرُّه[١] بـن أبـي القاسـم خلـف بـن أحمـد الرُّعينـي الشـاطبي الأندلسـي الضـرير (٥٣٨ ـ ٥٩٠هـ)[٢]، وكتاب: **النشر في القـراءات العشـر** لأبـي الخيـر محمـد بـن محمـد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت٨٣٣هـ).

أما أبو عمرو الداني فقد كـان أبـرز مـن عُنـي بـالقراءات في القـرن الخـامس

---

(١) فِيرُّه «بكسر الفاء بعدها ياء؛ آخر الحروف ساكنة، ثم راء مشددة مضمومة بعدها هاء. ومعناه بلغة عجم الأندلس: الحديد» غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، (٢ / ٢٠).

(٢) نوّه الزركشي كذلك بكتاب الإقناع في القراءات السبع لأبي جعفر أحمد بن علي المعروف بابن الباذش (ت٥٤٠هـ). وبكتاب المصباح الزاهر في القراءات العشر لأبي الكرم مبارك بن الحسن، المعروف بالشهرزوري (ت٥٥٠هـ).

الهجري، حتى وصفه العلامة ابن خلدون بقوله: «إنه بلغ الغاية فيها، ووقفتْ عليه معرفتها، وانتهت إلى روايته أسانيدها، وتعددت تآليفه فيها، وعوّل الناس عليها، وعدلوا عن غيرها» قال: «**واعتمدوا من بينها كتاب التيسير**».

أما أبو القاسم الشاطبي (من أهل شاطبة بالأندلس) فقد عمد إلى تهذيب ما دوّنه أبو عمرو وتلخيصه ـ كما يقول ابن خلدون ـ «فنظم ذلك كله في قصيدة لَغَزَ فيها أسماء القرّاء بحروف (أ ب ج د) ترتيبًا أحكمه ليتيسّر عليها ما قصده من الاختصار، وليكون أسهل للحفظ، فاستوعب فيها الفن استيعابًا حسنًا، وعُني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس[(١)]» بل في سائر الأمصار الإسلامية حتى الساعة. ويعرف هذا الكتاب الشهير بـ الشاطبية، أو منظومة الشاطبية. وهي منظومة لامية من البحر الطويل[(٢)].

ويبدو أن (الداني) كان يضع الكتب، و(الشاطبي) يختصرها في منظومات، أو (قصائد) لأن للإمام الشاطبي كذلك: (قصيدة): **ناظمة الزُّهر في علم الفواصل**[(٣)] اختصر فيها كتاب البيان في عدّ آيات القرآن لأبي عمرو الداني. وله (قصيدة) أخرى ـ رائية ـ بعنوان: **عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد** في بيان رسم القرآن، أو

---

(١) المقدمة، ص٤٠٢ ـ ٤٠٣، ط دار الشعب بالقاهرة.

(٢) ومطلعها:

بدأت ببسم الله في النظم أولاً ... تبارك رحمانًا رحيمًا وموئلا
وثنّيتُ صلّى الله ربّي على الرضا ... محمدٍ المُهْدى إلى النّاس مُرسَلا

(٣) «وعنها أُخذت عدّة آيات القرآن في المصاحف. وهو العدّ الكوفي المروي عن أبي عبد الرحمن السّلمي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. راجع فيما سبق فقرة «مصحف عثمان وعلي» ص٢١٦.

رسم المصاحف العثمانية. اختصر فيها كتاب **المقنع** لأبي عمرو الداني كذلك[(١)].

أما ابن الجزري الدمشقي فقد نظم هو كتابه: **النشر في القراءات العشر**، في (**طيبة النشر**)، كما نظم في قراءات أبي جعفر ويعقوب وخلف ورواتهم، وهي القراءات الثلاث المضافة إلى قراءات الشاطبية السبع قصيدة: **الدرّة المضيّة في القراءات الثلاث المرضية**[(٢)]. وهو كذلك صاحب كتاب: «**غاية النهاية في طبقات القرّاء**» رحمه الله تعالى، وسائر هـؤلاء العلماء الأعلام الذين وقفوا حياتهم على خدمة كتاب ربهم سبحانه، وكتاب أمة الإسلام إلى يوم الدين.

---

(١) قام تلميذ الشاطبي: الشيخ علم الدين علي بن محمد السخاوي (٦٤٣ت) بشرح كتابي شيخه أو قصيدتيه: الشاطبية والعقيلة. ولعله أول من شرح قصيدته في الرسم في كتاب أسماه: الوسيلة إلى كشف العقيلة. أما الشاطبية فقد شرحها كثيرون، منهم: أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي: ت٥٦٦)، والجعبري (إبراهيم بن عمر: ت ٧٣٢هـ). وابن جُبارة المقدسي (شهاب الدين ابو العباس أحمد بن محمد: ت٧٢٨هـ) وقد تتبع الدكتور أيمن رشدي سويد شروح الشاطبية فبلغت أو زادت على ستين شرحًا. انظر تقديمه لشرح ابن جبارة «المفيد في شرح القصيد» بتحقيق الأستاذ خير الدين الشريف (١ ٦)، ط دار الغوثاني بدمشق، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

(٢) نظم الدرة على بحر وقافية الشاطبية ومطلعها:

قل الحمد لله الذي وحده علا ... ومجِّدْه وأسأل عونه وتوسّلا

وصلّ على خير الأنام محمدٍ ... وسلّم، وآلٍ والصِّحاب ومن تلا

وبعد فخذ نظمي حروف ثلاثة ... تتم بها العشر القراءات وانقلا

كما هو في تحبير تيسير سبعها ... فأسأل ربي أن يمنَّ فتكملا

انظر: كتاب: شرح الدرّة المضيّة في القراءات الثلاث «المروية»! للإمام النويري (محمد بن محمد أبي القاسم ت ٨٩٧هـ) بتحقيق جمال الدين محمد شرف. ط دار الصحابة للتراث – طنطا: مصر. بدون تاريخ.

القراءات والقضايا الصوتية واللغوية:

أما دلالة هـذه القراءات، **وبخاصة الشاذة أو غير المتواترة منها، على المزايا والمشكلات الصوتية واللغوية، وعلى تاريخ الفصحى**، فقد بدأت محاولة دراستها في العصر الحديث في ضوء تطور علوم اللغة[(١)]. وقد أشار الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين في دراسته للقراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث إلى أهمية هذه القراءات بوصفها «**ديوان خصائص العربية**». وقال في مقدمة كتابه تاريخ القرآن: «والقراءات صنو النحو، وهي أداء، إلى جانب أنها رواية، لكن توالي القرون عليها قد أحالها شيئًا جامدًا، فعزل جانبًا كبيرًا منها بتهمة الشذوذ، ثم قصرها على جانب التلقي دون النظر النقدي، والتحليلي، لما تحتوي من قضايا صوتية ولغوية ونحوية. وقد كان أجدر أن تتوالى عليها البحوث في القديم لإنضاجها علمًا ذا أساس من الرواية والنقل متين، وفنًّا يتصل بكيفية النطق على مر العصور، فهو سجل للظواهر النطقية الحية، كما أنه محافظ على المأثور من طبائع اللسان العربي، في الفصحي وفي لهجاتها»[(٢)].

بل إن علم القراءات القرآنية، مشهورها وشاذها، هو من أولى العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى، «لأن رواياتها هي أوثق الشواهد على ما كانت ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية، واللغوية بعامة، في مختلف الألسنة واللهجات، بل إن من الممكن القول بأن القراءات الشاذة هي أغنى

---

(١) تاريخ القرآن ص١٧.

(٢) تاريخ القرآن، ص٨.

مأثورات التراث بالمادة اللغوية التي تصلح أساسًا للدراسة الحديثة، والتي يلمح فيها المرء صورة تاريخ هـذه اللغة الخالدة»[١].

ونقول في التعقيب على ما قاله الزميل الدكتور عبد الصبور: إن هـذه القراءات التي تتصف بالثبات من جهة، وبالاستمرارية وعدم الانقطاع؛ لأنها واكبت القـرآن الكريم ومشت في ظله، من جهـة أخـرى: حفظـت لنـا «تـاريخ» اللغـة العربيـة أو خصائصها وظواهرها الصوتية ـ بوصفها سماعيّة ـ والصرفية والنحويـة. في حـين حفظ القرآن «متن» أو أساس هـذه اللغة عبر «مستقبلها» الممتد مع حفظ الله تعالى لهـذا الكتاب. أي أن فضل القرآن على العربية يشمل حفظ التاريخ والمستقبل معًا أو في وقت واحد. ولا نعتقد أن لغة ما من لغات الأرض تتمتع بمثل هـذه الميـزة التي تمتعت بها اللغة العربية بفضل القرآن الكريم وقراءاته.

ولا يقل دور القراءات الشاذة في ذلك عن المتواترة، بل ربما فاقـه كمـا أشـار الأخ الدكتور عبد الصبور.

قلت: وكما قبل الفقهاء أحاديث الآحـاد في الأحكـام أو أحكـام الفقـه، فإننـا نقبل الآن القراءات الشاذة ـ وهي قراءات آحاد كما قدمنا ـ في أحكام اللغة.

بل ربما كان في وسعنا اليوم أن نتسع قليلاً بقواعد النحـو ـ وإن شـئت قلـت: **بقواعد النحاة** ـ في ضوء هـذه القراءات؛ لأنها لا يمكن أن تكـون توسـعة في قـراءة القرآن فحسب دون هـذه القواعد. ونذكّر هنا بما نقلناه قبل قليل عن أبي عمرو بن العلاء رحمه الله.

---

(١) القراءات القرآنية ص٧.

إن القرآن الكريم كما كتب لهـذه اللغة الشرف والمجد والخلـود حـين أنـزل الله تعالى بها كتابه الكريم؛ فإنه خلّد مأثوراتهـا أو تاريخهـا كـذلك بحـروف هــذا الكتاب وقراءاته.

لقد وحّد القرآن لهجات العرب في لغة قريش، ولـكنه ترك الباب مفتوحًا مـن خلال الأحرف والقراءات لمأثوراتها اللسانية الحية. والله تعالى أعلم.

الفصل السادس

الناســـخ والمنـــسوخ

- أولاً: تعريف النسخ.
- ثانياً: النسخ بين منكريه ومثبتيه.
- ثالثًا: بين النسخ والبَدَاء.
- رابعًا: نسخ الشرائع السابقة، لا نسخ آيات القرآن.
- خامسًا: التربية بالنسخ.
- سادسًا: الاعتبار الخاص لجيل التنزيل.
- سابعًا: أسباب هذا الاعتبار: تعقيب وتأكيد.
- ثامنًا: متى لا يكون المتأخر ناسخًا للمتقدم (بين أحكام الفرد وأحكام الأمة والدولة).

الفصل السادس

الناسخ والمنسُوخ

أولاً ـ تعريف النسخ:

لغة: يطلق «النسخ» في اللغة على معنيين: **الإزالة، والنقل**. والمعنى الأول، وهو الإزالة، له صورتان أو حالتان:

الأولى: الإزالة بِعِوَض كقولك: نسخت الشمس الظل، أي: أزالته وحلّت محله.

والصورة الثانية: الإزالة بغير عوض كقولك: نسخت الريح الأثر، أي: أزالته ولم تحل مكانه، بل ذهبت هي أيضًا فلم يبق ريح ولا أثر.

وقد جاء النسخ في القرآن بمعنى الإزالة بعوض في قوله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

أما المعنى الثاني للنسخ وهو «النقل» فقولك: نسختُ الكتاب، أي: نقلت ما فيه، ومنه قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٩] أي تكتبه الملائكة في الصحف، أو تأخذ نسخة منه أو عنه!

شرعًا: والنسخ في الشريعة، أو عند الأصوليين، مأخوذ من الإزالة بصورتها الأولى، أو بمعناها الأول، فقد عرفوه بقولهم: «**هو رفع الشارع حكمًا شرعيًا بدليل**

شرعي متراخٍ عنه» أي: إن الحكم الشرعي الأول يذهب ويُقطع تعلّقه بأفعال المكلّفين، ويحل محله الحكم الجديد الناسخ. ويمكن أن يقال في تحليل هـذا التعريف والتعليق السريع عليه ما يلي[(١)]:

أ ـ **بإضافة الرفع** ـ رفع الحكم السابق ـ **إلى الشارع**، ينتفي النسـخ بـأي دليـل شرعي غير الكتاب والسنة، كالقياس والاستحسان والإجماع وغير ذلك، فإن هـذه الأدلة جميعًا لا تَنْسَخ كتابًا ولا سنة.

ب ـ وقولنا: رفع الشارع « **حكمًا شرعيًا** » يدخل في النسخ: نسخ شريعة سابقة بشريعة لاحقة، ونسخ بعض أحكام الشريعة الواحدة ببعض آخر. كما أنـه يُخـرِج من ساحة النسخ: إبطالَ الأحكام والعادات غير الشرعية مما كانت عليه العرب في الجاهلية. ويُخرج منه أيضًا: رفعَ الإباحة الأصلية الثابتة بحكم العقل، باعتبـار أن الأصل في الأشياء الإباحة، فكل ذلك لا يُعد نسخًا عند جمهور الأصوليين.

ج ـ وقيد **التراخي بين الدليلين** ـ بدليل شرعي متراخٍ عنه ـ يخرج تخصيص العام؛ لأن المخصص يقترن بالعام ليدل على أن المراد به من أول الأمر بعضُ أفراده أو أنواعه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]، وكقوله تعالى: ف ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ

---

(١) قال ابن البارزي (هبة الله بن عبد الرحيم، المعروف بشرف الدين الشافعي: ٦٤٥ ـ ٧٣٨هـ): «النسخ: رفع حكم ثابت بخطاب ثانٍ لولاه لكان ذلك الحكم ثابتًا بالخطاب الأول». قال: «والناسخ: رافع الحكم، والمنسوخ: المرفوع المتروك حكمه والعمل به». انظر رسالته: ناسخ القرآن ومنسوخه ص ١٧٤ من كتاب: نصوص محققة في علوم القرآن تحقيق د. حاتم صالح الضامن.

﴿ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقد قيل في تعريف التخصيص: إنه إخراج بعض أفراد العام من حكمه لسبب أو عذر، أما النسخ فلا يكون إلا بعد استقرار الحكم الأول. ولهـذا لا يمكن أن يدخل في الناسخ والمنسوخ الآيتان ٦٥، ٦٦ من سورة الأنفال عند من يقول: إنهما نزلتا دفعة واحدة! وهما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

لأن الآية الأولى تشير إلى المستوى الإيماني الرفيع والحماسة الروحية التي تضاعف قدرات المجاهد وطاقته عشرة أضعاف، بحيث يتصدى لعشرة من الذين كفروا ويغلبهم أو ينتصر عليهم. وهـذا المستوى قائم ومستمر. وهـذا المعنى لا يلحقه نسخ أو تبديل. ولـكنّ المؤمنين لا يكلّفون هـذا، أو لا يجب عليهم النهوض للجهاد والتحرير ـ تكليفًا أو وجوبًا شرعيًا ـ إلا إذا كان عدد الأعداء لا يتجاوز ضعف عددهم (واحد إلى اثنين، وليس واحدًا إلى عشرة) وليس معنى الآيتين: أن الفرار من المعركة صار جائزًا الآن! أو بهـذه النسبة التي حددتها الآية الثانية: لأن هـذا الفرار لا يجوز على الإطلاق بعد الدخول في المعركة! ولـكن الحديث عن التكليف وحدود الطاقة قبل هـذا الدخول. أما إذا دخل المسلمون معركة من المعارك، أو تلبّسوا بالقتال، ـ بغض النظر عن نسبتهم إلى الذين كفروا أيًّا كانت! ولو كانت واحدًا إلى عشرين مثلاً ـ فإن الفرار لا يجوز، لأنهم في هـذه الحال، أمام خيارين لا ثالث لهما، قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]. والله تعالى أعلم.

ثانيًا ـ النسخ بين منكريه ومثبتيه:

وبين من أنكر وقوع النسخ في القرآن ـ وهم نفر قليل من العلماء المتقدمين، وعدد غير قليل من العلماء والباحثين من المتأخرين والمعاصرين ـ وبين من توسع في مفهومه توسعًا كبيرًا حتى عدّوا التخصيص والتقييد والاستثناء نسخًا.. وحتى دخل النسخ عندهم ميدان الأخبار والقصص!!.. نحن قد لا نرى ما يمنع من القول: إن النسخ واقع فعلاً في القرآن الكريم، وإن كانت مواضعه التي بلغ بها بعض العلماء أو الشرّاح إلى اثني عشر موضعًا ومائتي موضع، لا تتعدى عند السيوطي رحمه الله عشرين موضعًا نظمها في عشرة أبيات من الشعر[(١)]. وقد تعقبه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في دعوى النسخ في هـذه المواضع، فنزل بها إلى عشرة مواضع[(٢)]. ونحن في تعقّبنا للشيخ الزرقاني نرى بأن مواضع النسخ في القرآن

---

(١) الإتقان (١ / ٦٣ ـ ٦٦)، دار إحياء العلوم، بيروت.

قلت: بل بلغ عدد الآيات المنسوخة عند ابن البارزي ـ الذي أشرنا إلى رسالته قبل قليل ـ مائتين وثمانية وأربعين (٢٤٨) موضعًا، وقد عدّها على النحو الآتي: مائة وأربعة عشر موضعًا نسختها آية السيف ـ الآية ٥ من سورة التوبة ـ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾.

وثمانية مواضع في سبع سور نسختها آية القتال، وهي قوله تعالى في سورة التوبة كذلك ـ الآية ٢٩ ـ ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

قال ابن البارزي: «وأما الآيات المنسوخ عمومها بالاستثناء أو ما في معناه: فثلاثة وعشرون موضعًا في إحدى عشرة سورة.

فأما الآيات المنسوخة على النظم: فمائة وثلاثة مواضع في ثلاثين سورة. وأما الآيات الناسخة فمائة وثمانية مواضع في سبع وثلاثين سورة». ص٥ من الرسالة (ص١٧٨ من: نصوص محققة).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٥٦ ـ ٢٧٠).

قد لا تتعدى أربعة مواضع منها: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، ونسخ وجوب تقديم صدقة بين يدي نجوى النبي ﷺ. وهي المواضع التي كانت لها ظروف تاريخية لا تقبل التكرار[(١)]. فبعد موت النبي ﷺ لن تقدم صدقة! والسابقون الأولون الذين صلّوا إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا.. ثم صلوا إلى الكعبة بعد تحويل القبلة.. لن يكرروا بطبيعة الحال[(٢)].

علمًا بأن التوجه إلى بيت المقدس لم ينزل فيه قرآن يتلى! وإن كان قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ [البقرة: ١٤٣] يدل على أن هـذا التوجه قد ثبت بطريق الوحي، ولـكن الفرق بين الأمرين شديد الوضوح! لأن حديثنا هنا عن نسخ آيات من القرآن، وليس عن نسخ السنة، أو سواها. بل إن الأمر بالتوجه إلى الكعبة، عندما كان المسلمون في مكة، أو قبل هجرتهم إلى المدينة، ليس فيه كذلك نص قرآني[(٣)]. فهل يمكننا القول: إن القرآن فيه ناسخ، وليس فيه منسوخ؟

---

(١) انظر في المصدر السابق ٢٦٧ ـ ٢٦٨: نسخ الآية الكريمة.. ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾.... الآية [الأحزاب: ٥٠].

قالت عائشة رضي الله عنها: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله تعالى له أن يتزوج من النساء إلا ذات محرم..». وانظر فيه كذلك (ص٢٦٩) نسخ وجوب قيام الليل بحق النبي ﷺ، والذي جاء في صدر سورة المزمّل!

(٢) (راجع الآية ١٠٠ من سورة التوبة. وما قال في تفسيرها سعيد بن المسيب وابن سيرين. وهو التفسير الذي عوّلنا عليه).

(٣) قيل: إن الوحي نزل إلى التوجه إلى بيت المقدس والمسلمون في مكة، وإن رسول الله ﷺ كان يحرص على أن يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فيتجه ـ بذلك ـ إليهما معًا. فلما أسلم الأنصار صلوا إلى بيت المقدس. ولم يكن في شيء من هـذا نص قرآني، فالأمر بالتوجه إلى الكعبة

=

ندع الجواب الآن، ونقول: إن القرآن الكريم إن كان فيه منسوخ، فهو منسوخ التلاوة والحكم، أي أنه رفع. وربما كان هـذا هو الذي سماه القرآن الكريم تبديلاً؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠١ ـ ١٠٢].

ولا ريب في أن هـذا التبديل قد وقع بدليل الشرط (وإذا). ولـكن هل المـراد بالآية هنا: الآية من القرآن؟ أم هـي البرهـان والـدليل عـلى النبـوّة، أو مـا يسـمى بالمعجزة؟ هـذا ما سوف نشير إليه بعد قليل.

أقسام أخرى للنسخ عند العلماء:

ونشير هنا، بكلمة عابرة، إلى أن كثيرًا من العلماء ذكر إلى جانب هـذا النسـخ، أو إلى جانب هـذا القسم من أقسامه ـ وهو الذي نُسخ حكمه وبقي في القرآن لفظـه ـ قسمين آخرين هما:

ما نسخ لفظه وحكمه معًا، وما نسخ لفظه وبقي حكمه[(١)]، ومثّلوا للأول بقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان فيما أنزل من القرآن: (عشر رضعات يُحرّمْن) ثم نسخن بخمس معلومات. وتوفي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يُقرأ من القرآن»[(٢)].

=

بعد نحو عام ونصف العام من الهجرة إلى المدينة، لم ينسخ نصًا قرآنيًا سابقًا، وإنما أنهى مرحلة اقتضتها حكمة الله تعالى في إعداد ـ وتربية ـ الجماعة الإسلامية الأولى التي كانت في مكة.

(١) ويدعى القسم الأول: منسوخ التلاوة والحكم. والثاني: منسوخ التلاوة دون الحكم.

(٢) حديث موقوف على السيدة عائشة رضي الله عنها، أخرجه الشيخان. قال السيوطي: «وقد تكلموا في قولها: وهنَّ مما يقرأ من القرآن! فإن ظاهره بقاء التلاوة، وليس كذلك». الإتقان (٢ ٦١). ونحن نتكلم أيضًا في هذا القول، ونعتقد أنه مما أضيف إلى كلامها رضي الله عنها.

ومثّلوا للثاني بما ينسب إلى سيدنا عمر رضي الله عنه قال: كان فيما قرأنا من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم»، ولولا أن يقول الناس: زاد عمر في القرآن لكتبتها بجانب المصحف[(١)].

ونحن لا نحب أن نلتفت إلى هـذين القسمين أو النوعين؛ لأن الذي نخشاه أن يكون ولعهم بالتقسيم والتبويب، هو الذي شجعهم على اعتماد مثل هـذه الأقوال وذكرها في بطون الكتب، على ما فيها من مخالفة واضحة ونبوّ صريح عن نظم القرآن وأناقة أسلوبه المعجز.. ومخالفاتٍ أخرى لا مجال هنا للإشارة إليها، **وإن صح بعضها من طريق الآحاد، فإن القرآن الكريم لا يثبت بمثلها!** لأن الحال فيما نسخ لفظه ـ وكان قد عُلم واشتهر بطبيعة الحال ـ لو وجد، فلن يكون بأقل شأنًا

(١) وفي رواية عن أبي أمامة بن سهل أن خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم: «الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة»!! الإتقان للسيوطي، (٢/ ٧٠)، وفيه (٢ / ٧٤): أن عمر خطب الناس فقال: لا تشكّوا في الرجم فإنه حق، ولقد هممت أن أكتبه في المصحف.. إلخ الرواية. وانظر أيضًا حول هـذه الرواية، ص٧٣. وفي جميع الأحوال، فإن الحق والصواب مع العلماء الذين قالوا: لا يجوز نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، لأن الحكم تابع للتلاوة، فلا يجوز أن يرفع الأصل ويبقى التابع! قال الزركشي: «.. وقد يقال: لو كانت التلاوة باقية لبادر عمر ولم يعرّج على مقالة الناس، لأن مقالة الناس لا تصلح مانعًا.. قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «وغير جائز نسخ شيء من القرآن بعد وفاة النبي ﷺ. ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم؟!» السيوطي (٢/ ٧٣). قال: «وهـذا من كلام عمر رضي الله عنه في بعض الروايات».

قلت: وفي هـذا دلالة على عدم صحة العبارة السابقة، وأن نسبتها إلى عمر باطلة. والعجيب أن يعول على حكاية الشيخ والشيخة هـذه في أن القرآن نصّ على عقوبة الرجم! روى ابن بابويه القمّي بسنده ـ عن إسماعيل بن خالد قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق): في القرآن رجم؟ قال: نعم، قال: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة، فإنهما قد قضيا الشهوة» عِلل الشرائع لابن بابويه (الصدوق)، ص٥١٣، مؤسسة الأعلمي، ط٢، ١٤٢٨هـ، بيروت.

من القراءات التي هي معلومة من جهة التواتر، حتى «استجهل» العلماء من يرويها من طريق الآحاد، بل إن كل ما لم يكن في هـذا الباب متواترًا فهو شاذ لا يلتفت إليه!! ولْيصدِّق من شاء أن من القرآن الذي نسخ لفظه وبقي حكمه أو معناه ـ فيما انطوت عليه بعض كتب علوم القرآن ـ قول النبي ﷺ: «لو كان لابن آدمَ واديان من مال لتمنّى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابنِ آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب»[(١)] !! ولا ندري على أي حال في أي موضع من كتاب الله كانت توجد وتتلى تلك الآيات. والعجيب في الرواية المنسوبة إلى سيدنا عمر أنه أراد أن يكتب «آية» الشيخ والشيخة «بجانب المصحف»!![(٢)]. إن مثل هـذه النسبة إليه لا تصح، لأنه كان أحد أركان جمع المصحف في زمن أبي بكر رضي الله عنهما. ولو كان هـذا الكلام «آية»!! لوجد مكتوبًا **في الصحف**، ولدوِّن من ثم **في المصحف**.

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. (البخاري برقم ٦٤٣٦، ومسلم برقم ١٠٤٩).

(٢) قال الطبري: وكان فيما يتلى: «من رغب عن سنَّتك فليس من أمتك، وقد ضل سواء السبيل» المحرر الوجيز لابن عطية (٥ / ١٢). ونحن لا نتردد في رفض كل هـذه الروايات. ولا ندري معنى النسخ لهـذا «النص» إن كان معناه صحيحًا، بل معلومًا من الأحاديث الأخرى!

وروي عن أبي موسى الأشعري: أنهم كانوا يقرأون سورة في عهد رسول الله ﷺ في طول سورة براءة، وأنها نُسيت إلا آية منها، وهي: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»! وعنه في رواية أخرى قال: «كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبّحات ما نسيناها غير أني حفظت منها: (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة)»!

قلت: ومثل هـذا لا يلتفت إليه ولا يعوّل عليه، لا رواية ولا دراية، ـ وربما كانت هذه الرواية ونحوها، في ضوء قواعد نقد المتن عند المحدّثين، إلى التلفيق أقرب! ـ والله أعلم. انظر: الإتقان (٢/ ٧١).

ثالثًا: بين النسخ والبَدَاء:

هـذا النسخ المصطلح عليه، والواقع في تاريخ النزول، أو ضمن ما أسميناه: البعد الزماني للنزول، قد يشتبه فيه على بعض الناس أمرٌ مهم وهو: الظن بأنه قريب من البَداء ـ بفتح الباء ـ ومعناه تجدد العلم، أو «ظهور رأي محدَث لم يظهر قبل» أي أن الله سبحانه يأمر وينهى أولاً، ثم «يبدو» له في ذلك «رأي» آخر، فيبطل الأمر الأول!! فيُنسب الله تعالى ـ بذلك ـ إلى عدم العلم، أو إلى تغييرٍ طرأ على علمه!! «وهـذا شيء يلحق البشر لجهلهم بعواقب الأمور وعلم الغيوب، والله يتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. لأنه يعلم عواقب الأمور، ولا يغيب عنه شيء من علم الغيوب»[1] ويقرأ المرء ملامح هـذا البداء في السطور الأولى من التوراة ـ الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ـ في سفر التكوين: «.. ثم خلق الله النور، ورأى الله أن النور أحسن..» ولهـذا صح لعلمائنا ما قالوه من أن البداء من دين اليهود، هـذا على الرغم من أن اليهود ينكرون النسخ ـ فيما ذكر ـ لأنه يستلزم البداء!! ولا بَداء أشنع مما في كتبهم المحرفة، ولا بداء أشنع وأقبح مما جاء في تلمودهم من أن الله سبحانه لما سلّط بُختنصَّر على بني إسرائيل، فقتل منهم من قتل وشرّد من شرّد إلى بابل، ندم على ذلك، وشد شعره من الندم!.. وما أقبح وأجهل هـذا التجسيم والتشبيه ـ الذي قال علماؤنا كذلك: إنه من دين يهود، وحكموا بإكفار من يظن ربه جسمًا كالأجسام ـ والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه لمكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات، ص١١٢.

ولعلمائنا في التمييز بين النسخ والبَداء فروق كثيرة لا نعرض لها الآن، لأن موضعها الكتب المتخصصة، ولكننا ندفع هذه الشبهة في العلاقة بين الأمرين بالقول: إن معنى النسخ بالنسبة إلى الله عز وجل: **أن الله سبحانه كان يعلم أن هذا الحكم يكون باقيًا على المكلّفين إلى الوقت الفلاني ثم ينسخ. فلما جاء الوقت أرسل حُكمًا آخر ظهر منه الزيادة والنقصان، أو الرفع مطلقًا.**

قال الأصوليون: ففي الحقيقة هذا بيان انتهاء الحكم الأول، لكنْ لما لم يكن الوقت مذكورًا في الحكم الأول فعند ورود الثاني يتخيّل لقصور علمنا في الظاهر أنه تغيير. وبعبارة أخرى: النسخ **إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده، لا ظهور ذلك له!** على حد القول الشائع: (أمورٌ يُبديها ولا يَبتديها) سبحانه وتعالى. ولهذا عَرّف بعضهم النسخ شرعًا بأنه بيان لمدة الحكم المطلق الذي كان معلومًا عند الله، إلا أنه أطلقه فصار ظاهره البقاء في حق البشر، **فكان تبديلاً في حقنا، بيانًا محضًا في حق صاحب الشرع**[(١)]. أو بحسب تعريف العلاّمة ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) للنسخ، قال رحمه الله: «والنسخ رفع الحكم في الوقت الذي علم الله تعالى أنه يرتفع فيه، فلم يحصل إلا ما علمه» قال: «فلا ظهور بعد خفاء» وبهذا فرّق بين النسخ والبداء لأن البداء هو الظهور بعد الخفاء»[(٢)]

قلت: ومعنى ذلك أن مفهوم «النسخ» ـ والحالة هذه ـ مفهوم إنساني، أي إن ذلك بالنسبة إلينا لا بالنسبة إلى الله تعالى، لأن ذلك تابع لموضوع «الزمان»، ففي المدة الأولى وُجد حكم أو نزل حكم، ثم رفع بعد ذلك ووضع محله حكم آخر،

---

(١) المنار في أصول الفقه للإمام النسفي (توفي ٧١٠).

(٢) منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل: ص١٨١، المكتبة العصرية ـ لبنان: ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

ومعلوم أن الزمان مسألة إنسانية لا تنطبق على الله سبحانه وتعالى، لأن الزمان مقياس لحركة الأجسام، فإذا كان الله تعالى ليس بجسم، فكيف يجوز إخضاع علمه لحركة الأجسام التي هي من خلقه وتدبيرٌ من قضائه وعلمه سبحانه. بل الحق أن جميع الأزمنة بالنسبة إليه سواء.

ولهذا فإن حديث الأصوليين عن النسخ أو قولهم: إنه «تبديل» في حقنا نحن المكلفين، و«بيان» محضٌ في حق صاحب الشرع؛ كلام في غاية الدقة والوضوح. وقد وقع النسخ ـ أو هذا التبديل ـ «لطفًا من الله تعالى بعباده، وتخفيفًا عنهم، باعتبار مصالحهم التي تكفّل لهم بها» على حد قول الفقيه العلاّمة ابن خلدون[(١)].

وهذه المصالح كلها معلومة لله تعالى، لم يَخْفَ شيء منها عليه في أي وقت من الأوقات. وشتان بين النسخ القائم على الحكمة ورعاية المصلحة، والبداء المستلزم لسبق الجهل وطروء العلم![(٢)].

ولا تعلّق للقائلين بالبداء ـ وما أشنع مقالتهم والعياذ بالله ـ بقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] بل إنها على الضدّ مما ذهبوا إليه؛ لأن معناها أن الله تعالى يغيّر ما شاء من شرائعه وأحوال خلقه، على وفق علمه الذي لا يتبدل ولا يتغير، إنما التغير في المعلوم لا في العلم ـ أي في المعلوم الإنساني لا في العلم الإلهي ـ بدليل قوله تعالى في الآية: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: وعنده المرجع الثابت الذي لا محو فيه ولا إثبات، وإنما يقع المحو والإثبات على وفقه[(٣)] والله أعلم.

---

(١) المقدمة ص٤٠٥، طبعة دار الشعب.

(٢) راجع: مناهل العرفان للزرقاني، (٢ / ١٨٢).

(٣) مناهل العرفان، ص١٨٣.

رابعًا ـ نسخ الشرائع السابقة، لا نسخ آيات القرآن:

إن نسخ شريعة من قبلنا بشريعة نبينا محمد ﷺ، مفهوم ولا يحتاج إلى بيان؛ باعتبار اختصاص شرائع من قبلنا بأقوام معينين، وما انطوت عليه تلك الشرائع وقامت على أساسه ـ لذلك ـ من اعتبارات «قومية» وبيئية زمانية ومكانية، حتى كان شعار جميع الأنبياء السابقين: «يا قوم»، في الوقت الذي قامت فيه الرسالة الإسلامية على اعتبارات وأسس إنسانية تقرر معها عموم هـذه الرسالة وخلودها، حتى كان شعار نبينا محمد ﷺ: «يا أيها الناس»، ولهـذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

هـذا وقد تكفلت الآيات القرآنية الكريمة ببيان حكمة نسخ الشرائع السابقة، وذلك في ردها على الكفار من المشركين وأهل الكتاب الذي حملهم التعصب والجهالة على اعتبار هـذا النسخ دليل افتراء من النبي ﷺ!! بل إن الآيات التي وردت في موضوع تبديل آية بآية أو نسخ آية بأخرى.. جاءت في سياق الرد على المشركين وأهل الكتاب، واستنكارهم أن يُنزل الله تعالى شريعة تنسخ سائر الشرائع، وأن يوحي بكتاب ينسخ ما تقدم من الكتب. قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: ١٠٦]، وانظر الآية السابقة، وسائر الآيات السابقة واللاحقة.

هل معنى ذلك أنه لا نسخ في شريعة الإسلام أو في القرآن الكريم؟

لقد صحّ لمنكري وقوع النسخ في القرآن «إنكار» الاستشهاد بهـذه الآية على هـذا الوقوع، لأنها لم تأت في سياق الحديث عن القرآن، ولـكن عن اليهود وأهل الكتاب والمشركين. ويمكننا على هـذا الرأي الذي له ما يبرره، تفسير هـذه الآية

بأنه قد تمّ نسخ شرائع هـؤلاء انتقالاً إلى الخيرية أو إلى ما هو أعلى.. وصولاً إلى الشريعة الإنسانية التي لا نسخ فيها، أو التي لا تنسخها شريعة أخرى. ومعنى المثلية في الآية ـ على تفسيرنا هـذا ـ مثلية الصلاح لقوم آخرين. ولهـذا جاء في الآية كذلك قوله تعالى: ﴿نُنسِهَا﴾ حيث يتقادم العهد على تلك الشريعة حتى تُنسى[1]، ويبعث الله بشريعة مثلها إلى قوم آخرين في زمن آخر.

أما آيتا سورة النحل اللتين استشهدنا بهما قبل قليل، فإنه ينطبق عليهما ما ينطبق على هـذه الآية ـ آية سورة البقرة ـ **وفي وسعنا أن نسمي هاتين الآيتين بآيتي التبديل؛ إذ كانت آية البقرة تدعى آية النسخ**؛ علمًا بأن المعنى اللغوي والتعريف الشرعي للنسخ الذي جاء في أول هـذا الفصل يعني التبديل أو يساوي التبديل الذي جاء في آيتي سورة النحل. ومعنى الآية الأولى منهما (رقم ١٠١) أن الله تعالى إذا بدّل شريعة بأخرى، أي إذا أحل شريعة محمد ﷺ محل الشرائع السابقة، والله تعالى أعلم بما ينزّل من الشرائع والأحكام؛ بما يُصلح الناس ويَصْلُح لهم؛ قال المشركون ـ يا محمد ـ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي على الله تعالى، فيما تقوله إنه أوحي إليك أو نزل عليك من الشريعة والأحكام، أو من القرآن، قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾: وأعقبه تعالى في الآية التالية (١٠٢) بخطاب النبي ﷺ بأن يقول لهم: إن القرآن نزل به جبريل ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ نزّله من عند ربك بالحق الذي لا مرية فيه ولا افتراء! ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فلا يتزلزلوا أو يضطربوا أمام افتراء المفترين من أصحاب الديانات والشرائع السابقة على محمد ودينه وقرآنه! فشريعته ليست صورة محرفة أو مشوهة من شرائع الأنبياء السابقين أو

(١) قال ابن عباس: نُنسها: نتركها فلا نبدّلها! انظر: الإتقان للسيوطي، (١ / ٣١٥).

دياناتهم، بل هي ناسخة لهـذه الشرائع والأديان.. وهي هدىً وبشرى للمسلمين. والله تعالى أعلم.

ونعود هنا إلى آية سورة البقرة مرة أخرى، أو إلى آية النسخ، لنقول: ربما كان تفسير (الآية) في قوله تعالى: ﴿* مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ برهان النبوة أو الدليل عليها، والذي سمي بالمعجزة ـ وقد جاءت (الآية) بهـذا المعنى في مواطن عديدة في القرآن الكريم. وهو المعنى الذي يمكن أن يفهم منها أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ كما أشرنا قبل قليل.

ومعنى نسخ (الآيات) أو البراهين والمعجزات هـو مـا أشـار إليـه أصـحاب كتاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم، قالوا:

«والمعنى: ولقد طلبوا منك ـ يا محمد ـ أن تأتيهم بالمعجزات التي جاء بها موسى وأنبياء بني إسرائيل، وحسْبُنا أننا أيّدناك بالقرآن. وإننا إذا تركنا تأييد نبيٍّ متأخرٍ بمعجزةٍ كانت لنبي سابق، أو أنسينا الناس أثر هـذه المعجزة؛ فإننا نأتي على يديه بخير منها، أو مثلها في الدلالة على صدقه، فالله على كل شيء قدير»[1]. **قلت:** ولنعم هـذا التفسير.

هـذا، وسوف نتابع الحديث عن النسخ على فرض وقوعه في القـرآن الكـريم، خلافًا لهـذا الذي رجحناه أو ذهبنا إليه، وبخاصة أن جمهور العلماء يقول بوقوعـه في القرآن، بل إن الناسخ والمنسوخ أضحى جزءًا من الثقافة الإسلامية التراثية كما هو معلوم.

---

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، عند الآية المذكورة.

خامساً ـ التربية بالنسخ:

إن الذي يحتاج منا إلى وقفة هادئة هو موضوع نسخ بعض الأحكام في شريعة رسولنا خاتم النبيين محمد ﷺ في فترة نزول القرآن السابقة، خصوصًا ونحن ما نزال نتلو هذه الآيات المنسوخة.. إلى جانب أننا مطالبون بعد عصر التنزيل بالأحكام النهائية التي آلت إليها الشريعة وثبتت عليها بانتهاء الوحي ووفاة النبي ﷺ، فوق ما هو مقرر ومعلوم بالبداهة عند جميع المسلمين من امتناع وقوع النسخ بعد انقطاع الوحي.

لقد تمّ النسخ، كما أشرنا، في ظل مبدأ **تنجيم القرآن الكريم**، أي: نزوله مفرقًا على نجوم ودفعات ومراحل مختلفة، بلغت في مجموعها نحوًا من ثلاثة وعشرين عامًا. وكان لهذا التنجيم فوائده الكثيرة المعروفة والتي أشرنا إليها فيما سبق. ولكن الفائدة الكبيرة لهذا التنجيم تكمن في أنه كان هو الوسيلة الربانية لإعداد **الفرد المسلم والأمة المسلمة**.. بوصف هذه الأمة قد «أخرجت للناس» من خلال «نصوص كتاب». فإذا كان القرآن الكريم هو الذي صنعها وأخرجها للناس خير أمة فقد تنزلت آياته الكريمة على مراحل وأوقات وفي مناسبات وأحوال لإحكام بناء هذه الأمة الخير، أو الأمة الوسط لَبِنةً لبنة، وموقفًا في إثر موقف، على اختلاف الظروف والأحوال. ويختص الجيل القرآني الأول ـ أو جيل التنزيل إن صح التعبير ـ فوق ذلك بأنه الجيل الأول في تاريخ هذه الأمة الأخيرة الذي عَبَرَ به القرآن الكريم من أوضاع الجاهلية إلى أحكام الإسلام، وانتقل به من جميع ملابسات الشرك إلى كافة آفاق التوحيد.. حتى حقق به القرآن الكريم ذلك «الجيل النموذج» أو «الجيل المثال» الذي يُحْتذى إلى يوم الدين.

هذا الجيل القرآني الفريد الذي ليس له نظير في تاريخ الإسلام، وفي تاريخ

بني الإنسان، كان النسخ بالنسبة إليه واحدًا من أهم وسائل التربية والإعداد.. في بناء شخصياته على الصعيد الفردي.. وفي مواجهته على الصعيد الجماعي ـ كأمة ومجتمع ـ مع الجاهلية العربية وسائر المجتمعات والأمم والشعوب، بل قد يمكن القول: إن النسخ كان ضرورة لازمة لنقل أبناء عصر التنزيل من الجاهلية إلى الإسلام، بدليل أنه جاء مرة نسخًا مباشرًا، وجاء مرة أخرى على مراحل.. إذا قلنا إن التدرج في تشريع بعض الأحكام ـ كتحريم الربا والخمر ـ داخل في النسخ. ولكن الذي يهمنا تأكيده هنا هو أن النسخ الذي عمل عمله في إعداد ذلك الجيل الفريد لا معنى لاستمراره، بل لا يمكن له أن يوجد بعد ذلك العصر. إننا نحن نتربى الآن بالاقتداء والتأسي بذلك الجيل.. لا بالنسخ الذي ساهم في تربيته وإعداده هو!! فالتربية بالنسخ ـ إن صح الشعار أو التعبير ـ بالنسبة لجيل التنزيل يقابله بالنسبة لسائر الأجيال الأخرى بعده: التربية بالقدوة أو بالاحتذاء بذلك الجيل النموذج أو المثال. وقد نجح جيل الصحابة رضي الله عنهم في تقديم أرفع النماذج الإنسانية في كل مجال، أما رسول الله ﷺ الذي قدمت لنا سيرته الشريفة أهم وسائل ذلك الإعداد التاريخي، وألقت ضوءًا بارزًا على فهم مراحله، فقد تجمّع في شخصه الكريم كل تلك الصفات والمجالات الرفيعة، وبلغ في كل واحد منها شأوًا لم يبلغه أحد ممن فرغ له نفسه، سواء أكان من الصحابة أم من غيرهم، فكان بذلك رسول الإنسانية الكامل، وملاذها الأخير ﷺ.

كان تشريع النسخ إذن جزءًا من ذلك «الإعداد التاريخي» المرحلي أو وسيلة من وسائله البارزة. وبعد أن تمّ هذا الإعداد الذي قدم لنا النموذج أو المثال الأخير ـ كما قلنا ـ أصبحت الأمة الإسلامية مطالبة بالأحكام الأخيرة في البناء والإعداد، وأصبح النسخ «واقعة تاريخية» لا يمكن ـ ولا يعقل ـ تكرارها مرة

أخرى بعد قيام الجيل الأول، وبعد أن تمت عملية الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام بصورة تطبيقية عملية أعطت أروعَ الأمثلة على أن أحكام الإسلام ليست رؤيا مثالية في عالم الخيال، ولكنها حقيقة حية في دنيا الواقع، وبذلك البعد الذي ليس له نظير.. حتى كان مثلاً يُحتذى.

سادسًا ـ الاعتبار الخاص لجيل التنزيل:

وقد يقال: ما معنى هذا الاعتبار الخاص للجيل الأول؟ علمًا بأن انحدار الناس في أسباب الحياة الجاهلية ممكن أو واقع في كل عصر، فلم لا يعبرون هذه الجاهلية ـ مرة أخرى ـ بمثل تلك المراحل؟!.

والجواب عن ذلك: أن امتياز الجيل الأول عن سائر الأجيال نابع من أنه الجيل الوحيد في التاريخ الذي لم يعرف الفرق بين ما نسميه اليوم في مصطلحاتنا السياسية أو الثقافية: «النظرية والتطبيق».. فإذا كان القرآن الكريم المتلو هو الذي يقابل في فلسفات الأمم وعقائدها ـ بل في كتبها السماوية السابقة ـ ما نسميه النظرية أو الكتاب، وكان أبناء جيل التنزيل ـ كما نعلم ـ قد تعلّموا العلم والعمل جميعًا.. كان من السهل علينا أن نفهم ما لهم من «امتياز» أو اعتبار خاص في ذلك الكتاب الكريم.. ولم يكن النسخ إلا بابًا واحدًا من أبواب ذلك الاعتبار الذي ليس عليه غبار!

ولا أتحدث هنا عن الآيات التي نزلت في ذلك الجيل أو الرعيل، أو في بعض أفراده ـ كنحو قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾

[الفتح: ١٨]، وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [(١)] [الليل: ١٧ ـ ١٨]، وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [(٢)] [الإنسان: ٨] إلخ، والآيات كثيرة في هـذا الباب ـ ولـكن أكتفي بربط ذلك الاعتبار الخاص و(المؤكد) بمسألة الانتقال بذلك الجيل المثالي من الجاهلية، أو من تلك الجاهلية إلى الإسلام لنؤكد على الاعتبار الخاص أو الأخير لبعض أوضاع تلك الجاهلية المتمثل في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [(٣)] [النساء: ٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾، قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]: أي من الكتابيات اللاتي كنّ قبل البعثة، فلم يبح الزواج من الكتابيات في جميع العصور. ولا أدخل هنا في مناقشة أو دفاع عن هـذا التفسير الذي أراد صاحبه أن يميز بين إيمان الكتابية الذي كان له اعتبار ما قبل بعثة النبي ﷺ وبين ذلك الإيمان المبتدأ أو الحادث بعد نزول القرآن، ولـكن أقول باختصار: إذا كان أبناء جيل التنزيل قد تعلّموا العلم والعمل جميعًا، أو تعلموا القرآن الكريم: علمه وعمله في آنٍ معًا، وكان عملهم وتعاملهم في وسطٍ له اعتباراته الخاصة التي لن تتكرر، وهو وسط «أهل الفترة» ـ كما يُدعون ـ فكيف لا نتصور إمكانية انفراد ذلك الجيل ببعض الأحكام.. فضلاً عن اختصاصهم بمسألة

---

(١) نزلت هـذه الآيات ـ حتى آخر السورة ـ في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر فتح القدير للشوكاني، (٥/ ٤٥٥).

(٢) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هـذه الآية في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. المصدر السابق (٥ / ٣٤٩).

(٣) انظر الآيتين: ٢٢، ٢٣ من سورة النساء، وراجع كتب التفسير.

النسخ الذي هو مجرد انتقال في نهاية المطاف؟! وكيف يمكن أن نتصور من طرف آخر بعد أن تمّ هـذا الانتقال، أن يعاد اعتبار الحكم المنسوخ مرة أخرى، أو أن يعاد هـذا الحكم في عملية انتقال أخرى ذهبت كل ظروفها وملابساتها من الاعتبار، ومن حكم الشريعة والتاريخ؟!

هل نتجاوز هنا حدود المصطلحات الشرعية لنقرب المسألة من بعض الأفهام فنقول: إن مسألة النسخ هي من قبيل ما نسميه اليوم بالأحكام الانتقالية.. وأن هـذه الأحكام جاءت في مرحلة انتقال المجتمع الإنساني ورحلته الراسخة المكينة من الجاهلية إلى الإسلام. وغني عن البيان أن الأحكام الانتقالية استثناء موقوت، وليست حالة أصيلة ثابتة مستمرة! قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا هجرة بعد الفتح ولـكنْ جهادٌ ونيّة**»[(١)].

(١) من أوضح الدلائل في هـذا الباب قول النبي ﷺ في شأن مكة: «إن مكة حرَّمها الله ولم يحرِّمها الناس، فلا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يَخْضِد بها شجرة، فإن أحد ترخَّص لقتالِ رسول الله ﷺ ـ أي: أراد أحد أن يستنَّ برسول الله في ذلك فيقاتل بها كما قاتل عليه الصلاة والسلام ـ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم، وإنما أَذِن لي ساعةً من نهار، وقد عادت حرمتُها اليوم كحُرمتها بالأمس، وليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ» أخرجه البخاري. ومكة هي مهد الدعوة، وفيها تربت الجماعة الإسلامية الأولى، وفيها الكعبة البيت العتيق الذي يتوجه إليه جميع المسلمين بالصلاة إلى يوم الدين.

سابعًا ـ أسباب هـذا الاعتبار: تعقيب وتأكيد:

وقبل أن نصل إلى النقطة الأخيرة في **هـذه المقالة** نود أن نعقب على هـذا الاعتبار الخاص لجيل التنزيل، ونؤكده، لأن مبنَى هـذا الفصل ـ **في التمييز بين التربية بالنسخ والتربية بالقدوة** ـ مبني عليه وقائم على أساسه، ونذكر أولاً أن هـذا الاعتبار لذلك الجيل المثالي لا حيف فيه قيد أنملة على مسألة البعد التاريخي للقرآن الكريم ـ وقد أفردناها ببحث خاص[(١)] ـ وأنه كتاب الله الخالد إلى يوم الدين، وأنه لذلك خارجٌ من ملابسات الزمان والمكان. والفرق بين الموضوعين أو المسألتين فيما نقدر شديد الوضوح، لأن من المعلوم أن سبب النزول قد يعين على فهم أفضل للنص القرآني، وذلك من خلال معرفة الملابسات التي نزلت فيها بعض الآيات، ولا يقصد منه الانغلاق في إطار الزمان والبيئة المكانية التي نزلت فيها، ومن هنا جاءت القاعدة الأصولية المعروفة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[(٢)].

لا حاجة بنا إذن إلى تأكيد أن هـذا الاعتبار لجيل التنزيل لا يمكن أن يفهم منه أن القرآن الكريم خاص بهم أو أنه نزل لهم! ولـكن الذي يمكن ذكره هنـا هـو: أن باب النسخ من حقه أن يذكّرنا ويثير في أذهاننا ذلك الاعتبار الـذي تمتـع بـه جيـل التنزيل، وأن يذكرنا كذلك بأهمية بيئتهم الزمانية والمكانية جميعًا! وذلك حتى يبقى دور ذلك الجيل النموذج حيًا وماثلاً في عقـول المسـلمين وفي نفوسـهم إلى يـوم

(١) انظر: بحث «البعد الزماني لنزول القرآن».

(٢) راجع فيما سبق فصل أسباب النزول.

الدين! أليس في الأركان التي بُني عليها الإسلام ما يشير ـ من بعض وجوهه على الأقل ـ إلى تلك العلاقة بالجيل الأول، وخصوصًا إذا ذكرنا مع حياة الصحابة الكرام سيرة نبينا العظيم التي توّجت تلك الحقبة النادرة، وكانت أهم وسائل ذلك الإعداد التاريخي كما قدمنا. فهذه الصحراء ترحل إلينا ـ بملابسات الصبر والشظف ـ مرة كل عام في شهر رمضان، وعلى اختلاف الأمكنة والأزمان. فإذا لم يكن في وسع أمة الدعوة والتحرير وإخراج الناس من الظلمات إلى النور أن تنشأ جميعًا في الصحراء كما نشأ الجيل الأول.. فهذه الصحراء تُحمل إليها في كل عام! علّنا ندرك معنى الذهاب إلى حراء، ومعنى الخروج إلى الطائف، ومعنى يوم بدر، ومعنى غزوة تبوك، ومعنى مؤتة وذات الرقاع!!.. إلخ. وهذا ركن الحج يحملنا إلى تلك البيئة المكانية التي شهدت مهد الدعوة وحياة الدعاة الأوائل رضي الله عنهم ورضوا عنه.. مرة واحدة في العمر على الأقل، حتى يستعيد كل مسلم ومسلمة ـ إلى يوم الدين ـ فترة التنزيل تلك بكل ملابساتها المكانية وذكرياتها التاريخية حتى ترتد في نفسه كأنها واقع يحياه لا تاريخ يقرؤه!! حتى كان الطواف حول الكعبة حركة استرجاعية على عكس عقارب الساعة! وحتى كان الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وحتى يرجع الحاج الذي لم يرفث ولم يفسق كيوم ولدته أمه، أي كأنه صار على عتبة أولئك الرجال الذين رضي الله عنهم، أو الذين قال النبي في شأنهم وشأن من شهد منهم بدرًا ما قال.. إلخ.

فماذا في تشريع النسخ بعد ذلك وهو لا يعدو ـ فوق كل ما أوضحناه ـ أن يكون رعاية زمانية خاصة لذلك الجيل النموذجي المثالي الأول؟!

ثامناً ـ متى لا يكون المتأخر ناسخًا للمتقدم (بين أحكام الفرد وأحكام الأمة والدولة):

وأخيرًا، ومن خلال هـذه النظـرة إلى **فلسـفة النسـخ ودوره التربـوي**، والتـي تنسحب كذلك كما سنرى على التدرج في التشريع، بغـض النظـر عـن التسـميات والمصطلحات ـ نستطيع القول بأن ما كان متصلاً بأحكام العلاقـة بـين المجتمـع الإسلامي والمجتمعات الإنسانية الأخرى، التـي هـي المجـال الطبيعـي للتبليـغ والدعوة إلى دين الله عز وجل: لا يعدّ النص القرآني المتأخر ناسـخًا للمتقـدم؛ لأن هـذا لا علاقة له بتكوين النموذج الذي يُحتذى عبر القرون، ولـكنّ علاقته بقـدرة الأمة الإسلامية على النهوض بأعباء التبليغ عن طريق الجهاد إذا لزم الأمر، وذلك يتعلق بظروفها وأوضاعها هي، وأوضاع هـذه الأمم والمجتمعات في وقت واحد، أو على حدٍّ سواء.

ولهـذا لم يكن من صواب الرأي ـ فيما نرى ـ أن يقال: إن آية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وآية القتال وهي قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩] قد نسختا جميع آيات المصابرة المكية، قال ابن حزم: آيات الإعراض عن المشركين التي نسختها هاتان الآيتان أربع عشرة ومئة آية!!

وقد أشرنا في الهامش قبل قليل إلى أن بعض العلماء قال: إن آية السيف ـ كما دُعيت ـ نُسخ بها وحدها هـذا العدد الذي ذكره ابن حزم (١١٤ آية) أما آية القتال فقد نسخت ـ وحدها ـ ثمانية مواضع في سبع سور! والعجيب ـ في هـذا السياق ـ

أن يذهب بعض العلماء إلى أن آية السيف التي نسخت هـذا العدد الكبير من الآيات نسخ الله تعالى بعض حكمها! قال ابن البارزي: «ثم نسخ الله بعض حكم آية السيف بقوله تعالى ـ في الآية التي تليها: التوبة ٦ ـ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ بل نسخ أيضًا عمومها في آخرها، بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[1] تتمة الآية: ٥.

ولنا أن نعجب من هـذا الذي لا يتفق حتى مع تعريف النسخ عندهم! أو عنـد جمهورهم! فضلاً عن غرابته وبعده عن فلسفة التشريع.

ونحن لا ندفع هـذه الأقوال المتداولة في كتب التفسير والأصول بما فيها مـن غلوّ وتجاوز، بل بما أشرنا إليه قبل قليل من خروج هـذه المسألة من نطاق النسخ من الأصل. وإذا كان هـذا قد فهم على أنه نسخ في الماضي على وجه العموم، أو في عصر التنزيل على وجه الخصوص ـ بمعنـى أنهـم لا يجـوز لهـم الرجـوع فيـه إلى الحكم السابق ـ فما ذاك إلا لأن جيل التنزيل، كما قـدمنا، كـان ينتقـل عمليًـا مـع نزول الآيات من مرحلة إلى أخرى، وكما هو معلوم من تاريخ الأمـة الإسـلامية في المدينة المنورة، أو تاريخ دولة المدينـة وعلاقاتهـا مـع المجتمـع العربـي وسـائر المجتمعات في ذلك الحين.

فإن قيل: هـذا ينطبق على ما قدمناه في السابق كذلك، فلماذا هـذا التفريق؟

قلنا: النموذج الفرد، أو ما نسمّيه **بأمّة الدعوة** لا تنقطع إلى يوم الدين، «لا تزال

---

(١) رسالة ابن البارزي: ناسخ القرآن ومنسوخه: ص ٤ من الرسالة (ص ١٧٧ من كتاب: نصوص محققة) مرجع سابق.

طائفة من أمتي ظاهرين على الحق..»، أما **أمّة الدولة** فربما انقطعت في بعض مراحل التاريخ.. فلو بقي على ظهر الأرض مسلم واحد، فهو مخاطب بالأحكام الفردية النهائية من وجه، كما أنه يمثل أمة الدعوة من وجه آخر، كما وصف الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة ولم يكن على وجه الأرض رجل مسلم غيره[(١)].

أما أحكام المواجهة والجهاد فلها شأن آخر؛ قال الإمام الزركشي رحمه الله: «وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين، في الآيات الآمرة بالتخفيف: أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك. بل هي من المُنْسَأ ـ بضم الميم ـ بمعنى: أن كل أمرٍ ورد، يجب امتثاله في وقتٍ ما، لعلةٍ توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلّة إلى حكم آخر، وليس بنسخ. إنما النسخ الإزالة ـ أي للحكم ـ حتى لا يجوز امتثاله أبدًا». قال: «ومن هذا: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] كان ذلك في ابتداء الأمر، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقاتلة عليه. ثم لو فرض وقوع الضعف، كما أخبر النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ**» عاد الحكم.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]، وروى الشيخان أن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم قال لامرأته سارة ـ وقد قدم أرض جبار ـ: إن هذا الجبار إن يعلم أنكِ امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك أخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك...» علمًا بأن وجود واستمرار الحياة في «مجتمع إسلامي» أيًا كانت سعته، أو التزام أبنائه بكل أحكام الشريعة لم ينقطع، ولن ينقطع كذلك، ولعل في إشارة النبي ﷺ إلى بقاء مكة دارًا للإسلام في الحديث السابق ما يشير إلى ذلك. والله أعلم.

وأخيرًا، قال الزركشي: «ويعود هـذان الحكمان؛ أعني المسالمة عند الضعف، والمسايفة عند القوّة، بِعَوْد سببهما، وليس حكم المسايفة ناسخًا لحكم المسالمة، بل كلٌّ منهما يجب امتثاله في وقته»[1] والله تعالى أعلم.

قلت: وفي ضوء ما قلناه أو أشرنا إليه قبل قليل من أن المجتمعات الإنسانية الأخرى هي مجال التبليغ والدعوة إلى الإسلام، وأن الوسيلة الأم أو الأساس لهـذا التبليغ هي (الكلمة) بمختلف أوصافها أو درجاتها، أي: وليس (السيف) الذي تحدث عنه الزركشي رحمه الله ـ قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] ـ فإن المسايفة هـذه إنما تعني وجوب النهوض للقتال ورد العدوان، حين يمتلك المسلمون القدرة على ذلك، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩] وقد شهد التاريخ أن المسلمين حين يصيبهم الركود أو الفتور والانحطاط؛ أن المكر بهم والكيد لهم، والعمل على إبقائهم في دائرة (الاستضعاف) لا ينقطع، والله تعالى المستعان.

❁❁❁

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، (٢ / ٤٩ ـ ٥٠).

المحتويات

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة ٣
مقدمة الطبعة العاشرة ٩
مقدمة الطبعة الحادية عشرة ١٥
مقدمة الطبعة الثانية عشرة ٢١

الجزء الأول

مدخل وتاريخ

*الباب الأول: القرآن الكريم واللغة العربية ٢٧
الفصل الأول: لغة القرآن الكريم ٣١
أولاً ـ اللسان العربي: ٣١
ثانيًا ـ العرب والقرآن: ٤٠
خلاصة وتعقيب: ٤٨
الفصل الثاني: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ٥٣
أولاً ـ أثره من الوجهة التاريخية: ٥٣
أ ـ القوة الدافعة: ٥٣
حول تخلف حركة انتشار العربية عن انتشار الإسلام: ٥٦
القرآن هو القوة الدافعة وليست السلطة الحاكمة! ٥٨
ب ـ القوة الواقية: ٦٠
القرآن الكريم وفشل الدعوة إلى العاميّة: ٦٢
ثانيًا ـ الأثر الموضوعي للقرآن في اللغة العربية: ٦٤
الفصل الثالث: أثر القرآن الكريم في الحضارة والثقافة الإسلامية ٧٣
*الباب الثاني: قطعية النص القرآني وتاريخ توثيقه ٧٩

الفصل الأول: القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة ٨٣
أولاً ـ تعريف القرآن والفرق بينه وبين الحديث: ٨٣
ثانيًا ـ مقارنة سريعة مع هـذه الكتب السماوية: ٩٠
أهل الكتاب وهيمنة القرآن: ٩٠
١ ـ أقسام العهد القديم: ٩٣
٢ ـ ملاحظات على العهد القديم: ٩٤
٣ ـ أقسام العهد الجديد: ٩٦
٤ ـ ملاحظات على العهد الجديد: ٩٩
ثالثًا ـ أسماء أخرى للقرآن، ولون آخر من ألوان الحفظ: ١٠١
الفصل الثاني: الوحي أو مصدر القرآن الكريم ١٠٧
أولاً ـ ظاهرة الوحي: ١٠٨
أ ـ مقدمة عن عالم الغيب: ١٠٨
ب ـ معنى الوحي وصوره: ١١٠
ثانيًا ـ مع المتخرصين في تفسير ظاهرة الوحي: ١١٥
حديث بدء الوحي: ١١٧
ثالثًا: صدق ظاهرة الوحي: ١١٩
الجانب الأول: أحوال النبي مع هـذه الظاهرة: ١١٩
الجانب الثاني: طبيعة الموضوعات القرآنية ورحابتها: ١٢٤
يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله: ١٢٤
الفصل الثالث: نزول القرآن والحكمة من تنجيمه ١٣١
أولاً ـ الوحي والتنزيل: ١٣١
ثانيًا ـ مدة نزول القرآن، وأول ما نزل منه، وآخر ما نزل: ١٣٤
ثالثًا ـ الحكمة من تنجيم القرآن: ١٤٠

رابعًا ـ حكم أخرى للتنجيم: إضافة وتعليق: ١٥١
أ ـ توثيق وقائع السيرة النبوية والدلالة على أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين: . ١٥١
ب ـ تصويب حركة التطبيق والتنفيذ: ١٥٣
بين الوحي والواقع: ١٥٤
الفصل الرابع: جمع القرآن وتدوينه ١٦٣
تمهيد ١٦٣
أولاً ـ حفظ القرآن وكتابته في عهد النبي ﷺ: ١٦٥
أ ـ الحفظ والجمع في الصدور: ١٦٥
١ ـ رسول الله ﷺ أول من حفظ القرآن: ١٦٦
٢ ـ الصحابة الحفاظ: ١٦٨
ب ـ الكتابة والتدوين: ١٧٠
النهي عن كتابة غير القرآن: ١٧٢
ثانيًا ـ جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه عام ١٢هـ ـ ٦٣٣م: **١٧٤**
الكتابة ليست شرطًا في التواتر: ١٧٩
ثالثًا ـ نسخ المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه عام ٢٦هـ ـ ٦٤٦م: .. **١٨١**
بين عمل أبي بكر وعمل عثمان رضي الله عنهما: ١٨٧
رابعًا ـ قاعدة عثمان في الجمع (النسخ) ومزايا المصاحف العثمانية: ١٨٨
خامسًا ـ حرق الصحف والمصاحف الأخرى (شبهات وردّ): ١٩٤
نقض مزاعم التحريف: ١٩٨
علي يؤيد عمل عثمان رضي الله عنهما: ٢٠٧
القول بالتحريف طعن بعليّ: ٢٠٨
مصحف عثمان وعليّ: ٢١٠

سادسًا ـ رسم المصحف أو الرسم العثماني: ٢١٣
سابعًا ـ شكل المصحف ونقطه وتحزيبه: ٢١٨
(المصاحف في طور التحسين والتجويد): ٢١٨
الفصل الخامس: الآيات والسور وترتيبهما ٢٢٧
أولاً ـ التسميات وطريقة القراءة: ٢٢٧
ثانيًا ـ تعريف الآية والسورة: ٢٢٨
ثالثًا ـ عدد السور وأسماؤها واختلاف مقاديرها: ٢٣٠
رابعًا ـ ترتيب الآيات: ٢٣٣
خامسًا ـ ترتيب السور: ٢٤٠
سادسًا ـ حكم مخالفة ترتيب المصحف: ٢٤٤
سابعًا ـ مناسبة الآيات والسور: ٢٤٧
الفصل السادس:الأحرف السَّبْعَة ٢٥٥
تمهيد: ٢٥٥
أولاً ـ بعض الآثار الواردة في نزول القرآن على سبعة أحرف: ٢٥٦
ثانيًا ـ حول دلالة هـذه الآثار: ٢٥٧
حكم قراءة القرآن بالمعنى: ٢٥٩
ثالثًا ـ ما هي هـذه الأحرف السبعة؟ ٢٦٥
أ ـ اختلاف الحركات ٢٧٠
ب ـ اختلاف (أو تغيير) الحروف ٢٧١
رابعًا ـ الأحرف السبعة بين الرخصة والعزيمة: ٢٧٥
خامسًا ـ من دلالة هـذه الأحرف: ٢٧٨
*الباب الثالث: علوم القرآن ٢٨١
تمهيد ـ حول مُصْطلح «علوم القُرآن» ٢٨٣

الفصل الأول: أسباب النزول ٢٩١
مقدمة وتمهيد ٢٩١
أولاً ـ تعريف سبب النزول: ٢٩٣
ثانيًا ـ فوائد معرفته: ٢٩٥
ثالثًا ـ طريق معرفة سبب النزول: ٣٠١
رابعًا ـ أسباب النزول والواقع وعموم القرآن: ٣٠٣
خامسًا ـ أسباب النزول: نقد وتعقيب: ٣٠٧
الفصل الثاني: المَكيّ والمَدَنيّ ٣١٥
أولاً ـ الأساس المعتمد في التفريق بين المكي والمدني: ٣١٦
ثانيًا ـ ضوابط المكي والمدني: ٣١٨
فروق موضوعية أو أسلوبية: ٣١٩
أ ـ الفروق بين المكي والمدني من ناحية الموضوع: ٣١٩
ب ـ الفروق الأسلوبية والبيانية: ٣٢٢
ثالثًا ـ شبهات حول هـذه الفروق: ٣٢٣
الفصل الثالث: فواتِح السّوَر ٣٣٣
أولاً ـ أنواع استفتاح السور القرآنية: ٣٣٣
ثانيًا ـ صيغ الاستفتاح بالحروف المقطعة: ٣٣٧
ثالثًا ـ أشهر ما قيل في تفسير هـذه الحروف: ٣٣٩
رابعًا ـ خاتمة وتعقيب: ٣٥٥
الفصل الرابع: المُحكَم والمُتَشَابِه ٣٥٩
تمهيد: الإحكام والتشابه ٣٥٩
أولاً ـ المتشابه اللفظي: ٣٦٢

شواهد وتطبيقات: ٣٦٦
مصادر البحث في المتشابه اللفظي ٣٧١
ثانيًا ـ متشابه المعنى والدلالة: **٣٧٢**
١ ـ المتشابه لغة: ٣٧٢
٢ ـ المتشابه في الاصطلاح (أو في الاستعمال القرآني): ٣٧٤
٣ ـ ابن تيمية وتأويله المتشابه: ٣٧٨
٤ ـ المناقشة والرد: (شروط تعريف المتشابه): ٣٨٠
٥ ـ الراسخون في العلم وتأويل المتشابه: ٣٨٤
٦ ـ المتشابه من سمات الكلام الإلـهي: ٣٨٦
٧ ـ المتشابه وتقسيم آيات القرآن الكريم: ٣٨٩
٨ ـ حكمة ورود المتشابه: ٣٩١
٩ ـ المتشابه وآيات الصفات: ٣٩٤
أ ـ مذهب السلف: ٣٩٥
ب ـ مذهب المتكلمين: ٣٩٧
ج ـ رأْيُنا في الموضوع: نقدٌ وترجيح: ٣٩٨
١٠ ـ لماذا هـذا الشطر أو التفريق بين آيات الصفات: ٣٩٩
١١ ـ التنزيه وأساليب التعبير: ٤١١
١٢ ـ تأويل بعض الآيات: ٤١٤
الفصل الخامس: القراءات القرآنية ٤١٩
أولاً ـ نشأة علم القراءات: ٤١٩
جولدتسيهر وتعدد وجوه القراءة (أو: ونشأة علم القراءات): ٤٢٢
ثانيًا ـ تعريف القراءات وأعدادها: ٤٢٦
القراءات السبع ٤٢٩

القراءات العشر: ٤٣٠
رواة القراء العشرة ٤٣١
تاريخ علم القراءات: ٤٣٣
بين القراءات السبع والأحرف السبعة: ٤٣٤
ثالثًا ـ ضابط قبول القراءات القرآنية: ٤٣٦
رابعًا ـ القراءات الشاذة: ٤٤٤
حكم القراءة الشاذة: ٤٤٨
خامسًا ـ مكانة علم القراءات: ٤٤٩
القراءات والقضايا الصوتية واللغوية: ٤٥٢
الفصل السادس: الناسخ والمنْسُوخ ٤٥٧
أولاً ـ تعريف النسخ: ٤٥٧
ثانيًا ـ النسخ بين منكريه ومثبتيه: ٤٦٠
أقسام أخرى للنسخ عند العلماء: ٤٦٢
ثالثًا: بين النسخ والبَدَاء: ٤٦٥
رابعًا ـ نسخ الشرائع السابقة، لا نسخ آيات القرآن: ٤٦٨
خامسًا ـ التربية بالنسخ: ٤٧١
سادسًا ـ الاعتبار الخاص لجيل التنزيل: ٤٧٣
سابعًا ـ أسباب هـذا الاعتبار: تعقيب وتأكيد: ٤٧٦
ثامنًا ـ متى لا يكون المتأخر ناسخًا للمتقدم (بين أحكام الفرد وأحكام الأمة والدولة): ٤٧٨